ثم إنّ الذي ينظر إلى عظمة أمريكا المادية وإلى عظمة هيمنتها على عالم اليوم، وينظر بمنظار مادّي محض، يظنّ أنّ أسلوب التفكير المادي المحض الذي انتهجته شعوب أوربة وأمريكا هو الأسلوب الأمثل لتقدّم الإنسان ورقيه، على حين أنّ تلك الشّعوب انغمست من جرّاء هذا الأسلوب في التفكير وهذا التقدم المادي الذي أحرزوه، أقول: إن شعوبهم انغمست في بلبال الحياة الدّنيا والاستسلام للرغبات والميول والشهوات الجنسية وإلى درجة تناست معها أنّ خالقها اقتضت مشيئته أن يحقّق على أيديهم مايساعد إمام هذا الزّمان على تيسير نشر تعاليم الإسلام ورفع راية توحيد الله في المستقبل القريب كما تبيّن لنا من الآيات الآواخر من سورة الكهف، وهو الأمر الذي تضمنه تفسيري لها في مؤلف " في ظلال دلالات سورة الكهف" .

أي أنّ الذي يتدبّر حال أمريكا المعاصرة وبأسلوب التفكير الروحاني يصل إلى نتيجة هامة وهي أنّ مشيئة الله الخالق اقتضت في عصرنا أن يحقق على أيديها أشياء وأشياء. وستثبت الأعوام القادمة صحّة هذه النتيجة الهامّة التي توصّل إليها من يتدبّر ويفكّر بأسلوب تفكير روحاني.

وهكذا يتبين لنا أنّ ذريعة الذّكر الإلهي بأشكاله العديدة لاتفي المؤمن السالك ولاتكفيه لبلوغ مرحلة اليقين بوجود ربّه ومعرفته وكسب محبته وقربه ورضاه. بل لابدّ له من الأخذ بذريعة الفكر، والتفكير بأسلوب روحاني. وإشارة إلى هذه الحقيقة خاطب الله تعالى المؤمنين في سورة المائدة وقال : ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكفّ أيديهم عنكم، واتّقوا الله، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾.

وكأنه جلّ شأنه قد قال للمؤمنين السالكين درب عرفانه ألاّ يكتفوا بذريعة تذكّر نعمة الله عليهم. بل من واجبهم الانتقال منها إلى ذريعة الفكر التي تشدّهم أكثر من ذريعة الذّكر إلى التعرّف على خالقهم والفوز بمحبّته. وتجزئة عملية هذه النعمة التي أنعمها الله عليكم إلى مكوّناتها ودواعيها. فقد جمع عدوّكم يومها كلّ مالديه من قوّة وعتاد وهدفه من ذلك مهاجمتكم والقضاء عليكم لإثبات صدق معتقده وكذب معتقداتكم. فلو أنّ الله ترك هذا العدّو يفلح فيما خطّط له وسعى إليه. لانقلبت الموازين ولانقلب الحقّ باطلاً. وقد تدخل ربكّم في الوقت المناسب وكّف أيدي أعداءكم عنكم وفشّل مخطّطه

الجهنّميّ. فإن تمّ تجاوز مرحلة الذكر إلى مرحلة الفكر هذه وفكّرتم جيداً بالأوجه والأسباب التي استدعت نزول هذه النعمة الإلهية فستزدادون معرفة بربكّم وبما يتّصف به من جلال وجمال. وتنشدّ أنفسكم إلى طلب محبته أكثر فأكثر وتنالون بذلك قربه ورضاه.

وهو جل شأنه عندما أضاف قوله تعالى هنا ﴿**واتّقوا الله**﴾ نبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه إلى أنّه جل شأنه لايقلل بذلك في أعينهم من منزلة ذريعة الذّكر، بل يؤكد على ضرورة الأخذ بجميع أشكال ذكره تعالى بقوة تدعمها تقوى الله وخشيته. على اعتبار أنّ مرحلة الذكر هذه تشكل القاعدة والحافز والأساس على طريق العرفان الإلهي.

وهو جل شأنه وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾. فهو جل شأنه يكون قد نبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه إلى مسألة هامة وهي أنّ عمليّة التفكّر هذه تُحدث في أدمغتهم وبصورة من الصّور عمليةً جراحيةً يتولّد من جرّائها انجذابهم إلى ربهم أكثر فأكثر، وينشدّون بذلك ليتوكّلوا على الله خالقهم وهاديهم سبيل معرفته، فيزدادوا يقيناً بوجوده وبنصرته وتأييده، ويترسّخ عندهم بالتالي أسلوب التفكير الروحاني.

وعليه فإنّ ذريعة الفكر هي أسمى من ذريعة الذّكر، وإن كانت الأخيرة هي القاعدة والحافز والأساس لذريعة الفكر. ذلك أنّ في عملية ذكر الله تعالى شيئاً من المسؤولية والعناء، على حين أنّ عملية الفكر لاتصنع فيها ولاعناء ولاتمثيل، وهي عمليّة تُبرز الحقائق لتمثل هذه الحقائق أمام أعين المفكّرين.

هذا، وإنّ أهمية ذريعة الفكر على درب العرفان الإلهي اقتضت منه تعالى أن يأتي بعشرات بل بمئات الآيات من كتابه العزيز بأسلوب الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه لعقول البشر من عباده. فهو جل شأنه كان قد خاطب الإسرائيليين الذين اتخذوا من حليّهم عجلاً جسداً له خوار وعادوا بذلك إلى الشرك، فقال: ﴿**أولم يَروا أنّه لايكلّمهم ولايهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين.**﴾ الاعراف ١٤٨ - . وهو جلّ شأنه خاطب مشركي مكة الذين قاوموا محمداً ﷺ وقال لهم بصيغة الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه لملكة الفكر لديهم وقال: ﴿**ألم يَروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض مالم نُمكّن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم،**

فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾؟ الأنعام (٦). وهو جلّ شأنه خاطب هؤلاء المتغطرسين من علماء أمريكا وأوربة الذين يعاصروننا بأسلوب الاستفهام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وذلك في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء، وقد أوردت هذا الأمر في النظرية القرآنية الكونية، وقال تعالى هناك: ﴿**أولم ير الذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون؟**﴾.

ولاينبغي للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يظنّ أن ذريعتي الذكر والفكر تكفيان للفوز بمحبة الله وعرفانه ورضوانه بل هناك ذرائع أخرى نصّ عليها هذا القرآن العظيم.

٣ً ـ الإحسان إلى الناس جميعاً دون تفريق : وبعد أن يبني هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه قاعدة الذّكر التي يترشّح من خلالها لمحبّة الله تعالى إياه. وبعد أن يعتاد استعمال ملكة فكره التي ميّزه بها ربه عمّن سواه من المخلوقات وأخذ عليه الميثاق ليكون من أولي الألباب. فيعتاد التّفكير فيما يقرأه في صلواته ويتدبّر جزئيات وحِكَمَ وفلسفات كل شيء يقرأه وتقع عليه عيناه عليه. وخاصة أسماء الله الحسنى كي تتجسّم لمخيّلته عظمة الإله الذي يسعى إلى معرفته، ويعود يحلّل الأمور بفكرٍ روحاني. أقول بعد أن يعمد هذا المؤمن للأخذ بذريعتي الذّكر والفكر هاتين اللتين نصّ عليهما كتاب الله العزيز. من واجبه حينئذٍ أن يأخذ بذريعة الإحسان التي نبه ربّنا إليها في الآية (١٣٤) من سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرحمون. وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكّم وجنّةٍ عرضها السّموات والأرض أُعدّت للمُتّقين. الذين ينفقون في السّراء والضرّاء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحبّ المحسنين.**﴾.

هذه الآيات الكريمة التي وكأنه جلّ شأنه قال فيها بألفاظٍ أخرى أن أيّها المؤمنون السالكون درب التّعرف إليّ، والسّاعون للفوز بمحبتي ورضاي وقُربي إن أنتم أطعتموني ورسولي فيما أنزلته لهدايتكم وتطويركم من أوامر وتعاليم ومواعظ فبلغتم في ذلك حدّ التقوى في العمل على أوامري التي تشكّل قاعدة الانطلاق على درب التّعرف إليّ، وأصبحتم من أولي الألباب في ذلك. من واجبكم حينئذٍ أن تستعينوا بذريعة الإحسان التي تتفاعل مع ذريعتي الذكر والفكر ليقذف الله بالتالي محبّته في أفئدتكم على شاكلة مايحدث لقلوب

المتحابّين. ويستر الله تعالى نتيجة لذلك أشكال ضعفكم ويؤهّلكم بذلك للفوز بجنّةٍ عرضها السموات والأرض أُعدت للمتّقين.

فإن تساءل عبدي المؤمن السالك عن معالم ذريعة الإحسان هذه فليعلم أنها: أولاً إنفاقٌ وإحسان إلى السّائل والمحروم ممّن خلقت في السّراء والضرّاء. ثانياً ـ وأن تكظموا غيظكم إن أغاظكم من يتعامل معكم. ثالثاً ـ وأن تأخذوا بمبدأ العفو إذا اعتدى أحد عليكم. فإن عملتم على هذه الأمور كلّها فنكم البشرى فلابدّ أن أحبّكم وأقذف محبتي في أفئدتكم والله يحب المحسنين.

والآن إن نحن تدبّرنا في صياغة ودلالات هذه الآيات الكريمة، لاحظنا أنّ الله عزوجلّ لم يخصّص الإحسان بمؤمن أو غير مؤمن ممّن يأمرنا بالإحسان إليه. بل جاء تعالى بأوامره هذه مطلقة غير مقيّدة. أي أنّه لم يفرّق في موضوع الإحسان بين دين ودين أو عرق ولون أو لغة وقوم. أي أنّ الإحسان ينبغي أن يشمل جميع مخلوقات الله عزوجلّ.

كذلك فإننا إن نحن تدبّرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أنّ الله تعالى لم يفرّق في موضوع الإحسان بين غنيّ وفقير، بل أوجبه على فئة الفقراء أيضاً لقوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون في السّراء والضّراء**﴾، ولاشك أنّ الله تعالى لايكلّف نفساً إلا وسعها.

كذلك إن نحن تدبّرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أنّ الإحسان لايكون في المال وحده. بل يكون في سواه أيضاً فكظم الغيظ والعفو عن المسيء والكلمة الطّيبة جميعها أفعال تدخل في باب الإحسان في نظر ربّنا عزوجلّ.

والآن إن نحن تناولنا كلّ فقرةٍ من فقرات هذه الآيات الكريمة، فنتناول قوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون في السّراء والضّراء**﴾. فالسّراء والضّراء تعني الرّخاء والشدة (محيط المحيط) أي أنّ المؤمنين السالكين ينفق أحدهم سواء أكان ميسوراً في رخاء أو كان مُعْسراً في شدّة. فلماذا شمل أمر الإنفاق الفريقين معاً؟ أُجيب على هذا السؤال في الآية (٢٩) من سورة البقرة حيث قال تعالى هناك: ﴿**هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السّماء فسّواهُنّ سبع سموات وهو بكلّ شيء عليم.**﴾ أي أن لكل إنسان حقّاً فيما خلق الله تعالى في هذه الكرة الأرضية. وهذا مبدأ اشتراك الناس جميعاً في الفائدة المرجوّة من كل أشياء هذه الأرض. ويستحيل أن يتحقّق هذا المبدأ الاشتراكي بدون تقنين

وتنظيم. هذا وإنّ ربّنا نظّم أمر هذا الاشتراك العام. وذلك في الآية (٢٤) من سورة المعارج التي قال تعالى فيها: ﴿**الذين على صلاتهم دائمون. والذين في أموالهم حقٌّ معلوم. للسائل والمحروم.**﴾ أي أنّ للسائل والمحروم حقّاً في مال كل إنسان آخر يمتلك مالاً ومتاعاً. وعليه فمن واجب المؤمن السّالك الانصياع إلى أمر الانفاق في سرّائه وضرّائه.

وأنّ السّائل له حقٌّ معلوم فيمايملكه كلّ مؤمن وأن المحروم من النّطق حيواناً كان أم نباتاً له حق معلوم فيما ملك كلّ مؤمن أيضاً، أمّا كميّة الإنفاق المطلوبة ، فأمرٌ حددته الأسوة العملية لسيد المرسلين محمد صلوات الله عليه.

ونتناول قوله تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ والكاظمين من كظم غيظه: ردّه وحبسه وأمسك على ماني نفسه منه على صفح أو غيظ. ولايكون الغيظ إلا بوصول مكروه إلى المغتاظ. (محيط المحيط) أي أن الإحسان لايقتصر على الإنفاق في السرّاء والضّراء، بل ويشمل حبس النّفس وإمساكها عند التأذي ووصول مكروه من جانب شخص من الأشخاص. فالمؤمن السالك إذا ماأغاظه إنسان لايثور على الذي أغاظه بل يكظم غيظه ليبتعد بذلك عن حالة ردود الفعل التي تتملك المخلوقات الغريزية من جهة، وليثبت من جهة أخرى أنّه أقوى من أن يُغيظه سواه. وبهذا الموقف يُحسن إلى أن من أغاظه ويستحق الأجر من ربّه على إحسانه.

وأضاف تعالى يقول: ﴿**والعافين عن النّاس**﴾ أي أنّ الإحسان لايقتصر على الإنفاق بالمال ولاعلى كظم الغيظ، بل ويشمل العفو عن الناس المسيئين. وشيمَةُ العفو هذه نابعة من ميل المؤمن السالك إلى السّلام والمسالمة، نزولاً عند قول ربه في الآية (٣٤) من سورة فصّلت: ﴿**ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. ولاتستوي الحسنةُ ولاالسيّئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم. ومايُلقّاها إلاّ الذين صبروا ومايُلقاها إلاّ كل ذي حظٍ عظيم. وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنّه هو السّميع العليم.**﴾.

وقد أنهى جل شأنه هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿**والله يحب المحسنين.**﴾ فما هي دلالة كلمه المحسنين؟ المحسنون على حسب ماأورده صاحب معجم (محيط المحيط) من حَسُن أي جَمُلَ وأحسن معناه أتى بالحسن، وضدّ

أساء. وأحسن الشيء: علمه. يقال فلان يحسن القراءة أي يعلمها. وأحسن إليه معناه أعطاه الحسنة. والحاسن اسم فاعل، يراد به معنى الحدوث. فإن أريد معنى الثّبوت قيل حسن من باب الصّفة المشبهة باسم الفاعل. وعلى هذا يقال: هذا الأمر حاسنٌ عندي أن أفعله، وهو حسنٌ في الحقيقة. والحسنى ضد السّوأى، والعاقبة الحسنة والظّفر والشهادة. والأسماء الحسنى صفات الله عزوجلّ وأسماؤه. والحُسن هو تناسب الأعضاء على حسب قول صاحب الكليات جمعه محاسن.

فإن نحن أخذنا هذه المعاني بعين اعتبارنا وعُدنا إلى قوله تعالى ﴿**والله يحب المحسنين**﴾. ندرك أنه تعالى ينبّه ذهن المؤمن السالك إذ يأمره الأخذ بذريعة الإحسان، إلى أنه تعالى يحبّ جميع من يُحسن إلى مخلوقاته دون تفريق بين دين ودين أو لون أو عرق ينتسبون إليه ولا تفريق بين إنسان وحيوان ونبات في مجال هذا الإحسانٌ. فالإحسان ذريعة كسب محبة الله والفوز بقربه ورضاه لمن كان سالكاً درب عِرفانه.

والله عزوجلّ إذ نبّه أذهان السالكين إلى ذريعة الإحسان هذه. يكون قد نبّههم إلى قانون طبيعيّ تقوم عليه هذه الوسيلة. وهو أنّ القلوب جبلت أصلاً على حُبّ من أحسنَ إليها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ والله الذي جبل قلوب عباده على هذه الجبلة هو أوّل من يواجه الإحسان بالإحسان. ولذلك نُلاحظ أن المُحسن إذا لاحظ عدم تجاوب المُحسَن إليه بإحسانٍ، يحتقره ويقول اتقّ شرّ من أحسنت إليه.

وعليه فإن الله ربنا يكون قد نبّه المؤمنين السالكين إلى هذا القانون الطبيعي حينما قال: ﴿**والله يحب المحسنين**﴾. ونبّههم إلى أنّه تعالى ينجذب إلى محبّة عبده المحسن، على شاكلة ماتنجذب القلوب إلى حُبّ من أحسن إليها. وبما أنه حدّد إطار الإحسان في عملية الإنفاق في السرّاء والضرّاء، وفي كظم الغيظ، وفي العفو عن المسيء، يكون بذلك قد وضع في أيدي عباده المؤمنين السالكين ذريعة ثالثة لجذب محبّته وهي ذريعة الإحسان.

وقد راح جلّ شأنه في سورة الصّافات (٧٥ ــ ٨٢) يعدّد الأمثلة التي يثبت منها أنّ الله يردّ من جانبه على الإحسان بإحسان منه ومحبة. فأعاد إلى ذاكرة المؤمن السالك إحسانه إلى نوح عليه السلام الّذي عمل على ذريعة الإحسان هذه، وقال: ﴿**ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجّيناه وأهله من**

الكرب العظيم. وجعلنا ذريّته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على نوح في العالمين. إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين.﴾.

كذلك ذكّر جل شأنه المؤمن السالك بمثال إبراهيم عليه السلام في نفس سورة الصّافات الآيات (١٠٨ ـ ١١٠) وقال: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين.**﴾.

وذكّر جل شأنه بمثال ثالثٍ وهو مثال موسى وهارون عليهما السّلام وقال في الآيات (١١٤ـ١٢٢) من نفس السورة: ﴿**ولقد منّنا على موسى وهارون. ونجّيناهما وقومهما من الكَرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هُمُ الغالبين. وآتيناهم الكتاب المُستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّهما من عبادنا المؤمنين.﴾**.

واتبع الله جل شأنه هذه الأمثلة الثلاثة بمثال رابعٍ هو مثال النبي إلياس عليه السلام، وذلك في الآيات (١٢٩ ـ ١٣١) من سورة الصافات وقال: ﴿**وإن إلياس لَمِنَ المرسلين.. وتركنا عليه في الآخرين. سلام علي إلياس. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين.﴾**.

وهو جلّ شأنه وقد راح ينهي كل مثال من هذه الأمثلة الأربعة بقوله تعالى: ﴿**إنّه من عبادنا المؤمنين**﴾ فقد كان يقصد أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء المرسلين كان يؤمن بذريعة الإحسان. كذريعة تجذب محبّة الله إلى المحسن وتزيده عرفاناً بربّه على وجه اليقين.

والمهمّ من هذه الأمثلة التي احتوتها سورة الصّافات هو تذكير المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والطالب الفوز بمحبّته تعالى ورضوانه، أنّ ذريعة الإحسان هي إحدى الذرائع المهمّة والفعّالة على هذا الدّرب الطّويل. هذه الأمثلة التي يثبت منها أنّ إحسان المؤمن يلقى عند الله الاستحسان ويكافأ صاحبه بإحسان إلهي عظيم. فالله يحب المحسنين الذين متّنوا قاعدة الذّكر، وقطعوا أشواطاً من مرحلة الفكر، ويفكرون بتفكيرٍ روحاني ويحسبون للآخرة حسابها وكانوا من المُتّقين.

وإن الله عزوجلّ إذ حثّ على الإحسان كذريعة جذبٍ لمحبته. حذّر في الوقت نفسه غير المحسنين من مغبّة إهمالهم طريق الإحسان المذكور. حيث أنّه تعالى قال في الآية (١٩٥) من سورة البقرة: ﴿**وأنفقوا في سبيل الله، ولاتُلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله مع المحسنين.**﴾ أي أن من لاينفق في سبيل جذب محبّة ربّه على السّائل والمحروم، ولايُحسن تصرُّفه فيكظم غيظه ويعفو عن الناس، يكون كمن يُلقي بنفسه إلى التّهلكة ويكون أخيراً من حراء بخله وهضم حقوق السائل والمحروم من الخاسرين. بسبب أنه يفقد تأييد ربه له، ويخسر محبته، ذلك أن الله تعالى لايكون إلاّ مع المحسنين.

والله عزوجلّ، حين نبّه إلى أنّ عدم الالتزام بمبدأ الإحسان هو بمثابة إلقاء لهذه النّفس إلى التهلّكة. ووضّح حكمة قوله هذاوتنبيهه المذكور في الآية (٧٧) من سورة القصص وقال: ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولاتنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولاتبغ الفساد في الأرض، إنّ الله لايحبّ المفسدين.**﴾. فوضح لهذا المؤمن السالك سبيل ربه ودرب عِرفانه، أنّ الإحجام عن مبدأ الإحسان المذكور ينتج عنه إفسادٌ في الأرض، فمن أعرض عن الإنفاق في سبيل كسب رضى ربه وتَركَ مبدأ كظم الغيظ والعفو عن الناس فكأنه ليبتغي بموقفه هذا الفساد في الأرض، بسبب ماينتج عن هذا الإحجام من مفاسد لاتُحمد عُقباها.

ذلك أنّ الله عزوجلّ سخّر للناس مافي الأرض جميعاً، فأشرك في إحسانه إلى عباده كلّ مخلوق منهم. وإنّ مبدأ الإحسان أوجده الله تعالى وأمر به أصلاً لتوزيع ثروات الأرض إحساناً منه تعالى على هذه المخلوقات بشكلٍ عادلٍ يحقّق المساواة بينهم فيما أحسن الله وفضل عليهم. فإن امتنع المؤمن السّالك عنْ أداء ماعليه من حقّ إنفاق على السائل والمحروم، يتولّد عن ذلك شعور بطبقيّةٍ مجحفةٍ ظالمةٍ وينتج عن هذا الشعور حقدٌ طبيعيّ في نفوس المظلومين وثورات وفساد في الأرض.

ولايعني هذا الإحسان أن يحرم المؤمن نصيبه من الدّنيا، بل ليأخذ نصيبه من الدّنيا على شرط أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن يحسن وينفق ويكظم غيظه ويعفو كما أحسن الله تعالى إليه على ضعفه ونقائصه.

فإن أحجم هذا المؤمن عن العمل على مبدأ الإحسان المذكور، لايعود طالباً عِرفان ربّه ولاالفوز بمحبته ورضاه، بل يعود مفسداً في الأرض وإنّ الله لايحبّ المفسدين.

هذا وإنّ هذه المواعظ جميعها، إذا تفهمّها هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه، تمنحه هذه المواعظ سعة أفق تساعده على إدراك سرّ افتتاح الله جل شأنه سورة لقمان بقوله تعالى ﴿**ألم. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصّلاة، ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون.**﴾ والأحرف (ألم) تعني أنا الله العليم. وأتى تعالى باسم الإشارة (تلك) بدل (هذه) هنا، تعظيماً لشأن آيات الكتاب الحكيم البالغ في العظمة والمُتقن للأمور. ونبّه من خلال قوله تعالى بحقّ آيات الكتاب الحكيم ﴿**هدى ورحمة للمحسنين**﴾ إلى أنّ الناس الذين انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى فريق مؤمن محسن وفريق كافر مفسدٍ في الأرض، لايستفيد من هداية التعاليم العظيمة التي احتوت عليها آيات هذا الكتاب الحكيم إلاّ الفريق الذي يفكر بأسلوب روحاني.﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾. وأكّد جلّ شأنه على أن هذا الفريق يعملون ﴿ **على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.**﴾.

كذلك تساعده هذه المواعظ على إدراك حكمة كلامه جلّ شأنه الذي أعقب هذه الآيات التي افتتح بها سورة لقمان، حكمة قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتّخذها هُزُواً، أولئك لهم عذابٌ مُهين، وإذا تُتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأنّ في أذُنيه وَقْراً، فبشّره بعذابٍ أليم.**﴾.

فهو جلّ شأنه رح يتكلّم عن الفريق الذين لايلتزمون بمبدأ الإحسان وعظمته ويتسبّبون في الفساد الذي يحدث في الأرض فيصفهم بصفاتٍ من صميم حياتهم أنهم يتصنّعون زخرف القول ويتاجرون بذلك عن سبيل الله الذي خلقهم وأنزل هذا القرآن لهدايتهم، يفعلون ذلك كله دون أن يستندوا في ذلك إلى علمٍ يقين أو حُجّة وبرهان.

ولقد وضّح القرآن الكريم للمؤمن السالك مابين ذريعتي الذكر والإحسان من علاقة ورابطة تربطهما على درب العِرفان الإلهي. وهذه الرابطة

أتى الله جل شأنه على بيانها في الآية (١١٤) من سورة هود حيث قال هناك: ﴿**وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزُلَفاً من اللّيل. إنّ الحسنات يذهبن السّيئات. ذلك ذكرى للذّاكرين. واصبر فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين.**﴾.

وكلمة طرف الواردة في هذه الآية الكريمة تعني حرف الشيء ونهايته والناحية والطائفة من الشيء. وكلمة زُلفاً جمع زُلفة وهو الطائفة من اللّيل أو ساعات اللّيل الآخذة من النهار كما يحدث في فصل الشتاء. وساعات النهار الآخذة من اللّيل كما يحدث في أيّام الصّيف.(محيط المحيط). وقد جعل الله جل شأنه قوله ﴿**ذلك ذكرى للذاكرين**﴾ قرينة تنبّه ذهن المؤمن الذّاكر ربّه إلى العلاقة الكائنة مابين ذريعة الذكر وذريعة الإحسان. وهو أنّ التركيز على الدّعاء في الأوقات المشار إليها ضروري جدّاً لدعم مايُقدم هذا المؤمن الذاكر عليه من إحسان.

فلايكفي الإحسان وحده فلابدّ من التذلّل والدعاء بين يدي الخالق يستجديه محبته وقربه وعرفانه. ليس هذا وحسب، بل وأن يصبر هذا الذاكر على هذا النهج ويثابر عليه منتظراً ظهور ثماره الروحية وموقناً أنّ الله لايُضيع أجر المحسنين. وموقناً أيضاً أنّه بمثابرته على الدّعاء والإحسان، تذهَبُ حسناته سيئاته، ويعود مع الأيام في نظر ربّه من المحسنين. فيقذف الله عزوجل محبته في فؤاده، على شاكلة مايحدث في أفئدة العاشقين والمحبّين. فهذه الحقيقة يوضّحها جل شأنه لهؤلاء المؤمنين السالكين كذكرى للذاكرين.

وعلى هذه الصورة، فلابدّ للمؤمن السالك أن يأخذ بذريعة الإحسان التي ذكرناها ويعمل على مضمونها في حياته اليوميّة، ومثابراً في مجاهدته هذه للتعرّف إلى خالقه وجذب محبّته وكسب رضاه. خصوصاً وأنّ ربّه عزوجلّ قد بشّره في الآية (٢٩) من سورة العنكبوت أنّه سيهديه سبيله ويتولاه ويكون معه حيث قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإنّ الله لمع المحسنين.**﴾.

كذلك فإن الله تعالى بشر المحسنين بالحُسنى والخلود في الجنّة في الآية (٢٦) من سورة يونس حيث قال: ﴿**للذّين أحسنوا الحُسنى وزيادة، ولايرهَقُ وجوههم قَتَرٌ ولاذلّةٌ، أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون.**﴾.

ثم إن الذي يتفحّص آي الذكر الحكيم يتوضّح له مالإحسان من أهميّة على درب العرفان الإلهي. فهناك آيات حدّدت للمُحسن سُبل إنفاق مالمسائل والمحروم في ماله من حقّ معلوم. كالآية (٦٠) من سورة التّوبة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضةً من الله، والله عليم حكيم.**﴾. كذلك وضح ذلك في الآيات (٣٦ـ٣٧) من سورة النساء بقوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنب والصاحب بالجنب وابن السّبيل ومامَلكت أيمانكم، إن الله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم الله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً.**﴾. فالمقصود بما ملكت الأيمان هنا مايكون تحت تصرّف هذا الإنسان المؤمن السالك من خدم وأنعام ونبات. ثم إنّ المقصود بلفظ الكافرين هنا في هذه الآيات الفئة المنكرة لمبدأ الإحسان الذي طالبنا به كتاب الله العظيم وليس الكافرين إطلاقاً.

هذا وإنّ الذي يتفحّص آي الذكر الحكيم أيضاً تتراءى لعينيه آيات وآيات بحثت موضوع الإحسان وألقت الضوء على أهميته. وبيّنت الجهات التي ينبغي على المحسن أن ينفق عليها. حتى وركزت الآيات الكريمة على ضرورة أن ينفق المحسن من ماله الحلال.

لاأن يجني مالا بطريق غير مشروع وينفق منه. على اعتبار أن هذا أصبح من المال الخبيث المشبوه غير الحلال، فلا يُؤتي الإحسان من مثل هذا المال الخبيث ثماره الروحية المرجوّة.

فهذا هو مانبّه إليه الله تعالى في الآية (٢٦٧) من سورة البقرة التي قال فيها: ﴿**ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ماكَسَبْتُم ومّما أخرجنا لكم من الأرض، ولاتيمّموا الخبيث منه، تنفقون ولستم بآخذيه، إلاّ أن تُغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً، والله واسعٌ عليم. يؤتي الحكمة مَن يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ومايذّكر إلاّ أولو الألباب.**﴾ أي أنّ الله تعالى لايتقبّل الإحسان من المال الخبيث الذي جُمع بطريق غير مشروع. بل يتقبّل الإحسان والإنفاق من المال الطيّب الحلال، شريطة ألاّ يُتبع إحسانه منّاً

وأذى، وشريطة أن يُحسن من المال الذي يحبّه لنفسه، وليس من فضلات طعامه ومتاعه. هذا مانصت عليه الآية (٩٢) من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون**﴾.

هذا وقد شبّه مايحدثه الإحسان من أثر في نفس المؤمن السالك المحسن بشرابٍ كافوري وقال في سورة الدّهر: ﴿**إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً. إنا أعتدنا للكافرين سلاسلَ وأغلالاً وسعيراً. إنّ الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافوراً. عيناً يشرب بها عباد الله يُفجّرونها تفجيراً. يوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً. ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نُطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولاشكوراً. إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً. فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً.**﴾.

وهو حل شأنه قد أشار في هذه الآيات إلى الفريقين من النّاس الفريق المحسن والفريق الكافر بمبدأ الإحسان. وأن الفريق المحسن هو الفريق البارّ لخالقه والذي يفكّر بأسلوبٍ روحاني. فيشكر ربه دوماً على إحسانه إليه. ويشرب هؤلاء الأبرار من المؤمنين بإحسانهم إلى خلق الله تعالى من كأسٍ كان مزاجها كافوراً. أي أنّ عمليّة إحسانهم هذه تُطفيء لواعج الشهوات في نفوسهم، وتخمد بها شهواتهم الخبيثة ونار الحرص التي تدفع إلى تكديس المال أكداساً. علماً بأنّ كلمة كافور قد اشتُقّت من الكفرُ بمعنى التغطية والإخفاء للواعج الحياة والحرص والشهوات. وكأن الله تعالى نبّه بهذا التشبيه إلى أنّ عملية الإحسان تطهّر باطن المُحسن إلى خلق الله، وتُسري فيه الطمأنينة نبّه إلى مصيره وإلى حتمية فوزه بعرفان ربه ومحبته وقربه ووصاله. وإنّ هذه الحقيقة التي أشارت إليها هذه الألفاظ ستتجلّى حقيقة ماثلة لأعين المحسنين في الدّار الآخرة، تتمثّل لأعينهم ﴿**عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً.**﴾. أي أن ألفاظ هذه الآية الكريمة تناولت بالكلام سرّاً غامضاً من أسرار الجنّة الموعودة مابعد الموت. لذلك لايُدرك حقيقة ماأشارت إليه وتكلّمت عنه إلاّ فئة المؤمنين السالكين درب العِرفان الإلهي والعاملين على ذريعة ووسيلة الإحسان التي أتينا على بيانها وتوضيح جوانبها. وعليه فإن هذه الآيات التي اقتبسناها من سورة الدّهر، قد

أتت على خُلاصة جميع مايتعلّق بذريعة مبدأ الإحسان ووسيلته، وبإعجازٍ بياني عديم المثال.

٤ ـ وعي الفطرة والكيان الروحي والمسار التوحيدي

مضينا في موضوع العرفان الإلهي فوضّحنا مايكره الله تعالى أن يتّصف به عبده المؤمن السالك من صفاتٍ تُبعده عنه وتُخسره محبّته. وتمضي نوضّح الذرائع التي يمتدحها كتاب الله العزيز والتي تجذب محبة الله تعالى ورضوانه وقربه. هذه الذرائع التي تُعتبر في حقيقتها الغذاء الروحي المطلوب لرعاية وتنمية هذا الكيان الرّوحي الذي يكسبه المرء حين إيمانه وبيعته.

وقد أحطنا علماً حتى الآن بذرائع الذكر والفكر والإحسان، هذه الذرائع التي تفيد في تدّرج هذا المولود الرّوحي من حالة الرغبة إلى لقاء وعرفان ربه، إلى الأنس به ثم طلب ودّه ومحبّته. وأتكلم الآن عن ذريعةٍ رابعةٍ أسميتها ذريعة وعي المؤمن السالك لفطرته التي فطره الله تعالى عليها، ولحقيقة ولادة كيانه الرّوحي ومساره التوحيدّي.

ذلك أن من المعلوم والثابت علمياً أنّ جسد المرء كياناً وأعضاءً وقوىً، ذو أصل ماديّ، وأن القرآن الكريم نبّه أذهاننا إلى أنّ كياننا الجسدي هذا ماهو إلا عبارة عن وسيلةٍ مرحليّة لولادتنا الرّوحية التي سيمرّرها الخالق جلّ وعلا بعد الموت عبر حياةٍ برزخيّةٍ إلى يوم يبعثها بعثاً جديداً متشابهاً مع خلقنا المادي الحالي شكلاً وموضوعاً ، إنما بمواصفاتٍ لايعتريها النّقص الحاصل في هذا العالم المادي المحدود والمقيّد بقوانين تنظمه وتحدّد حركته أيضاً.

ومابعث الله عزوجلّ الأنبياء والمرسلين، ومأأنزل الشرائع السماوية إلاّ ليُحدث هذا التطوّر النّوعي عند الإنسان، فيخلقه خلقاً روحياً جديداً عن طريق تعريفه بوجود ربّه ودفعه للإيمان به عزوجل وإلى بيعة مرسليه وتغذيةِ كيانه الروحي الجديد بتعاليم مأأنزل من وحيٍ سماوي يهدف إلى تحقيق هذه الغاية وهذا المقصد الأسمى، وهو أن يؤهّل هذا المولود الرّوحي لمعرفة ربّه وجذب محبته إليه والتقّرب منه والتمتع بمشاهدة حُسنه تعالى وإحسانه.

هذا، مع العلم أنني دلّلت حتى اللحظة على صدق ماوضّحته من هاتين الحقيقتين، ليس من أقوال زيدٍ وعمرو من النّاس، بل من آي الذكّر الحكيم. أي من نصوصٍ قرآنية لاتقبل المراجعة ولاّ التأويل.

وكما جهّز الله الخالق هذه النفس البشرية بالأحساد ذات الحواس للرؤية وسماع أصوات ماحولها، كذلك لايقوم هذا الكيان الروحي بدون حواس من ماهيته تعينه على رؤية جمال ربّه والاستماع إلى كلامه. وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة من خلال قوله تعالى: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً**.﴾ الاسراء ٧٢ ـ وقوله تعالى في سورة طه (١٢٥):﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشُرُه يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى**﴾. ذلك أنّ المقصود بالعمى في هذه الآيات الكريمة هو عمى الكيان الروحي وليس عمى هذا الكيان المادّي.

وقد أتى تعالى بدليل ضمني نطق به هذا الجهنّمي للتدليل على ماذكرته. فهذا اعترف ضمنيّاً من خلال قوله ﴿**وقد كنت بصيراً**﴾ أنّه مات وعيناه تبصران، ممّا يثبت أنّ العمى الذي بُعث به هو عمى حاسة كيانه المبعوث به يوم القيامة.

ألا إنّ عيوننا الجسمانية تساعد على رؤية جمال الطبيعة المادية. وآذاننا تُشنّفها الأصوات المنبعثة من كل مكان في هذا الكون. لكن عيوننا وآذاننا لاتساعد على رؤية الجمال الإلهي ولا على سماع الكلام الإلهي المقدّس. الأمر الذي يعني أنّه لابدّ أن يهب خالقنا كياننا الروحي حواس مماثلة لتساعد على هذه الرؤية وهذا السّماع. أمّا الذين كفروا برسل الله وكتبه، فمصيرهم سيكون وفق قوله تعالى في الآية السادسة من سورة البقرة: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم**.﴾ أي أنّ أعمالهم ستؤدي إلى خلقهم خلقاً جديداً، وبحواس جديدة لكنّ هذه الحواسّ مختوم عليها بغشاوة كفرهم وسيكونون في حالٍ من عذابٍ أليم.

وهذا كله يُلزم المؤمن السالك درب عرفان ربه ضرورة وعيه لهاتين الحقيقتين: حقيقة فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وحقيقة كيانه الروحي، يوجّهه إلى ذلك كتاب الله تعالى، ومن منظارٍ علميٍ رصين. فإن تحقق هذا المؤمن السالك وضوح رؤية على هذين الصّعيدين، ووضعها في عين اعتباره عند عمله على تعاليم ربّه، يكون قد أخذ بذريعةٍ رابعة على الدّرب المؤدي إلى معرفة

ربه، ويجذب بهذا الوعي ووضوح الرؤية التي تحققت له محبّة ربّه إليه، ويفوز برضاه جل شأنه ونصرته وتأييده.

هذا وإنّ الذي يساعد هذا المؤمن على وعي الحقيقة الأولى أي الفطرة وماإليها، يساعده على ذلك ماوفّقني ربي إليه من علوم احتواها مؤلف " نظرية جذور الأخلاق". هذا الكتاب الفريد في طرحه ومعلوماته وأدلّته. والذي يطالعه بإمعان يكسبه ذلك وضوح رؤية في هذا السّبيل. وقد انطلقت في جميع ماأدرجته في المؤلّف المذكور، ممّا ذهب إليه قول ربّنا في الآيات (٢٩ـ٣٢) من سورة الرّوم، قوله تعالى: ﴿**بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي مَنْ أضلّ الله، وماهم من ناصرين. فأقم وجهك للدّين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله، ذلك الدّين القيّم، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون. مُنيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولاتكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾.

علماً بأنّ مأوردته كتب الأحاديث كالبخاري ومسلم وسواهما من أحاديث حول الفطرة البشرية، فلا تعدو تلك الأحاديث في بيانها التنبيه إلى الفطرة البشرية، لكنّها لاتُجدي في فهم حقيقة هذه الفطرة في شيء. فماذا يفهم من يقرأ: ﴿**مامن مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يُهوّدانه أو ينصرّانه أو يُمجّسانه..**﴾ ماذا يفهم إلاّ التّوجيه إلى وجود هذه الفطرة البشرية لاأقل ولاأكثر.

أمّا الذي يُطالع كتاب "نظرية جذور الأخلاق"، لابدّ أن تساعده معلوماته على تفهّم هذه الفطرة وبأسلوبٍ علميّ.

والآن لنعد إلى الآيات من سورة الروم التي ذكرناها، نتدّبرها بعنايةٍ ووفق أصول تفسير القرآن الكريم، لنرى ماحتوته هذه الآيات من معلومات تساعد على تفهّم هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي لن يطرأ عليها في المستقبل أيّ تبديل.

وأبدأ أشرح معاني ألفاظ الآية على هدى مابيّنه لنا أصحاب المعاجم من معانٍ ومعلومات ودلالات. ذلك على اعتبار أنّ هذه الآيات أنزلها ربّنا بلسانٍ عربيٍّ مبين.

قال تعالى ﴿**أقم وجهك**﴾ فأقم من أقام بالمكان اتخذه وطناً دائماً. وأقام الشيء: أدامه. وأقام الصلاة: أدام فعلها. وأما (وجهك) فمن الوجه وهو أول مايبدو للناظر من البدن ومنه العينان والأنف والفم. والوجه مُستقبل كل شيء ونفس الشيء. و (للدّين) فالدين يعني الطاعة وجنساً من الانقياد والذّل. يقال: دان له يدين ديناً: إذا انقاد وطاع وصاحب واللاّم الداخلة تفيد التمليك. أمّا (حنيفاً) أي غير منحرف (محيط المحيط). و (الفطرة) هي: الخلقة والجبلة المهيّأة في الإنسان لقبول الدين (محيط المحيط). وقد ورد في مفردات الراغب: الفطرة هي الصّفة التي يتّصف بها كُلّ موجود في أوّل زمان خلقته.

ونعود إلى تفسير ابن كثير لنلاحظ مافهمه من هذه الآيات الكريمة قال: ﴿**يقول تعالى فسدّد وجهك، واستمرّ على الدّين الذي شرعه الله لك من الحنيفيّة ملّة إبراهيم التي هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السّليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنّه تعالى فَطَرَ خلقه على معرفته وتوحيده وأنّه لاإله غيره..**﴾ ج٣ ص٤٣٢.

وأتوجّه أنا إلى فهم هذه الآيات الكريمة على ضوء معاني مفرداتها السالفة الذكر وأقول: إنّ الله عزوجلّ نبّه أذهاننا قبل هذه الآيات إلى هيمنته على السماء والأرض، وإلى أنه سبق أن قرّر بعثنا من مرقدنا بعد موتنا أيضاً. كذلك نبّه إلى أنّ حياتنا الدنيوية ماهي إلاّ مرحلة أولى على هذا الطريق. وانتهى من ذلك كلّه إلى القول: ﴿**بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله وماهم من ناصرين.**﴾ بمعنى أن الذين يكذّبون رسولنا محمداً ومأأنزل عليه يظلمونه ويظلمون أنفسهم في آن واحد، لقوله تعالى بحقهم (ظَلَموا) مُبهماً تعالى الجهة الظالمة. فهؤلاء صدر عنهم هذا الظلم الشنيع بدافع ماذا؟ وأجاب على هذا السؤال الذي طرح نفسه وقال: إنّ ماوقع من جانبهم من ظلم لم يستند إلى وحي من الله، ولاعلى أساس من علم، بل اتبعوا.. أهواءهم بغير علم، ومادام قد اختاروا طريق الضلالة المذكور فقد تركتهم يضلّون، ولن يجدوا من دوني من يهديهم سبيل الحق إلاّ أن يعودوا عن اتّباع أهوائهم ويحاوروا بأسلوب علميّ. وإنّهم مالهم من ناصرين من دوني أيضاً.

فلما انتهى جلّ شأنه من ذلك، قال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ والذّين اتّبعوه ولم يقصر خطابه على رسوله الكريم بدليل أنه لم يأت بذكر اسمه وأطلق

خطابه وقال: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً**﴾. وهذه الألفاظ تحمل أمراً موجّهاً إليهم جميعهم، لكنّه جل شأنه أتى بأمره هذا بصيغة ضمير المفرد تنبيهاً لذهن المؤمن السّالك درب عرفان ربّه وبعد أن آمن وبايع أن يداوم على طاعة تعاليم هذا الدّين الذي انقاد له، وأن لاينحرف عنه قيد أنملة. أن يُداوم بشكل تأخذ تعاليم هذا الدين منه كُلّ مشاعره واهتماماته. ذلك أنّه تعالى لم يستعمل لفظ (وجهك) هنا بمعناه المادي بقرينة أنّ الدّين وتعاليمه ليست بشيء مادّي. بل بمعناه الذي ذكرته ليمكّنه اهتمامه الدائب وطاعته المستمرة والثّبات على هذا الأمر والصّبر عليه من التّمتع أخيراً بثمار الدين المرجوة من الالتزام بما جاء به من تعاليم وأوامر إلهية ومواعظ.

ثم إنّ الله عزوجلّ شاء أن يستدرك فلا يدع مجالاً للظنّ بأن في أمره هذا استعباداً لهذا المؤمن السالك لامبرّر له ومظهراً من مظاهر الدكتاتورية. فاستدرك جل شأنه وقدّم حيثيّات ومبرّرات أمره المذكور ليُدرك هذا المؤمن من وراء ذلك أنّ العمل على أمر ربه فيه فائدته وزيادة علمه، لذلك أضاف قائلاً: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله..**﴾.

فالله عزوجلّ أتى في أمره بلام التمليك في كلمة (للدّين) تشديداً على ضرورة الالتزام بأمره والعمل بكل توجّه على تعاليم هذا الدّين الإسلامي. ثم ألحق بهذا اللفظ كلمة (حنيفاً) للتنبيه إلى ضرورة اليقظة المستمرة في حياته كيلا يحرفه عن هذا الصّراط أيّ تشيّع إلى جهةٍ ما وأي تمذهبٍ على قول ورأي ما وأي انحراف وانخراط في مسلكٍ سياسي. بل أن يظل يقظاً (حنيفاً) لايميل عن طلب عِرفان ربه وكسب محبته ورضاه وقربه ووصاله. وقال منبّهاً أيضاً إلى أنه إذا أراد أن يصون نفسه عن الانحراف عن هذا الدّرب فليعلم أنّ تعاليم هذا الدّين قد صدرت على أساس ملاءمتها لأرضية فطرته التي فطر الله الناس عليها، والتي لن يطرأ في المستقبل عليها أي تبديل في هذا الخلق، وهو جلّ شأنه بقوله ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله.**﴾ قد شاء أن يثبت أنّ أمره الصادر إلى هذا المؤمن السالك قد قام على علمٍ حقيقي، وليس اتباعاً لهوى بمعنى أنه ليس بأمر ديكتاتور يستعبد المؤمنين.

ولنلاحظ أنّه جلّ شأنه أتى هنا بلفظ (فطر) ولم يأت بلفظ (خلق). وإنّ وراء ذلك حكمةً بالغة. فأنت تقول فطر الشيء بمعنى شقّه وأخرج مافيه.

وفطر الناس خلقهم وابتدعهم (محيط المحيط). وهو جل شأنه بإيتائه لفظ (فطر) يكون قد أشار ونبّه إلى أنّه عندما شاء الله خلق الناس من هذه المادة الكونية لتحقيق هذا المقصد، شقّ هذه الذّرة المادّية وشكّل من قواها، هذه الفطرة البشرية التي تُعرّف أنها مجموعة قوى هذا الإنسان الباطنة أو صفاته الطبيعية التي يتصف بها كالشجاعة والكرم وماإلى ذلك من صفات، ليشكّل بهذه القوى والصفات أرضية الأعمال التي سيقوم بها هذا المخلوق شرّاً كان أو خيراً.

أي أنّ الله عزوجلّ راح يبرّر أمره الصادر إلى عبده المؤمن السالك درب عرفان ربّه، بأسلوبٍ علميّ مُدهش أورده ببلاغة كلاميّة مابعدها بلاغة. ليحثّه على البحث العلمي، وللتوصّل إلى وعي فطرته هذه وعياً علمياً يتسّم بوضوح رؤية علمية أيضاً.

وكأن الله تعالى إذ أتى بلفظ (فطر) هنا قد ردّ على الذين يزعمون أنّ الله تعالى يخلق الجنين ومن ثم يلقي فيه روحاً من خارجه. فهو تعالى ينبّه إلى أنّ قوى النفس البشرية المسمّاة (فطرة) قد أتى جل شأنه بها بتركيبةٍ معقّدةٍ من القوى الستّ التي تحتوي عليها الذرّة المستندة في وجودها إلى هذه الجهات الستّ أيضاً. وهو الأمر الذي أتيت على تفصيله في نظرية جذور الأخلاق.

وقد نبّه جل شأنه العلماء أيضاً في الوقت نفسه ومن خلال قوله تعالى: ﴿**لاتبديل لخلق الله**﴾ نبّههم إلى أنهم عندما يسلّمون بالتركيب الذري الذي يستحيل أن يتبدّل، يعترفون من خلال ذلك بصدق قوله تعالى ﴿**لاتبديل لخلق الله**﴾ ومن حيث لايشعرون.

فلمّا انتهى الله جلّ شأنه من تقديم المبّررات العلمية لأمره ﴿**أقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ الذي أصدره إلى هذا المؤمن السالك درب عرفانه أضاف قائلاً: ﴿**ذلك الدّين القيّم**﴾. فأتى باسم الإشارة ﴿**ذلك**﴾ ولم يقل هذا الدين القيّم، بل ذلك الدّين القيّم.تنبيهاً إلى عظمة تعاليم هذا الدّين الذي أتى به محمد ﷺ، هذه التعاليم التي استندت إلى هذه الأرضية التي فطر الله الناس عليها والتي لن يطرأ عليها أي تبدّل أو تغيّر مهما امتدّ الزمان وتغيرت الأحوال. أي أنّ ملاءمة التعاليم الإسلامية للفطرة البشرية أكسبتها دوامها على مرّ الزمن. وقد حقّقت هذه الملاءمة لتعاليم الإسلام مكانةً وعظمةً لاتعلو عليها عظمة أي تعليم آخر قد أتى به رسول من رسل الله قبل بعث محمد الصادق الأمين ﷺ.

وهو جلّ شأنه عندما وصف دين الإسلام بالقيّم في هذا المقام. من القيّم على الأمر متولّيه (محيط المحيط) قد أضاف معلومة جديدة لهذا المؤمن السّالك، وهو أنّه جلّ شأنه أشار إلى ماقاله في الآية السابعة من سورة الشمس: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها.**﴾. هذه الآيات الكريمة التي وضّحت أنّ النفس البشرية أو الفطرة هي مجرّد أرضيةٍ لخلقٍ روحي جديد.

والذي يلتزم بأوامر الخُلُق العظيم لتبدو بلباسها الجديد متناسبة مع مايحمله خالقها ومبدعها من أسماء وصفات. فتعاليم هذا الدّين هي القيّم أي المتولّي أمر تطوير هذه الفطرة البشرية بهذا الخلق الجديد. هذا وقد عرّف جل شأنه لفظ القيّم بالألف واللاّم ليشير بذلك إلى معهودٍ ذهني، وهو أن جميع ماأنزله الله تعالى من شرائع سابقة، إنّما كانت تنقل البشر خطوة بعد خطوة لِتُعِدّ الأنفس لتلقّي هذا الدّين القيّم العظيم. ووفق ماأنبأت به تلك الأديان الغابرة على حينه.

وقد أضاف جل شأنه بعد ذلك يقول: ﴿**ولكنّ أكثر الناس لايعلمون**﴾ مؤكّداً صفة العلمية التي تمتعت بها تعاليم الإسلام، التي تجهلها أكثرية الناس وتبتعد بذلك عن هذا الفهم العظيم.

فلما انتهى الله جل شأنه من جميع ماذكرناه، أضاف يقول موضّحاً مضمون أمره الذي أصدره إلى هذا الرسول والذين آمنوا معه وقال: ﴿**مُنيبين إليه، واتقّوه، وأقيموا الصّلاة، ولاتكونوا من المشركين.**﴾ فأتى بصيغة الجمع (مُنيبين) ليؤكّد أنّ أمره الذي أصدره وهو (فأقم وجهك) لم يكن المقصود به رسول الله وحسب بل ويشمل جميع المؤمنين السالكين درب عِرفان ربّهم أيضاً.

وراح تعالى يشرح مضمون أمره ويقول ﴿**مُنيبين إليه**﴾ من ناب إلى الله بمعنى تاب. أي أنّ على هؤلاء المؤمنين المبايعين أن يتوبوا عمّا سلف قبل بيعتهم هذه، وأن يلتزموا بنهج التقوى الذي أتى به القرآن الكريم وهذه هي دلالة (واتّقوه). ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أي أن ذكر ربكم الذي تمثله الصلاة الإسلامية وقراءاتها وأدعيتها وتسابيحها، هي عماد هذا الدّين الإسلامي، فالتزموا بالمداومة على هذه الوسيلة الأساس لرقيّكم الروحي. ﴿**ولاتكونوا من المشركين.**﴾ أي احذروا أسلوب التفكير المادّي الذي اتصّف به من كان من

المشركين وفكّروا خلال مسيرتكم الإيمانية هذه بأسلوب التفكير الروحاني النابع من الإيمان بوجود خالق كل شيء والذي له الأسماء الحسنى. وهو جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**ولاتكونوا من المشركين**﴾ راح يضيف إليه معنى أوسع حين أضاف يقول: ﴿**من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون**.﴾ فهو تعالى نبّه الأذهان من خلال هذه الإضافة إلى أنّ من يفكّر بأسلوبٍ مادّي، مهملاً التفكير بأسلوبٍ روحاني، سيؤدي انحرافه هذا إلى التّسبب بفرقة أتباع هذا الدّين وانقسامهم إلى شيع وأحزاب، كلّ حزب بما لديهم فرحون. ويخسرُ بذلك العمل بأمر ربّه ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ ويخسرُ بالتالي روح التوحيد التي حملته إليها تعاليم الإسلام، ولايعود من طلاّب معرفة الله الذي خلقه، ولا من السّاعين إلى كسب محبته ونصرته وقربه ورضوانه.

وبإمكاني الآن تلخيص مافهمته من هذه الآيات من سورة الروم بالتالي:

أولاً ـ أنّ هذه الآيات أرشدت المؤمنين السالكين الالتزام بطاعة أوامر ربهم وطلب عرفانه مادام لهم في هذه الحياة الدنيا من نصيب. على أن يتملّك هذا الدين والعمل على تعاليمه كلّ اهتماماتهم ومشاعرهم مادامت قلوبهم تنبض بالحياة.

ثانياً ـ كما أرشدت هذه الآيات المؤمنين إلى أنّ مافطروا عليه من قوى وميول وعواطف، كان لها أصل مادّي، ولم تأت من خارج هذا الكون المادّي لذلك عليهم سلوك سبيل البحث العلمي.

ثالثاً ـ ونبهت وأرشدت هذه الآيات إلى حقيقة استمرارية العمل بتعاليم الإسلام على مرّ الزمان من منطلق ملاءمتها للفطرة البشرية التي لن يطرأ عليها أي تبديل مهما طال الزّمان.

رابعاً ـ كما نبهت هذه الآيات إلى أنّ تطوير الفطرة البشرية لايتحقق إلا عن طريق الأخذ بتعاليم هذا الدّين القيّم والمتولي القيام بهذه المهمة الجليلة القدر.

خامساً ـ وأن التزام المؤمن بالعمل على تعاليم الإسلام يحقّق لصالحه خلقاً روحيّاً جديداً وبحواس جديدة تؤهله للحياة الخالدة التي خلقه الله تعالى من أجل الفوز بها، ليتمتّع برؤية جمال ربّه وسماع كلامه.

سادساً ـ وأنّ نهج التقوى الذي أتت به تعاليم الإسلام هو السّبيل إلى تحقيق هذا الأمل الكبير.

سابعاً ـ وأنّ الصّلاة الإسلامية هي عماد تعاليم هذا الدّين الإسلامي الذي جعله الله تعالى قيّماً على تطوير الفطرة البشرية.

ثامناً ـ وأنّ الله ورسوله يبرآن ممّن يفكّرون بأسلوب التفكير المادي، والذين يكونون بذلك من المشركين الذين يفرقون دينهم شيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون.

فهذه هي خلاصة مافهمته من آيات سورة الروم المذكورة، والتي لاحظنا سطحية وحرفيّه مافهمه منها ابن كثير على حسب ما أوردته من تفسيره من أقوال منسوبةٍ إليه. ولاتُدرك هذه الأمور إلاّبوعي حقيقة الفطرة البشرية المشروحةً في نظرية جذور الأخلاق. هذا وإنّ جميع ماأتكلم عنه في باب العرفان الإلهي من هذا الكتاب إنّما يتعلّق بالحقيقة الثانية وهي كيفية رعاية وتطوير هذا الكيان الروحي الذي اكتسبه المؤمن عن طريق إيمانه وبيعته. هذا وإنّ من يعي هاتين الحقيقتين يكون قد أخذ بالذريعة الرابعة التي تساعده على جذب محبة ربه وعرفانه والفوز بنصرته وتأييده والحصول على قربه ورضوانه.

قلت إنّ الذريعة الرابعة التي تجذب محبة الله هي وعي هذا المؤمن السّالك لحقيقة فطرته وحقيقة كيانه الرّوحي، وفقاً لمضمون الآيات التي ذكرتها من سورة الروم. وأضيف هنا أنّ هذه الآيات طالبت ونبّهت كذلك إلى ضرورة وعي المسار التوحيدي المطلوب من المؤمنين الموحّدين.

وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**مُنيبين إليه، واتّقوه، وأقيموا الصلاة، ولاتكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾. فإن غفل هذا المؤمن عن وعي معالم التوحيد، زلّت قدماه نحو هاوية الشّرك بالله والتفرّق عن سبيله. ولايُقصد بالشرك هنا الشرك الجليّ كعبادة الأصنام وغيرها، بل جاء التحذير في هاتين الآيتين الكريمتين من الشرك الخفيّ الذي تكلمت عنه في حينه. فهو المقصود من قوله تعالى: ﴿..**ولاتكونوا من المشركين.**﴾.

هذا وإنّ خفاء هذا النوع من الشرك، وخطورته، إشفاقاً من الله تعالى ورحمة بعباده المؤمنين السّالكين، دعته لتعليمهم دُعاء سورة الفاتحة وألزمهم

بتلاوتها في كل ركعة من ركعات صلواتهم المفروضة عليهم، واشتملت الفاتحة على مشاعلَ منيرة تنير لهم معالم هذا المسار التوحيدي. وعلى صورةٍ تبدو إعجازية صياغة ومضموناً. وقد فعل ربّنا ذلك على شاكلة ماتفعله شركات الكهرباء تغرس على طول الطريق أعمدةً على رؤوسها مصابيح مضيئة تنير لهؤلاء المارّة طريقهم ليصلوا بذلك إلى هدفهم المقصود سالمين. وإنّ المؤمن الذي لايهتدي بهدي هذه المعالم والمنارات التي تضمنتها سورة الفاتحة، يسقط نتيجة لذلك في مطبّاتِ الشرك الخفي وينحرف بذلك عن الصراط المستقيم، ويكون ﴿**من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.**﴾.

ولايعود يملك ناصية التفكير الروحاني، وتنقطع صلته بربّه ولايعود له من ناصرين. هذا وإنّ الآية (١٠٥) من سورة يوسف التي أتيت على شرحها في حينه، وهي قوله تعالى: ﴿**وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون. ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون أفأمنوا أنْ تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون. قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني وسبحان الله ومأأنا من المشركين.**﴾ تدور حول بيان هذا الشرك الخفي الذي حذرت منه آيات سورة الرّوم التي ذكرناها.

وبشوق بالغٍ من هذا المؤمن السالك يسأل ليتعرّف على هذه المعالم والمنارات التي أشعلها الله عزوجلّ من أجل توطيد أقدام هؤلاء المؤمنين السالكين وتثبيتها على صراطه المستقيم، والتي تضمنتها هذه الآيات السّبع من سورة الفاتحة أم الكتاب المبين.

وأساعد هذا المؤمن السالك ممّا فتحه الله عزوجلّ عليّ من هذه المعالم والمنارات، ووفقاً لأصول التفسير فأقول: من المعلوم أنّ من أسماء سورة الفاتحة "أم الكتاب" و "فاتحة الكتاب" لتنبيهنا إلى أنها مقدّمة للقرآن العظيم. لذلك فلابد للذي يتدبّرالقرآن الكريم أن يرجع إلى آيات هذه الفاتحة يستهديها هذا المفتاح وهذه المعالم والمنارات. من مُنطلق أن هذا البحر القرآني على سعته، وكأنه قد ضُغط وحُصر في كوبٍ صغير، هو آيات سورة الفاتحة. فقد ألقت هذه السّورة وبإيجاز معجز الضوء على موضوع خلق هذا الإنسان، وعلى علاقته بخالقه، ووضحّت المقصد من خلق الإنسان، كما وضحت علاقته بخالقه من

حيث أنّ هذه العلاقة تدور حول فضل الله ورحمته، كذلك بحثت سورة الفاتحة جميع الأمور المتعلّقة بالذات الإنسانية بشكل معجز أيضاً. لذلك سُمّيت سورة الفاتحة ضمن آيات القرآن الكريم "بالسّبع المثاني" تأكيداً منه جلّ شأنه للحقيقة التي ذكرتها وعلى اعتبارها المرجع المتكرّر لهذا الكتاب العزيز.

أتناول أوّل ماأتناوله البسملة أي بسم الله الرحمن الرحيم. هذه البسملة التي جُعلت في حدّ ذاتها مفتاحاً لسورة الفاتحة نفسها ولكلّ سورة من سور القرآن الكريم وأصل من أصول تفسيره فقد ابتُدئت البسملة بحرف الباء كحرفٍ ذي معنى، وليس كحرف هجاء لدخول هذه الباء على آلة الفعل وهو اسم الله عزوجلّ. ليكون التّقدير أبدأ مُستعيناً باسم الله وبمعنى الاستعانة. كذلك التقدير أبدأ ملتزماً بمسار التوحيد الذي أتى به الإسلام وبمعنى المصاحبة والالتزام.

وتلاحظون أنّ هذه الباء في "بسم الله" حملت لنا أوّل مَعْلَم ومشعلٍ على مسار التوحيد. الأمر الذي يُستنتج منه أنّ الذي يعصي ربّه، ويُسمل حين يشرب الخمر مثلاً ، يتناقض فعله مع دلالة باء البسملة ؛ ذلك أن المصاحبة والمعصية لايجتمعان ولايتجانسان.

وكأنّ الله عزوجل حين علمنا أن نبدأ بالبسملة، يكون قد نبّهنا إلى أنه لايحقّ للعاصي أن يستعين بالله على معصية ربّه وعلى ارتكاب أي نوعٍ من أنواع الشرّ التي تخالف مسار التوحيد الذي أتى به الإسلام. وكأنّ الله تعالى نبّه ذهن المؤمن السالك من خلال هذه الباء إلى أنّه تعالى لايتقبّل دُعاء من لايكون باراً مع ربّه ولايكون بعيداً عن ارتكاب الفواحش والآثام.

فهذا هو أوّل مَعْلَم لبسم الله الرحمن الرحيم. والمَعْلَمُ الثاني أو المنارة الثانية يستنبط من أداة الفعل (بسم). فالاستعانة بالله ومعرفته لاتتحقّق عن طريق الذّات الإلهية، بل عن طريق أسماء الله الحسنى وصفاته. يؤيّد ذلك قول الله تعالى في الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿**ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها، وذروا الّذين يُلحدون في أسمائه، سيُجزون ماكانوا يعملون.**﴾.

وقد أضاف لنا الله جل شأنه مَعْلَماً ثالثاً حين أضاف صفتي الرحمن الرحيم على (بسم) وقال (بسم الله الرحمن الرحيم). وهو أنّ من يزعم أنّ القوة الباطنة عند الإنسان هي جزء الذات الإلهية، فهو مُخطىء، فالذات الإلهية منفصلة

عن وجود الإنسان، وتتصف بصفتين أساسيتين هما (الرحمن الرحيم). على حين لايتّصف هذا الإنسان من حيث فطرته بهاتين الصّفتين العظيمتين.

والمَعْلم الرابع الذي تضمنته البسملة هو تنبيه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى هو مسبّب الأسباب في عالمنا الدنيوي لذلك يستعين به المؤمن في المآزق ولتعويض ضعف جبلّته. أي أنّ هذا العالَم يسير وفق مشيئة الله عزوجلّ، ولايسير من نفسه على حسب مايذهب إليه الطبيعيون.

ثم إنّ تركيز البسملة على لفظ الجلالة (الله) جل جلاله أضافت للمؤمن السالك معلماً خامساً وهو أنّ هذا الإسم ذاتيّ وجامد لايصّح اشتقاقه من لاه يلوه. فالله اسم هذه الذّات المقدّسة الأزلي الأبدي الحيّ القيوم المالك الخالق ورب العالمين.

والمَعْلم أو المنارة السادسة التي نُصبت لنا عن طريق بسم الله الرحمن الرحيم هو أنّ صفة الرحمن صيغت على وزن فعلان الدّال على الامتلاء والغلبة، لنقول أنّنا عُلّمنا أن ندعو الله مالك الرحمة الواسعة التي يشمل فيضها كل شيء في هذا الوجود، دونما مبادلة معنا أو استحقاق نعملنا وفعلنا.

كذلك فقد صيغت صفة الرّحيم علّى وزن فعيل الدّال على التكرار والاستحقاق وفقاً للسّلوك، الأمر الذي يضيف مَعْلماً ومنارة سابعة على مسار توحيد الله عزوجلّ، لتشير هذه الصفة إلى أن الله الرحيم الذي نعبده ونسعى إلى معرفته يجزي المستحقّ جزاءً مكرراً وحسناً ويتكرّر هذا العطاء على مرّ الزمان. أي أنّه في حين تتّصف صفة الرحمن بالعمومية والشمولية. فإنّ صفة الرحيمية يختصّ عطاؤها بالمؤمنين السالكين خاصّة، فهذا هو ماوضّحه لنا العلاّمة اللّغوي أبو علي الفارسي.

وأهمّ مَعْلم ومنارة أتت بها البسملة كمنارة ثامنة لتقي المؤمن السالك من الوقوع في الشّرك الخفي يبدو من خلال التأكيد على ضرورة قراءتها قبل شروعنا بأي فعل من أفعالنا ولو كان طعاماً أو شراباً. لنظل نحن المؤمنين وَاعِين لجميع المعالم والمنارات والمعاني والدلالات التي تضمنتها البسملة ومن خلال قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم. فكم هو واسع علم وقدرات هذا الإله الذي آمنّا به ونحاول التعرّف إليه، الله الذي استطاع أن يضغط هذه المصابيح الثمانية في أربعة ألفاظ؟

وأعرّج الآن على سورة الفاتحة، متناولاً أوّل آيةٍ من آياتها وهي ﴿**الحمد لله رب العالمين.**﴾. إنّ هذه الآية الكريمة ابتدأها ربّنا عزوجلّ بكلمة (الحمد)، في وقت نُلاحظ منه أنّ هناك ألفاظاً عدّة كألفاظ الثناء والمديح والشكر والرضا (محيط المحيط) تضّمنتها معاجم اللغة، وجميعها يدور حول معنى الحمد. فالسؤال الذي يُواجهنا: لماذا اختار الله ربّنا لفظ الحمد، ولم يختر الثناء والمديح والشكر والرّضا ولنقول الثناء لله أو نقول المديح لله أو نقول الشكر لله؟

فلماذا إصطفى ربنا جل شأنه كلمة الحمد؟ ولماذا أتى بهذا اللفظ مُعرّفاً بالألف واللاّم؟ ولماذا أتي بالحمد بصيغة المصدر، لابصيغة الفعل فقد كان بالإمكان دفعنا لنقول حمداً لله رب العالمين.

فأنا أجيب على ذلك باختصار وأقول: لقد فعل الله ذلك ليضع بين أيدينا ويضيف إلى منارات البسملة منارات جديدة تهدي المؤمن السّالك سبيل عِرفانه ومسار توحيد الله تعالى وصراطه المستقيم. وليصونه إن هو اهتدى بهذه المعالم والمصابيح من أن تغوص قدماه في مُستنقع الشرك الخفي، فيُفرّق بالتالي أُمّته إلى مذاهب وشيع وأحزاب ولايفوز بمقاصده.

إنّ لفظ الحمد من حيث دلالته اللغوية أعمّ دلالة من الشّكر من حيث أنه يزيد عليه معنى: الإحساس بالفضل والإحساس والإقرار بكليهما معاً. أي أن الحمد يزيد على معنى الشكر دلالة على إحساس الحامد بجمال هذا المحسن، والرّضا به إلهاً مُحسناً.

كذلك وإن دلّ الثناء على المديح ونشر الذكر الحسن بين الناس كما أفاد بذلك صاحب معجم (المفردات). فإنّ الثناء يُفيد التكرار لتجربة ذاتية مع المُحسن يُذيعها مرّة تلو مرّة بين الناس، من هذا تتضح لنا سعة دلالة الحمد وشموليته وواقعيّة تعبيره.

ولفظ المديح يُستعمل أصلاً للأفعال اللاإراديّة، أي للتعبير به عن الأفعال العفوية للمادح. على حين يُعبّر بلفظ الحمد عن الأفعال الإرادية والاختياريّة كما وضّح ذلك صاحب معجم المفردات. وعليه فلو قلنا المديح لله، لانكون قد عبّرنا عن حمدٍ لله بحريّةٍ واختيار.

وأما لفظ الرّضا فلايفيد إلاّ التعبير عن رضا المحسن إليه، ولايدل على شعور بجمال هذا الذي أحسن. أي أنه يحمل دلالةً محدودة الأبعاد وفرديّة في مقابل لفظ الحمد الواسع الدلالات.

من هذا كلّه ندرك المَعْلم ومصباح الهدى الأوّل الذي ارتكز إلى اختياره جل شأنه للفظ الحمد من بين بقية الألفاظ التي تشترك معه في موضوعه. فقد علّمنا هذا الاختيار أن ندأب على الإقرار في كل ركعة من صلواتنا بالله الذي وسع إحسانه كل شيء، الإقرار من صميم أفئدتنا بدافع إيماننا بذلك عن علم، وبإرادتنا غير مكرهين على هذا الإقرار، الإقرار أنّ ربّنا الذي نعبده يتجلّى جماله في كونه الرحمن والرحيم، ومقرّين بأن الذي خلقنا حكيم لم يخلقنا عبثاً بل لمقصدٍ سام وهو أن نتعرّف إليه ولنكون من عباده الأبرار، وأن حياتنا الدنيوية ماهي إلا إحدى ظواهر إحسانه.

والمعلم والمنارة الثانية الذي حملها لنا لفظ (الحمد) تضمّنتها صياغة لفظ الحمد بصيغة المصدر، لابصيغة الفعل. فالمصدر يحمل معنى الشمولية، على حين أنّ الفعل يحدّد زمن الحمد. ذلك أنّ المصدر هو اسم الحَدَث الجاري على الفعل.

وصياغة الحمد بصيغة المصدر أفادتنا معلماً ومنارة ثالثة، وهو أننا لانحمد الله على ماعلمنا من إحسانه وحسب، بل نحمده على مانعلمه وعلى مانجهله من إحسان ربّنا عزوجلّ ماضياً كان هذا الإحسان وحاضراً، أو يأتي مستقبلاً. فهذا مايفيده صياغة الحمد بصيغة المصدر. وهذا المَعْلم والمنارة يعني بألفاظٍ أخرى أنّ ذات الله تعالى مُنزّهة عن كل نقص، وأنّ أسماءه الحسنى لاتحمل إلا دلالة الخير. فالله هو خيرٌ كُلّه.

ثم إن تعريف (الحمد) بالألف واللاّم أعطانا مَعْلماً ومنارة رابعة. فقد استعمل أل التعريف هنا للاستغراق لأنه يصحّ أن يُقال الحمد كلّه لله. يصحّ الايتاء بكلمة (كلّه) هنا مجازاً كما أفادتنا به المعاجم اللغوية. فقد أوتي بأل التعريف على سبيل الاستغراق في شمولية لفظ الحمد هنا لجميع خصائصه. فهذه الألف واللاّم لاستغراق جنس الحمد بجميع خصائصه. وهذه المنارة تهدينا سبيل التوحيد الكامل، وتقينا من فهم الألوهية ممزوجاً بالشرك الخفي.

ذلك أنّ المؤمن السالك سبيل عرفان ربه والمدرك دلالة الألف واللام في الحمد، يستحيل عليه أن ينسب إحساناً لما دون الله الخلاق إلا على سبيل الظّلية وعلى اعتبار أن الله رحمن رحيم.

وهذا المَعْلم الرابع يضمّ منارة خامسة معه، وهو أنّ علم الإنسان وفهمه ومايحمله من أدوات تحصيل علم، لاتكفي هذا الإنسان ولاتساعده على الإحاطة بقدرات الذات الإلهية وواسع علمها لرضوخ هذا الإنسان لقانون الاحتياج العام. فلا يعلم ولن يعلم ولن يُحيط بشيء من علم الله إلاّ بما يشاء الله تعالى أن يُعلّمه إيّاه. لذلك فإنّ من واجب هذا المؤمن السالك أن يدأب على الدّعاء قياماً وقُعوداً وفي جميع حالاته التي يمرّ بها يومياً أنْ ربّي زدني علماً.

وهاأنّ ماأسفر عنه التّقدم العلمي في جميع مجالات الحياة راح يؤكد هذه الحقيقة التي كشف عنها هذا المَعْلم الرابع الغطاء. فجميع علماء المادة المعاصرين كلّما مكّنهم الله تعالى من فكّ أحد رموزها وألغازها، راحوا يُلاحظون أنهم لايزالون يواجهون رموزاً للمادة وأسراراً تستدعي منهم مثابرة البحث والاستقصاء، وكأنهم يعترفون بألفاظ أخرى بما تضمنته هذه المنارة الخامسة التي احتواها عليها أوّل لفظ من ألفاظ أوّل آية من آيات سورة الفاتحة، وهو كلمة الحمد.

والمَعْلم السادس ومشعل الهدى يتجلّى من خلال قوله تعالى: ﴿**الحمد لله**﴾ أي من خلال الجار والمجرور (لله). فاللاّم استعملت هنا بمعنى الاستحقاق لأنها وردت بين معنى وذات. فاللاّم أضيفت للفظ الجلالة (الله) الجامع لجميع الأسماء الحُسنى. لتؤكّد هذه اللام استحقاق الله عزوجلّ لجميع خصائص الحمد لذاته على سبيل الأصالة وهكذا فإن تنبيه الأذهان إلى حكمة اختيار لفظ الحمد، وصياغته وبصيغة المصدر الذي صيغ بها، وشمولية الله لخصائص الحمد كلها، والاستغراق في جنس هذه الخصائص يوضح أن علم الإنسان مهما ارتقى وتسامى يظلّ دون مستوى إدراك علم الله وقدراته.

والمعلم والمشعل السّابع يتجلّى في إضافة لفظ (الرّب) بعد لله. هذا اللفظ الذي يعني على حسب ماأورده صاحب المفردات في معجمه أنّه الذات الذي ينشيء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام أي ينشئه وفق مايُسمونه بقانون الارتقاء. وهذا المعلم يقضي أن يأخذ المؤمن السالك بقانون الارتقاء كأساسٍ

لتفسير جميع ظواهر الحياة على أساس هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الله الخالق لكلّ شيء، ليصون فهمه من كل جمود يخالف العلم ومايكشف عنه من حقائق كونية، فالله جل شأنه لايتنافى مع قَدرِهِ أن يكون ربّاً بالمعنى اللغوي.

وقد أضيفت إلى كلمة الرّب كلمة (العالمين) لتضيف معلماً ومنارة ثامنة للمؤمنين السالكين، من أنّ ربوبيّة الله تعالى لاتشمل الإنسان وحده، بل تشمل كُلّ موجودٍ سوى الله تعالى، سواء أكان هذا الموجود من عالم المادة والأجسام أو كان من عالم الأنفس والأرواح. أو كان جُرماً سماوياً كالشمس والقمر والنجوم والمجرات وغيرها من الأجرام (إعجاز المسيح ص٤٨).

وهذه المعلومة أفادنا بها صاحب معجم المفردات حين ذهب إلى أن (العالمين) جمع عالَم، وهو كلّ نوعٍ من أنواع المخلوقات. هذا الرأي الذي أكّدتهُ الآيات من سورة الشعراء: ﴿**قال فرعون وماربّ العالمين. قال ربّ السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تسمعون. قال ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين. قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون. قال ربّ المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون**﴾.

وبقوله تعالى (رب العالمين) يكون قد نبّه ذهن المؤمن السالك درب عرفانه إلى وجود قانونين قد سنّهما الله جل شأنه لتطوير مخلوقاته كلّها، قانوناً طبيعيّاً لتطوير الأجساد المادية وقانوناً روحياً لتطوير الأنفس والأرواح. ويعمل هذان القانونان جنباً إلى جنب وفي آن واحد.

والمؤمن الذي لايعي هذه الحقيقة التاسعة ولايلتزم بمعطياتها المفصّلة ضمن سور القرآن الكريم لايكون موحّداً كامل التوحيد، بل يشوب إيمانه شرك خفيٌّ ويُخشى عليه أن يفرّق أمته ويهدم وحدتها.

فإذا أمعنا نظرنا في العلاقة والربط الذي حدث مابين (الحمد لله) و (رب العالمين). تبرز أضواء معلم ومنارة عاشرة على مسار التوحيد وهو صفة العالمية التي تتصف بها دعوة الإسلام، فلم يقل جلّ شأنه "ربّ المؤمنين" بل قال الحمد لله رب العالمين. وكأنه تعالى وبهذين اللّفظين "ربّ العالمين" قد بعث في نفس المؤمن السالك حسّه الإنساني ودفعه لينهج في سلوكه نهجاً إنسانياً فينظر إلى جميع خلقه والإحسان إليهم دون تفريق بين دين ودين ولونٍ ولون وعرقٍ

وعرق، إلاّ أن يكونوا أعداءً لخالقهم ولعباده المؤمنين. ومأعظم هذا المَعْلم والمنارة العاشرة على درب المسار التّوحيدي الإلهي.

وهذه المنارة العاشرة، تُرى بجانبها المنارة الحادية عشرة وهي تنبيه الله عزوجلّ ذهن المؤمن السالك إلى خضوع كلّ ماعدا الله تعالى إلى قانون التطور والارتقاء. أي يستحيل أن تستوي بداية أيّ شيء مع نهايته. بل يخضع كل شيء للتطور والارتقاء من حالته الدنيا الأوليّة، باتجاه التمام وتبعاً لتجلّي ربوبية رب العالمين. أي أن جميع أشياء هذا العالم مخلوقة، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وأنّ كلاً منها تُمرّرها الربوبية خلال أدوار تطوّر عديدة، وإن بدت ظاهراً مارةً من خلال دور واحد، فهذا هو الفهم الذي يقتضيه توحيد الله تعالى وفق معطيات هذه المنارة الحادية عشرة التي جلاّها الارتباط الموضوعي مابين الحمد لله ومابين ربّ العالمين.

والرابطة الموضوعية مابين الحمد لله ورب العالمين تُبرز لنا المعلم والمشعل الثاني عشر. وهو أن المادة وخلق الله لمخلوقاته عن طريق هذه الأداة يعني أنّ هذا العالم الدنيوي لن يكون الأول والأخير، بل هو الطور الأول على درب عطاء ربوبية ربّ العالمين وبدليل أنه خلق الموت والحيّاة أيضاً، لننتقل إلى الطّور البرزخي الذي سيكون أكمل وأسعد من عالمنا المادي، فهو طور أرقى وأسمى، ولابدّ أن يبعث هذا الإنسان يوم القيامة بكيان متطوّر أرقى وأسمى من كلا الكيانين الدنيوي والبزرخيّ، وأنّ حلقات هذا التطوّر لن تقف عند حدود وفي ظلّ تجليّات هذا الرّب العظيم رب العالمين. والمؤمن الذي يحيط علماً بمعطيات هذه المنارة الثانية عشرة يسير في دنياه قُدُماً منشرح الفؤاد وكله أمل وسعادة بمستقبله أيضاً. وهو يسير على مسار توحيد الله الذي خلقه وهداه إلى هذه المعلومة العاشرة بأسلوبٍ بياني مُعجز يأخذ بالألباب ويدهش أعظم المفكرين.

والمعلومة الثالثة عشرة التي تأتت عن الربط الموضوعي مابين الحمد لله رب العالمين هي أنّ مصدر جميع الأديان السّماوية واحد وهو الله الذي هو ربّ العالمين. وأنّ هذا الخالق الرّب هو الذي هدى عباده إلى وجوده منذ فجر وعيهم وبدأ يهديهم الصراط المستقيم عن طريق وحيه ورسله لذلك ورد في كتاب الله تعالى قوله: ﴿**وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير**﴾. وإن جميع الأديان إنما تشكّل حلقاتٍ متكاملة على طريق هذا التطور والارتقاء اللانهائي. أي أنّ المؤمن

السالك درب عِرفان ربه يستحيل عليه أن يقول بتوقف الله عن مكالمة الله مع عباده في يومٍ من الأيام مع الاعتقاد أنّ شريعة الإسلام هي آخر الشرائع وأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيّين.

فلا تضادّ في نظر هذا المؤمن الموحّد مابين استمرارية مكالمة الله مع عباده، ومابين اكتمال حلقات الدّين، وهكذا يكون قد صَادَفنا من خلال قراءتنا بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين واحد وعشرون معلماً ومنارة على مسار التوحيد الإلهي.

ونتفحّص ماتضمّنته الآية الثانية من سورة الفاتحة من معالم ومشاعل على مسار التّوحيد الذي أتى به الإسلام، والتي قال تعالى فيها ﴿**الرحمن الرحيم**﴾. فالذي نلاحظه أنّها آية لم تتجاوز لفظين، كانت البسملة قد اشتملت عليهما في بسم الله الرحمن الرحيم. فهل حدث هذا الأمر من قبيل التكرار، ونحن نعلم أنّ كلام الله تعالى مُعجز بيانياً ومُنزّه عن التّكرار.

٥ـ البسملة تعدُّ أحد أصول التفسير

هذاوإنّ الظن بأنّه تكرار يعود في نظري إلى الجهل بحقيقة البسملة. فالبسملة، وإن افتتحنا بها سورة الفاتحة، فليست هي جزء الفاتحة، بل هي مفتاحها ومفتاح كلّ سورةٍ من سُور القرآن الكريم. وبدون تفهّم مضمون الفاتحة لاتتفتّح علوم ومعارف السّور القرآنية على وجهها الصحيح. فالبسملة لها استقلاليتها، وهي في حدّ ذاتها مُعتبرةٌ أحد أصول تفسير القرآن العظيم. وهذا الطّرح الذي أطرحه، لايتّضح إلا بعد تقديم مثالٍ من داخل سورة من السّور وبشكلٍ موضوعي.

فمن هذا المنطلق، سأضرب للقارىء مثالاً يثبت منه ماذهبت إليه، ومن ثم أعود لأصل موضوعي وهو إبراز مافي ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ من معالم ومشاعل تنير مسار توحيد الله للمؤمنين الموحّدين.

دونكم سورة الحاقّة وقد تكلّمت عمّا سيحدث للأنفس بعد بعثها من مراقدها. فقد تكلّمت عن مصير الفريقين المؤمن والكافر وعمّا هو مُخبأٌ لهم يوم القيامة من نتائج تتأتى عن أعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا. ﴿**فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه. إنّي ظننت أنّي ملاق حسابيه. فهو في عيشةٍ راضية. في جنّةٍ عالية. قطوفُها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما**

أسلفتم في الأيّام الخالية.﴾ هذا عن مصير فريق المؤمنين. أمـا عـن مصـير الفريـق الكافر، فقد جاء: ﴿**وأمّا مَنْ أوتي كتابه بشماله فيقول يـاليتني لم أوتَ كتابيـه. ولم أدْر ماحسـابيه. ياليتهـا كـانت القاضيـة. مـاأغنى عـني ماليـه. هلـك عـني سلطانيه.**﴾.

وإلى هنا لايُواجه متدبّر الآيات غموضاً، وتزلزلاً في فهمـه لهـذه الآيـات الكريمة. والغموض الذي يحتاج إلى مفتاح يوجّه هذا المتدبّـر ويعينـه على الفهـم، هو قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿**خذوه فغلّوه. ثم الجحيم صلّوه. ثم في سلسـلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه.**﴾.

فما المقصود بغُلّوه؟ وكيـف يغلّونـه؟ ومـاالمقصود بثـم الجحيـم صلّوه؟ وكيف يصلّونه؟ ومـاالمقصود بسلسـلة ذرعهـا سـبعون ذراعـاً فاسـلكوه؟ وكيـف يسلكونه؟

وقبل أن أُجيب على هذه التساؤلات مستعيناً بالله تعالى وبمضمون بسم الله الرحمن الرحيم الذي يشكّل أحد أصول تفسير الآيات المذكـورة. أتلـو على مسامع القارىء مافهمه ابن كثير مـن هـذه الآيـات الكريمـة، ليسـاعد ذلـك هـذا القارىء على الموازنة وإصدار الأحكام.

فقد أورد ابن كثير على الصفحة ٤١٦ من الجزء الرابع مـن تفسـيره أن الفضل بن عياض قال: (إذا قال الرّب خذوه فغُلّـوه، ابتدره سبعون ألـف مَلَـك أيّهم يجعل الغُلّ في عُنُقـه). كذلـك نقـل عـن كعـب الأحبـار قولـه: (في سلسـلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه، كل حلقةٍ منها قدْر حديد الدّنيا.). كذلـك نقـل عن ابن عباس حول معنى (فاسلكوه) قوله: (تُدخل في أسته، ثم تُخرج من فيـه، ثم يُنظمون فيها كما يُنظم الجراد في العود حين يُشوى.). كذلك نسب إلى ابـن عباسٍ قول آخر أنّه قال: (يُسلك في دُبُره حتى يخرج من مِنخريـه، حتـى لايقـوم على رجليه.).

فلِمَ ذهب ابن كثير مذهب هذه الأقوال التي لايستسيغها عقلٌ ولامنطـقٌ فتصوّر الله عزوجلّ وكأنّه مُستبدٌ جـزار؟ إن نُقطـة الزّيـغ عـن المعـاني الحقيقيـة، انطلقت من الميـل إلى معنـى دون المعنـى الآخـر لكلمـة (غُلّـوه). فلفـظ الغُـلّ لـه معنيان: الأول العطش الشديد الذي ترافقه حرارة جوفٍ شـديدة. والثـاني طـوقٌ من حديد (محيط المحيط). فالمعنى الأول أتى من تخلّل شيءٍ في شيء على حسـب

ماأورده صاحب المقاييس، حيث تقول العَرَبُ: غَلَلْتُ الشيء في الشيء: إذا أثبته فيه كأنّما غرزته، من هذا أتى معنى العطش للغُلّة والغليل، فهذا العَطش ينغلّ في الجوف وترافقه حرارة. حيث يقال: بعيرٌ غلّان أي ظمآن. والغِلّ هو الحقد والضغن ينغلّ في صدر صاحبه.

فابن كثير أخذ بمعنى (طوق من حديد) للفظ الغُلّ، وأعرض عن المعنى الآخر، فلماذا فعل ذلك وانتهى إلى هذه المعاني المضحكة؟ جواب ذلك أنه لم يضع في حُسبانه مضمون بسم الله الرحمن الرحيم كأصلٍ من أصول تفسير هذه الآيات. أي لم يعتبر صفتي الرحمن والرحيم اللتين افتتحت بهما سورة الحاقّة كقرينة تدفعه إلى الأخذ بالمعنى الأول. والإعراض عن المعنى الآخر وهو الطوق من حديد.

ومادام قد زاغ من أوّل الطّريق وأخذ لفعل (غُلّوه) معنى ضعوا الطوق الحديدي في عُنق هذا الكافر، فقد راحت مخيلته تصوّر له أن سبعين ألف ملك من ملائكة الله راحوا يتسابقون لتنفيذ أمر ربّهم لأنه تعالى قد خلقهم ﴿**يفعلون مايؤمرون**﴾ دون أن يقدّم على هذا التصّور السّاذج أي دليلٍ قرآني أو عقلي. فصّور بلبلة وهرجاً عظيماً يحدث عند تلقّي الأمر الإلهي، فالذي يذهب مذهب ابن كثير دون إعمال عقله ومراعاة أصول التفسير، يحشو دماغه بتصوّرات طفيليات تأكل محاكمته وتقتل فيه روح الحوار. هذا وإن بقيّة ماأوردته من أقوال ابن كثير هي من هذا الباب والقبيل. ممّا لاحاجة بي للإفاضة فيه.

والذي أقوله في هذا السيّاق هو أنّ معنى الطوق من حديد، ومعنى السلسلة الحديدية لايؤخذ به في هذا المقام لمنافاته مع ماتضمنته البسملة ومع ماحملته من مضمون صفتي الرحمن الرحيم.

وهل يصدّق عقلُنا أن يقدم ملائكة الله على فعل ماصوره لنا ابن كثير من فعلها، في وقتٍ نعتقد فيه أنّ الله الذي حاشاه أن يأمر بهذه الأوامر يتّصف بصفتي الرحمن الرحيم؟ وهل لمخيلّة عاقل أن تتصوّر إمكانية إدخال حلقات حديدية كل واحدة منها بقدر حجم حديد الدنيا، إدخالها من أست إنسان ودُبُرٍ لايتجاوز قطر فتحته سنتيمترات؟ فالغلّ بمعنى الطوق من حديد لايؤخذ به في هذا المقام بأيّ شكلٍ من الأشكال، فهذا ماوجهتنا إليه صفتا الرحمن الرحيم من

بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا ماوجهنا ربّنا جل شأنه إليه في عدّة مواضع من سورة الحاقة نفسها.

لنعد إلى الآية (١٨) الثامنة عشرة فالله عزوجلّ قال هناك: ﴿**يومئذٍ تُعرضون لاتخفى مِنكم خافية.**﴾. وقد وجهنا جل شأنه بهذه الألفاظ إلى أنّ الإنسان لايبدو في الحياة الدنيا على حقيقته، بل تظلّ هناك خافية عن أعين سواه من الناس. ولايعني هذا أن هذه الخافية تخفى أيضاً عن علم الله عزوجل. فهو تعالى وجهنا بألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أنّ عالم المعاد هو عالم تجسيد لما يخفيه الإنسان في نفسه عن أخيه الإنسان. وعندما قال تعالى (غلّوه) فقد نبّه إلى أن هذه الخافية هو ماأخفته صدور هؤلاء الذين كفروا بالله وبرسله وناصبوهم العداء. فقد أضمروا في صدورهم غلّاً أي حقداً دفيناً وضغينة دون مبرّر، أي أخفوا حرارة هذا الحقد وناره الملتهبة المتأججة شوقاً للقضاء على فئة المؤمنين بالله عزوجلّ.

وكما أنّ ملائكة الله موكلةٌ على تهيئة أسباب كل شيء في الحياة الدنيا. كذلك فالله تعالى أوكل إلى ملائكته أن تجسّد هذه الأحقاد ولهيبها في عالم المعاد، وتُبدي ماكان يعمر أفئدة أعداء الله من نار حقدٍ ونار ضغينة دفينين، وهي بعد أن تجسّد هذا الغِلّ بهذا الغُلّ لاتعود تخفى منكم خافية ويُعرض المجرمون على حقيقتهم. فهذا هو المعنى الذي عبّر عنه فعل ﴿**خذوه فغلّوه**﴾ أي هيئوا أسباب تجسيم مافي صدره من غِلّ. وليس أن يضعوا في عنق أو يد هذا الكافر طوقاً من حديد.

وهو جلّ شأنه حين نقل لنا ماسينطق به هذا الكافر بعد بعثه من مرقده، وهو: ﴿**ياليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ماحسابيه. ياليتها كانت القاضية. ماأغنى عنّي ماليه. هلك عنّي سُلطانيه.**﴾. فقد نقل جل شأنه هذه الأقوال ليساعدنا على إدراك مابلغه هذا الكافر من شدّة الظّمأ حين بُوغت بهذا المصير الذي آل إليه. فكل إنسان يجفّ ريق فمه في مثل هذه المواقف الحرجة، ويتأجج صدره يأساً وقنوطاً وفُقدان معنويات. ولايحتاج في تلك اللّحظات إلا إلى ملكٍ يجسّد مايدور في فؤاده وخلَده ليبدو جحيماً يحرق صاحبه. وهذه الآيات نقلها لنا ربّنا لتساعدنا على فهم قوله تعالى: ﴿**ثم الجحيم صلّوه.**﴾ أي جسّدوا أُوار نار الجحيم المُستعرة في فؤاده بعد بعثه من مرقده.

وبعد ذلك وعند هذه النقطة الأخيرة يطرح سؤال نفسه وهو: إذا جسّدت ملائكة الله مافي صدور الكفار من جحيم راح يحترق الواحد بأوارها. فكم هي المدة التي سيترك الله تعالى هؤلاء على هذه الحال البالغة التعس؟

وقد أجاب جل شأنه على هذا السؤال وقال: ﴿**ثم في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه.**﴾. وليس معنى هذا أن تأتي الملائكة بسلاسل حديدية كل واحدة منها مؤلّفة من سبعين حلقة. الأمر الذي يعني أن لنعدد (سبعون) هنا مفهوماً آخر غير المتبادر إلى أذهاننا.

وهذا المعنى الآخر توجهنا إليه عدالة الله عزوجلّ. فمتوسّط عمر الإنسان يدور أصلاً حول رقم السبعين المذكور يزيد تارة ويقلّ أخرى تبعاً للعوامل والمسبّبات. هذا وإن الله عزوجل أشارت عدالته البالغة إلى أنّ العذاب الجهنّمي الذي سيصير إليه هذا الكافر ستتناسب مُدَدُهُ مع السّنوات التي قضاها هذا الكافر بربه وبرسل ربه، منغمساً في مشاغل الدنيا ومُنساقاً مع رغباته وميوله وأهوائه غير مُبالٍ بالمقصد الذي خلقه الله ربّه من أجل تحقيقه، وبعيداً عن فئة المؤمنين. وإلى هذا ورد قوله (فاسلكوه) أي فاسلكوه في جحيم يتناسب طول زمنه مع ماأمضاه من سنوات عمره بعيداً عن ربّه.

وراح جل شأنه بعد ذلك يؤكّد جميع ماذكرته من حقائق منبّهاً إلى أن يوم المعاد هو يوم تجسيد لأعمال الإنسان وأفعاله الدنيوية وقال بحقّ ماجرى لهذا الكافر ويعلّل أسبابه: ﴿**إنّه كان لايؤمن بالله العظيم. ولايحضُّ على طعام المسكين. فليس له اليوم هَهُنا حميم. ولاطعام إلاّ من غِسْلين. لايأكله إلاّ الخاطئون.**﴾ أي أن أحقاده وكفره وانغماسه في بلبال الدنيا، لم يثمر له إلا هذا الجحيم الذي تجسّم ناراً تحرقه ويتلظّى بأوارها. على حين أن المؤمن الذي كان يؤمن بالله العظيم، وكان يحضّ على طعام المسكين قد تجسّمت نتائج أعماله الصالحة ﴿**فهو في عيشةٍ راضية. في جنّةٍ عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية.**﴾.

ولم يقف جل شأنه عند هذا الحدّ من البيان وتقريب للأذهان وتوجيهها إلى هذه المعاني التي ذكرتها. بل أضاف يقول: ﴿**فلا أُقسم بما تُبصرون. ومالا تبصرون. إنه لقول رسول كريم. وماهو بقول شاعر، قليلاً ماتؤمنون. ولابقول كاهنٍ قليلاً ماتذكّرون. تنزيلٌ من ربّ العالمين.**﴾.

فقد راح جلّ شأنه يُقسم ـ والقسم تقديم شهادة ـ أي راح تعالى يوجّه ذهننا إلى مانبّه إليه في البداية من خلال قوله: ﴿**يومئذٍ تُعرضون لاتخفى منكم خافية**﴾ وليؤكّد على أن مايكتمه المرء في صدره ومايخفيه يجعله ظاهراً بمظهر شيء يُبصره النّاظر إليه. ويجعله غير ظاهر بما يخفيه في أعين سواه، لكنّ الله مطّلع على سرّه هذا وأخفى منه. وأن محمداً ﷺ الذي تكلم عن نتائج الأعمال وعن هاتين الحقيقتين ظاهر الإنسان ومايخفيه وعن أنه لابدّ أن يأتي يوم المعاد تتجسّم خلاله آثار الأعمال الخافية، هو رسول صادق فيما يقول ويدعيه.

وأنتم أيها الغافلون عن هذه الحقائق كلّها والتي أتى بها محمد الصادق الأمين، قليلاً ماتتدّبرونها وتؤمنون بها، ولذلك فقليلاً ماتذكّرون. وكأن الله عزوجلّ قد أراد أن يقول لنا بألفاظٍ أخرى أنّ على الإنسان أن يكون ظاهراً ومتخلّقاً بصفات الرحمن الرحيم، فلايحمل في صدره حقداً ولاضغينة على أحد من خَلق الله تعالى، وأن يبقى بعيداً عن اتباع أهوائه وميوله وشهواته فلا ينغمس في بلبال المشاغل الدنيوية إلى أخمص قدميه، وأن يؤمن بربّه ويقدم دينه على دُنياه.

بهذا المثال من تفسير بعض آيات سورة الحاقّة وبهداية مضمون صفتي الرحمن الرحيم من البسملة بسم الله الرحمن الرحيم أكون قد أثبت ووضّحت أنّ للبسملة استقلاليتها، وأن في استقلاليتها يكمن أحد أصول تفسير القرآن الكريم. وأنّ الآية الثانية من سورة الفاتحة لم يحدث فيها تكرار لصفتي الرحمن الرحيم. بل جيء بهاتين الصفتين هنا لحكمة بالغة اقتضاها التسلسل الموضوعي.

هذا وتوضيحاً للصلّة الموضوعية مابين ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ وآية (الرحمن الرحيم) كمعلم ومنارة أولي أقول: إن جميع المربّين لايستوون علماً ووسائل بيان وقُدُرات. وإن كلّ مُربٍ من المُربّين يؤدي مهمّته على قدر مالديه من هذه الصّفات. فإذا تدبّرنا قوله تعالى في الآية الأولى ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ نلاحظ الإعلان عن أنّ ربوبية الله لكوننا الدنيوي الذي نعيش فيه تشمل العالمين أي جميع المخلوقات إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً على حسب ماسبق أن بيّناه. والسؤال الذي يطرح نفسه بعد سماع هذا الإعلان، هو: ماهي حدود قدرات وعلم ووسائل هذا الإله الخالق والتي تمكّنه من أن يصبح ربّا للعالمين؟

وقد أجاب الله جلّ شأنه بمعلم جديد على مسار توحيد ذاته تعالى، وقال إنّه جلّ شأنه ﴿**ربّ العالمين**﴾، لاتّصاف ذاته بصفتي الرحمن الرحيم. وواقع هذا الكون يؤكّد ذلك ويثبته، فما هذا الكون ومافيه إلا عطاء هذا الإله الرحمن. وإنّ جميع مابعث الله من رسل وأنزل من شرائع وطوّر في جميع أنواع الخلق الذي أبدعه لشاهد حيٌّ على أنّه هو الإله الرحيم أيضاً. الرحيم الذي لايُضيع أجر من أحسن عملاً. وأنّ ربوبيته وعطاءه سينكرّران في عالم البزرخ بعد الممات، وفي عالم مابعد بعث الأنفس من مراقدها. فهذه منارة ومعلم لاينبغي للمؤمن السالك الموحّد أن يتجاهله على مسار توحيده لبارئه عزوجل.

والمَعْلم والمنارة الثانية التي أنارت لنا طريق توحيد بارئنا عزوجلّ، هذه المنارة التي لفتت أنظارنا إليها الآية ﴿الرحمن الرحيم﴾، هو أنّه لايحقّ لأيّ وجود اتّخذه الناس ربّاً لهم وقدّسوه، لايحقّ لهم أن يُطلقوا عليه صفتي الرحمن الرحيم. من منطلق أنّ ماسوى الله الخالق فهو وجود مخلوق ومحتاج في قيامه إلى الله الذي خلقه وهو الرحمن الرحيم. فهذه حقيقة ومَعْلم ومنارة على مسار التّوحيد الذي يسير عليه المؤمنون السّالكون.

والمَعْلم والمنارة الثالثة التي تضمّنتها آية ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ هو حملها للحجّة القاطعة التي يثبت من خلالها بُطلان كفارة المسيح الناصري التي يعتقدها المسيحيون. وهذه الحجّة تتمثّل في أنّ الله الرحمن الرحيم لايُسمّى كذلك إذا كان عاجزاً عن غُفران ذنوب عباده. لذلك فهو بالتالي لايحتاج لإرسال ابنه الوحيد الذي يزعمونه ليقتله ويفتدي به خطايا المذنبين. فالذي يقدم على هذه الخطوة يكون محدود العلم والقُدُرات : هو بحاجة إلى ابن يرثه من جهة، وهو بحاجة للتضحية بهذا الابن تكفيراً عن ذنوب المُذنبين، ولايتفق ذلك مع دلالات صفتي الرحمن الرحيم.

وعلى هذه الصّورة فلا يكون في آية ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ تكرار لصفتين احتوتهما البسملة، بل فيها إظهار لتسلسل موضوعي اقتضته صفة رب العالمين. وأن هذه الآية حملت للمؤمنين الموحدين معالم ثلاثة تهديهم على مسار التّوحيد. ولتصون هؤلاء المؤمنين السالكين من أن يشركوا بربهم شركاً خفيّاً ينتهي بهم إلى البعد عن خالقهم وإلى تفريق أمتهم إلى شيع وأحزاب كُلّ حزب منهم بما لديهم فرحون.

والآية الثالثة التي يكمُلُ بها حمد الله والثّناء عليه هي قوله تعالى: ﴿**مالك يوم الدّين**﴾. ومعلوم أنّه لايُسمّى مالكاً من كان لايملك صفة الاقتدار. ثم إنّ لفظ اليوم يعني مُطلق الوقت من حيث أصل وضعه على حسب ماورد في معجم لسان العرب. كذلك فيوم الدّين يوصف به زمن محاسبة الناس على ماقدّموه من أعمال، فهو يوم المكافآت، كما أنه يوم الغلبة والحكم والاستعلاء والسلطان، وليوم الدين معنى آخر وهو زمن الشريعة على حسب ماورد في معجم (أقرب الموارد).

وقد حملت لنا هذه الآية الثالثة ثلاث منارات على مسار التوحيد إضافة إلى ماسبق من منارات. فالمعلم والمنارة الأولى يتجلّى من خلال لفظ (مالك) فلم يؤت بدلاً عنه بلفظ (ملك) مثلاً. تنبيهاً لأذهان المؤمنين السالكين إلى أن زمن بعث الأنفس من مرقدها يكون الأمر فيه لله الواحد القهار. الذي يقدر على محاسبة كل نفس بما عملت. فيعاقب أو يغفر لمن يشاء ويقدر.

والمعلم والمنارة الثانية التي أُضيئت عن طريق انتخاب لفظ (مالك) أيضاً. الإشارة إلى أنّ الله رب العالمين الرحمن الرحيم بيده مقاليد التّرغيب والترهيب من منطلق كونه مالك يوم الدين. وبهذا المَعْلم والمنارة يكون قد تحقق الرّبط والتّسلسل الموضوعي بين هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة. وتكمل بذلك معالم حمد الله والثّناء عليه.

ثم إننا إذا أخذنا للدّين معنى الشريعة، وهو المعنى الذي ورد في معجم أقرب الموارد، تتجلّى لنا من خلال ذلك مَعْلم ومنارة ثالثة على مسار توحيد الله عزوجلّ. هذه المنارة التي تعني بألفاظٍ أخرى أنّ الله عزوجلّ يتجلّى بجلال وجمال كاملين في كلّ زمان يُنزل فيه شريعة جديدة لهداية عباده المؤمنين السّالكين وتطويرهم باتّجاه التمام. حيث تتجلّى عند إنزاله تعالى صفة الشرائع مالكية الله بأوضح صورها، وعلى صورة تُدهش الباحثين والمفكرين. أي أن القانون القدري العام الذي تطرّقْتُ إلى ذكره في (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة) والذي تضمّنه قوله تعالى من الآية ٢٠/٢١ من سورة المجادلة: ﴿**إنّ الذين يُحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين. كتَبَ الله لأغلبَنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز.**﴾. هذا القانون تبدو معالمه أزمنة إنزال الشرائع السّماوية، إثباتاً من الله جلّ شأنه أنه ربّ العالمين. والرحمن الرحيم. ومالك يوم الدين، أي مالك أزمنة

إنزال شرائعه لوضعها موضع التنفيذ. وهذه حقيقة أكّدها منطق تاريخ جمع الأديان السّماوية. ومَنْ لايذكر نجاة نوح من الطوفان ونجاة موسى من فرعون والانتصار السّاحق الذي حقّقه محمد المصطفى ﷺ سيد الأنبياء وخاتمهم على جميع الذين ناصبوه العداء؟

والمفسرون على حدّ علمي لم يأخذوا ليوم الدين معنى مالك يوم الشريعة لأسباب لامجال هنا للخوض فيها. أما إمام زماننا فقد تميّز بتوضيح هذا المعنى على ضوء القوانين القدرية العامة. وقد وضّحت في كتاب القضاء والقدر أنّ الله تعالى يتعامل مع عباده في هذه الحياة الدنيا كملك وليس كمالك، وعلى أساس من القوانين الطبيعية التي سنّها لهذه المادة التي فوّض إليها خواصّها على شاكلة مايفوّض القاضي بعض صلاحياته لشرطة المرور، ويظلّ مع ذلك المرجع الأخير في كلّ الأمور.

أما زمان إنزال الله لأيّة شريعة سماوية، فيختلف الأمر عنده حيث يتجلّى الله بصفة المالكية ليحمي عباده المرسلين من جهل الجاهلين. وقد دلّ تاريخ جميع رسل الله تعالى أنّهم ووجهوا دوماً من أقوامهم بالسّخرية والتكذيب والاستضعاف. والله عزوجلّ، وغيرةً منه على مرسليه، يتجلّى على العالم زمن بعث هؤلاء المرسلين بصفة مالكيته لهذا العالم، ليظهر بهذا التجلي صدق مرسليه وليُهلك أعداءهم الظالمين. ويحقق من خلال تجلّي مالكيّته على أيدي الذين يرسلهم إلى هؤلاء أظهر المعجزات، حتى يُحيّر الذين يكفرون به وبشرائعه وبرسله ويبهتهم ويثبت لهم بالتالي أنه جل شأنه هو المالك الحقيقي لهذا الكون وربّ العالمين الرحمن الرحيم ومالك يوم الدّين.

أفلم نقرأ في كتاب الله العزيز وعد الله لرسوله محمّد ﷺ ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾؟ وهذا تاريخ محمد بن عبد الله ﷺ يشهد على صدق هذا الوعد الإلهي، وعلى تجلّي الله تعالى بصفة مالك يوم الشريعة. فقد هيّأ جل شأنه وبصورة معجزة جميع الأسباب لحماية رسوله خاتم النبيين ولتأييده ولاستجابة أدعيته، ولإظهار المعجزات على يديه. خصوصاً وأنه تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافّة أيضاً.

ويثبت من ذلك أنّ الله عزوجلّ هو مالك هذا العالم على وجه الحقيقة، وإن كان يتجلّى بصفة الملك من خلال النواميس الطبيعية ومن خواصّ ماتحمله العناصر المادية التي تتجاوز المائة عُنصر من تجلّيات.

ومن واجبنا أن نعلم أن لترتيب الصفات الإلهية المذكورة في هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة حكمة بالغة، فالله في الطور لوجه ربوبيته من خلال هذين الوالدين فإذا ماشبّ الطفل عن الطوق يتجلّى عليه بصفة رحمانيّته ليستفيد عن طريق إعماله لعقله الناضج من التعاليم التي ينزلها في شرائعه. فإذا استيقن وجود ربّه وآمن به يتجلّى عليه بصفة رحيميّته، ليظهر له ثمار أعماله الصالحات. وأخيراً يطوّره روحياً إلى درجة الفوز على أعدائه متجلّياً عليه بصفة يوم الدين.

ولامجال لي للتوسّع في شرح هذه الحقيقة التي اختصرت لكم معالمها في هذا المقام. فالمقام يقتضي مني إظهار المَعْلمات والمنارات الهامة التي أضاءتها لنا هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة لنتبيّن مواقع أقدامنا على مسار توحيد ربّنا عزوجلّ، ونصون أنفسنا من أن نكون من المشركين.

ومن واجب المؤمن السالك سبيل عِرفان ربه والسّاعي للفوز بمحبته وقربه ورضوانه أن يعي مسار توحيد الله تعالى على ضوء هذه المنارات السبع والعشرين التي أبرزناها. والآن الخّص هذه المنارات لتبرز مجتمعة وبشكلها الموجز فأقول :

أولاً ـ وردت الباء في بسم الله بمعنى الاستعانة والمصاحبة والالتزام بأوامره تعالى تنبيهاً للعُصاة إلى أنهم مرفوضون فلايحق لهم البسملة.

ثانياً ـ وهذه الاستعانة بالله لاتكون إلاّ عن طريق دعاء الله بأسمائه الحسنى.

ثالثاً ـ والذات الإلهية مستقلة عن وجودنا بدلالة اتصاف الله بصفتي الرحمن الرحيم.

رابعاً ـ وإن الاستعانة بالله وأسمائه الحسنى تعني أنّ الله عزوجل هو مسبب الأسباب في عالمنا الدنيوي.

خامساً ـ وإيراد لفظ الجلالة (الله) في بسم الله، فللدلالة على أن (الله) هو الاسم الأعظم للذّات الإلهية.

سادساً ـ وقد صيغت صفة الرحمن على وزن فعلان لتفيد الامتلاء والغلبة والسّعة والشمولية.

سابعاً ـ وقد صيغت صفة الرحيم على وزن فعيل لتفيد الاستحقاق وتكرار العطاء وشمولها فئة المؤمنين خاصة.

ثامناً ـ ثم إنّ قراءة البسملة وافتتاح كل سورة بها، حكمته أن يتدبّر المؤمن معانيها لتقيه شرّ الوقوع في الشّرك الخفي.

تاسعاً ـ واختيار لفظ الحمد للدلالة على أن الإسلام لايكره أحداً على شيء، بل إن المؤمن يحمد الله عن علمٍ وإرادةٍ وهو يعلم أن مقصد حياته هو التعرف على ربّه عزوجلّ.

عاشراً ـ وعند صوغ الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على شمولية دلالة إحسان الله تعالى على مخلوقه في عوالم الدنيا والبزرخ والمعاد.

أحد عشر ـ وكذلك فإن صياغة الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على أنّ أسماءه الحسنى لاتحمل إلا معاني الخير والله منزّه عن كل نقص.

اثنتا عشر ـ وتعريف الحمد بالألف واللام فالاستغراق جنس الحمد وخصائصه على وجه الحقيقة تعبيراً عن التوحيد الكامل.

ثلاثة عشر ـ كذلك فإن تعريف الحمد بالألف واللام فللدلالة على أنّ فهم الإنسان قاصر عن أن يُحيط بواسع علم الله عزوجلّ.

أربعة عشر ـ أما إضافة الجارّ والمجرور بعد الحمد فلتؤكّد استحاق الله لحمد عباده أصالةً وليس على سبيل المجاز.

خمسة عشر ـ ثم إن إيراد لفظ الرّب بعد ذلك فللإشارة إلى خضوع عالم المادة ومخلوقاتها لقانون التطوّر والارتقاء.

ستة عشر ـ أما إضافة العالمين في (رب العالمين) فللدّلالة على أن تجلي الربوبية يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد أيضاً.

سبعة عشر ـ وللدلالة أيضاً على أن الله تعالى سنّ القوانين الطبيعية لتطوير الأجساد كما سنّ القوانين الروحية القدرية لتطوير الأنفس.

ثمانية عشر ـ وللدلالة أيضاً على سمة إنسانية الدعوة الإسلامية وعالميتها.

تسعة عشر ـ وللدلالة أيضاً أن كل شيء لاتستوي بدايته مع نهايته، بل إنّ كل شيء يتطوّر باستمرار.

عشرون ـ وهناك رابطة موضوعية مابين الحمد لله ومابين رب العالمين وهي أن جميع الخلق لن يمرّ بطور الدنيا وحدها بل وبطوري البزرخ والمعاد.

واحد وعشرون ـ ورابطة موضوعية أخرى وهي الإشارة إلى أن جميع الأديان السّماوية تشكّل حلقات على درب تطوير الإنسان.

اثنان وعشرون ـ والرابطة الموضوعية مابين الرحمن الرحيم ومابين رب العالمين فللدلالة على أنّ قُدرات رب العالمين لاتقف عند حدود.

ثلاثة وعشرون ـ كما أنّ هذه الرابطة الموضوعية تجزم عدم إمكانية واستحاق أيّ مخلوق أن يسمى رحماناً رحيماً.

أربع وعشرون ـ وتتضمّن صفتا الرحمن والرحيم حُجّة قاطعة على بُطلان عقيدة كفارة المسيح التي يعتقدها المسيحيّون.

خمسة وعشرون ـ واختيار لفظ مالك يوم الدين فللدلالة على تجلّي الله عزوجلّ في الآخرة إلهاً واحداً قهّاراً.

ستة وعشرون ـ وأنّه أي مالك يوم الدين يملك حقّ الترغيب والترهيب.

سبعة وعشرون ـ كذلك فإنّ لفظ (مالك) اختير بمعنى مالك يوم إنزال الشرائع ولتكون العاقبة يومها للمؤمنين المُتّقين.

وأنا وقد أبرزت هذه المنارات على درب توحيد الله عزوجلّ، وممّا فتحه الله تعالى علي من بينات ومعارف فلأُثبت أيضاً أنّ سورة الفاتحة تشكّل أصلاً هاماً من أصول تفسير كتاب الله القرآن.

ولاينبغي أن يظنّ ظانّ أنّ ماأبرزته من هذه المنارات هو عدد قطعي، بل هو الأهمّ على مسار التوحيد وإلاّ فإن ماأتت به هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة من معارف وبيّنات هو أكثر من ذلك بكثير.

وبإمكاننا القول بألفاظ أخرى إن سورة الفاتحة جمعت جميع مطالب القرآن الكريم تحت جناحيها وبأحسن البيان. فمن تدبّر آيات هذه السّورة الفريدة، فكأنّه غاص في بحر القرآن يجمع دُرر عُلومه ومعارفه سواء بما يتعلق بعلم

المبدأ وعلم المعاد، وسواء مايتعلّق بعلم النّبوة وعلم توحيد الله في الذات والصفات. فالفاتحة تُشبه إلى حدٍ كبير عشّ طير العِرفان الإلهي، وإلى هذه الحقيقة وردت تسميتها على لسان محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم "أم الكتاب".

٦. التعبّد بالدعاء:

فرغنا من تبيّن المنارات التي أضاءها لنا الله عزّوجلّ على مسار توحيده تعالى، وذلك من خلال ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدّين.**﴾. فقد حمدنا الله تعالى وأثنينا عليه وعدّدنا صفاته في هذه الآيات الكريمة من سورة الفاتحة. وأسلوبنا في هذا الحمد وكأنّه تعالى غائب عن أعيننا فلانراه، مُعتقدين أنه تعالى يرانا ويسمع حمدنا وثناءنا عليه.

وانقلب الأمر بعد هذه الآيات الثلاث ففي الآية الرّابعة أصبحت صيغة خطابنا وكأننا ننظر إلى ربّنا عزوجلّ ونقول: ﴿ **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين.**﴾. وقد كان ينبغي على حدّ قول بعض البلاغيين أن نقول ﴿**نحمدك ونستعينك**﴾. فما هو سرّ هذا التبّدل الذي لاحظناه؟

نتدبر أولاً معاني ألفاظ ﴿**إياك نعبد وإيّاك نستعين.**﴾. إنّ كلمة (إيّاك) مركبّة من "إيّا" وتعني اسماً مبهماً. ومضافاً إليها كاف الخطاب بياناً ولتحديد خطابنا الموجّه إلى الذات الإلهية. وقد أوردناها للنّصب لتحديدها ذاته تعالى (محيط المحيط)، هذا التّبديل في أسلوب الخطاب كانت الغاية منه إبراز تعليم إسلامي تربويّ سآتي على بيانه، لذا يُعدّ هذا التبديل في أسلوب الخطاب في غاية البلاغة وحسن الكلام.

❀❀❀

ثم إنّ كلمة (نعبد) مشتقّة من عبد الله : أي طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحدّه (أقرب الموارد). وهذه المعاني لايستحقّها أحد إلا الله عزوجلّ لتفرّد ذاته تعالى في كمالها. فالله الخالق حقيقٌ بالطاعة والعبادة وهو الله الذي لاإله إلاّ هو.

أمّا كلمة (نستعين) فمشتقةٌ من الاستعانة وتعني طلباً مخصوصاً ممّن هو جدير ومستحقّ للإعانة. وعلى ضوء مابيّناه من معاني ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾ نحاول تفسير سرّ هذا التبديل الحادث في أسلوب خطاب قارىء آيات سورة الفاتحة. إنّنا حين نقول (إياك نعبد) كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : إننا نلتزم ياإلهنا بطاعتك والخضوع لك والتذلّل بين يديك وخدمة مقاصد دينك، ونلتزم بشرائع هذا الدّين، ونوحّدك لاشريك لك.

هذا وحين نُكمل ونقول ﴿**وإيّاك نستعين**﴾ كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : ياإلهنا وخالقنا أنت تعلم أنّ تعُهدّنا الذي تعهّدناه بقولنا ﴿**إياك نعبد**﴾ هو فوق طاقتنا، إلاّ أن تُعيننا على ذلك، ونحن مُستحقّون إلى إعانتك على وجه الأصالة لأنّك خلقتنا محتاجين إلى معونتك.

بهذا التبديل في أسلوب الخطاب والصياغة، يكون الله جلّ شأنه قد وجّهنا إلى الذريعة الخامسة وهي وسيلة الدّعاء، طلباً لمحبّة الله وقربه ورضوانه، وكأنه جل شأنه لفت أنظارنا إلى آخر آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: ﴿**قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم..**﴾.

لذلك لابدّ أن يتساءل المرء : مامعنى الدعاء؟ وماهي حقيقته العلمية والدينيّة؟

وقبل التوجّه للإجابة على هذا السؤال. لابدّ من التذكير أنّ ذات الله تعالى يستحيل أن تراها العين المجردة، فالله وراء الوراء، فكيف نخاطبه تعالى وكأننا نراه ونقول إياك نعبد وإياك نستعين؟

وتوضيحاً من جانبي لهذا الأمر أقول : أفلا نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد ركّز في آياته الكريمة على بيان أوصاف الله وأسمائه الحسنى، وقد كان لهذا التركيز حكمة بالغة. وهو أنّ الله عزوجلّ مادامت لاتراه أعيننا، فقد كان من الضروري إعطاء المؤمن العابد ملامح الله وأوصافه. لتتولّد صورته شيئاً فشيئاً في مخيّلة هذا المؤمن الذي يعبد ربّه، وتتحقّق له رؤية قلبية تعوّضه عن رؤيته العينيّة.

من هذا كان من واجب المؤمن الذي يقف يدعو ﴿**إياك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ أن يُحيط علماً بأسماء الله الحسنى وصفاته ودقائق مايتعلق بها من قوانين ومعلومات. ليستعين بذلك على الوفاء بعهد عبوديته لله عزوجلّ.

وبألفاظ أخرى فإن دأب المؤمن السّالك على تدبّر أسماء الله وراح يدعوه بها عن علم ومعرفة تتسرّب محبّة الله إلى فؤاد هذا المؤمن العابد، ويتجلّى عليه ربّه بأنواره، ولابدّ أن يبلغ هذا المؤمن في يوم من الأيّام مرتبة مخاطبة ربّه مباشرة وفق دعاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. وعلى هذه الصّورة نكون قد أدركنا عظمة دلالة الأسلوب التعبيري من خلال تبدّل الضّمائر من صيغة الغائب من (الحمد لله) إلى صيغة المخاطب في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾.

ففي هذا التّبديل لفتٌ لنظر الباحث المتدبّر إلى أن تعاليم الاسلام تبتدىء من صيغة الغائب عن الأنظار لتصل بالمؤمن السالك درب عرفان ربه إلى مرحلة لقاء هذا المؤمن ربّه وجهاً لوجه، ولتلقي أنوار رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ورب سائل يسأل عن حكمة تقديم (إياك نعبد) و(إياك نستعين). مُنطلقاً من أنّ الهداية لاتكون في الأصل إلا بمعونة الله ربّ العالمين.

ومن واجب هذا السائل أن يعلم أنّ الفاتحة لم تُعلّم في هذه الآية الكريمة طلب المعونة، بل علمتنا طلب الاستعانة، وبين المعونة والاستعانة فرق لغويٌّ دقيق. ذلك أن العون اشتُق من أعانه أي ساعده، على حين أن الاستعانة تعني طلب هذا العون، حيث يقول المرء : استعنته فأعانني، فالإعانة مصدر أعان، بينما الاستعانة مصدر استعان، وعليه فلا يستعين العابد ويطلب معونة ربّه إلاّ بعد أن يصبح عابداً ربّه عزوجلّ، فإرادة العبادة تعقب الإيمان والبيعة. أمّا التوفيق على مسار التوحيد والعرفان الإلهي، فلايتحقّق إلا بالاستعانة بالله وأسمائه، وهذا هو سرّ أنّ سورة الفاتحة علّمتنا أن نُظهر هذه الإرادة الشخصية من جانبنا أوّلاً من خلال قولنا (إيّاك نعبد). ومن ثم نستعين بالله وأسمائه أن يثبّتنا على هذه الإرادة والقرار الشخصي الذي اتخذه المؤمن السّالك سبيل عرفان ربه بالدّعاء ﴿**وإياك نستعين**﴾. أي أتوسل إليك ياإلهي أن تُثبّتني على إرادتي ومسلكي وقراري، فتجذبني بمحبّتك إليك، ولاتدعني أتشيّع إلى سواك، علماً بأن العبادة كما سبق أن وضحناها لغوياً، تعني الخضوع لله تعالى والتذلّل تذلّلاً تاماً بين يديه عزوجلّ.

وإنّه لايمكن أن يتمّ مثل هذا الخضوع والتذلّل التّامين إلا بالاستعانة بأسماء الله عزوجلّ وتبيُّن دلالاتها والقوانين الناظمة لها إلى جانب محاولة الاتّصاف بهذه الصفات ليتحقق التجانس بين العبودية والألوهية. وهذه هي الحقيقة التي عبّر الله تعالى عنها في مقام آخر من كتابه العزيز وقال: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني وليتخلّقوا بأسمائي وصفاتي.

وهذه الحقيقة تدلّنا على أنّ ظواهر العبادة إن هي إلا وسيلةٌ وليست غايةً في حدّ ذاتها. فالعبادات تهدف أصلاً لإحداث تبديلٍ في قوى النفس الباطنة للمؤمن السّالك وهي تمثّل في حقيقتها هذه الكيفية الباطنة التي بلغها هذا المؤمن على درب عِرفانه لربّه عزوجلّ.

أمّا الأفعال التي تتطلّبها هذه العبادات والمتعلّقة بتعيين مواعيد العبادات كالتّوجه إلى القبلة في الصلاة، والتأدّب حين الصّلاة وضّم اليدين إلى صدر المصلّي، وهذه الحركات من وقوفٍ وركوعٍ وسجود وهذه التسابيح وعددها وسواها من الأفعال فلا تدخل في أصل مفهوم العبادة ومُحتواها، وهي بمثابة غلاف هذه العبادات وقشرتها تُغلّف لب العبادة وجوهرها الذي هو لُبُّ وماهية معرفة الله عزوجلّ. هذا وإنّ الذي يتمسّك بهذه الأفعال وكأنّها الأصل، يكون كالذي تمسّك بالقشور وأهمل اللّباب.

ولايعني قولي هذا الاستهانة بهذه الأفعال، لابل إن هذه الأفعال لايجوز التخلّي عنها بصورة من الصّور إلا في حدود ماأذن ربنا عزوجلّ من حالات مرض وسفر وضرورات، والحكمة من هذه الأفعال، هو أنّها استندت في صياغتها إلى قوانين وفلسفات تتعلّق بتأثير ظاهر المرء في باطنه، إلى تأثير أفعاله وحركاته في قلب هذا العابد وتركيبه الباطنيّ، ولتساعد هذا العابد على الاستفادة ممّا يعيه من دعائه وقراءاته في عباداته فتفيده في زيادة توجّهه نحو خالقه من حيث الواقع والنتيجة.

وقد يعترض مُعترضٌ على صيغة الجمع التي صيغت بها آية ﴿ **إيّاك نعبد وإياك نستعين**﴾، هذه الصيغة التي يدعو بها فرد عابدٌ وليس أكثر من فردٍ واحد. وأجيب على هذا المعترض وأقول : إنّ تعليم الدّعاء بصيغة الجمع كان له حكمةٌ عظيمة وبالغة، فقد انطوت على الإعلان بأنّ الإسلام وتعاليمه هو دين إجتماعي هادف لتطوير البشر كافة وترقيتهم ، فلم ينزل الإسلام لتطوير فردٍ بعينه من

المؤمنين. ونزل الإسلام ليحثّ المؤمنين به لئلاّ ينفرد كل واحدٍ بنفسه وينزوي وحيداً يتعبّد خالقه، بل وإن من واجبه عدم مفارقة صفوف جماعة المؤمنين، بل ومن واجبه النّصح لهم والرّقابة للواحد منهم على سواه كيلا ينحرف أحدهم عن مسار توحيد الله عزوجلّ وكيلا تزلّ قدماه فلايواسيه أحد من إخوانه المؤمنين.

إنّ صيغة الجمع التي صيغ بها دعاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ تدفع المؤمنين ليقيموا صلواتهم جماعة ولايتفرّقوا، وليتفانوا جميعهم في طلب عرفان ربّهم والسّعي للفوز بمحبته ولقائه وتحصيل رضوانه، ولينبذوا أنانيّتهم الفردية وليؤثروا إخوانهم على أنفسهم، وليعمّ خير تعاليم الإسلام النّاس أجمعين.

فصيغة الجمع التي أمرت بها آية سورة الفاتحة في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**.﴾ وردت معبّرةً عن روح دعوة الاسلام الإجتماعية والإنسانية والتربوية، هذه الرّوح التي كانت قد شكّلت العامل الأساس الذي دفع زمرة المؤمنين بالإسلام وتعاليمه إلى قمّة مايبلغوه من تقدّم ورقيّ في صدر البعثة الإسلامية الأولى، وهي التي تشكّل اليوم نفس الدّافع ونفس العامل الأساس لتقدّم زمرة المؤمنين المبايعين إمام زماننا، هؤلاء الذين ستتحقق على سواعدهم نشأة الإسلام الثانية من جديد.

فإذا بلغنا هذا الحدّ من البيان، ربّ سائل يسأل : ماهي نوعيّة الاستعانة التي يطلبها المؤمن السّالك من ربّه حين يدعو ﴿**وإيّاك نستعين**﴾؟

وأعود بهذا السّائل إلى مانبهنا إليه ربّنا جل شأنه في مفصّل كتابه العزيز، أفلم يقل في الآية ٣٢ من سورة النّجم: ﴿**و لله مافي السموات ومافي الأرض ليجزيَ الذين أساؤوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّمم، إن ربّك واسع المغفرة، هو أعلمُ بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمّهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى.**﴾؟ فهو جل شأنه نبّهنا في هذه الآيات الكريمة إلى نوعية الاستعانة المطلوبة في ﴿**وإياك نستعين**﴾. إنه تعالى نبّهنا أوّلاً إلى أنّه المالك الحقيقي لهذا الكون، فأنت أيها المؤمن الدّاعي، ينبغي عليك أن تضع في حُسبانك حين تدعوني وتستعين بي أن تضع هذه المعلومة في حُسبانك، من أنني قادرٌ على أن أجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ثانياً ـ ومادمت أيها المؤمن السالك تسعى لتكون من الذين أحسنوا فاعلم أنّ ربّك واسع المغفرة، ومن واجبك اجتناب كبائر الاثم والفواحش، علماً بأنّ الإثم هو الذنب المتعمّد.

ثالثاً ـ واستثنى جل شأنه هنا "اللّمم" فماهي دلالته؟ اللّمم في اللّغة صغار الذنوب، وألّم بالذنب : فَعَله. وألّم يفعل كذا : أي كاد، فاللّمم من أفعال المقاربة. (محيط المحيط)، فما معنى هذا الإستثناء بإلاّ؟

رابعاً ـ وقد وردت الإجابة على ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿**وهو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض**﴾، بمعنى أنني أعلم أنكم عُرضة لمختلف المؤثرات ومنها ماتتركه أغذية الأرض في قواكم الباطنة من تأثيرات. ﴿**وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمّهاتكم**﴾ بمعنى أنني أعلم أنكم وأنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم خالطت قواكم الباطنة مؤثرات وموّرثات، فأنفسكم فيها خليط من هذه المورّثات الأرضية ومن هذه المورّثات في البطون.

خامساً ـ يقول تعالى إنّ اللّمم الذي أستثنيه يعود إلى هذه المؤثرات ومايتتج عنها من أفعال غير متعمدّة ﴿**فلا تزكّوا أنفسكم**﴾ بمعنى أنكم إذا سعيتم لتكونوا من الذين أحسنوا فإياكم أن تعملوا على أوامري دون الاستعانة بي، ذلك أنّه تعالى : ﴿**وهو أعلم بمن اتّقى**﴾.

فتقدير تقوى العمل وميزانه لايملكه إلا الله الذي ﴿**له مافي السموات والأرض.**﴾. فمن واجب المؤمن أن يعمل على أوامر ربّه ويستعينه في جميع مايعمله لتأتي نتائج أعماله كاملة العطاء مُنقّاة من جميع هذه الشوائب والمؤثرات التي ذُكرت في هذه الآيات. وهذه هي نوعية الاستعانة المطلوبة من المؤمن السّالك حين يقف بين يدي ربه يدعوه ويقول: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين.**﴾.

من هذا كلّه لابدّ أن يكون المؤمن السّالك درب عرفان ربه قد أحاط علماً بالذريعة الخامسة المطلوبة منه لجذب محبّة ربه عزوجل، ألا وهي ذريعة الدّعاء. هذه الذريعة التي نبّهنا إليها قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. أي أنّ كلّ عمل لايدعو فاعلُه فيه ربّه ولايستعين به على أدائه، لايؤتي ثماره المرجوة منه لمخالطة فعل هذا العمل هذه الشوائب التي نبّهت إليها سورة النجم، وصاحب العمل غير عالم بما وراء عمله وفعله من مؤثرات .

وعلى المؤمن الدّاعي أن يأخذ دوماً مضمون آيات سورة النجم بحسبانه : يدعو ربه على أنه مالك السّموات والأرض، ويدعوه على أنه واسع المغفرة ويدعوه على أنه لا يجهل مايحمله من مؤثرات وموّرثات.

والآن أعود لأتناول السؤال المطروح : مامعنى الدعاء؟ وماهي حقيقة الدّعاء علمياً وإسلامياً؟ أمّا عن معنى الدّعاء فقد وضّح لنا صاحب (محيط المحيط) أنّ الدّعاء من دعا الله يدعوه دُعاءً : إذا رغب إلى الله تعالى وابتهل إليه بالسّؤال، واستعانه ورغب فيما عنده من الخير، فالدّعاء يحمل هذه المعاني جميعها.

أمّا عن حقيقته العلمية، فإنه يتجلّى لأعين متدبّر آيات القرآن الحكيم أنّ الله عزوجلّ قد سنّ لتطوير مخلوقه نظامين : النظام الأول هو هذا النظام الطبيعي وقوانينه الذي ينظم كل شيء مادّي في هذا الكون. فهناك قوانين طبيعيّة تُسيّر هذا النظام الطبيعي وتضبط تطويره. والنظام الثاني روحي، تخضع له الأنفس البشرية خاصة ويشتمل على قوانين تضبط كل شيء روحي .

فمن بين القوانين الطبيعية، مايتعلّق بالماء وتبخره بالحرارة، وتشكّل السّحب المُمطرة من أبخرته المُتصاعدة، وهطول أمطار هذه السُّحب ليُحيي بها الله تعالى الأرض الميتة.

ومن بين القوانين الرّوحية، مايتعلّق بالدّعاء، وتفاعل آهات الصدور وصعودها إلى بارئها عن طريق طرق الدعاء ووسائله، وتشكيلها سُحُباً من جزاء تراكم أبخرة هذه الأدعية المتفاعلة في الصّدور، ومن ثمّ بدء دور تجلّي الاستجابة لهذه الأدعية فيستجيب الله تعالى أدعية عباده المتوسلّين على أعتابه وفق مايقتضيه علمه غير المحدود. على شاكلة مايحدث عند هطول الأمطار، فقد يكون التبخّر في مكان ونزول هذه الأبخرة المتجمعة على شكل سُحُبٍ يكون في مكانٍ غير المكان التي تبخّرت منه.

والله عزوجلّ على حين أجمل لنا مايتعلّق بالنّظام المائي في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء وقال: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي، أفلا يؤمنون**.﴾. فهو جلّ شأنه قد أجمل لنا مايتعلّق بالنّظام الدّعائي أي بالأدعية وقوانين استجابتها في الآية ١٨٦ من سورة البقرة وقال: ﴿**وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدُون**.﴾.

فالدّعاء قدرٌ روحيٌّ كالماء قدرٌ ماديٌّ له خواصه وتأثيراته. وقد امتاز الإسلام بما جسّم لنا من حقائق هذه الوسيلة الروحية وبما أطلعنا عليه من قوانينها الناظمة لها.

ونبهنّا القرآن الكريم إلى عظمة وأهميّة ماوضّح لنا وماتبّه إليه من خلال قول الله عزوجلّ في الآية (٧٧) من سورة الفرقان: ﴿ **قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً.**﴾.

فليتأمّل الباحثون فيما بيّنته وقلته، وليوازنوا مابين نظام الدعاء الرّوحي ومابين النظام الطبيعي المائي، وعلى ضوء ماوضّحه لنا كتاب الله العزيز، فلابُدّ لهذا الباحث أن يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية نظريّاً، فإن انتقل مرحلةً تجريبيّةً على ضوء ماوضّحه القرآن الكريم من أمثلة استجابة أدعيه الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وبتجربةٍ ذاتيّة منه إن هو تقيّد بما استفاده من كتاب الله العزيز من معلومات، أقول: إن انتقل هذا الباحث هذه المرحلة التجريبيّة بضوابطها، يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية عمليّاً أيضاً. وسيتجلّى لهذا الباحث أنّ الماء محور النظام الحياتي المادي. وأنّ الدّعاء محور النظام الروحي الحياتي أيضاً. وبدون تفاعل آهات الصدور وطلباتها لاتدور عجلة نظام الدعاء الرّوحي. وهذا هو سرّ أنّ الأديان السماوية جميعها نبّهت إلى أقدار الدّعاء الروحية وعلمت مُختلف الأدعية على حسب الضرورات الزمنية والمكانية إلى أن نزل القرآن المجيد وعلّمنا الله تعالى الذي أنزله سورة السّبع المثاني وفرض علينا الدعاء بها في كل ركعة من ركعات صلواتنا الخمس المفروضة. ونبّهنا من خلال دُعائنا ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ إلى هذه الذريعة الخامسة لجذب محبّة ربّنا إلينا نحن المؤمنون المبايعون السالكون والموحّدون. هذا وإني سأضّمن كتابي الذي سأكتبه حول الدّعاء كقدر روحي تفاصيل مادعوت الباحثين لتقصّيه في هذا المقام، إن شاء الله العزيز. ذلك أنّ المقام الآن لايتّسع لسرد هذه التفاصيل.

وأخلص إلى القول : إنّ من واجب المؤمن السّالك فهم دعاء ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ بهذا الفهم الذي وضّحْته له سورة الفاتحة من خلال التغيير الذي أحدثه ربّنا مابين صياغته للحمد لله رب العالمين على صيغة الغائب، وبين صياغته تعالى للآية الرابعة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ بصيغة الخطاب المباشر

لذات الله عزوجلّ الذي بيده مقاليد النظامين المادي والروحي على أنهما أداة تجلّي ربوبيّته جل شأنه في هذا الكون العظيم.

وإذ نحن فهمنا معنى الدّعاء لغويّاً. وأحطنا علماً بحقيقته العلمية فقد توجّب علينا أخيراً أن نفهم الدّعاء بوجهه الإسلامي. منطلقين من فهمنا العلمّي له الذي شرحناه، ومن منطلق قول الله عزوجلّ من سورة الفرقان (٧٧): ﴿ **قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾. وقبل الاسترسال في البيان لابُدّ من الاحاطة بمعاني كلمة (مايعبأ). تقول: ماأعبأ به: أي ماأصنع به، كأنك تحتقره. قال الزّجاج شارحاً: أيّ وزن لكم عنده لولا توحيدكم إيّاه. يُقال: ماعبأت به أي ماكان له عندي وزن ولاقدر. والعبء هو الثّقل. وماأعبأ بفلان أي ماأُبالي به. والعَبَاء مصدر. والعبوء هو الحمل والثّقل من أيّ شيء كان (محيط المحيط).

هذه المعاني جميعها تؤكّد صحّة المنطلق الذي نبهنا القرآن الكريم إليه. وتساعد على فهم حقيقة الدّعاء علمياً وإسلامياً. فالدّعاء في النظام الروحي، شبيه بالماء في النظام المادي الحياتيّ، وترتبط به جميع تعاليم الإسلام، فهو اللّولب، والتعاليم هي الأدوات والقوالب والأطُر والقشور. وبدون عنصر الدّعاء تنقلب هذه التعاليم لغواً لاحراك فيها ولاتأثير.

وهل يُفيد وجود الحَبّ بأنواعه المختلفة، والغراس بأشكالها العديدة، وهل تجدي الأرض وأدوات الزراعة بدون واجد الماء ونظامه الحياتي؟ هكذا حال تعاليم الدّين تفقد مصداقيّتها إذا خلت من قَدَر الدّعاء وضوابطه وشروطه.

هذا وإنّ الذي يتدبّر ماقصّه القرآن الكريم علينا من قِصص الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى يُلاحظ ذلك ، فقد كانت حكمته البالغة توجيه أنظارنا إلى حقيقة الدّعاء، ومايحمله من قوى خلق وتكوين، فبالدّعاء تغيب أسباب وتتولّد أسباب، وبالدعاء تتغيّر مُجريات الأمور. وهاأنّ سيد رسل الله محمد اليتيم الأمي قد ضرب للبشر قاطبة أسوة حسنة للاستفادة من الدعاء. فقد أمضى سنواتٍ من عُمره قبل الدعوة في غار حِراء يوم ماكان يدري ماالإيمان ولاالكتاب (شورى ٥٢) مابين تفكير ودعاء. وبعد الدعوة كان يتضرّع بين يدي ربه عزوجلّ يومياً فيقوم الساعات الطوال من ليله يتضرّع ويذرف الدموع لصالح أمته والعالم حتى تتورّم قدماه. هذا وقد كان نجاحه في توحيد أمته إحدى

بركات تلك الدعوات. فليجرّب المؤمن السالك اللجوء إلى هذه الذريعة الخامسة ذريعة الدعاء ليصبح صاحب تجربة في هذا المضمار. فأنا من جهتي صاحب تجربة والحمد لله.

إنّ الدّعاء بكلمات موجزة أداة تناغم وتجاذب مابين المؤمن السالك ومابين تجليات ربوبيّة الله رب العالمين. وبالدّعاء يتدارك الدّاعي سدّ الفجوة مابين الأسباب وأخطائه. والدّعاء له قوانينه وضوابطه وشروط قبوله. وللدّعاء المستجاب لذّة ونشوةٌ لاتعادلها لذّة أرضية، والدعاء قوة شاحنةٌ لامُفرغة، والدعاء الحقيقي منشّط، لامُضعف، وهو قدرٌ إيجابي لاسلبي، وبالدعاء المستوفي شروط قبوله، تنجذب محبة الله إلى هذا العبد ويتشّرف بالتالي بقربه ولقائه عزوجلّ. وبالدّعاء ينمو كيان المؤمن الروحي، وتتفتّح قواه الروحية من عيون مُبصرة إلى آذان تتشنّف بسماع كلام الله اللّذيذ. وبالدّعاء يزداد المؤمن علماً لدنيّاً من الله تعالىً مباشرة.

إنّ حرارة صدر المؤمن التي يولّدها الدعاء بتفاعلاته، ينشأ عنها سُحُب ثقالٌ في السّماء الروحانيّة، وتوجّه ربوبية الله هذه السّحب بعلم الله لتحقيق ماهو في صالح صاحب هذه الآهات الحارة. أفلا يُلاحظ هذا المؤمن مايجري من تناغم بين الأم ووليدها؟

فمن المعلوم أنّ بُكاء الرضيع يستدّر الحليب إلى ثدي أمّه. وبُكاء الطفل يستدر عطف والدته عليه، فإن هو بكى وشكا البرد سارعت أمّه إلى إلباسه معطفه. وإن هو شكا الجوع سارعت تقدّم له طعاماً يستر رمقه حفاظاً على سلامته. فبكاء الطفل يحدث هذا التّناغم كله مابين الولد وأمّه. كذلك فبالدّعاء يحدث هذا التناغم مابين العبد وربّه عزوجلّ. وهذا هو الصراط المستقيم الذي سار عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو الصراط المستقيم الذي دفعتنا سورة الفاتحة لطلبه ﴿**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. وذلك بعد أن علمتنا سورة الفاتحة أن ندعو ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

فالدّعاء قدر روحي كقدر الماء في النظام الطبيعي، وقد تميّز الإسلام بتسليح المؤمنين بهذه الذريعة المُنتجة الفعالة، عمّا قبله من الديانات، سلّحهم بالصّلاة التي هي عماد هذا الدّين، وقد أتى جل شأنه بها ذات قوى ومكوّنات.

أفلا يلاحظ المرء أنّ الكيميائيين يرمزون للماء بالعلاقة (H_2O) التي تعني أن عنصر الماء لايتكون إلا من تفاعل عنصرين من أوكسجين مع عنصر واحد من الهيدروجين. فهاهي الصلاة الإسلامية قد شابهت ذلك. أفلا نلاحظ كيف رُكّبت الركّعة الواحدة من الصلاة من وقوفين وركوع واحد وسجودين كإطار حركّي. ومن دعاء الفاتحة الذي أجمل مافي القرآن الكريم من مواضيع. وقد قُرن الركوع بثلاثة من الذكر سبحان ربي العظيم، كذلك قُرن السجود بثلاثة من الذكر سبحان ربّي الأعلى. فكلّ ركعة من ركعات الصلاة الإسلامية مؤلفة من ذرّاتٍ عدّةٍ أقدارٍ وعناصرٍ روحية، وبقوى متناسبة حتى إذا تفاعلت هذه مع حرارة صدر المصلّي وآهاته، ينتج عنها هذا القدر الروحي الذي هو أساس النظام الحياتي الروحي في مقابلة الماء الذي هو أساس النظام الحياتي المادي.

ثم أفلا نلاحظ كيف أنّ للقاضي حقّ إصدار أحكام مع وقف التنفيذ. وهذه الصّلاة الإسلامية، إن صلاّها المؤمن بشروطها وبأدعيتها الحارّة تحرك ربوبية الله عزوجلّ التي تتجلّى فتوقف تنفيذ عمل كل الأسباب الضّارة بهذا المصلي والتي توشك أن تهدد كيانه.

بل وتخلق لأجل فائدته ولصالحه أسباباً من عالم الغيب، لاتُرى بالعين المُجرّدة، بل ترى بنتائجها العملية والتي يتحسّسها هذا المصلّي بعد صلاته.

وعليه فلايجوز لمسلم أن يُجري أي تبديل على الصلاة الإسلامية التي وصلتنا جيلاً بعد جيل وبالتواتر عن الأسوة المحمدية الطاهرة. فإن أقدم أي مسلم على مثل هذا التبديل على أوقات هذه الصلاة، وعلى قوى حركاتها وقوى تسابيحها وحذف منها دعاء الفاتحة، فلاتعود هذه الصلاة الدعاء الفعال، ولاتثمر الثمر المطلوب الذي ذكرناه.

من هذا كلّه نُدرك أهمية توفّر عنصر الخشوع الذي اشترطه ربّنا عزوجلّ في أوّل آية من سورة المؤمنون وهو ﴿ **قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ هذا الشرط يوازي الحرارة الضرورية التي يتطلّبها الماء ليتبخّر ويتصّعد في السماء. وبدون عنصر الخشوع في الصلاة الإسلامية، لاتتصعّد ماتضمّنتْهُ من أدعية إلى سماء الربوبية.

لذلك لاحظناه جل شأنه يقول في الآية (٥٨) من سورة مريم: ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذريّة آدم وممّن حملنا مع نوح**

ومن ذريّة إبراهيم واسرائيل، وممّن هدينا واجتبينا، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً، فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يَلْقَون غيّاً. إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنّة ولايُظلمون شيئاً.﴾. وقوله عزوجل ﴿**أضاعوا الصّلاة**﴾ لايعني أنهم تركوا الصلاة. بل يعني أضاعوا الصلاة كقدر روحي وسلاح بتّار. وعادت صلواتهم تقليدية وشكلية ومجرّد قشور لالُباب فيها. والا فإنّ جميع أتباع الديانات يُصلّون في معابدهم وفي كلّ مكان. فمعابد هؤلاء عامرة، ومساجد المسلمين المعاصرين عامرة أيضاً، لكنها جميعها خرابٌ من الهُدى، فلا تثمر أدعيتهم ولاتُستجاب.

لذلك صلّوا بكامل الخشوع والتضرّع في صلواتكم، ولاتُمسكوا دموعكم إذا هدرت وخرّوا سُجّداً وبكيّاً، لتثمر صلواتكم أفانين الأعاجيب، ولتصبحوا مستجابي الدّعوات بإذن الله الذي أرسل إمام زماننا ليبعث فينا روح الصلاة الإسلامية من جديد.

ولابد لمن طالع مؤلّفاتي أن علم بالمعادلة التي تربط مابين جسد المرء ونفسه. فهي معادلة عكسية بالاصطلاح الرياضي. أي أن حالة النفس البشرية تتناسب عكساً مع حالته الجسمانية. فكلّما ضَعُفَتْ حواس الإنسان وأعضاؤه، ضعف سُلطانها على النفس التي تبدأ تتخلّص من إسارها. فإذا غلب النوم على الإنسان فاستلقى ونامت حواسه وأعضاؤه، تنطلق نفسه من إسار هذا الجسد في عالم برزخيّ هو أشبه بحالة الموت، وحينذاك تعود هذه النفس ترى وتسمع وتأكل من دون هذه الأعضاء والحواس المادّية.

وصاحب تجارب الدّعاء، يدري أنّ نفس المعادلة العكسية تفعل فعلها حين سجود المُصلّي الذي يخرّ ساجداً وبكيّاً. وأنا بفضل الله تعالى صاحب تجربة في هذا الموضوع. ففي لحظات السجود والتوسل والتضرّع يحدث مايحدث للنائم، فيتراخى سُلطان هذه الأعضاء والحواس الجسمانية وتنطلق نفس المؤمن فترى وتسمع بغير هذه العيون وهذه الآذان، وكثيراً ماتُستجاب الدّعوات في تلك اللّحظات. ويقطف هذا السّاجد ثماراً روحية ولذّة ونشوة وسلواناً بما يشبه حال الطفل الرضيع الباكي بحرارة، إذا مااحتضنته أمّه يتهادى ويجد سلوانه ويستسلم

إلى النوم في حضن أمّه. وهذا أحد أسرار ماتضمّنه قول ربّنا عزوجلّ في كتابه العزيز: ﴿**لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون.**﴾.

أي لابدّ في الصّلاة من توفّر شرط الوعي، وشرط الوعي هذا أشبه مايكون بالدّواء الذي يُخدّر أعضاء المصلّي ويُنشّط كيانه النفسي. فعلى قدر مايستغرق المصلي في حالة وعي مايقرؤه في صلواته من أدعية وتسابيح وأذكار ويتوسّع في فهم دلالاتها تتخدّر حواسه العضوية لاشعورياً وتنشط حواسه الروحية، وتأخذه حالة الحمد لله رب العالمين.

ثم أفلا يلاحظ المرء كيف أن مفعول حبوب الأدوية يتراوح بين أربع وست ساعات. وهذه الحقيقة تفسّر قوله عزوجلّ ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.**﴾ فهاأنّ بين الصلوات الخمس فواصل زمنيّة شبيهة بتلك الفواصل المادية للحبوب الدوائيّة، من ذلك ندرك أنّ مفعول حالة الخشوع التي تنتجها الصلاة لايدوم إلا ساعات معدودات، ولابدّ من المداومة على الصّلاة طيلة الحياة وفي أوقاتها المفروضة، فما الصّلاة بجرد عبء على كاهل المصلي وضريبة مفروضة عليه. فالله جل جلاله مُستغنٍ عن كلّ شيء. وهذه الصّلاة قدر روحي في صالح وفائدة الإنسان نفسه، وسلاح بتّار بين يديه مسخّر لتحقيق حاجاته، وآهٍ ثم آهٍ على المسلم الذي يقف على شاطىء النّبع الصافي، ويرجع من هناك وهو عطشان.

وسبق لي أن قلت: إنّ حركات وأذكار وقراءات الصلاة الاسلامية، هي بمنزلة القشرة لِلُبّ هذه الصلاة، ولتجعلها قَدراً روحياً مثمراً فعّالاً، فلم تأت صياغة الصّلاة على الشكل المذكور عبثاً. بل كانت صياغةً مدروسة ومؤسّسةً على أسسٍ علمية مُستندةٍ إلى قانون تأثير ظاهر الإنسان في تكوينه الباطن وخُلُقه. ففي حالات المرض والسّفر يجوز التخفيف من هذا القشر الظاهر، والدّعاء بدونه. أما في حالة الإنسان الطبيعية، فلايجوز فعل ذلك بحال من الأحوال.

أفلا نلاحظ كيف أن خالقنا عزوجلّ قد جعل لكلّ ثمرة قشرة تحميها وتتناسب معها سماكة ولوناً ونسيجاً؟ وهذا هو حال هذه القشرة التي تغلّف قدر الدّعاء المطلوب والمؤلفة من حركاتٍ وقراءات وتسابيح وأذكار. وهذه الصياغة لأطُرِ الصّلاة امتازت أنّها قامت على أصول علمية ولتحقيق أهداف سامية هي في صالح الفرد والمجتمع وفي آنٍ واحد.

إلى جانب أنّ هذه الصياغة جاءت متوافقة مع مُقتضيات الفطرة البشرية وحاجاتها أيضاً. وبالإمكان التوسّع في هذا الفهم بالرجوع إلى مؤلفي (الصلاة الإسلامية دراسة وتحليل بالأسلوب العلمي).

ولايحسب المؤمن أنّ بإمكان الكافرين با لله تعالى وأعدائه أن يستفيدوا من قدر الدّعاء هذا لإيذاء المؤمنين وهدم مايعمرونه. لا فليس بإمكان هؤلاء تسخير الدّعاء لأغراضهم ولمايشتهون. فالدعاء سلاح خاصّ سُلّح به جنود الله في الأرض، وهو بمنزلة الرّداء الذي لايخترقه الرّصاص.

فهذه البحيرات والبحار تتبخّر بكميّات أبخرة، وتتشكّل منها سحب ممطرة تغطي السّماء. فهل تُلاحظون أن تلك السّحب لاينظم هطولها قوانين طبيعية من منخفضاتٍ جوّية ومرتفعات؟ وقد تسيّر الرياح تلك السّحب الممطرة إلى أمكنةٍ لاتمت لأمكنة تبخّرها بصلةٍ من الصّلات. فإن كان هذا هو حال النظام المائي الحيائي. فما بالكم بنظام قدر الدعاء الروحيّ وهو الذي يوازيه في عالم النظام الروحي؟

ولنعد إلى كتاب الله العزيز نتدبّره على هذا الصعيد. فإننا سنلاحظ أنّ ربّنا يبشّر المؤمنين السالكين سبيل عِرفانه ويقول في الآية (١٤) من سورة الرّعد: ﴿ **له دعوة الحقّ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيءٍ إلاّ كباسط كفيّه إلى الماء ليبلُغ فاه وماهو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلاّ في ضَلال.**﴾. فما معنى ﴿ **له دعوة الحق**﴾؟ اللاّم في له تفيد الملك ودعوة مصدر دعاء. والحقّ ضدّ الباطل. أي أن ملكية التصرّف بسحب الخير المتأتيّة عن أدعية الناس هي في يد الله وحده. فالله وحده يملك إخراج نتائجها الخيّرة. وهو وحده يملك تضليل مايدعو إليه الدّاعي من العباد. ذلك أن الله عزوجلّ مُهيمنٌ على القوانين الناظمة لكل دعاء مهما كان مصدره. فهو قادر بذلك على تحويل سحب الدعاء بالاتجاه الذي يشاء. فالله غالب في ذلك على الدّوام. فلايستجيب من الأدعية إلا ماكان منها في صالح الحقّ، وليس في صالح الباطل فهو تعالى يستجيب ماكان منها في صالح الصدق والعدل فهذا معنى ﴿**له دعوة الحق**﴾. فما أبلغ هذه الكلمات ومأأعظم دلالاتها.

وأضاف جل شأنه يقول: ﴿**والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيءٍ إلاّ كباسطٍ كفيّه إلى الماء ليبلغ فاه، وماهو ببالغه.**﴾ أي أنّ أعداء الحق

من المشركين لن يستفيدوا من أدعيتهم وآهات صدورهم التي يبذلونها على غير عتبة الله الحق إلاّ بقدر مايستفيده الذي يبسط كفيّه إلى الماء يدعوه أن يتحرك هذا الماء من نفسه ويسارع إلى فمه ليروي عطشه. فهل يفيد دُعاء هذا في جذب الماء إلى فمه مهما طال وقوفه أمام الماء ومهما طال دعاؤه؟ لاشك أنّ الماء المسخّر لإرواء عطش الإنسان مفيدٌ ويروي العطش. لكنّه لايتحرّك من نفسه ولايفيد من تِلقائه إلا إذا انضبط هذا العطشان بالقوانين التي سنّها البارىء لتحقيق ذلك. فالإنسان الذي لايلتزم بهذه القوانين المسنونة لايستفيد من دعائه الماء إليه مهما أكثر من دعائه، فلن يأتي الماء إلى فمه ليطفىء ظمأه ولن يبلغ الماء فاهُ بدعائه المذكور، مهما ثابر على هذا الدّعاء، ويبقى محروماً من الخير العميم الذي تكوّنَ منه هذا الماء.

فالله جلّ شأنه يملك القوانين الناظمة لأبخرة صدور الداعين على شاكلة ما يملك من القوانين الناظمة لأبخرة المياه المتصاعدة من تجمُّعات المياه. فله دعوة الحق وهو يملك نتائجها وبركاتها.

ويتساءل المرء هنا: وإلى أيّ مصير تؤول أبخرة صدور أدعية الدّاعين من غير المؤمنين؟ وقد أجاب الله عزوجلّ على هذا السؤال في آخر الآية الكريمة وقال: ﴿**ومادُعاء الكافرين إلاّ في ضلال.**﴾ أي أنّ أبخرة صدور أدعية الدّاعين من غير المؤمنين لن تثمر ولن تصل هدفها بل ستظلّ في ضلال عن هذا الهدف. لأن تلك الأدعية لاتهدف لنُصرة الحقّ وتأييده، بل لنصرة الشرك والباطل وتأييده. وهذا هو السّبب في ضلال تلك الأدعية عن سبيل التناغم مع تجليّات ربوبية الله رب العالمين الذي بيده مقاليد كل شيء، والذي يهيمن على القوانين الناظمة لاستجابة دعوات الداعين من عباده.

وإنّ الله عزوجلّ عندما قال بحق دعاء الكافرين إنّه "في ضلال". فقد شبّه دعاء الكافرين برسالةٍ مرسلةٍ إلى عنوان مجهول، فهل بالإمكان أن تصل إلى المرسل إليه؟ أي أنّ دُعاء الباطل لايثمر عطاءه المرجو منه. فلله دعوة الحقّ لأنّ تبديل الأسباب وخلق الأقدار، أمر كائن في قبضة مالك السموات والأرض. وإنّ كلّ إنسان لايؤمن بالله تعالى ولايربط مصيره به عزوجلّ يستحيل أن تحقق آهات صدره وأدعيته أقداراً وأسباباً تخالف مشيئة هذا الإله المالك لكل شيء.

ولم يكتف الله جل شأنه بهذا التبشير الذي بشّره المؤمنين السالكين في هذه الآية الكريمة. بل أتبعها بآية أخرى توثّق مضمون هذه البشارة وتؤكده وقال: ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالُهُم بالغدّو والآصال.**﴾. أي اعلموا أنّ كلّ من في السموات والأرض مطيع ومتذلّل أمام الله خالقه (طوعاً وكرهاً). إشارة إلى أن كل إنسان مستسلم للقوانين الطبيعية التي سنّها الله الخالق لتسيير هذا الكون، طوعاً وكرهاً.

فكيف يسجدون ويطيعون (كرهاً)؟ يسجدون ويطيعون كرهاً من جهة تكوينهم الجسماني. فلسان الإنسان مكرهٌ على تذوّق الأشياء. وأذنه مُكرهةٌ على سماع ذبذبات الأصوات. وعينه مكرهةٌ على نقل صور هذه الأشياء إلى دماغ هذا الإنسان وهكذا دواليك. فهذه الأحوال جميعها تفسّر معنى خضوع من في الأرض "كرهاً". أما خضوع هذا الإنسان طوعاً وبإرادته، فتفسّره حالة معدته إذا أشعرته بالجوع، يسارع إلى تناول طعامه لإشباعها وإسكاتها بإرادته الشخصية. وإذا آلمه سنه أو ضرسه يسارع إلى طبيب الأسنان يسأله فحص سنّه ووصف الدواء لمعالجته وبإرادته الشخصية أيضاً. وجميع هذه الحالات وأمثالها تفسر جميعها معنى خضوع مَنْ في الأرض "طوعاً". أما ملائكة الله الذين في السّماء فيفعلون مايؤمرون.

والله جلّ شأنه بهذا الشطر من الآية يكون قد أفحم الكافرين الذين يدعون لإيذاء المؤمنين الصادقين وقدم لهم دليلاً عملياً على أنه ﴿**له دعوة الحق**﴾ وعلى أن ﴿**الذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيّه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه**﴾ وإلى أن ﴿**ومادعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾. وهذه المعاني جميعها تؤكد صحّة مابشّر الله تعالى به عباده المؤمنين من أنه جل شأنه يستجيب أدعيتهم إن هم استجابوا له وساروا على درب عرفانه وسَعَوا للتناغم مع تجليّات ربوبيته وجذب محبته وكسب قربه ورضاه.

أما قوله تعالى ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾. فالظلال جمع ظلّ. وفي أقرب الموارد: إن الظل هو كل موضع زالت عنه الشمس فهو ظل. وظل الشباب أوله. والظل هو الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس مطلقاً. ويقال: هو في عيش ظليل: أي في ظلّ الكرامة، وقال صاحب معجم المفردات: إن الظل يقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس.

فالمقصود من (وظلالهم) بناء على المعاني التي ذكرناها هو أن جميع الكائنات تستظل بالقانون الطبيعي المسنون في هذا الكون. والكافر من الناس بربه وبإحساناته يشكل جزء من هذه الكائنات.

وقد أضاف تعالى يقول (بالغدو والآصال) فليعطي هذا الظل أبعاده التي لاتكون إلا في الغدو والآصال. والمهم هو أن الله عزوجل قد نبه الكافرين به وبدينه إلى أن أدعيتهم وتدابيرهم لن تفيدهم شيئاً في مجال مقاومة دينه ورسوله والمؤمنين.

وقد بشّر في الوقت نفسه المؤمنين السالكين درب عرفانه أن ذريعة الدعاء التي جسّدها لهم في هذه الصلاة الإسلامية الموروثة بالتواتر هي الذريعة الناجعة في جذب محبته وكسب قربه ورضوانه.

٧. التوبة والاستغفار(مفهومها وفلسفتها) :

والذريعة السابعة التي يوجّهنا إليها كتاب الله العزيز لنجذب محبّة ربّنا إلينا على درب عرفانه، تضمّنتها الآيات التي تدفع المؤمن السالك ليتخذ ديدنه اليومي اقتناص الدقائق من أوقات فراغه للتوبة والاستغفار. ومنبّهة هذه الآيات الكريمة إلى أن الذين أنعم الله عليهم بمحبته وعرفانه وقربه من قبلنا من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كانوا من الذين يعمدون إلى ذريعة التوبة والاستغفار كلّما سنحت لهم دقائق فراغ ضمن حياتهم اليومية.

ولذلك قال تعالى في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿.. **إنّ الله يحبّ التّوابين ويحب المتطهرين.**﴾. وقال في الآية (١٧) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يقولون ربّنا أنّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصّادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.**﴾.

من هذا لابدّ أن أدرك المؤمن السّالك ضرورة استعانته بالله تعالى على جذب محبّة ربّه بذريعة الإكثار من التّوبة والاستغفار ومتذكراً جدّه إبراهيم عليه السّلام الأوّاب والذي وفّى وكان أباً لأنبياء عديدين، يوم كان يرفع قواعد البيت العتيق وابنُه اسماعيل وهما يدعُوان: ﴿**ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم. ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنّك أنت التّواب الرحيم.**﴾ البقرة ١٢٨ — وهل كان إبراهيم مُذنباً في شيء حتى يدعو ﴿**وتب علينا إنّك أنت التّواب الرحيم**﴾ إلا أن كان من

أوراده التوبة والاستغفار على الدّوام؟ الأمر الذي يعني أنّ النّاس في غفلةٍ عن فلسفة التّوبة والاستغفار.

وقبل أن أخوض في موضوع التوبة والاستغفار، أحاول إبراز دلالات هذين اللفظين من معاجم اللّغويين. ففي (محيط المحيط): تاب المؤمن إلى الله: رجع عن المعصية أو ندم على الذّنب، مستقرّاً ومعترفاً بأن لاعُذر له في إيتانه، وهو تائب وتوّاب، وتاب الله عليه معناه وفّقه الله للتوبة ورجع عليه بفضله وقبوله. فالله توّاب على عباده. وقال في الكليات، إذا استعملت التوبة مقرونة بصلة "على" أي تاب عليّ، دلّت على معنى القبول.

وتوّاب اسم فاعل من تاب، يُستعمل في الله لكثرة قبول الله التوبة من العباد. أما إذا استعملت بعن كان اسم الفاعل تائباً. وتاب إليه معناه أناب. والتوبة مصدر تاب. والتّوبة النّصوح عند ابن عباس : هي النّدم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن وإضمار أنّه لايعود.

من هذا ندرك أنّ التوبة هي النّدم على الذّنب أي على الخطأ غير المتعمّد. ومادام من أسماء الله تعالى التّواب، فإنه تعالى يقبل توبة التائبين بكثرة لامثيل لها. وأنّ التوبة النّصوح هي التوبة من فعل معصية واضحة المعالم لذلك سُميّت بالنّصوح. أمّا التوبة مجرّدة فهي إقرار بضعف التائب وكونه مركباً من الخطأ والنسيان، ويدعو لربّه باستمرار طالباً عفوه ومغفرته ومقرّاً بضعفه بين يدي ربه عزوجل.

ولفظ الاستغفار تعرّض له صاحب معجم (محيط المحيط) بقوله : غفر الشيء معناه ستره. وغفر الله له ذنبه : غطّى عليه وعفا عنه. واستغفر المؤمن لله من ذنبه : طلب أن يغفره له.

والغُفران مصدر غفر، وهو يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثواب، ولايستعمل إلاّ في البارىء تعالى. لذلك فلايستعمل الغفران للعبد، ويستعمل لفظ العفو بدلاً عنه. إذ يجوز لمن يُطلب العفو منه أن يستر ولايغفر ولايصفح التجاوز عن الذّنب. فالعفو يقتضي إسقاط اللّوم والذّم، ولايقتضي نيل الثواب. وصفة الله الغفّار للمبالغة، والغفور بمعنى فاعل كثير المغفرة، ولفظ الغفّار أبلغ من الغفور لزيادة بنائه وقوّة تفعيلته. وقيل إن الغفار اسم معبّرٌ من جهة كميّة الغفران. أما الغفور فإسم معبّر من جهة كيفيّة الغفران.

والاستغفار مصدر استغفر وطلب المغفـرة. وفي التعريفـات : الاستغفار استقلال الصّالحـات والإقبـال عليهـا واسـتكبار الفاسـدة والإعـراض عنهـا. والاستغفار عند أهل الكلام : طلب المغفـرة بعـد رؤيـة قُبـح المعصيـة والإعـراض عنها، والمغفرة مصدر واسم من غفر. قال في الكليّات : المغفرة صيانة العبد عمّا استحقّه مـن العقـاب بالتجـاوز عـن ذنوبـه، وهـي مـن الغفـر أي إلبـاس الشـيء مايصونه من الدّنس، وقـال في التعريفـات : المغفـرة هـي أن يسـتر القـادر القبيـح الصّادر من تحت قدرته، حتـى وإنّ العبـد الـذي يسـتر عيـب سـيّده مخافـة عتابـه لأيقال له غفر له.

ندرك من هذا كله أنّ كلمة الاستغفار تضمنت أولاً طلـب سـتر مـابدر عن المستغفر. ثانياً وعلى أساس أن المغفـرة لاتكـون إلا لله عزوجـلّ الـذي بيـده إسقاط العقاب وكتابة الثواب. فالغفّارُ اسم من أسماء الله الحسنى. ثالثاً: ويعـني استغفار العبد إعراضه عـن معصيـة ربّـه بعـد رؤيتـه قُبـح هـذه المعصيـة. رابعاً : ولايجوز تسمية الإنسان غفّاراً، وإن سـترعيب سيّده ذلـك لأن الإنسـان لايملـك حقّ إسقاط العقاب : فلايُسمّى غفّاراً إلا الله عزوجلّ.

أعود الآن إلى موضوع ذريعة التوبـة والاسـتغفار الـتي تجـذب محبّـة الله تعالى فأقول : أفلا نلاحظ كيف أنّ الله تعالى حـين راح يعـدّد صفـات المؤمنـين المبشّرين بمحبته وقربه ورضوانه وذلك في الآية (١١٢) من سـورة التوبـة، كيـف قال: ﴿**التائبون العابدون الحامدون السّائحون الراكعون السـاجدون الآمـرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين**﴾؟

فهو جل شأنه استهلّ هذه الصفـات بصفـة (التـائبون). والتـائبون جمـع تائب، وقد جعل بذلك ورد التوبة والاستغفار ذريعة هامة على طريق هذا التبشير الموجّه لهؤلاء المؤمنين.

أي أنّ دعاء سورة الفاتحة ﴿**إياك نعبـد وإيـاك نسـتعين**﴾ قـد فُـرض أن يدعو به المؤمـن السّـالك في كـل ركعـة مـن ركعـات صلواتـه وأذكـاره لعلاقتـه المباشرة بالشوائب اللاحقة بتكوينه الفطري عن طريـق غذائـه ومورّثـات والديـه. وهذا المؤمن بعد أن يترعرع تلحق به شوائب جديدة ومتنوّعة، لذلـك فـإنّ عليـه أن يجعل التوبة والاستغفار ديدنـاً لـه في لحظـات فراغـه، تداركـاً لهـذه الشـوائب المستجدّة، كيلا تحول دون رُقي كيانه الروحي.

فالتّوبة والاستغفار بفلسفتهما الإسلامية تكمل هذا المؤمن مايطلب من ربه من الإعانة لمعالجة ضعفه من هذه الشوائب جميعها. فيتوب ويستغفر على الدّوام طالباً من ربه عزوجلّ أن يُسقط عنه عقاب كل معصية تصدر عنه: مقصودة كانت أو غير مقصودة، وبعد رؤيته لقبحها الذاتي، ذلك أنّ نهج التوبة والاستغفار المطالب به هذا المؤمن السالك ارتكز إلى فلسفةٍ وحكمةٍ عظيمتين وهامّتين.

لذلك يتساءل المرء هنا عن هذه الفلسفة والحكمة التي ارتكزت إليها مُطالبة الله لهذا المؤمن السالك بالدأب على التوبة والاستغفار. فماهي معالم فلسفة النهج المذكور؟

أقول : أفلا يلاحظ قارىء القرآن الكريم تركيزه جلّ شأنه على كلمتين في كلّ مُناسبة حضّ المؤمن فيها على التقدّم والتّقرب من ربّه عزوجلّ وهذان اللفظان هما : الفوز والفلاح؟ فهو جلّ شأنه راح في سورة الاحزاب يقول في نهاية الآية (٧١) "فقد فاز فوزاً عظيماً". وفي آخر الآية (٧٢) من سورة التوبة قال: "وذلك الفوز العظيم".

وقال في آخر الآية (٣٠) من سورة الجاثية: "وذلك هو الفوز المبين". وفي آخر الآية الحادية عشرة من سورة البروج قال: "وذلك هو الفوز الكبير". كذلك يركز على لفظ الفلاح أيضاً فالله عزوجلّ يقول: "لعلكم تفلحون" و "قد أفلح المؤمنون" في سور وآيات عديدة. وفي مقابل ذلك قال تعالى في آخر الآية (١٣٥) من سورة الأنعام: "لايفلح الظّالمون.

وفي آخر الآية (١٧) من سورة يونس: "ولايفلح المجرمون". وفي آخر الآية (٧٧) من سورة يونس أيضاً: "ولايفلح الساحرون". وقال في آخر الآية (٨٢) من سورة القصص : "ولايفلح الكافرون". كذلك قال في الآية (١١٦) من سورة النّحل: " وإنّ الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون". وهل يظّن القارىء أن هذا التركيز على استعمال لفظي الفوز والفلاح في كتاب الله العزيز وعلى الصّور التي لاحظناها قد أتى من غير حكمة ولافلسفة بالغين؟

فالسؤال الآن هو: ماهي فلسفة كلمة أفلح التي تعني لغةً : ظفر بما طلب ونجح في سعيه وأصاب في عمله؟ وماهي فلسفة كلمة فاز التي تعني نجا وظفر بالخير؟ أي ماهي الفلسفة التي ارتكز كتاب الله العزيز إليها حين اختار استعمال

هذين اللفظين أفلح وفاز؟ وماهو وجه الإعجاز اللّغوي باختيار هذين اللفظين لتحقيق المقاصد التي نزل القرآن الكريم لتحقيقها؟

أقول جواباً على ذلك : إنّ الله عزوجلّ أنزل تعاليم الإسلام موافقة لمقتضيات الفطرة البشرية. وهذا أمر سبق أن بحثناه. ومن مقوّمات هذه الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، أنّ صاحبها الإنسان ينزع بشكلٍ فطري إلى حياة الخلود والرقي الأبديّ. ذلك أن الإنسان حين يتصوّر أنه سيموت تكتئب نفسه ويتمنى الخلود. ولذلك تنشد جميع الأمم إطالة أعمار مواطنيها.

وقد جاءت تعاليم الإسلام موافقة لهذه الفطرة، وتَعِدُ بالحياة بعد الموت وبالخلود وبالرقيّ اللاّنهائي. ولتؤكّد أنّ الموت لايعني إلا انتهاء أول مرحلة من مراحل التطوّر على طريق الخلود والرقي اللاّنهائي. وأنّ الإنسان إذا آمن بالله خالقه وبايع مرسليه، يتولّد له كيان روحيّ هو حصيلة حياته الدّنيا. وهذا الكيان خالد لايأتي عليه الموت، ويرتبط نموُّه وتطورّه بمدى ارتباط صاحبه بتعاليم دينه.

فمن كفر وكذّب لايفلح ولايفوز في تحقيق نزوع فطرته إلى حياة الخلود. بل لابدّ له أن يُعاقب ويُعالج في عالم البرزخ إلى أن يستعيد هذا الكيان الروحي المطلوب.

هذه حقيقة كامنة وراء اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح. وهي حقيقة لمّحت إليها الآية الثامنة من سورة التحريم التي تقول على لسان المؤمنين: ﴿**والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير.**﴾ بمعنى أنّ الواحد من المؤمنين كلما تحقّق له رقي درجةٍ روحيّةٍ من درجات النور، تراءت له درجة أرفع وأكمل منها، ويحسّ بإحساس النزوع إلى هذه الدرجة الأرفع والأكمل، ويطمع أن يُتم له ربّه نوره الذي يسعى بين يديه.

فإذا استجاب له ربه ورقّاه هذه الدرجة الروحية، يتحسّس نفس الواقع ونفس النزوع، ويتوسل أن يُتم الله ربّه له نوره الذي يسعى بين يديه. ويستجيب له ربّه وتظل تتراءى له درجات أرقى من درجته الروحية وهكذا دواليك يظلّ يترقّى إلى مالانهاية ويحيا حياة الخلود الأبدي.

فهذه هي فلسفة اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح من دون تعيين وتحديد ماهيّة هذا الفوز والفلاح. وقد ترك أمر اكتناه هذه الفلسفة وهذه الحقيقة للإنسان المؤمن الطّاهر والمتدبّر للقرآن الكريم.

وليلاحظ القارىء لآية سورة التحريم هذه كيف أن المؤمنين لايكتفون بقولهم ﴿**أتمم لنا نورنا**﴾ بل يضيفون قائلين ﴿**واغفر لنا**﴾ أي استر ضعف درجتنا التي نحن فيها وأتمم لنا هذا النّور. مُنطلقين في طلبهم المتكرر المذكور من منطلق اعتقادهم بربهم ﴿**إنك على كلّ شيء قدير**.﴾. فالتوبة والغُفران إذن تحملان هذه الفلسفة العظيمة. وإن المؤمن الذي يسعى للفوز والفلاح، لايتوانى أن يستغفر ربّه على الدّوام ويتوب إليه طمعاً منه أن ينمّي كيانه الروحاني وليجعل الله له نوراً يمشي به بين الناس. ومعتقداً بأنّ حياته الدنيا التي يحياها، إنما تشكل أوّل محطّة على طريق الخلود والرقي النّهائي أي على طريق الفوز والفلاح في تحقيق المقصد الحقيقي من وجوده على سطح هذه الكرة الأرضية.

ثم إنّ المؤمن إذا جلس يقول (أستغفر الله ربّي من كلّ ذنب وأتوب إليه ربي إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي فإنّه لايغفر الذنوب إلا أنت) وواضعاً نصب عينيه فلسفة وحكمة ماتهدف التوبة والاستغفار إلى تحقيقه في نفس هذا المؤمن التائب المستغفر. إذا دأب المؤمن على هذا الورد يتعوّد شيئاً فشيئاً على محاسبة نفسه على مايبدر عنها من ضعف على درب طاعته الله والانصياع لأوامره عزوجلّ. ويبدأ هذا المؤمن يتحسّس حسن الأشياء وقبيحها. فإذا قويت عنده هذه الحاسّة وأضحت رؤيته حقائق الأشياء واقعيّة وعلميّة، تعود تصرّفاته أيضاً واقعيّة وعلميّة، وتسمو أحاسيسه لتصبح لائقةً وفيها جاذبية محبة ربّه إليه. أي أنّه يسير حينذاك على مسار الخُلُق العظيم الذي بلغه محمد خاتم النبيين (ﷺ)، ويتميّز بالتّالي عن البشر أقرانه، وتلوح لعينيه حينئذٍ معالم جمال الله خالقه، بعد أن كانت رؤياه مقتصره على رؤية معالم جلال الله عزوجلّ.

وهذا يحدث على اعتبار أنّ جمال الله تعالى أخفى من جلاله وإحسانه. فالمؤمن الذي يسير على درب العِرفان الإلهي يتحسّس من حوله إحسانات ربّه في جميع أحواله، يتحسّس هذا الإحسان من خلال وجوده، ومن خلال ماسخّره الله تعالى لصالحه في الأرض والسماء. لكنّه يتوق دوماً إلى رؤية جمال الله،

ولذلك يسير على درب عرفانه ليتعرّف إلى مايحمله إلهه من جمال يخلب الأفئدة والأبصار.

أفلم يقل ربّنا في سورة الأنعام عن نفسه: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللّطيف الخبير.**﴾؟ فعين هذا الجسم تدرك إحسانات الله المتجسّمة من حوله، لكن أنّى لها أن تُدرك جمال هذا المحسن الأعظم صاحب الأسماء الحسنى والجمال الأتم ؟ فالله تعالى يدرك الأبصار. لكن هذه الأبصار لاتدركه للطافته عزوجلّ. لذلك يسعى المؤمن ليتعرّف على جمال ربّه بمحاولة إطاعته لتعاليمه واتّخاذ ذرائع جذب محبّة الله إليه. فإذا ماأحبّ الله جل شأنه هذا العبد السالك المطيع يأخذ جلّ شأنه يكشف جماله عليه شيئاً فشيئاً، حتى تعود محبّته عزوجلّ تغلي في صدر هذا المؤمن السالك درب العرفان الإلهي. وهذه الحقيقة لايُدركها إلاّ المؤمنون الذين قطعوا أشواطاً كبيرة على درب هذا العرفان، أولئك الذين رأوا من آيات هذا الجمال الإلهي وشواهده وعلاقاته ماجعلهم سُجداً وبُكيّاً على أعتاب ربّهم عزوجلّ.

كذلك فإنّ المؤمن الذي يتعود التوبة والاستغفار، تضمر قوة الاستكبار والزّهو لديه. وتنمو قوة التواضع في جميع تصرُّفاته، علماً بأنّ التواضع صفة لازمة لكلّ من يسعى على طريق التقدم والارتقاء. لذلك يقولون أنّه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد بالتّالي تواضعاً. وهذه سمة طبيعيّة نتحسّسها في كلّ شيء من حولنا. فسنابل القمح كلّما نمت بماتحمله من حبوب ترنحت هذه السّنابل تحت وطأة أثقالها. والأشجار كذلك كلّما أثمرت وأينعت ثمارها ترنّحت أغصانها تحت وطأة أثقال هذه الثمار اليانعة.

لذلك فإنّ المؤمن السالك الذي يستعين بربه على مالحق فطرته من شوائب. والذي يجلس يتوب إلى الله ويستغفره في الأسحار، يترقّى روحانياً ويتعلّم مالا يعلمه المستكبرون البطرون، وكلّما ازداد علمه وازداد قرباً وعرفاناً لخالقه، شعر بتواضع نفسه أمام عظمة مكوّن هذا الكون العظيم.

وأقول بألفاظٍ أخرى إنّ المؤمن الذي يتوب ويستغفر وبفلسفة التوبة والاستغفار التي وضّحتها، يصبح لسان حاله في دعاء مستمّر بين يدي ربّه ليطوّر له كيانه الرّوحي ويُخلّصه من ضعفه ووهنه الموروث ومن مؤثرات الوسواس الخنّاس من حوله. وهذه الحال تجذب إليه محبة ربّه، وتنغرس بالتّالي محبّة ربه في

فؤاده، وحينذاك يطير بجناحي الشوق إلى عرفان ربه وقربه ولقائه ويُمسي مُحلّقاً في سماء الروحانية على شاكلة الطيّور المحلقة في السّماء. ولايعود يومذاك يجذبه إلى عالمنا المادي إلاّ بضع لقيمات تسدّ جوعه، وخِرَقٌ تقيه عوامل الجوّ المحيطة به. أما بقية الأشياء فتعود في نظره من باب الكماليات.

ولاأقصد من قولي هذا أن هذا المؤمن السّالك سيصبح رجلاً صوفياً يتقوقع في إحدى الزوايا وينزوي عن الناس على شاكلة مايفعله المتصوفون في عصرنا، بل إنّ الذي أرمي إليه هو أنّ هذا المؤمن التائب المستغفر سيصبح في منتهى التواضع ومندفعاً في خدمة الناس وتبليغهم رسالة ربّه بشوق زائدٍ يثير الدهشة والإعجاب. متحرّراً من كل ماورثه من أعراف وتقاليد مزيّفة وعاداتٍ بالية. ويقدّم في سبيل خدمة دينه أعظم الأعباء والتّضحيات.

ولايكون سبيله إلى ذلك تقليد أعمى موروث، بل علمٌ يرتكز إلى حقائق وحجج وبراهين قاطعة يزوّده بها هذا الدين الاسلامي، ويثبته الله في الحياة الدنيا بالقول الثابت. ويظل هكذا يترقّى روحيّاً باتجاه التخلّق بالخلق العظيم الذي تخلق به محمد المصطفى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. لذلك فلا يحسبّن أمرؤ أنّ في التوبة والاستغفار مهانه للإنسان وإذلالاً. بل اعلموا أنه ذريعة رقيّ روحي وخلقي عظيم، لما يحمله من فلسفة وحكمة عظيمتين. أما الذي يردّد ألفاظ التوبة والاستغفار كالببغاء فتلك حالة المهانة والإذلال بلا جدال.

التّوكل على الله : منهاج التوكّل

والذريعة السابعة التي تمكّن المؤمن السّالك درب عرفان ربّه عزوجلّ هي أن يتفّهم هذا المؤمن موضوع التوكّل على الله تعالى، ويحاول بالتالي الاتصّاف بصفة التوكّل هذه التي تؤكد له عملياً وجود ربّه جل شأنه وماله من قُدُراتٍ لاتحدُّها حدود. فإن اتصّف بهذه الصّفة وأثبت هذا المؤمن لربّه عملياً أنه يتوكّل عليه في كلّ أمرٍ نصّ عليه كتاب الله العزيز، يجذب محبة ربّه إليه ويصبح محبوباً لديه عزوجلّ، ويقطع أشواطاً على درب عرفانه تعالى.

هذه الحقيقة نبّهنا إليها الله ربّنا نفسه حيث قال في الآية (١٥٩) من سورة آل عمران: ﴿**إنّ الله يحبّ المتوكّلين.**﴾ أي يحب تعالى المؤمنين الذين تحلّوا بصفة التوكّل عليه.

وهذه الألفاظ مرّرها جلّ جلاله ضمن آيتين طويلتين ضمّنها منهجاً سلوكيّاً يختصّ بتعاليم الإسلام وحدها، وتعطي فكرة عن نوع الديموقراطية التي أتى بها هذا الدّين الحنيف. فقد قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم وكلّ من ينوب عنه: ﴿ **فبما رحمة من الله لِنتَ لهم، ولو كُنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكّل على الله، إنّ الله يحبّ المتوكّلين، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فَمَنْ ذا الذي ينصُرُكُمْ من بعده، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾. ولنلاحظ أنّ الله تعالى وضع من خلال هاتين الآيتين الكريمتين منهاجاً لابدّ من الأخذ به عند اتّخاذ القرارات الصعبة، وعند مواجهة المواقف الحرجة. ويتألّف هذا المنهاج من عناصر ثلاثة، الأول منها عبّر تعالى بقوله: ﴿**شاورهم في الأمر**﴾. أي أنّ المؤمنين تُكمل عقولهم وأساليب تفكيرهم بعضها البعض الآخر، لاختلاف زوايا النّظر التي ينظرون منها، لذلك شاورهم في أي أمر قبل اتخاذ القرارات الحاسمة في المعضلات والمواقف الحرجة، دون النّظر لأيّ اعتبار إلاّ اعتبار الإيمان.

والعنصر الثاني لهذا المنهاج عبّر عنه تعالى بقوله ﴿**فإذا عزمت**﴾. وعزم على الأمر على حسب ماورد في معجم محيط المحيط معناه أراده أي قرّره بإرادته وعقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من دون تردّدٍ فيه. ولايجوز استعمال هذا اللفظ منسوباً إلى الله تعالى لعدم احتياجه تعالى إلى المشورة، لاتّخاذ القرار، وهذا العنصر الثاني لهذا المنهاج يعطي الرّسول أو من ينوب عنه حقّ اتخاذ القرار الصّعب بعد استشارة المؤمنين سواء أرجّح رأي واحدٍ منهم أو رجّح رأيه الشّخصي، كما حدث في صُلح الحديبية حيث خالف رسول الله ﷺ آراء جميع من كانوا معه. أما العنصر الثالث لهذا المنهاج فقد عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**فتوكّل على الله**﴾. أي أنّ القرار المتّخذ على الأسس التي ذ يحتمل يظلُّ يحتمل النّقص الموضوعي ويتسبّب بالتالي بنتائج وخيمة، ولايسدّ هذا النّقص إلاّ أن تتّخذ الله ربّك وكيلك لتهيئة الأسباب المناسبة والملائمة ولإخراج ارتباط صاحبه

بتعاليم دينه.

فمن كفليّ ترجوها من هذا القرار.

فربّك وَسِعَ كُلّ شيءٍ علماً (الأعراف ٨٩) وهو الرّحمن (الملك ٢٩) وهو الهادي (إبراهيم ١٢) وهو العزيز الحكيم (الأنفال ٤٩) و لله مافي السموات والأرض (النساء ١٣٢) وهو ربّ المشرق والمغرب (المزّمل ٩)، وهو الله الذي لاإله إلا هو (التوبة ١٢٩) والله هو الحيّ الذي لايموت (الفرقان ٥٨) وهو الذي قال واعداً ووعده الحقّ: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ (الإسراء ٦٥). لذلك فتوكّل على الله بعد اتخاذ أيّ قرار صعب وعلى الأسس التي جعلناها لك شُرعةً ومنهاجاً ديموقراطياً يمتاز عن بقيه مناهج الديمقراطيين. هذا علماً بأنّك إن التزمت بهذا المنهج فأنت من المحبوبين والمقرّبين لدينا، أنت ومن يتّبع مسلكك وهذا المنهاج، ويقيناً إنّ الله يحبّ المتوكّلين.

وقد يختلط الأمر على المرء هنا ويتساءل : فلربّما سلك أعداء الاسلام نفس المنهاج وعناصره إن كانوا من أتباع دينٍ سابقٍ، فهل يُحديهم هذا المنهاج إن هم جابهوا محمداً ﷺ وأتباعه؟ وقد أخذ الله عزوجلّ بعين اعتباره مثل هذا التساؤل الذي يمكن أن يخطُر ببال أحدٍ من المؤمنين، وأجاب عليه وقال: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصُرُكُمْ من بعده**﴾؟ أي أنّ المنهاج المذكور متعلّق أصلاً بمصالح هذا الدين الإسلامي.

وليس بمصالح الأديان المنسوخة السّابقة. فالله وليّ المسلمين، والنّصر يأتي من عنده عزوجلّ فما دمتم ترفعون راية هذا الدّين الحنيف، فإنّ الذي يتّخذ قرارات صعبة على هذا الطريق، وفق المنهج المذكور، أنا وليّه وأهيّيء له أسباب النّصر من وراء حجاب. أمّا إذا خالف المسلم هذا المنهج، ولم يُرِدْ مصلحة هذا الدّين، فالله جل شأنه يخذُله، ﴿**وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصُرُكمْ من بعده**﴾؟

ولنلاحظ دقّة ألفاظ الآية الكريمة، فالله تعالى استعمل هنا لفظ (ينصركم) وأعرض عن لفظ (يعينكُم). ذلك لأنّ اللّغويين وضّحوا لنا في معاجمهم أنّ دلالة لفظ نَصَر أخصّ من دلالة لفظ أعان. فالنّصر مُختّص بالمعونة ودفع الضُّر أيضاً. فهو جلّ شأنه حين قال ﴿**إن ينصركم الله**﴾ أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف وأضاف قوله ﴿**فلا غالب لكم**﴾ أي أنّ الغلبة ستكون لقراركم

الصّعب فلا يصيبكم من جرّائه أي ضرّ. ذلك أنّ لفظ (غالب) اسم فاعل من غلبه بمعنى قهره واعتز عليه وامتنع.

بهذا التّبشير، وبهذا الأسلوب البليغ راح تعالى يحثّ المؤمن السالك سبيل عرفانه ويسعى لجذب محبّة ربّه إليه ويفوز بقربه ورضوانه وينبهه إلى هذه الذريعة السابعة التي نحن بصددها، ومعبّراً عن ذلك بقوله: ﴿**وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾.

وهنا سؤال يطرح نفسه : كيف ستجري الأمور في مملكة الله، بعد اتّخاذ أي قرار صعبٍ من طرف أي مؤمن صادق في إيمانه ومتوكلٍ على ربّه عزوجلّ؟ فالأمور جميعها ستجري في خفاء عن الأعين. فهل أجاب جلّ شأنه على هذا السؤال لتطمئن به أفئدة المؤمنين؟

أقول نعم قد أجاب تعالى على هذا السؤال في الآية الثالثة من سورة الطّلاق، وذلك في معرض نُصحه للزّوج الذي توتّرت علاقاته مع رفيقة حياته وأحسّ منها نشوزاً شديداً.

فقد أوصى الله تعالى هذا الزّوج بإمساكٍ بمعروف أو بتسريحٍ بإحسان، إن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر. وأوصاه بتقوى الله حين يتّخذ قراره بشأنها. وليس أن يتّخذ قراره الصّعب عن هوىً أو مصلحةٍ لاتُقرّها تعاليم هذا الدّين الحنيف. وعبّر جلّ شأنه عن نصيحته هذه بقوله: ﴿**ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لايحتسب.**﴾ أي أن يتّقي الله ويخشاه في قراره الصّعب، ولايكون مخالفاً لتعاليم ومقاصد هذا الدّين، ويعزم بعد المشورة ويتوكّل على الله ﴿**يجعل له مخرجاً**﴾. والمخرج مصدر واسم مكان ومنفذ البراز من البدن.

والمعنى أن ربّه عزوجل يعده بأنّه سيهيء له في عالم الغيب أسباب إظهار النتائج الصحيحة لقراره المذكور. فيهيّيء له مايُريحه ويوصل إليه رزقاً يفكّ ضائقته. علماً بأن الرّزق لُغةً هو كل مايُنتفع به لذلك استعمل الرزق في سورة يونس للمطر حيث جاء: ﴿**ماأنزل الله من السّماء من رزق فأحيا به الأرض.**﴾ (محيط المحيط). ولنلاحظ أن الله عزوجلّ لم يقل "يرزقه رزقاً حسناً". فلماذا؟ لأنّ الرزق الحسن هو كلّ مايصل إلى صاحبه بلا كدٍ في طلبه، وماوُجد غير مُرتقبٍ ولامحتسب ولامكتسب، فلم يقل تعالى "رزقاً حسناً". حضّاً منه جل

شأنه لهذا المؤمن على مثابرة السّعي موقناً أنّ أسباب إنجاح مساعيه سيهيئُها الله له من وراء ستار. وقد يرزقه أيضاً رزقاً حسناً فضلا منه تعالى وإحساناً.

فلما انتهى جل شأنه من ذلك كُلّه راح ينبيء المؤمنين السالكين سبيل عرفانه عمّا يجري في مملكة السماء إثر اتّخاذ أي قرار صعب من جانب المتوكلين على الله عزوجلّ، وقال: ﴿**ومن يتوكّل على الله فهو حسبُه، إنّ الله بالغ أمره، قد جعل الله لكلّ شيء قدراً.**﴾.

أي أنّ المؤمن الذي يتوكّل على الله تعالى ويسلّم أمره إليه وفق هذه التّعاليم ويعتمد عليه ويثق بما عند الله من خير، وبما لله من علم وقُدُرات. ﴿**فهو حسبه**﴾ أي أن الله تعالى يكفيه عمّن سواه فيما يتّخذه من قرارات صعبة. ها أنا نُنبئه عمّا يجري حينئذٍ في مملكة السّماء، فالذي يجري هو أنّ ربّ هذا المؤمن يتّخذ القرار المناسب لصالحه، ويصدر قراره إلى ملائكته الموكلين على أسباب كلّ شيء في هذا الكون. وقراره تعالى هذا لابدّ أن تظهر نتائجه إلى حيّز التنفيذ والواقع، فالملائكة لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون. عبّر عن هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿**إنّ الله بالغ أمره**﴾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو : هل ستتهيّأ أسباب خفيّة من وراء الغيب لصالح القرار الصّعب ووفقاً لأمر الله عزوجل خلافاً للقوانين الطبيعية التي سنّها خالق هذا الكون لتسيير هذا الكون؟ أم أنّ الأسباب الخفيّة هذه ستتهيّأ وفقاً لهذه القوانين الطبيعيّة نفسها دون أن يدري أحد بخفايا مُجريات الأمور؟

وقد أجاب الله عزوجلّ على هذا السؤال مُنبّهاً الأذهان إلى أنّ هذه الأسباب الخفية ستتهيّأ وفقاً للقوانين المسنونة، بحيث تزيد هذا المؤمن السالك إيماناً بالله ربه المتوكل عليه، وتزيد الكافر بهذه الحقيقة دهشة وضلالاً، وعبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**قد جعل الله لكلّ شيء قدراً.**﴾. وقدْراً مصدر يعني مبلغ الشيء، وكون الشيء مساوياً لغيره بلا زيادةٍ أو نقصان. يُقال هذا قدْر هذا أي مُماثله ومساوٍ له. والقادر اسم فاعل ويعني الطابخ بالقدر. وعليه فمعنى ﴿**قد جعل الله لكلّ شيء قدْراً**﴾ أي جعل الله عزوجلّ لتحقيق كل أمرٍ يُصدره إلى ملائكته ليحقّقوه وينفّذوه مبلغ شيء مساوياً للحاجة المُلحة بلازيادةٍ ولانقصان، وبحيث لايترك هذا الأمر أي أثرٍ خارج مصلحة صاحبه.

ومن خلال ألفاظ هذه الإجابة يتعيّن على المؤمن السالك المتوكّل على ربّه عند اتخاذ القرارات الصّعبة ألاّ ينتظر تقلّب الأمور لصالح قراره كلمح بالبصر. بل يتعيّن عليه الصّبر وانتظار النتائج المرجوه بيقين لايشوبه شكّ ولاريب مهما طال الأمد وتقلّبت الأحوال. بل أن يظل ربّه عند حُسن ظنّه، وموقناً أنّ الله تعالى سيجعل له مخرجاً. فباليقين في هذه المناسبات، وبأسلوب التفكير الروحي المطلوب، يحصد هذا المؤمن السالك ثمار صبره وتقواه ويقينه وحسن ظنّه بربّه، ويجذب إليه محبة ربه عزوجلّ وينال قربه ورضاه ويزداد بربه عرفاناً على عرفانه.

وليُلاحظ القارىء كيف أن هذه الآيات الكريمة من سورة الطّلاق قد تضمّنت معلومة هامة متعلّقة بمملكة السّماء. فقد نبّهتنا هذه الآيات الكريمة إلى أنّ هذا الكون الماديّ من حولنا، وإن كانت تنظمه نواميس وقوانين طبيعية. إلاّ أنّه لايسير من نفسه، بل أوكل الله تعالى إلى ملائكته أمر تسييره وتهيئة مايحدث فيه من أسباب في مختلف المجالات، أو لم يقرأ أحدنا الآية الحادية عشرة من سورة السجدة والتي قال تعالى فيها: ﴿**قُل يتوفّاكم مَلَكُ الموت الذي وُكّلَ بكم، ثم إلى ربّكم تُرجعون.**﴾ فها أنّ لعملية التّوفي مَلَكاً موكل إليه القيام بها.

وهذا الأمر يفسّر عمليّة تهيئة الله تعالى للأسباب الخفيّة لتحقيق ماوعد به المؤمنين السالكين. والمُتّقين المتوكّلين عليه عزوجلّ. فالله جل شأنه يُصدر أوامره، وتسارع ملائكته لتهيئة مايحقّق أمره من أسباب تؤثر في مُجريات مايحدث في هذا الكون وبما لايُخالف نواميس الكون وقوانينه.

هذا الأمر حدث في الماضي عند بعثة كل نبّي ورسول. وحدث زمن بعثة محمد النبي الصّادق الأمين الذي خالفه قومه وبكلّ مالديهم من قوّة. وهو النّبي المصطفى الذي خاطبه ربّه بأمره: ﴿**ياأيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً. ولاتُطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم، وتوكّل على الله، وكفى بالله وكيلاً.**﴾. ومحمد المصطفى (ﷺ) رضخ لأمر ربّه عزوجلّ دعا إلى سبيل ربه بمالديه من أسباب مادية لاتُذكر في مقابل ماكان لدى قومه من أسباب، ولم يطع الكافرين ولم يَلِنْ معهم بالرّغم من جميع المُغريات التي حاولوا إغراءه بها. ولم يُحاول أذاهم، بل توكّل على الله مالك الملك، واكتفى بالله

وكيلاً. وهاأنّ صفة التوكّل على الله هذه التي اتّصف بها محمد والذين كانوا معه والتي ارتكزت إلى أسباب خفيّة أسفرت عن أسباب هجرته وبيعة أهل المدينة على يديه وتأسيس دولة إسلامية برئاسته وانتهت بذلك إلى فتح مكّة ورفع راية الاسلام على صَارِياتها. وإنّ الباحث الذي يدقّق في دقائق كلّ ماجرى وحدث بعد توكّل محمد (ﷺ) على الله ربّه بعد اتخاذه مالديه من أسباب، ستتراءى لعينيه عجائب القدرة الإلهية، وظواهر إعجاز الله تعالى في جميع ماأصدره من أوامر لملائكته وماهيّأه ملائكة الله من أسبابٍ خفيّة من وراء حجاب. وهل لايدهش الباحث عندما يدقّق النظر فيما حدث ليلة الهجرة؟ وهلاّ يدهش لما جرى على مدخل غار ثور حيث كان محمد (ﷺ) بداخله ثاني اثنين إذهما في الغار إذ قال لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا؟ وهل تأمل الباحث فيما جرى لسراقة وهو يطارد هذين الرجلين المتوكلين على ربّهما؟ وهل تابع هذا الباحث ظواهر البهجة التي استقبل بها رجال ونساء المدينة المنورة وهم يهتفون :

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ... مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وهل تابع هذا الباحث ماجرى قبل بدء معركة بدر الكبرى وكيف أنّ صبيّين من صبية المدينة انقضّا من بين صفوف المسلمين على أبي جهل قائد جيش المشركين وكيف تحقّق قتله على يديهما؟.

ولم تر البشرية نتائج هذا التوكّل على الله في زمن بعثة محمد المصطفى (ﷺ) فقط. بل هذا ماحدث عند بعثة كل نبي من أنبياء الله ومرسليه. فليشنّف المؤمن السالك درب عرفان ربّه آذانه بسماع الآيات ٨٦/٨٨ من سورة هود على سبيل المثال حيث ورد مايُصوّر ماجرى بين النبي شعيب وقومه: ﴿**قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا مانشاء، إنّك لأنت الحليم الرشيد.**﴾ وهذه ألفاظ استهزاء بالنبي شعيب وحاله أنّه كان مُنكباً على عبادة ربّه والدعاء بين يديه، فلم يكن تاجراً ولاثريّاً. فقد استهزؤوا به أن نهاهم عن أن يفعلوا بأموالهم مايشاؤون أي نهاهم عن أكل المال

الحرام وحثّهم على العطف على الفقراء والمساكين والإحسان إليهم، وأن يُعرضوا عن عبادة الأصنام ليعبدوا الله الواحد القهّار. وقد أجاب شعيب: ﴿**قال ياقوم أرأيتم إنْ كنت على بيّنةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً.**﴾ أي حبّذا لو رأيتم ماأثمرته عبادتي لله الواحد القهّار، وماأسفر عنه سيري على درب عرفانه عزوجلّ. فقد رزقني ربّي رزقاً حسناً لايقابله أي جهد بذلته على أعتابه عزوجلّ ولايوازيه شيء ممّا تملكونه وتفعلونه. وأضاف يقول: ﴿**وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه، إن أريد إلاّ الإصلاح مااستطعت.**﴾ أي لاأقصد ممّا وعظتكم به مخالفتكم ولامناصبتكم العداء، فكيف أفعل هذا وأنا أحد أفراد عشيرتكم، بل إنّ ماأعظكم به هو لصالحكم فأنا أدعوكم لتتعرّفوا على إلهكم الحقيقي الذي رزقني هذا الرزق الحسن. ﴿**إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت.**﴾ أي أنني رجل مُرسل من ربّي وربكم لإصلاح مجتمعكم.ولفائدتكم، فإن أنتم لم تستيقنوا بهذه الحقيقة واستهنتم بي وبضعف حالي. فما أنا بتاركٍ ماأُمرت به من ربّي ﴿**وماتوفيقي إلا بالله، عليه توكّلت وإليه أُنيب.**﴾. أي أنّني آخذ بما توفّر بين يديّ من أسباب لأداء رسالة ربّي معتقداً أن التوفيق لايأتي إلا بمشيئة الله ونصرته وتأييده. فعليه توكّلت ليهيّيء لي من عالم الغيب من الأسباب التي تنصرني لأداء رسالتي وإكمال دعوتي ﴿**وإليه أنيب**﴾ فلاأستعين بسواه في هذا المجال وعلى هذا الصّعيد. بل إليه أنيب أي أرجع إليه مرّة بعد أخرى في جميع مايصادفني من عقبات وأتوب من ذنوبي وأخطائي غير المتعمّدة فلايفتر بذلك لساني وهذا هو معنى الإنابة كما وردت في معجم (محيط المحيط).

إنّ هذين المثالين المؤكّدين أهمية التّوكل على الله تعالى والحائّين على التزام جانب التفكير الروحاني في سلوك المؤمن السّالك درب عرفان ربّه عزوجل ليؤكّدان أنّ التوكّل على الله تعالى هو في حقيقته ذريعة من ذرائع جذب محبّة الله تعالى والفوز بقربه ورضوانه. فالله جل شأنه صدق حينما قال: ﴿**ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، إنّ الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً.**﴾. وصدق تعالى حين وعظنا أيضاً قائلاً: ﴿**وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾. فليتوكّل المؤمنون على ربّهم بعد أخذهم بمالديهم من الأسباب طامعين بالتّعويض عمّا لايملكونه بما يهيئه الله جل شأنه من عالم غيبه من أسباب. وموقنين أنّ ربّهم وسع كل شيءٍ علماً، وهو الرحمن، والهادي والعزيز الحكيم وله مافي السموات

ومافي الأرض وهو رب المشرق والمغرب، لاإله إلا هو، وليس بضارٍّ المؤمنين أحدٌ إلاّ بإذنه، وعنده الخير، وهو الحيّ الذي لايموت، خصوصاً وأنه تعالى وعد المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾.

ونتناول موضوع التوكّل على الله تعالى من زاوية علمية تاريخيّة. فالمعلوم أنّ بإمكان الإنسان المفكّر تقسيم مايجري في هذا الكون إلى قسمين : القسم الأوّل ينحصر في وجود هذه السّماء ومحتوياتها من الكواكب والنجوم والسيارات ومالها من تأثيرات على الأرض وعلى مافيها بشكل عام، كذلك النظام الشمسي وماله على الأرض من تأثيرات بشكل خاص وعلى مايوجد على الأرض من مخلوقات ونباتات.

والقسم الثاني هو هذه المخلوقات نفسها والنباتات من حولها، وقد تبيّن للعلماء أنّ هذا الكون يسير وفق نواميس وقوانين طبيعية مسنونة بغضّ النّظر عمّن خلق هذا الكون وعمّن سنّ قوانينه.

فإذا نظر هذا الإنسان المفكّر من زاوية نظر أخرى إلى هذا الكون، وإلى الإنسان خاصّة. اتّضح لعينيه قسمان أيضاً. القسم الأول هذا الإنسان نفسه الذي تتصارع وجوده أسباب ومُسبّبات.

والقسم الثاني كيان هذا الإنسان الباطن الذي يتصارعه عاملان : افعلْ أو لاتفعل. وهذان العاملان يؤثّران أيضاً في السلوك اليومّي لهذا الإنسان.

هذان التّقسيمان إن صحّا فقد اتّضح للإنسان المفكّر أن الأسباب والمسبّبات هي محور مايدور في هذا الكون الذي تُنظّم حركته قوانين طبيعية مسنونة. وبالتالي بإمكان هذا المفكر أن يخرج بالنتيجة التالية وهو أنّ الذات التي تستطيع الهيمنة على هذه الأسباب والمسبّبات خارج كيان الإنسان وداخله، فلابد أن تكون لهذه الذّات القادرة الهيمنة على الإنسان وعلى كل مافي هذا الكون من مخلوقات ونباتات وجماد، ويكون بالتالي بيده مقاليد كل شيء يقيناً.

وبنظرة متفحّصة خاطفة لتاريخ البشر يتبيّن وجود نوعين من المفكرين : الأول كان يفكّر تفكيراً مادياً محضاً من منطلق أنّ هذا الكون يجري من نفسه وفقاً لقوانين طبيعية مسنونة. ونوع آخر كان يفكر تفكيراً روحانياً من منطلق أن لهذا الكون خالقاً سنّ لتسييره هذه القوانين.

والذي دفع هذا القسم المفكر الروحاني إلى هذا الأسلوب من التفكير هم سلسلة الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله الخالق نفسه لإصلاح الناس وصبغهم بهذه الصّبغة من التفكير.

فإذا اجتمع مُفكّران معاً. الأول صاحب تفكير مادي والثاني صاحب تفكير روحي. وطلبنا إليهما تحليل ظاهرة حدثت أثناء هجرة محمد رسول الله (ﷺ) من مكة إلى المدينة حيث لجأ محمد وصاحبه إلى غار ثور، واختبأ فيه، فالمعلوم هو أنّ قريشاً أعلنت حينذاك عن جائزة كبرى للذين يدلّهم على مكان محمد وصاحبه. وقد سارع أمهر قفّائي الآثار يومئذٍ يقتفي آثار أقدام هذين المهاجرين الهاربين محمد وصاحبه أبو بكر الصديق. حتى ووصل القفّاء بالمطاردين من قريش إلى باب غار ثور المذكور، وقال لهم مقولته الشهيرة: "إمّا أن يكون محمد بداخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد إلى السماء".

وضحك لجُملته هذه جميع من كان معه من قريشٍ بل وسخروا من قوله. ولم يكلّف أحدٌ منهم عَنَاء النظر إلى داخل الغار يتفحصه.

فالسؤال الذي نوجهه إلى هذين المفكّرين صاحب التفكير المادي وصاحب التفكير الروحي تجاه هذه الظاهرة هو: لماذا ضلّت وزاغت عقول الذّين سمعوا مقولة هذا القفاء؟ ولماذا لم يكلّف أي واحدٍ منهم عَناء النظر إلى داخل الغار؟ ولماذا تبسمرت عقول هؤلاء باتّجاه واحد وهو تكذيب هذا القفاء؟

ثم من المعلوم أنّ أبا بكر كاد يفقد صوابه حين شاهد أقدام هؤلاء تتحرك خارج غار ثور وهو ومحبوبه محمد رسول الله إلى جانبه - فلم يكن من خاتم النبيّين (ﷺ) المتوكّل على ربّه وعلى حمايته تعالى لهما إلاّ أن قال لصاحبه : لاتحزن إنّ الله معنا. وجملته هذه تعني أنّ الله تعالى هو مسبب الأسباب وهو إلى جانب الدفاع عنّا وحمايتنا لأننا مُتوكلّين عليه. فقد أخذنا بما لدينا من الأسباب المتوفرة لدفع شرّ هؤلاء الأعداء، وبقي أن يهيّىء الله جل شأنه بقيّة أسباب نجاتنا حسب وعده للمتوكّلين من المؤمنين.

فماذا حدث بعد ذلك؟ هل أفاد القفاء ومهارته وجملته الشهيرة أعداء محمد الشّرسين؟

سيجيب على هذا السؤال الذي يفكّر بأسلوبٍ مادّي فيقول: إنّها مجرّد صدفةٍ حدثت، وسيجيب على هذا السؤال الذي يفكّر بأسلوب روحاني ويقول: أزاغ قلوب هؤلاء ربّ محمد مسبّب الأسباب والملهم من وراء ستار.

وقد ورد جواب الأول على اعتبار أنّه لايؤمن بمبدأ التوكّل على الله عزوجلّ.

وقد ورد جواب الثاني على اعتبار أنّه يؤمن بمبدأ التوكّل على الله عزوجلّ.

وأقول : يابُشرى هذا المؤمن الذي يفكّر بأسلوب روحاني، ويأخذ في سلوكه اليوميّ بذريعة التوكّل على الله عزوجلّ. لأنّ هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه سيفوز بمحبّة ربّه ويكون من الناجين المفلحين، في الحياة الدنيا ويوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

٩ـ الاتّصاف بتقوى الله تعالى:

وبمناسبة دخول شهر رمضان المبارك، ولاأزال أحاضر في باب العرفان الإلهي، هذا الشهر المبارك الذي فرضه الله عزوجلّ على المؤمنين به السالكين سبيل عرفانه ففرض أن ينقطعوا في نهارهم عن تناول الطعام والشراب إلى جانب الوفاء بما عاهدوا الله عليه،ففي الآية (١٨٤) من سورة البقرة قال : ﴿**يأيّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصّيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون.**﴾ وموضّحاً الحكمة من فرض صوم شهر رمضان من خلال ماأنهى به الآية ﴿**لعلّكم تتقّون**﴾. ولابدّ أن يكون كل مؤمن قد قرأ هذه الآية الكريمة وتساءل في نفسه عن معنى ودلالة ﴿**لعلّكم تتقّون**﴾. أي تساءل عن دلالة "لعلّ" وحكمة ايرادها. وتساءل عن معنى تتقّون، وكلمة التّقوى التي وردت ضمن خمس عشرة آية من آيات كتاب الله العزيز؟

فقد وضّح اللّغويون أن (لعلّ) مَثَلُها مثل إنّ تنصب الاسم وترفع الخبر. وذهب الفرّاء وأصحابه إلى أنّ لعلّ هذه تنصب الاسم والخبر في آن واحد، كما بيّنوا أنّ الظرف (لعلّ) يستعمل بعدّة دلالات : توقّع شيء كما في الآية المذكورة، وتعليل شيء وللاستفهام، وعليه فإنّ معنى ﴿**لعلّكم تتقون**﴾ أي توقّعوا من صيامكم شهر رمضان إذا صمتموه بشروطه أن تُصبحوا من المتّقين.

وتفوزوا بمحبّة ربّكم لقوله في الآية (٧٦) من سورة آل عمران: ﴿**بلى من أوفى بعهده واتّقى، فإنّ الله يحبّ المتّقين.**﴾.

بقي علينا أن نطّلع على دلالات كلمة (تتّقون). فهي من اتّقى الله أي حذره وخافه وأصل الكلمة من وقى بمعنى صان وحفظ، وعلى ضوء معنى (تتّقون) يصبح معنى ﴿**لعلكم تتقون**﴾ : أي توقّعوا أن تتّصفوا بحذر الله ومخافته، وأن تتدرّعوا بحفظ الله ورعايته، وتصبحوا بذلك محبوبين عند الله ربكم ﴿**فإنّ الله يحبّ المتّقين.**﴾.

من هذا كان لابدّ أن يُدرك المؤمن دلالة صفة (التقوى) وهي أن يحذر المتّقي الله ويخشاه ويتدرّع به ليحفظه ويصونه.

ومن هذا ندرك أيضاً أنّ (التّقوى) صفة لابدّ للمؤمن أن يتّصف بها في سلوكه اليومي، لاستنادها إلى أحد قوانين علم النّفس. فنحن نلاحظ أنّ الشّخص الذي اعتاد العمل لصالح إنسان محترم، يشعر أن محبّة هذا المُحترم تتسرّب على مرّ الأيّام إلى فؤاده شيئاً فشيئاً، يحبّه ويصبح من محبوبيه. ثم إن رابطة المحبّة هذه يُكتب لها الدوام أيضاً.

فالتّقوى أن يقرن المؤمن طاعته بحذره وخشيته من ربّه فيصوم ويفعل الخيرات ويجتنب السّيئات، ونيّته كسب محبة ربّه والحذر من غضبه. أي أنّ الذي يصوم ويفعل الخير ليشتهر بين النّاس أنّه رجل صالح وفعّال للخير، يفقد حكمة الصّوم ولايصبح تقيّاً. ذلك أنّ تقوى الله تعالى تدور حول محور أساسي وهو احتساب الله تعالى وخشيته، أملاً في جذب محبّته وأملاً في تلقّي عطائه الرّوحي.

والآن ليعد هذا المؤمن إلى سورة الفاتحة التي علّمه ربّه من خلالها دُعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ ثم ليتلو الآيات الأوائل من سورة البقرة، فقد نبّهت هذه الآيات إلى أنّ الله تعالى أنزل كتابه العزيز أصلاً ﴿**هُدىً للمتّقين**﴾ استجابة منه تعالى لدعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾. وقد اشترط الله تعالى أوّل مااشترط على هؤلاء المتّقين الذين يحذرونه ويخشونه أن يؤمنوا بالغيب ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾ أي يؤمنوا بوجود ربّهم الغائب عن أبصارهم، فيحذرون الله الذي لاتدركه أبصارهم وهو يدرك هذه الأبصار، ويتّصفون بتقوى الله ويكونون من المتّقين الذين يحذرون ربّهم بالغيب ويخشونه في كلّ مايفعلونه. فإن أصبحوا من المتّقين، تعود تعاليم هذا الكتاب العظيم المنزل هُدىً لهم تجذب محبة

الله نحوهم ويصبحوا بالتالي من محبوبيه ويتشرفوا بعطاء هذا المحبوب. فهذه هي الرابطة الموضوعية مابين دُعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ ومابين قوله تعالى ﴿**هدى للمتقين**﴾. فالصراط المستقيم المطلوب هو الدّال على طاعة الله وعلى الصّفة التي ينبغي أن تلازم هذه الطاعة وهي صفة التقوى. لذلك ورد في معجم المقاييس قوله عن الصّراط أنّه اشتق من سَرَطَ ويدلّ على غيبة في مرٍ وذهاب.

تقول : سَرَطْتَ الطعام إذا بلعته، والسّراط أو الصراط مشتق من ذلك فهو الطريق الذي يغيب فيه المؤمن السّالك وهو يحذر الله ويخشاه ويطلب محبّته. فهذا هو الفرق في المعنى مابين الصراط والطّريق. فالله تعالى علمنا دُعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ و لم يعلّمنا دعاء (اهدنا الطريق المستقيم).

من هذا ندرك أنّ دعاء ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ لم يكن الهدف منه طلب الهداية إلى الإيمان، فالمؤمن لابدّ أن يكون مؤمناً بالله قبل أن يتوجّه للدّعاء بهذا الدّعاء. بل إن الهداية التي يطلبها هنا هي طلب عرفان ربّه والفوز بقربه ومحبته ورضاه. فهذه هي الحقيقة التي تضّمنها لفظ ﴿**هُدىً**﴾ ولفظ الدعاء ﴿**اهدنا**﴾. وهذه الحقيقة هي من الأهمية بمكان. فالمؤمن الذي لايُدرك هذه الحقيقة التي تضّمنها لفظ (هدى)، يعود حين يعمل على أوامر شريعة الله كالذي كُبّل بالأصفاد، وأُثقل كاهله بالأثقال، فلايعود يرى معنى لأوامر الله وأحكامه. ويفقد بالتالي روح التّقوى المطلوب توفّرها فيما يفعله ويُقدم عليه. كما يفقد المقصد الحقيقي من إنزال مختلف الأديان السماوية.

لذلك لابّد من فهم دلاله لفظ (هدىً) الوارد في ﴿**هدى للمتقين**﴾. إنّ لفظ هدى اشتق من هداه أي أرشده وأقامه على طريق الحقّ مع تصلّبٍ فيه. فالهداية تعني الدلالة على مايوصل هذا الإنسان إلى مطلوبه. فالهُدى يعني بيان ما يوصل المرء إلى بُغيته ومطلوبه، ويستعمل ضدّ الضّلال (محيط المحيط). وعليه فإنّ قوله تعالى الذي يصف كتابه المنزل ﴿**هدى للمتقين**﴾ يعني أنّ تعاليم هذا الكتاب العزيز ترشد المؤمن بالله تعالى الذي أنزله إلى مايوصله إلى مطلوبه وهو سعيه الدّائب للتعرّف إلى ربّه الذي هداه إلى هذا الإيمان وللفوز بجنّته. أي أنّ مايُطالب هذا الكتاب به المؤمن من صوم وصلاة وغيرها من المطالبات وفعل الخيرات، يطالبه بها لتكون وسيلة هذا المتّقي ليضع أقدامه على الطريق الموصل إلى الحق وليحقق النتيجة التي ذكرناها، وهي التعرّف على خالقه والفوز بمحبته

وجنّته، مع تصلُّبٍ في الثبات على طريق الحق المذكور. بحيث لايعود هذا المؤمن بعدها يخاف الشيّطان وهمزاته ولا يتهيّب العقبات التي يضعها هذا الشيطان على طريق عرفانه.

وعليه فإنّ لفظي ﴿**هدى للمتقين**﴾ أشارا إلى ماانطوت عليه فطرة المؤمن السالك سبيل عِرفان ربّه من جنوحٍ شديدٍ للقاء الله والتعرّف عليه والفوز بمحبّته ورضوانه. هذا الشّوق الشديد الذي تضمّنه دأب هذا المؤمن السالك على الدعاء في كل ركعة من ركعات صلواته وأذكاره ﴿**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضّالين. آمين.**﴾.

وكأن لفظي ﴿**هدى للمتقين**﴾ فيه إشعار لهذا المؤمن السّالك بالفرق الكائن مابين تعاليم الفلاسفة وتعاليم هذا الكتاب العظيم. وكأنه جلّ شأنه يخاطب هذا المؤمن السالك ويقول له: دع عنك أقوال الفلاسفة، وكُتبهم وفلسفاتهم، لأنّها لاتدلّك على الصراط المستقيم الذي يعرفك على خالقك ولايروي ظمأ نفسك التّواق إلى الاهتداء إلى هذا الحقّ القائم بذاته. فأنت إذا طالعت مايكتبه الفلاسفة في كل عصر، فلا تجني من قراءاتك هذه إلاّ الرّفاه العقلي ليس إلاّ. هذا الرّفاه العقلي الذي إن أفاد في تبيان الضّار من الأشياء من نافعها، فلايحمل فائدة تزيد على ذلك، ولايملك جاذبيةً أكثر من جاذبية هذه الفوائد، ويظلّ توقان الفطرة البشرية إلى معرفة خالقها في فوران شديدٍ وظمءٍ لايرويه إلاّ تعاليم هذا القرآن المجيد فهذا مانبّهت إليه كلمتا ﴿**هدى للمتقين**﴾.

وعليه فإن أدرك هذا المؤمن السالك هذه الميّزة المشار إليها من خلال قوله تعالى ﴿**آلم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقّين. الذين يؤمنون بالغيب..**﴾ إن أدرك ذلك، انساق إلى فعل الخير وانتهى عن فعل الشّر، باندفاعٍ ذاتي من داخله. يحدوه الأمل بالفوز بمحبة ربّه عزوجلّ والتّعرف عليه بأقدامٍ ثابتةٍ لاتهزُّها همزات الشياطين.

ألا إنّ الذي يتلو الآيات الأوائل من سورة البقرة، التي تنتهي عند قوله تعالى : ﴿**هدى للمتقين**﴾ تهتزّ مشاعره الفطرية طرباً أن عثر على الكتاب الذي تهديه تعاليمه الصراط المستقيم الذي سار عليه جميع من قبله من المُنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ويندفع ذاتياً يحذر ربّه ويخشاه عند كل خطوة يخطوها أملاً في أن يلبس لباس التقوى، ويتقبله ربّه في عداد المتقين.

ولايغربنّ عن هن قارىء القرآن الكريم ومتدبّر آياته أنّ هذه الهداية القرآنية الموصوفة بقوله تعالى: ﴿**هدى للمتقين**﴾ لاتشمل إلاّ المؤمنين بعد إيمانهم. بل وتختصّ بالأخذ بأيدي المؤمنين السالكين درب عِرفان ربهم من بين سواهم من النّاس. وإلاّ فإنّ هداية الله ترافق تجليات ربوبيّته عزوجلّ، هذا مأفادتنا به آيات هذا الكتاب المبين.

أولاً ـ لايلد مخلوق إلاّ وتتلقاه هداية الله خالقه من أوّل لحظة يعرف فيها نور هذه الحياة الدّنيا. وهذه حقيقة أشار إليها قول الله عزوجلّ في سورة طه حيث قال فيها: ﴿**ربُّنا الذي أعطى كُلّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى.**﴾. فالنطفة تنمو في رَحِمِ الإمرأة وتمرّ من ظلماتٍ ويرى نور الحياة. فماذا يحدث لهذا الجنين بعد ولادته؟ الجنين قد جهّزه الخالق بجهاز تنفّسي كامل القدرة على التّنفس، ولايحتاج إلاّ إلى الهواء لتشغيله ـ وقد أوجد الله الخالق هذا الهواء وهدى هذا الجهاز ليعمل فيستنشق هذا الهواء ويؤدي بالتالي ظيفته الطبيعيّة، فلولا الهواء لبطلت الحكمة من وجود جهاز التّنفس، ولكان هذا المولود أضحى في خبر كان وكأنه لم ينمو ولم يولد ولم يعرف نور الحياة، فهذه هي خطوة الهداية الربانية الأولى لهذا المخلوق، والتي عبّر جلّ شأنه عنها بقوله في سورة طه: ﴿**ربُّنا الذي أعطى كل شيءٍ خلْقه ثم هدىٰ.**﴾ مستعملاً صفة الربوبية وتجلّيها في هذه المرحلة الأولى من نزول كلّ مخلوق إلى نور الحياة الدنيا.

ثانياً – ومرحلة الهداية الثانية التي تتجلى بها ربوبية الله رب العالمين، أشار إليها قول ربّنا عزوجلّ في سورة السجدة: ﴿**وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا.**﴾ أي أن الله عزوجلّ لم يدع مخلوقه هذا تتصارعه مؤثرات وأفكار تبعده عن خالقه. بل أرسل أنبياءه ورسله تترى ففي كل أمّة جعلنا أئمةً للنّاس يهدونهم بأمر الله كما فعلنا مع بني اسرائيل. وقد ترك الله جل شأنه لهذا الإنسان الراشد العاقل حريّة أن يستجيب لصوت وهداية رسله وأنبيائه تحت طائلة العقاب الشديد لمن لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، ويضلّ عن سبيل ربّه الذي خلقه وهداه في هاتين المرحلتين المذكورتين.

ثالثاً ـ ثمّ إنّ الذي يستجيب لصوت يحتاج إلى هدايتين : إلى هدايةٍ فكريّةٍ وإلى هداية عملية. ويزيد الله هذا المؤمن الذي اهتدى إلى صوت خالقه هدى على هداه، فينير عقله ويقوّم فكره ويوفقه على الصعيد العملي. فإلى هذه

الهداية الثالثة التي تتجلّى بها ربوبية الله الخالق جاء النصّ عليها في سورة محمّد حيث قال تعالى: ﴿**الذين اهتدوا زادهم هدى**﴾. أي سما الله تعالى بأفكارهم ووفقهم للعمل الصالح بعد أن ربطوا أنفسهم بربّهم برابطة الإيمان والبيعة لهذا الرسول.

رابعاً ـ ولاتقف هداية الله هذا المخلوق عند هذا الحدّ من مراحل الهدايات الثلاث الآنفي الذكر. بل إنّه جلّ شأنه نبّه في نفس سورة محمد إلى شكل رابع من هدايته التي يتجلّى بها على هذا المخلوق، وذلك من خلال قوله عزوجلّ :﴿**سيهديهم ويُصلح بالهم**﴾. فما معنى هذه الكلمات؟ البال في اللغة يعني حال المرء وشأنه وخاطره وقلبه. تقول مايخطر فلانٌ ببالي أي مايخطر بخاطري وقلبي. ثم إنّ فعل يُصلح بالهم يعني يزيل عنه الفساد ويقيمه (محيط المحيط). ويصبح بالتالي معنى ﴿**سيهديهم ويُصلح بالهم**﴾ أنّ هذا الكتاب القرآن سيهدي هؤلاء المؤمنين السالكين الصراط المستقيم إلى مايزيد كل فساد في خواطرهم وأفئدتهم وأحوالهم وشؤونهم الحياتية. إلى وقت يتملّك الاطمئنان افئدتهم ويهدأ بالهم على درب عرفان ربّهم والفوز بمحبته وقربه ورضوانه. أي تصبح سمة التقوى سيماهم في جميع أحوالهم.

وبناء على ماسلف ذكره، فإنّ آية: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيّام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**.﴾ تكون قد نبّهت أذهان المؤمنين الصائمين إلى ضرورة تفهم دلالة التقوى وحقيقتها كذريعةٍ ثامنةٍ لجذب محبة ربّهم إليهم. فلم يقل تعالى في هذه الآية أنّه كتب على المؤمنين الصيّام من باب التقوى، بل قال ﴿**لعلّكم تتقون**﴾ أي توقّعوا إن أمسكتم عن تناول الطعام والشراب حذراً وخشية من غضب الله عليكم أن يعود عليكم هذا الحذر وهذه الخشية بثمرة لباس التقوى الذي يجذب محبة بارئكم إليكم، فالله يحب المُتّقين.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ أتى بكاف التّشبيه وقال ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**.﴾ إظهاراً عن طريق هذه الكاف مدى أهمية الصيام في نظر الله الذي أنزل هذا الدين وفرض فيه صيام شهر رمضان. فهو تعالى نبّه إلى أنّه لم يُنزل في السابق أي دينٍ من الأديان إلا وفرض فيه الصّوم على المؤمنين. هذا

بغض النّظر عن أنواع الطعام والشراب التي أمر الله تعالى بالإمساك عنها مرحلياً وتبعاً للضرورات الموضوعية.

علماً بأنّ الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعيّة على حين أنّ الإمساك والحرمان هو الأصل في الصيام في كل دين من الأديان السماوية. فالذي يصوم ترى أعينه لذائذ الأطعمة وأنواع الشراب، وتصل إلى أنفه مختلف الروائح التي تفوح من هذه الأطعمة، ومع ذلك يمسك عن تناولها حذراً وخشية من غضب ربّه عليه إن هو خالف مافرضه عليه من هذا الصيّام. فإذا ثابر هذا الصائم على هذه الحال شهراً كاملاً، يكتب عند ربّه تقيّاً، وتتحقّق الحكمة من الصيام التي توقعها الصائم منه، ويفوز بمحبة ربّه وعطائه الرّوحي على اعتبار أنه تعالى قال: ﴿**بلى من أوفى بعهده وأتّقى، فإنّ الله يحبّ المُتقّين.**﴾.

ولم يقتصر الإيتاء بكاف التشبيه في آية الصيّام على الحكمة التي ذكرناها وحسب. بل أتى جلّ شأنه بها مظهراً من مظاهر رأفته ورحمته بالمؤمنين السالكين درب عرفانه. أفلا يُلاحظ المرء كيف أنّ من يموت له عزيز أو يُصاب بمُصاب، يلتفّ أصدقاؤه وأحباؤه من حوله يخففون عنه وقع مُصابه قائلين : هذه هي سنة هذا الكون فهذه الأمور تمرّ على رأس كلّ مخلوق؟ وقد أتى جلّ شأنه بكاف التشبيه هنا على هذا النّسق من التّعاطف مع الصائمين الممسكين عن تناول الطعام والشراب قائلاً ﴿**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقّون.**﴾.

وزبدة الكلام هو أنّ لفظ التقوى وأن اشتُق من اتّقى، فأصله من وقى بمعنى صان وحفظ من غضب الله تعالى، ولفظ وقى هذا قلب العرب واوه تاءً وأدغموها من كثرة الاستعمال، وجعلوه اتّقى، وجعلوا الاسم منه التقوى. فلمّا لم يجدوا للفظ التّقوى مثالاً في لسانهم، راحوا يقولون تقى وفعل الأمر منه قوا. وقد سلك القرآن الكريم مسلكهم وأقرّهم عليه. فقد ورد في سورة التحريم (٦): ﴿**ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها النّاس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون.**﴾.

المهمّ أن كلمة التقوى تعني الحذر من غضب الله والخشية من مخالفة أوامره عزوجلّ. والمؤمن السالك درب عرفان ربه أولى الناس أن يكون تقيّاً.

ذلك أن أوامر الله ومنهيّاته تدور فوائدها لصالح هـذا المؤمـن السـالك وفي إطـار مصلحته.

ألا إنّ الله تعالى لايُطالب أصلاً إلاّ بهذه التّقوى من هـذا العبـد المطيـع. فهذا ماأشار الله تعالى إليه حين قال: ﴿**بلـى مـن أوفـى بعهـده واتّقـى فـإنّ الله يحب المتقين.**﴾.

فهو جلّ شأنه أتى في هذه الآية بفاء الاستئناف تنبيهاً لذهن هذا المؤمـن الصائم القائم بفروض دينه، والمنتهى عن منهيّاته، وهو حـذر مـن مخالفـة أحكـام ربه ويخشى مخالفة أوامره، أنه يُكتب بذلك عند ربّه تقياً والله يحـبّ المتقـين. أي أنّه يفوز من جرّاء حذوره وخشيته بمحبة ربّه وقربه ورضاه.

وهذه حقيقة نبّة الله تعالى أذهان المؤمنين السالكين إليها من خلال قوله في الآية (٣٧) من سورة الحج: ﴿**لن ينال الله لحومها ولادماؤهـا، ولكـن ينالـه التّقـوى منكـم، كذلـك سخّرها لكـم لتكبّروا الله علـى مـاهداكم وبشّـر المحسنين.**﴾.

فتقوى الله في كل شيء نُقْدم عليه أو نتجنّبه، هـو الـزاد المطلـوب مـن هذا المؤمن السالك أن يتزوّد به في هذه الحياة الدنيا. فهذا الحـذر وهـذه الخشية، تُساعد على تسُّرب محبّة ربه عزوجل إلى فؤاده شيئاً فشيئاً، ويعـود محبّاً حقيقيـاً لربّه ويجذب بالتـالي محبّـة ربـه إليـه ويصبـح مـن محبوبيـه. لهـذا ورد أمـر الله إلى المؤمنين السالكين في الآية (١٩٧) من سـورة البقـرة: ﴿**الحـجّ أشـهر معلومـات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافُسوق ولاجدال في الحـج، ومـاتفعلوا مـن خير يعلَمْه الله، وتزودّوا فإنّ خير الزّاد التقوى، واتّقون ياأولي الألباب.**﴾ أي أنّ من أراد الحج في أشهر الحـج فليـؤده بكـل حـذر وخشيةٍ مـن ربـه في الحـجّ، فلاينبغي له خلال أيام الحج ملامسة زوجته ولاارتكاب أي معصية كانت، ومـن واجبه تجنب الخصومة في الحج. وأن يُقْدِم خـلال الحـج علـى فعـل الخـير متزوّداً خلال ذلك كلّه بزاد التّقوى أي بزاد الحذر والخشية مـن إغضـاب ربّـه عزوجـلّ فإن خير الزاد التقوى لمن كان سالكاً من المؤمنين درب عرفان ربّه وطالبـاً الفـوز بمحبّته. لذلك أنهى تعالى هذه الآية بقوله حاثّاً على التّزود بزاد التقـوى أي حاثّـاً الحذر من غضب الله وخشيته، والسّعي للفوز بمحبة الله وقربه ورضوانه.

وهذا الأمر الإلهي يفسّر قول ربنا عزوجلّ في الآية (٢٦) من سورة الأعراف :

﴿**يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى، ذلك خيرٌ، ذلك من آيات الله لعلّهم يذكّرون.**﴾. ولايقصد بالإنزال هنا، النّزول من أعلى إلى أسفل، بل أريد به ماأريد من قوله تعالى ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**﴾ أي تبيان أهميّته.

فهو تعالى استعار لفظ أنزلنا تنبيهاً لأذهاننا إلى أنّ ماتنبته الأرض حدث بتخطيطٍ سابق من ربّكم، ولم ينبت نباتٌ من نفسه وقد أنبتنا ماأنبتناه ليساعد على دوام حياتكم. فهذا النّبات هو بمثابة لباسٍ يُواري سواءتكم. إلى جانب ماتتلقونه عن طريق مرسلينا من مواعظ وتعاليم، فالسّوأة في اللّغة هي العورة والفاحشة والخلّة القبيحة. أي أن هذا الغذاء المادي وهذا الغذاء الروحي يستر نقائصكم ويصونكم عن فعل الفواحش وعن مصاحبة الخلّة القبيحة. وإن اجتماع هذين الغذائيين هو بمثابة الريش الذي تتزيّن به الطيور وتحلّق بواسطته في أجواز الفضاء. فإن تدثرتم بلباس التقوى عند الأخذ بهذين النوعين من الأغذية ﴿**ذلك خير**﴾ وقد استبدل هذا هنا باسم الإشارة ذلك تعظيماً للباس التّقوى ورفعاً لمكانته في نظر الله عزوجلّ. وأضاف قائلاً: ﴿**ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكرون.**﴾ أي أن هذين الغذائين ولباس التقوى تشكّل مجتمعةً دلائل وجود الله الخالق وتؤكّد على النتائج المتوقعة من الصيّام وغيره. ﴿**لعلّهم يذكرون**﴾ أي ليتوقّع هؤلاء المؤمنون السالكون درب عرفان ربّهم ظهور النتائج المتوخاة من أكل الطيبات وعمل الصالحات والحذر من غضب الله وخشيته في كل أمر. فهذه التقوى إن اتّصفوا بها تصبح إحدى ذرائعهم التي وفّرتها لهم ربّهم لجذب محبته وقربه والفوز برضوانه وجنته. اللهم اجعلنا كذلك ياسميع الدّعاء، اللهم آمين.

١٠. محاولة التخلّق بالخُلق المحمدي العظيم

سبق لي أن ذكرت أنّ الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعية، على حين أنّ الحرمان والإمساك هو الأصل في شعيرة صوم شهر رمضان المبارك. فشهر رمضان هو شهر الإمساك عن مختلف أنواع الطعام والشّراب منذ الفجر

وحتى أذان المغرب. ومن هنا تأتت أهميّة الصيام وعظمة أجره. لذلك أنهى الله جلّ شأنه الآية التي فرض بها الصيّام بقوله ﴿**لعلكم تتقون**﴾.

والذي يتدبّر الآية (٢٢٢) من سورة البقرة، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض، ولاتقربوهنّ حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله، إنّ الله يحبّ التوابين ويحب المتطهّرين.**﴾ فالذي يتدبّر هذه الآية الكريمة يلاحظ اشتمالها على الحرمان والإمساك المنصوص عنه فيها، إنما من نوعٍ يغاير ماالشتملت عليه فريضة الصّوم من نوع إمساكٍ وحرمان.

فالمعلوم من كتاب الله القرآن أنّ الإباحة هي الأصل في موضوع مباشرة الزوجين لعلاقتهما الزوجيّة، على حين ورد الحرمان والإمساك عن هذه العلاقة الجنسية أثناء مدّة الحيض.

ثم إنّ الله تعالى لم يُنه هذه الآية بقوله ﴿**لعلكم تتقون**﴾ على شاكلة مافعله في آخر آية الصّوم. بل أنهاها بقوله تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين.**﴾ إشارةً إلى حكمة هذا النّوع من الإمساك المطلوب والمتعلّق بألفاظ ﴿**قل هو أذى**﴾ هذه الألفاظ التي نبّهت إلى حقائق علمية كشف عنها الطبّ بما يتعلق بأخطار مباشرة النساء أيّام محيضها. وهذا الأذى المحتمل سيكون ظاهراً وباطناً أيضاً.

إنّ الإمساك المطلوب عن الطعام والشراب نهاراً لاتتجاوز مدته شهر رمضان. بينما يتكرّر هذا الإمساك المطلوب أيّام الحيض كلّ شهر وعلى مدى العام. فهو تعالى نبّه المؤمنين الذين يلتزمون بأمر ربّهم لدفع هذا الأذى الظاهر والباطن عن أنفسهم، أنّه سيثمر في أنفسهم روح التوبة والأوبة إليه، ويفيد في تحقيق تجانسٍ بين تكوينهم الباطني وبين صفة ربّهم القدّوس، ويجذب بالتالي محبّة ربهم إليهم ويفوزون بذلك بقربه ورضوانه.

فمن خلال قوله تعالى إذن: ﴿**إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهّرين.**﴾ تتراءى لعين متدبّر القرآن الكريم ملامح الذريعة التاسعة التي تجذب محبّة الله تعالى على درب عرفانه. ولكسب قربه ورضوانه. فكلمة ﴿**المتطهرين**﴾ من طهر ضد نجس، واطّهر معناه تنزّه عن الأدناس وكفّ عن الإثم وأصبح طاهراً معصوماً عن المعاصي والمخالفات ظاهراً وباطناً . (محيط المحيط)

فهذه الآية من سورة البقرة تحثّ المؤمن السّالك درب عرفان ربّه ليكون طاهراً معصوماً عن معصية أوامر ربّه عزوجل، وليلتزم بأوامر ربّه ظاهراً وباطناً. فإن هو سلك هذا المسلك، يُجانس بذلك صفة ربّه القُدّوس، ويجذب إليه بهذه الوسيلة محبّة ربّه ويفوز بقربه ورضوانه. من هنا ندرك المقصد الذي قصده محمد رسول الله (ﷺ) من خلال حديثه الشريف: (تخلّقوا بأخلاق الله) أي اتّصفوا بصفاته. فلهذا الحديث أساسٌ فيما نصّت عليه ألفاظ آية سورة البقرة التي أوردناها. وعلى ضوء ذلك نفهم دلالة ماأجابت به أمّ المؤمنين عائشة (رضي) بقولها حين سئلت عن خُلُق رسول الله (ﷺ) :

قالت: "كان خُلُقه القرآن". وعليه فقد كانت سيرة محمد بن عبد الله النّبي الأمّي أنموذجاً يُحتذى به من قبل المؤمنين السالكين درب عرفان ربّهم بما يتعلق بعملية محاولة التّجانس مع أسماء الله وصفاته، وليتحوّل خُلُقهم ليكون خُلُق القرآن الكريم ويفوزون بذلك بنظير ماخاطب به ربّهم رسوله الكريم قائلاً: ﴿**وإنّك لعلى خُلُق عظيم.**﴾.

فالمؤمن السّالك إذا تطّهر من الأدناس وكفّ عن الإثم وعصم نفسه وقواه الباطنه من أن تدفعه إلى معصية ربّه ومخالفة أوامره ظاهراً وباطناً، لابدّ أن يحدث في قواه الباطنة تحوّل نوعّي باتّجاه التخلّق بالخُلُق العظيم الذي هو مظهر صفة الله القدّوس. من هنا توجّب علينا تدبّر ألفاظ ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم.**﴾ والنظر في ارتباطها بسياق الآيات من سورة نون.والتي استهلها جل شأنه بقوله: ﴿**ن . والقلم ومايسطرون. ماأنت بنعمة ربّك بمجنون. وإنّك لعلى خُلُق عظيم. فستبصر ويبصرون. بأيّكم المفتون.**﴾ فآية ﴿**وانك لعلى خلق عظيم**﴾ وردت في معرض دفاع الله تعالى عن كمال عقل رسوله الكريم (ﷺ) الذي أرسله ربّه رحمةً للعالمين، وفي معرض نفي الجنون عنه، فما معنى هذه الآية الكريمة؟

سبق لي أن بيّنت أنّ الخُلُق في اللغة العربية يُطلق على تكوين الإنسان الباطني أي على مايحمله من قوى وميول وعواطف وشهوات. الأمر الذي توسّعت في شرحه في (نظرية جذور الأخلاق) وكلمة (عظيم) اشتُقّت من عظم الشيء فهو عظيم خلاف صَغُر أو حَقُر. والعظمة تستعمل في الأجسام كما

تستعمل في غير الأجسام. وقد يطلق لفظ العظيم على كلّ أمر استعظمه عقلنا خيراً كان أو شرّاً (محيط المحيط).

وبهذا المعنى ورد لفظ عظيم في عشرات الآيات القرآنية. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إنّ الشرك لظُلْم عظيم.**﴾ وقوله: ﴿**والله ذو الفضل العظيم.**﴾ وأمثاله: ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾. و﴿ **فلكم أجر عظيم**﴾ و﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾. و﴿ **جاؤوا بسحرٍ عظيم** ﴾. و﴿ **ذلك الخزي العظيم** ﴾. وما إلى ذلك من أقوال أنهيت بها مُختلف آيات كتاب الله العزيز.

واستناداً إلى معنى عظيم، فإنّ الله عزوجلّ حين قال مخاطباً رسوله محمداً (ﷺ) : ﴿**وإنك لعلى خُلُق عظيم.**﴾ خاطب عقول أعدائه الذين كانوا يصفونه بالصّادق الأمين من قبل الرّساله منبّهاً إيّاهم إلى التّناقض الذي وقعوا فيه مع أنفسهم حين اتّهموه بالجنون، وقال إنّ الذي يراقب صفات هذا الرسول المتطهرة من الدّنس، والمتجانسة مع قوى الخير التي تمثّلها الذات الإلهيه، يستعظم عقله هذه الظاهرة الدالة على التركيب الباطني الذي تولّد عن صفات هذا الرسول الكريم بشكلٍ طبيعي لاتكلّف فيه. وهذه الظاهرة، ظاهرة الاتصاف بصفات الخير والتّطهر من صفات الشّر لاتحدث لرجلٍ مجنونٍ فاقدٍ عقله. بل هي ظاهرة عقل متزن يقيناً.

فكل إنسان ركّبت قواه الباطنة من قوى متضادة : شجاعه يقابلها جبن. وحبٌّ يقابله كُره وقوة ايثار تقابلها قوة أنانيه. وهل يُسمّى الإنسان الذي يسعى بل سعى لتنمية قواه الخيّرة وتزكيتها، وتدسية قوى الشرّ في نفسه، وتخلّق بذلك بأخلاق ربّه وصفاته العظيمة الخيّرة، وأحدث مع صفات ربّه تجانساً ظاهراً، هل يصّح وصْم هذا الإنسان بالجنون؟

من دلالة هذه الآية الكريمة ندرك أنّ التطهُّر من معصية الله تعالى ومن مخالفة أوامره التي نصّ عليها كتابه العزيز. إنّما هي عمليةٌ ضرورية جدّاً لكل مؤمن سالكٍ درب عرفان ربه عزوجل، ليحدث عن طريق ذلك تجانساً بين قواه الباطنة وبين ما لله عزوجلّ من أسماءٍ حسنى، ليجذب عن طريق عملية التّحويل هذه محبّة ربه إليه ويفوز بالتالي بقربه ورضوانه.

هذا وإن عمليّة التحويل هذه ومحاولة الاتّصاف بصفات الله وأسمائه الحسنى، التي أمر بها رسول الله (ﷺ) ونصّ عليها كتاب الله العزيز، قد

جاءت من صلب قوانين الطبيعة من حولنا. هذه القوانين التي سنّها الخالق البارىء لتسيير دفّة هذا الكون العظيم.

ليلاحظ المرء كيف أنّ مواطني الوطن الواحد الذين تجمعهم اللغة والجنسية والمُواطنة، إذا تلاقوا في الغربة بعيداً عن أوطانهم، عن غير سابق معرفة، يتجمّعون لاشعورياً، ويتحابّون مُتناسين مابين عائلاتهم أو قبائلهم في الوطن الأمّ من عداوات أو خصومات؟

وإذا راقب المرء مختلف أنواع الحيوانات، سيلاحظ أنّ الغِربان شكّلوا وبصورة طبيعية مجتمعاً يخصُّهم لايُخالطهم فيه طيرٌ من نوع آخر. وللبطّ مجتمعهم، وللخيول مجتمعهم، وحتى الحمير أمسى لهم مجتمعهم أيضاً.

وليقُم هذا المراقب باطلاق سراح غرابٍ أمسك به، فلايتجه هذا الغُراب إلاّ إلى حيث اجتمعت الغربان، وإذا أطلق سراح فرسٍ عنده، فلاينضمّ هذا الفرس إلاّ إلى مجتمع الخيل. من هذا كان علينا أن ندركَ وجود قانون طبيعي يهيمن على جميع الأحياء في هذا الكون الفسيح، وهو أنّ التّجانس في الصفات أساس تكوين المجتمعات. فالماء إذا سُكب على الأرض لايُخالط قطع الحديد المتناثرة، بل ينضمّ إلى بُرك الماء إن وجدت من حوله.

وعلى أساسٍ من هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الخالق جل وعلا وردت أوامر الله عزوجلّ التي تحثّ المؤمن السالك على التطهُّر من معصية ربّه ومخالفة أوامره. فالله تعالى هو قُدوّس طاهر وهو مصدر الخير كلّه، فلايحبّ إلاّ التّوابين من عباده ولايحب إلاّ المتطهّرين، الذين يسعون ليل نهار للتخلّق بأخلاق ربهم وأسمائه الحسنى، والذين يبّدلون قواهم الباطنة باتّجاه إحداث هذا التجانس مع أسماء الله العظيمة متأسّين بأسوة محمد بن عبد الله (ﷺ) الذي شهد له ربه أنه أصبح أسوة حسنة في تلك العملية وخاطبه بقوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم.**﴾.

لذلك لايستغرب قارىء القرآن الكريم أن يقول ربنا عزوجل في معرض توصية الزوجين بالإمساك عن معاشرة بعضهما البعض الآخر أيام المحيض، الذي هو أذى، أن يقول تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ التّوابين ويحبّ المُتطهّرين.**﴾.

وليعد هذا المتدبّر إلى سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وخلاصته، ليستدلّ منها عن كيفيّة القيام بعملية التخلّق بأخلاق الله وصفاته. ذلك أن هذه

العملية تشكل جزءً من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم التي يطلبها هذا المؤمن في كل ركعة من ركعات صلواته.

أفلا نلاحظ أننا عندما نقف نحمد الله في سورة الفاتحة قائلين: ﴿**الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.**﴾ أفلا نلاحظ أنّ لفظ الجلالة (الله) سبق ذكر هذه الصفات. وأنّ لفظ ﴿**إياك نعبد**﴾ ورد بعد هذه الصفات الإلهية مباشرة؟

فالمؤمن المتدبّر لايأخذ هذه الظاهرة على أنّها حدثت عبثاً ومصادفة. بل لابدّ أن يكون من ورائها سرٌّ مكنون وحكمة عظيمة بالغة الأهمية، ذلك لأن سورة الفاتحة وترتيب آياتها وألفاظها قد صدرت عن إله حكيم عزيز. وأنا أفهم من هذا التقديم والتأخير لهذين اللفظين "الله وإياك"، الإشارة إلى سموّ مقام الألوهية في مقابل مقام العبودية من جهة وتوجيه لهذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه عزوجلّ، والطالب هدايته سبيل عملية التخلّق بأخلاقه تعالى وصفاته، سبيل كيفيّة التدرُّج في هذه العملية على طريق احداث التجانس مع ربه عزوجلّ من جهة ثانية أي من أين يبدأ وماهي درجات هذا السُّلم، كيلا يضلّ الصراط المستقيم.

أقول : إنّ الحكمة من هذا التقديم والتأخير، توجيه هذا العبد ليبدأ بالاتصاف بهذه الصفات من حيث انتهت ترتيباً، أي أن يبدأ بالتخلّق بخلق الله مالك يومي الدين والشريعة، ويتقدم درجة ثانية ليتخلق بخلق رحيمية الله ومن ثم درجة ثالثة فيتخلّق بخلق رحمانية ربه عزوجلّ. والمقصود من ذلك أن يتطّور على هذا الدّرب تطوُّراً طبيعيّاً تتأصل جذوره في نفسه خطوة خطوة، فلايسير على هذا الدرب فوضوياً لايجني من خطواته الثمار المرجوة بشكل علمي.

ذلك أنّ عمليّة الخلق اقتضت أن يرعى هذا الخالق ماخلق ويطوّره حالاً بعد حال باتجاه الكمال والتمام. لذلك توجّه الخالق إلى هذا المؤمن فهيّأ له محيطاً ملائماً لنشأته وازدهاره روحياً. ثم تجلّى عليه بصفة رحمانيّة فوضع بين يديه من التعاليم مايساعده في أمر عروجه الروحي. ثم تجلّى عليه بصفة رحيميّته بعد أن استفاد هذا المؤمن ممّا آتاه الله من تعاليم ومواعظ استفادة حقيقية فحصد أفضل نتائج هذه التعاليم، لتكون له العاقبة الحسنة دنيا وآخرة. ثم يتجلّى ربّه عليه أخيراً بصفته مالك يوم الشريعة فيؤيده وينصره على أعداء الله وأعدائه في جميع

الميادين. وبصفته مالك يوم القيامة، فينعم عليه بثمار جنته التي أعدّها أصلا للمتقين، والمتطهّرين.

فترتيب تجلّي هذه الصّفات هي بمثابة تجلٍ هابطٍ من مقام الألوهية الأعلى ضمن عمليّة الخلق والتطوير هذه. لذلك تقدّم اسم الجلالة (الله) في ﴿الحمد لله﴾ على هذه الصفات. ومادام قد تأخر لفظ (إيّاك) الذي يفيد مخاطبة الله ذاته فالحكمة منه أن يحث هذا المؤمن على التدرّج في الاتصاف بهذه الصفات الأبعة المُجملة والتي تحوي كل صفة منها عَدداً من صفات الله لايُستهان به الأمر الذي لامجال للخوض فيه هنا. الحكمة أن يحث الله هذا العبد المؤمن أن يتدرّج في عملية تخلقه بأخلاق ربه وصفاته بأسلوب صاعد من آخر هذه الصفات وإلى أولّها على درب مسيرة عرفانه وطلب قرب الله ورضوانه.

وسؤال يطرح نفسه هنا وهو كيف بالامكان الاتصاف والتجانس مع آخر صفة وهي صفة المالكية؟ أقول مالم يحط هذا المؤمن السالك علماً بمظهر تجلي مالكية الله عزوجلّ، يعسر عليه إيجاد الجواب على السؤال المذكور.

ألا إننا سبق أن بيّنا فيما سبق أنّ الله تعالى يتجلّى في عالمنا كملكٍ سنّ قوانين لتسيير أمور مملكته، ويجري ويعاقب ضمن معطيات هذه القوانين الطبيعية المسنونة فلايتجلّى الله تعالى كمالك يفعل مايشاء إلا حين يُنزل الله شريعة ليكتب لها الثبات والبقاء، فيتجلّى حينئذٍ بأقدار روحيّة خاصة، فصّلتُ الكلام فيها في كتاب (القضاء والقدر حقيقة كونيه ثابته). والصّفة العّامة التي تتجلّى حين تجلّي صفة المالكيّة هذه، هي صفة عدالته المقرونه بالحلم والعفو والتسامح والغفران للمسيئين من عباده.

ونفس صفة مالكية يوم الدّين ستتجلّى متصّفة أيضاً بصفة العداله هذه المقرونة بالحلم والعفو والتسامح والغفران مع الذين لم ينصاعوا لتعاليمه في حياتهم الدنيا وماتوا وهم كُفّار.

وعليه فلابد أن يكون هذا المؤمن السالك قد أدرك حين يسير على طريق التجانس مع صفة ربّه المالك ليوم الشريعة ويوم الدين، أن يسعى طاقة جهده ليكون عادلاً في جميع تصرُّفاته مع المؤمنين وغير المؤمنين آخذاً بالحلم والانصاف والتسامح والغفران في مواجهة الذي يُحاول الاعتداء عليه وعلى حقوقه ويدفع بالتي هي أحسن السّيئة. ولاينزل إلى مصاف هؤلاء الظالمين. فعليه

أن ينبُذ العنف سلوكياً ويبرز كخادم أمين لشريعة الله تعالى ويتفانى في نشر كلمة الله بين الناس مضحّياً بكل نفيس يملكه تقرباً من ربّه وهو يطلب عرفانه وقربه ورضوانه. كذلك يحاول الانصباغ بصبغة الله المالك ليوم الشريعة والدّين حتى يشار إليه في ذلك الأمر بالبنان وحتى يشهد الخاص والعام على عدالة سلوكيته مع سواه وعلى حلمه وانصافه وتسامحه وغفرانه.

ويتقدّم خطوةً أخرى على درب عِرفان ربّه ليتخلّق بصورة بارزةٍ بصفة الرحيميّة للتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن : وكيف بالامكان الاتصاف بصفة الله الرحيم؟ فأمامه الآيات الكريمة من كتاب ربه العزيز التي تفيده في الإجابة على تساؤله المذكور. فالله تعالى يتّصف في حالة تجلّيه بصفة رحيميّته بصفة الرأفة والرحمة والدّفاع عن فئة المؤمنين، وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يؤثر إخوانه المؤمنين على نفسه ويرأف بهم ويرحمهم ويدافع عنهم إلى أن يصبح متميّزاً في ذلك بحيث يشار إليه بالبنان.

ومن ثم يتقدّم خطوة ثالثة على درب عرفان ربّه عزوجلّ، ليتخلّق بصورة بارزة بصفة الرحمانية ويتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن : وكيف يتحلّى بصفة الرحمانية؟ فأمامه آيات كتاب الله العزيز ترشده في الإجابة على تساؤله المذكور. ذلك أن صفة رحمانية الله تتجلّى بعطاء لايقتصر على فئة دون فئة من عباده ومخلوقاته. بل يمدّ بعطائه كلاً من هؤلاء وهؤلاء، ويستجيب للمضطر إذا دعاه ويكشف السّوء. وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يستوي عنده في عطائه وإحسانه جميع الناس بلاتفريق من جانبه بينهم: لافي اللّون ولافي العرق ولافي اللغة ولافي الدّين. وينقلب بذلك خيراً كله لبني جنسه وللإنسانية جمعاء يحسن إليهم دون طلب أجر منهم أو جزاء، وبحيث يعود يُشار إليه حين يتصف ويتجانس مع صفة الرحمانية هذه بالبنان ويصبح في ذلك كنار على رأس علم تضيئي ماحولها بكل وضوح وجلاء.

فإذا ماقطع هذا المؤمن هذه الاشواط الثلاثة بالترتيب المشار إليه يتقدّم خطوة رابعة على درب عرفان ربّه عزوجل لينصبغ بصبغة ربوبية ربّه ويتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن أن كيف بامكانه الاتصاف والتجانس مع ربوبيّة رب العالمين؟ فلابدّ وأنه يعلم دلالة لفظ (الربّ) الذي يعني الذي يُطّور الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرحلة التمام. فالله الرّب بعد أن خلق الخلق هداهم

إلى سبيله وسعى إلى تطويرهم روحياً ليصلوا إلى مرحلة يتعرفون فيها عليه عزّ وجل ويفوزون بمحبته وقربه ورضوانه. ويعود مشعل تجلي ربوبية الله هذه مشعلاً بين يديه يهتدي بهديه ويتجانس معه وينصبغ بصبغته. فيسعى جاهداً تحت قيادة رسل الله وخلفائهم لتطوير المجتمع الإنساني نحو الأفضل وعلى هدى تعاليم هذا الدّين الحنيف التي بين يديه. فيحمل راية الإسلام ينشرها على جميع أصقاع المعمورة بسلاح البينة والحجة والبرهان والأسوة العملية الحسنة والله من وراء القصد. فهذه معالم ماأشارت إليه سورة الفاتحة وقدمته من أسرار.

فالألوهية تتجلّى بتجلياتٍ نازلة، والعبودية تتجانس معها بتجانس صاعد، ووفقاً لهذه الصفات التي تضمنتها سورة الفاتحة . وهذا السّر المكنون لايدركه إلاّ المؤمنون السالكون درب عرفان ربهم، هؤلاء المتقون اللاهفون لجذب محبة ربهم إليهم والفوز بقربه ورضوانه. وإنّ توبة المؤمن المتكررة وتطهّره من المعاصي والأدناس هو المقصود من قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ التّوابين ويحب المتطهرين.**﴾.

ثمّ إنّ الأمر الذي الذي يساعد هذا المؤمن على درب محاولة التّعرف إلى ربّه وليتجانس مع أسمائه الحسنى وليكون مُستحقّاً لقب الخلق العظيم. هو أن من واجبه تدبّر كلّ صفة من أسماء الله تعالى تدبُّراً حقيقياً على ضوء معطيات آيات القرآن العظيم. فليتناول صفة الله الخلاّق على سبيل المثال. فالله الخلاّق هو الذي يخلق خلقاً بعد آخر وباتقان مدهش يدهش عقول المتفكّرين.

هذا ولايكون التخلّق بصفة الخلاّق والتجانس معها، إلا بهذه الوسيلة المتوفرة بين يديه. وهي وسيلة الزواج الشرعي وإنجاب الأولاد والانكباب على العناية بهم وتربيتهم التربية الصالحة ليعودوا مظهراً لمدى أبعاد ماتحمله ربوبيته لهم من إمكانياتٍ وقدرات ومعلومات.

وربّ الأسرة هذا لاينقصه لتحقيق هذا التجانس مع رب العالمين إلاّ العاطفة التي تدعم بذله وإحسانه وعناءه. ولم يبخل رب العالمين على هذا العبد بهذه العاطفة، بل يتحسّس كل والد ووالدة أن عاطفة الأبوة والأمومة مغروسة في فطرته تجاه أبنائه. وهي ظلّ العاطفة المطلقة التي تحملها ربوبية ربّ العالمين.

فإذا حاول هذا المؤمن السالك التخلق والتجانس مع صفة الله الخلاّق، فليتزوّج زواجاً شرعياً يكمل به دينه، ولينكّب على الانفاق على ماينجبه من

أولاد وتربيتهم تربية صالحة فيطورّهم طوراً بعد طور إلى أن يصبحوا أخيراً لبناتٍ اجتماعية صالحة. وليعاملهم بأسلوب التّرغيب والتّرهيب الذي تُعامل به ربوبية الله مخلوقه الإنسان. وليكون سلوكه مع ماينجبه من أولاد باطنه فيه الرحمة وظاهره العذاب. وبذلك يجذب محبة ربّه إليه ويفوز بالفراسة الايمانية على هذا الطريق، وحينئذٍ يكشف ربّه عليه أسرار ربوبيّته عن طريق الالقاء والتعليم اللّدني.

ثم إنّه لولا هذه العاطفة المغروسة في فطرة كل مخلوق، أنّى كان يحقّ لله محاسبة هذين الوالدين إن قصّرا في واجبات تربية أولادهم. وكم هي عظيمة عاطفة الأمومة ومدهشة، فلن يجد الباحث أمّا تكره ابنها بسبب بشاعته. بل ترى كُلّ أُمٍّ وليدها أجمل الأطفال.

وهيّا ليتوجّه أي باحثٍ إلى أيّة والدة بالسؤال: لم تُحبّين طفلك؟ فسيلاحظ أنّ هذه الأم لاتجيبه على سؤاله، بل تبتسم وتقول للسائل: وهل فكّرت قبل أن تطرح هذا السؤال الذي لايُعد سؤالاً؟

ودونكم هذه الأم التي أنجبت طفلاً فاحم اللّون وغير متناسق أعضاء الوجه وذو شفتان سميكتان وله أنفٌ أفطس، فهل تقصّر هذه الأم بحق هذا الوليد، وتطرحه بعيداً عنها.

بل تتحمل وتتحشّم كل عناء لتحافظ عليه. فإذا توجّع في منتصف الليل تَضُمُّه إلى صدرها وتطوف به أرجاء الغرفة وتقول دون شعور منها: ياليتني كنت فداك. وهل أنّ عاطفة الأمومة هذه إلا الدليل البيّن على ماتحمله ربوبية الله من عاطفة جيّاشة هي أساس تحمُّل مايبدُرُ عن الناشزين و الصبر عليهم وإمهالهم لهم والتسامح معهم والشفقة عليهم، والاستمرار في تطويرهم طوراً بعد طور. فمن لم ينصلح في دنياه، ففي عالم البرزخ، وإلا ففي عالم مابعد البعث والنشور وهو آخر طور لإصلاح هؤلاء الناشزين من عباد الله وليصبحوا أخيراً مستحقين جنة الله ويكونون من المُتخلّقين بأسماء الله الخالق؟ فمن هذا كلّه ندرك أهمية هذه الذريعة التاسعة لجذب محبة الله تعالى والفوز بقربه ورضوانه على درب عرفانه.

١١. الاتّصاف بصفتي العدل والإنصاف خاصّةً

استقينا من آي الذكر الحكيم حتى الآن ذرائع تسعاً نبّهنا إليها ربّنا في كتابه العزيز إن نحن عملنا عليها تُساعدنا على جذب محبّة ربّنا نحونا على درب عرفانه. وأتناول بالذكر الذريعة العاشرة التي تُعدّ في مقابل تلك الذرائع الأساس والأرضية التي تقوم عليها تلك الذرائع جميعها. وبدون توفّر هذه الذريعة العاشرة والأخيرة تفقد جميع الذرائع الماضية مصداقيتها وثمارها. هذه الذريعة العاشرة التي إن أخذ المؤمن السالك بها بشكلٍ جدّي وصارم لابد أن يلاحظ في نفسه أنّه يقطع مراحل العرفان الإلهي من الرّغبة إلى الأنس فالودّ، ومن ثم يجذب محبة ربّه إليه ويفوز بقربه وعرفانه ورضوانه. حتى يبلغ هذا المؤمن السالك مرحلةً لايعود بعدها يجد سُلْوانَهُ إلاّ فيما فتحه الله تعالى عليه من تجليّات، وتأخذ حينئذٍ عظمة ربه وجلاله بجميع جوارحه ولايعود للشيطان عليه من سبيل ولاسلطان. ولاأطرح هذه الحقيقة بشكل نظريّ غير تجريبيّ. بل هو حقيقة تكشّفت لنا نظرياً وتجريبيّاً وعلى هدى آي الذكر الحكيم.

والمؤسف أنّ هذه الذريعة العاشرة باتت مفقودة في زماننا على الصعيد الإسلامي بل وعلى الصّعيد العالميّ. لذلك نُلاحظ أنّ الفوضى والإضطراب يَعُمّان عالم اليوم بشكل لم يسبق له مثيل. والسّبب الوجيه في ذلك كلّه جهل المسلمين بتعاليم دينهم، وجهلهم بحقيقة هذا المسيح الدّجال الذي يصول ويجول ويعيث فساداً في الأرض، ويلبس الحقّ بالباطل والمسلمون يغطّون في سُباتٍ عميق.

هذه الذريعة العاشرة تتمثّل في مبدأ العدالة والإنصاف الذي ينبغي أن ينصبغ بصبغتها سلوك الأفراد وسلوك الجماعات وسلوك الحاكمين. وكيف بإمكان المؤمن أن يجذب محبّة ربّه إليه إن كان لايُراعي مبدأ العدل والإنصاف في سلوكه مع سواه من المؤمنين وغير المؤمنين؟ ذلك أنّ الله عزوجل نبّه في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه يحب المقسطين ولايحبّ الظالمين. فهذه سورة الرّحمن قد لفت فيها أذهان المفكرين إلى ظاهرتين في هذا الكون؟ وقال: ﴿**والسّماء رفعها ووضع الميزان**﴾ فهو تعالى نبّه إلى ظاهرة السّمو اللانهائي وظاهرة الميزان.

وربط بين هاتين الظاهرتين وقال: ﴿**ألاّ تطغوا في الميزان**﴾ فنهى عن الطّغيان في الميزان. والطغيان من طغى أي جاوز الحدّ. والميزان يعني العدل

والمقدار (محيط المحيط). أي أنّه جلّ شأنه نهى مخلوقه عن تجاوز حدوده وليصبغ سلوكه اليومي بصبغة العدل والإنصاف إن كان يسعى للسموّ والرّقي الروحيّ وجذب محبة ربه إليه والفوز بقربه ورضاه. ولذلك أضاف تعالى آمراً عباده : ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان.**﴾ أي زنوا كل تصرّفٍ من تصرُّفاتكم بالقسط والعدل والإنصاف. ﴿**ولاتخسروا الميزان**﴾ وتخسروا من خَسَر الميزان أي نقّصه (محيط المحيط) أي لاتتصرفوا بما يخالف العدل والإنصاف وتنقصوا بذلك من أهمية العدل والقسط والإنصاف.

والمعلوم هو أن الإنسان ينحاز عن جادة العدل والإنصاف لدوافع عديدة : فهو لايعدل أحياناً بداعي مصلحةٍ ذاتية، وهو يجنح عن ميزان العدالة أحياناً تحيُّزاً لأقربائه أو أصدقائه أو أعزائه. وقد يحيد عن سبيل العدل ويدافع عداوته لأحدٍ من الناس . أي أنّ مُحاباة الأصدقاء، وبغض الأعداء يدفع الإنسان ليحيد عن جادّة العدل والإنصاف في أقواله وتصرُّفاته. أمّا إذا كان هذا الإنسان مؤمناً بوجود الله الذي رفع السّماء ووضع الميزان؛ وهو يصب ودّ هذا الإله ومحبته وقربه ورضاه، ويحمل لهذه الذات الإلهيّة مالها من عظمة في فؤاده ومخيّلته، فلاتؤثّر فيه مصلحته الذاتية، ولايتحيّز لأقربائه وأصدقائه وأعزّائه، ولايعميه معاداة عدوّه إيّاه، ويلتزم جادة العدل والإنصاف والقسط في جميع أقواله وتصرُّفاته اليومية سواء كان حاكماً أو كان محكوماً ومن عامّة النّاس. فهذا المقسط والعادل والمنصف في سلوكه اليومي، هو المؤمن الذي يستفيد من جميع الذرائع السّابقة التي ذكرناها ويفوز بمحبّة ربه وقربه ورضوانه، ويشمله حينئذ قول الله عزوجلّ ﴿**إنّ الله يحب المقسطين**﴾. الحجرات (٩) والمائدة (٤٢).

وإننا إذا تساءلنا عن دلالة لفظ العدل. فقد أورد صاحب (محيط المحيط) أن العدل يعني أمراً يتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط، ويمثّل الاستقامة أيضاً. تقول عَدَل القاضي: عدلاً وعدالةً أي أنصف. والعدالة مصدر، والعادل اسم فاعل جمعه عُدول.

أما لفظ القسط والإنصاف فيمثّلان العدل والاستقامة، وعلى ضوء معنى العدل والقسط والانصاف أقول : إنّ المؤمن الذي يصلّي ويصوم ويزكّي ويحجّ ويعمل على جميع الذرائع التي سبق لنا أن شرحناها، وهي الذرائع التي اشترطها القرآن الكريم لجذب محبّة الله ورضوانه. إنّ هذه الذرائع جميعها لاتجدي

صاحبها نفعاً إن هو لم يلتزم في سلوكه اليومي جانب العدل في أقواله وتصرُّفاته. فالعدل هو الاستقامة كما نبّه إلى ذلك اللغويّون، والعدل هو الأمر الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط لذلك يشكّل العدل والإنصاف الأرضية التي تنمو في تربتها جميع الذرائع المذكورة فتثمر ويقوم عليها هرم بناء العرفان الإلهي.

أفلا يُلاحظ المصلّون صلاة الجمعة كيف أنّ الخطيب لايفتأ يردّد في الخطبة الثانية من خطبته الآية (٩٠) من سورة النّحل وهي قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون.**﴾؟ وأوَلَمْ يتساءل السّامع أنْ ماحكمة تقديم الأمر بالعدل على الأمر بالإحسان وايتاء ذي القُربى؟ إن حكمة هذا التّقديم والتأخير تتجلّى فيما أُوضّحه في هذه الذريعة العاشرة وهي أنّ العدل في السّلوك هو الأساس وهو الأرضية لقبول الإحسان وايتاء ذي القربى والانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي. فالمؤمن السّالك الذي يتجنّب العدل في تصرُّفاته ويجنح نحو الإفراط والتفريط فيها، لايُسمّى مستقيماً ،وتكون عباداته مهتزّة من أساسها .وكيف بإمكان هذا أن تُقبل أدعيته وتوكّله وتقواه إذا كان كلّ ذلك لايقوم على هذا الأساس من العدل والانصاف في تصرُّفاته مع بني جنسه؟ فهو إن لم يكن عادلاً يكون ظالماً لسواه من عباد الله وكيف يتقبّل الله عبادة هذا الظالم وكيف بالإمكان النّظر إليه بمحبّة وتقريب؟ إنه لايتّصف بصفة الاستقامة لذلك لاتؤتيه جميع الذرائع أُكُلَها وثمارها المرجّوة منها. فلابدّ للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يكون عادلاً ومنصفاً في تصرُّفاته مع بني جنسه حتى يستفيد من ذرائع جذب محبة الله عزوجلّ، وهذه هي حكمة تقديم العدل على الاحسان وغيره في الآية (٩٠) من سورة النحل. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أتى بهذه الآية الكريمة بصدد التّدليل على عظمة ماأنزل على محمد رسول الله (ﷺ) من كتاب.

فالله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿**ويوم نبعث في كلّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء، ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.**﴾ فقول الله تعالى هنا ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ يُشكّل ادّعاءً ضخماً هو بحاجة للتدليل عليه. ونعلم أنّ من أصول تفسير هذا القرآن العظيم أنّ

الله تعالى لايأتي بادّعاء إلاّ ويقدّم هناك الدّليل القاطع على صحّته. وقد أتى جلّ شأنه بهذا الدليل عندما قال: ﴿**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون.**﴾ أي أنّ كون هذا الكتاب تبيانٌ لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، يتمثّل في هذه التعاليم التي جاء الله تعالى يأمر بالتقيّد بها في هذا الكتاب. وخلاصة هذه التعاليم أنّها تحضُّ على الاستقامة، وقد اختصر هذه الحقيقة بقوله ﴿**إن الله يأمر بالعدل**﴾.

كما تتلخّصُ تعاليم هذا الكتاب في الحضّ على الإحسان. والإحسان يشمل الصّفح عن المسيء ومساعدة الفقراء والمساكين والانفاق على مايتطلّبه الوطن من مال، وعلى مايُرقّي العلوم وتدوينها وتعليمها كما يشمل على جميع مايفيد في ترقية الإنسان جسماً وروحاً، فجميع هذه المعاني تدخل في دلالات كلمة الإحسان. فالله يأمر في كتابه العزيز ﴿**بالإحسان.**﴾.

كما تتلخّص تعاليم هذا الكتاب المُنزل في حضّها على ايتاء ذي القربى. ويُقصد بإيتاء ذي القربى هنا معنى الاحسان إلى ذوي القربى، بسبب أنّ كلمة الاحسان اشتملت على المعنى المذكور وهذه قرينة تدل على أنّ المراد من ذي القربى هنا أوسع وأشمل دلالة من المعنى المذكور فالبشر جميعهم ذوي قربى من حيث كونهم من بني نوع الإنسان جسماً وتكويناً باطنيّاً.

لذلك فالمقصود من قوله إن الله يأمر بايتاء ذي القربى هو أنّ تعاليم هذا الكتاب مبرّأة من سِماتِ النّعرات القومية والعنصرية واللّونية وماشابه ذلك. وتتصف هذه التّعاليم بسِمَةِ كونها تعاليم إنسانيّة لاتفرّقُ بين لون ولون ولابين لسان ولسان ولابين دين ودين من الأديان. أي أنّه تعالى خَص تعاليم الإسلام في هذه الأوامر الثلاثة الايجابية، وفي الأوامر الثلاثة السلبية وهي ﴿**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ وتشكل بمجموعها الدليل على أن هذا الكتاب المنزل على محمد رسول الله (ﷺ) فيه تبيانٌ لكلّ شيء وهُدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وهو جل شأنه حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿**يعظكم لعلّكم تذكّرون**﴾ أتى بفعل تذكّرون المشتق من كلمة الذّكر التي تعني حفظ الشيء والتفوّه به كما تعني الصّيت والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء كما ورد

ذلك في معجم (محيط المحيط) وكأنه تعالى قد قال: إن المسلم الذي يحفظ هذه التعاليم المُنزلة في هذا الكتاب العظيم، ويقوم بالتبشير بها والدعوة إليها، يرتفع ذكره بين الناس، ويُثني الناس عليه، ويحظى بشرف عرفان ربّه ويفوز بمحبّته، فهذه هي دلالات قوله تعالى هنا ﴿**لعلكم تذكّرون**﴾. فهو جلّ شأنه يبشّر المسلمين بتوقّع هذه الثمار جميعها إن هو عمل على هذه التعاليم أيضاً.

فإن تساءل امرؤ أنّه مادامت آية ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ قد أوتي بها كدليل يثبت عن طريقه إدّعاء الآية التي قبلها، فأين هي الآيات التي أمرت بالعدل والانصاف وأكّدت عليه؟

ولهذا السّائل أن يعود إلى الآية الثامنة من سورة المائدة حيث قال الله تعالى فيها مؤكّداً على ذلك من خلال خطابه الموجّه إلى الذين آمنوا به وبرسوله وبكتابه العزيز: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله، شهداء بالقسط، ولايجرمنكّم شنآن قوم ألاّ تعدلوا، اعدلوا، هو أقرب للتقوى، واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون.**﴾ فالله جل شأنه يحثّ المؤمنين السالكين درب عرفانه في هذه الآية الكريمة ألاّ تتملكّهم الغفلة، بل أن يظلّوا يقظين يشهدون على ماتعلّموا بالقسط. وألاّ تحملنّهم عداوة حاقدٍ عليهم على مجانفة العدل. بل أمرهم أن يعدلوا مع مثل هذا العدّو الحاقد المبغض، فالعدل هو أقرب لتقوى الله وخشيته إن كان الفوز بمحبة الله وقربه هو مايسعون إليه، وأنهى هذه الوصيّة بقوله تعالى: ﴿**واتّقوا الله إنّ الله خبير بماتعلمون.**﴾ مؤكّداً ضرورة بقائهم يقظين مع ربّهم يرهبون جانبه مُتيقّنين أنّه جل شأنه خبير بما يعملون.

وحكمة هذا التأكيد على العدل والإنصاف هو كما بيّنت سابقاً لكون عدل المؤمن في جميع تصرُّفاته اليومية يشكل أرضيّة جميع الذرائع المؤدية إلى جذب محبّة الله عزوجلّ.

ثم إنّ على هذا السّائل أن يراجع الآية (٤٢) من نفس سورة المائدة ليلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ أكّد على رسوله الكريم ألاّ يجانف العدالة فيما إذا حكّمه المنافقون في أمر من الأمور بالرغم من إدراكه حقيقة نفاقهم. حيث قال تعالى موصياً بحقّ هؤلاء: ﴿**سمّاعون للكذب، أكّالون للسُّحت، فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تُعرض عنهم فلن يضّروك شيئاً، وإن**

حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إنّ الله يحبّ المقسطين﴾. فمن خلال قوله تعالى ﴿**إنّ الله يحبُّ المقسطين**﴾ لفت نظر رسوله والمؤمنين أن يجعلوا همّهم جذب محبّة ربهم إليهم غير مبالين بأيّ دافع آخر يدفعهم لمجانفة جانب العدل.

وإنّ على هذا السّائل أن يُراجع الآية (٥٨) من سورة النّساء لينظر كيف أن الله تعالى وعظ الذين تنتخبهم شعوبهم ليحكموها ويسيّروا شؤون دولتهم ألاّ يخدعهم كرسيُّ الحكم وألاّ يغترّوا بما حصلوا عليه من الزّعامة. بل إنّ من واجبهم أن يحكموا بين الذين انتخبوهم بالعدل والإنصاف. فهو جلّ شأنه قال هناك: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوّا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إنّ الله نِعِمّا يعظكم به، إنّ الله كان سميعاً بصيراً**﴾.

فالخطاب وجّهه الله تعالى أوّلا إلى الناخبين وقال يعظ هؤلاء: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها**﴾ أي يأمركم بانتخاب من هو أهلٌ لهذا المنصب الذي ترشّحونه له. لا أن ترتشُوا من هؤلاء المُرشّحين، ولا أن تنتخبوا من كانت لكم به علاقة مصلحة.

ثم توجه جل شأنه يُخاطب الذين انتخبهم الشعب وقال يعظهم: ﴿**وإذا حكمتُم بين النّاس أن تحكموا بالعدل**﴾ أي أنّ الله تعالى يأمر الذين انتخبهم شعبهم وتربعوا على كراسي الحكم أن يتناسوا كلّ اعتبار غير اعتبار العدل والإنصاف فيما يؤدّونه . فلاتتسلّط عليهم منافعهم الذاتيه ولامصالح أقربائهم وأصدقائهم وتدفعهم إلى مُجانفة العدل والإنصاف فيما يحكمون. ويزيد جلّ شأنه على عظته هذه قائلاً: ﴿**إنّ الله نِعِما يعظكُم به**﴾ أي أنّ موعظة ربّكم هذه تستحق منكم الانصياع والشكر والثناء. ذلك أنّها استندت إلى منطق تاريخي تعلمونه وهو أنّ الدكتاتوريات لاتدوم وأنّ العدل أساس المُلك.

وقد أنهى جل شأنه هذه الآية بقوله تعالى: ﴿**إنّ الله كان سميعاً بصيراً**﴾ أي اعلموا أنّ صرخات المظلومين وآهاتهم يسمعها ربّكم الذي يعظكم أن تعدلوا بين النّاس، والله يُبصر أيضاً ماتتصرّفون به من تصرُّفات. والله مع المظلومين ضدّ الظالمين الذين لايحكمون بالعدل والإنصاف وهم على كراسي الحكم. فهذا هو ماأثبتته تجارب السّنون الماضية والأيّام الغابرة.

ولهذا السّائل أن يُراجع الآية (٧٦) من سورة النّحل التي ضرب الله تعالى فيها مثال الفريقين: الفريق الظالم والفريق العادل المنصف من الناس، فهو تعالى قال هناك: ﴿**وضرب الله مثلاً رجُلين : أحدهما أبكم لايقدر على شيء، وهو كلٌّ على مولاه، أينما يوجّهْهُ لايأتِ بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراطٍ مستقيم.**﴾؟

فقد شبّه الله عزوجلّ النّاس والأشخاص الذي يطغون فلا يعدلون في أحكامهم وتصرُّفاتهم شبّههم بالرجل الأبكم الذي لاينطق بالحق وبالرجل الضعيف الذي يعجز عن إحقاق الحقّ . وأضاف يقول إن مثل هذا الرجل الذي وهبناه ملكة العقل وهديناه السّبيل ومع ذلك يميل عن صراط العدل ويطغى فهو إنسان عبء على مولاه أي أن الله تعالى لايبالي بمثل هذا الإنسان ويعتبر بقاءه في هذه الدنيا وعدمه سيّان لأنه لايكون مصدر خير أينما وجّهه ربّه، بل يأت بشر على شر. وفي مقابل ذلك شبّه الله عزوجل الحاكم العادل المنصف بين الناس، والذي لايطغى في تصرُّفاته ويعدل مع الذي يتعامل معهم، ويستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، ويستجيب لوعظ ربّه ونصحه، أقول شبهّهُ بالإنسان الذي يسير على صراط مستقيم من جراء عدله وقسطه مع بني نوعه وانصافه في تعامله معهم. ولايستوي هذا العادل وذاك الظام بشكل من الأشكال.

ولهذا السّائل أن يراجع الآية التاسعة من سورة الحجر ليُلاحظ هناك كيف أن الله تعالى يأمر بالعدل مهما تطورت الأحوال وتبدّلت الظروف. فلو أنّ طائفتين من المسلمين اقتتلتا يوصي الله جل شانه معالجة ذلك ويقول: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين.**﴾. وبذلك يكون قد وضع الله تعالى من خلال قوله هذا قوانين لنظام عالمي، إن عمل الناس عليها وأخذوا بها يعمّ بينهم الأمن والسّلام. فهو تعالى يأمر بالتدّخل بين المتقاتلين دون تحيّز إلى جانب واحدٍ منهم، وبغاية الاصلاح بينهم، فإن تبيّن أنّ هاتين الطائفتين لاتعطي بالاً لهذا التدخل ومحاولة الإصلاح، وأنهم لايلتزمون بالأعراف والقوانين، وبغت إحداهما على الأخرى اعتزازاً بقوّتها وكثرة عددها وعُدَدِها مثلاً. فالله تعالى يسمح للفريق المحايد الذي يمثل هذا القانون الدّولي أن يتدخّل بالقوّة للفصل بين

الطائفتين المتقاتلتين، فيقاتل الطّائفة الباغية لتعود عن بغيها ولتفيء إلى أمر الله أي إلى ماسنّه وشرعّه الله ربّهم من قوانين. فإن توقفت هذه الطائفة الباغية عن بغيها وتراجعت وتوقّفت عن القتال، فلم يأمر الله تعالى بإنزال العقوبات بها وحرمان أفرادها وشعبها من قوتهم، كما تفعل أمة المسيح الدّجال في عصرنا. بل أمر الله تعالى أن تعالج نقاط الخلاف بين الطائفتين ويسعى المتدّخلون إلى الاصلاح بينهما ﴿**بالعدل**﴾ وبالقسط والإنصاف.

ويؤكّد جل شأنه ضرورة حلّ هذا النزاع بالعدل والانصاف وليس بالقهر وإنزال العقوبات، ويقول: ﴿**إنّ الله يحبّ المقسطين**.﴾. أي لاينبغي للنظام العالميّ أن يكون تابعاً لهوى من يقومون عليه. بل ينبغي تحديد هدفٍ سام عام وهو السّعي من وراء ذلك للفوز بمحبّة الله الذي علمّهم هذا النظام وأمرهم بالعدل والقسط والإنصاف. فأين هذا التعليم من هذا النظام العالمي الجديد الذي أسّسه هذا المسيح الدّجال؟ إنّ التعليم القرآني ماهو وليد هذا القرن من الزمان، بل مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزّمان، يوم لم تكن البشرية قد فكّرت بإقامة نظام عالمّي، على حين أنّ النظام الجديد تؤسسه أمّةٌ تزعُمُ أنها تمثّل قِمّةَ الحضارة والتقدّم العلمي. فتعاليم الإسلام شتّان ما بين عدالتها ومابين عدالة هؤلاء "المتحضّرين".

من هذا كلّه ندرك أنّ القرآن الكريم حضّ المؤمن السّالك على العدل والقسط والإنصاف في أقواله وتصرُّفاته مع بني جنسه، ليشكّل عدلُهُ وإنصافُه أرضيّة تقدّمه على درب عرفانه لربّه عزوجلّ، وأن يكون هادفاً جذب محبّة ربّه أيضاًمن وراء عدله وانصافه وسلوكه هذا، وليس بمجرد أن يكون عادلاً. فيضع في حُسبانه أنّه إنسانٌ مخلوقٌ، ويلتزم بأوامر خالقه أيضاً. هذا الخالق الذي لم يخلقه ربّه عبثاً، بل ليعّرفه على نفسه وعلى مايتّصف به من علمٍ وقُدراتٍ لاتحدُّها حدود. وأنّ هذا الخالق هو ربّه الذي أعطاه كل شيء تستلزمه حياته وبقاؤه في حياته الدنيا، وأنه هو ربّه يطوّره من هذه الحياة إلى حياة برزخية، ومن ورائها إلى حياة جنّةٍ وخلود يسعد فيها بلقاء ربّه ومشاهدة أنواره وتلقي آلاء رأفته ورحمته ممّا لاعين رأت ولاأذنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر. فمن هذا تتأتّى أهميّة هذه الذريعة العاشرة كأرضيّةٍ لجميع ماذكرناه من ذرائعَ حتى الآن.



الفصل الثالث
أولاً ـ المحبة ومضمونها

قد تبيّن لنا حتى الآن أنّ تعاليم القرآن الكريم حثّت المؤمن المبايع على التّعرف إلى خالقه والتدرُّج على درب عرفان ربّه من مقام الرغبة فالأنس فالودّ، ومن ثم يسعى لطلب محبّةِ ربّه حتى تتلاقى المحبتان: محبته ومحبّة ربّه إيّاه، وينال بذلك حياة الخلود مع خالقه.

هذا وإنّ أهميّة هذا الموضوع تدفع بنا لإلقاء الضوء على مضمون المحبّة موضوعياً. هذه المحبّة المغروسة أصلاً في جبلة الإنسان بصورة فطريّة وتشكّل أساس لقاء العبد بربّه.

فماهي المحبّة؟ لابدّ أن يذكر القارىء أنّني أجبت على هذا السؤال من الوجهة اللغوية، حيث تبيّنَ من معاجم اللغويين أنّ المحبّة تمثّل حركه تداخُلُ مودَّة طرفٍ بمودة طرفٍ آخر محبّ. فالمحبّة عبارة عن انسيابٍ عاطفي بين طرفين أحبّ أحدهما الآخر. وهذا الانسياب العاطفي يشكّل رابطةً بين هذين الطرفين المُتحابّين. ثُمّ إنّ هذه المحبة تقوى وتضعف حسب نوعيّتها. من هذا ندرك أن عاطفة المحبة تشكّل كياناً ينمو ويثمر. فالمحبّة كالبزرة المغروسة في تربةٍ صالحةٍ، تتفاعل وتنمو على شكل نبتةٍ تزدهر على حسب ماتملك من قوى ومقوّمات.

فالمقصد الأسمى من التعاليم الاسلامية يتحدّد في إطار تنمية عاطفة هذا المؤمن نحو ربّه عزّ وجلّ لتلتقي مع عاطفة ومحبّة ربّه إيّاه. فيحدث بالتالي بين هاتين المحبتين إنسيابٌ وعلاقة تداخل أشارت إليها الدلالة اللّغوية. هذا وإنّ ماذكرناه حتى الآن من ذرائع هدانا إليها كتاب الله العزيز تساعدنا على جذب محبة الله لنحونا، كذلك تمثّل هذه الذرائع الوجه الذي تبيّناه وجرّبناه وأوتينا من ثمراته المرجوة منه، علماً بأنّ التجربة تُعد في نظر علماء عصرنا ذريعةً حقيقيّةً لتحصيل علم من العلوم.

أضف إلى ذلك أنّ هذه المحبة التي فطرت عليها جبلّة الإنسان ذات أساس مادّي تمثّلها قوّة الجذب التي يحملها أصغر جسيمٍ ذرّي من جسمه. ويبدو

ذلك أكثر وضوحاً في النّبات كدوّار الشمس مثلاً. وعند الحيوان وهي هذه الغريزة الجنسية لديه. وتبدو أكثر نموّاً عند الإنسان وتتمثّل في عاطفة المحبّة الكامنة في جبلّة هذا الإنسان كمون النّار في الرّماد، ولاتحتاج إلاّ إلى من يذبّ الرماد عنها ويُزكيها. ولنلاحظ كيف أن عاطفة المحبة هذه تحركها المناظر الخلاّبه والأزهار الجميلة والنّسيم العليل والهدوء والسكينه، وماتحمله أنثى البشر والذّكر من مفاتن تجذب الواحد منهما إلى الآخر كجذب المغناطيس لبرادة الحديد؟

ونتيجةً لذلك ظهر الكُتّاب والشّعراء وقصص الحبّ والغرام، فيكتب الكتّاب في مواضيع الحب والمحبّة. ويتغنّى الشعراء بما يحسّونه في هذه المجالات التي ذكرناها.

وتبرز هنا وهناك قصص حُبٍّ تأخذ بجوارح المحبوب ومحبوبته. وليست قصّة قيس وليلى ببعيدةٍ عن مسامع كلّ إنسان. حتى وقد قسّم الكُتّاب والشعراء المحبّة إلى محبتّين: محبّةٌ جسديةٌ شهوانية ومحبّةٌ عذريّةٌ تسمو عن العلاقة الجسدية وتُحلّق في سماء الروح.

والحقيقة هي أن فطرة الإنسان وتكوينه الباطن يتألّف من مزيجٍ من قوىً متضادّة، ومن ميولٍ مختلفة، ومن شهواتٍ جسديّة، وقد نزلت تعاليم الإسلام تنمّي قوّة المحبة وعاطفتها الكامنة في الفطرة البشرية لتتلاقى وعاطفة ومحبّة الخالق لتثمر حياة الخلود.

وهذا هو السّبب في أن القرآن الكريم أضاف إلى الاسم الحقيقي للخالق وهو لفظ الجلالة (الله)، أضاف أسماء وصفية من أبرزها (الإله) المشتق من الوله أي من المحبّة وراحت الآيات الكريمة تنبّهنا المرّة تلو المرّة إلى أنه لاإله إلاّ الله الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سنة ولانوم. وهذه الآي تدفع العاقل إلى محاولة الإحاطة بمعالم الفطرة البشرية ليُدرك أن المحبّة وعاطفتها تكوّن جزءً أساسيّاً من فطرة هذا الإنسان، وهي وراء هذا التشتّت الحادث في تصرُّفات هذا الإنسان الذي تجذبه المناظر الخلابة والأزهار الجميلة والنسيم العليل والهدوء والسكينه، ومفاتن المرأة والرجل. فيتيه الإنسان وسط هذه الأمور الجذّابة ويحبّها ويهواها.

ويتناسى الإنسان من جرّاء ذلك وجود ربّه الرحمن الرحيم الذي ينبغي له أن يعطيه منزلة الألوهيّة والمحبّة، وبشكلٍ يفوق محبّته لأيّ شيء آخر سواه. فإن أحبّ الإنسان أيّ شيء، فليحبّ، فهذا شيءٌ طبيعيّ،لكنّ الواجب على هذا

المحبّ أن يحيط علماً بمحبوبه الحقيقي، فلايحب شيئاً إلا في ظلال مشيئةِ إلهه وتبعاً لإرادته عزوجلّ. وإلى هـذه الحقيقـة أشـار الله تعـالى في الآيـة (٢٤) مـن سـورة التوبة قوله: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشـيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سـبيله فـتربّصوا حتّى يـأتي الله بـأمره، والله لايهـدي القوم الفاسـقين.**﴾ فـأطلق تعـالى علـى كـلّ محبّـةٍ تفـوق محبّـة العبـد لربّـه كلمـة "الفسق" أي الخروج والتمرّد على مشيئة الله وإرادته.

فالمحبّة إذن شيء عاطفي روحيّ، غير مادي. هـذا وإن ماأوتيه الإنسـان من فكـر وحـواسّ إن هـي إلا وسـائل، إن استعملت استعمالاً صحيحـاً ووفقـاً لتعاليم القرآن الكريم تعود أداة طيّعةً لتنمية عاطفة المحبّة لتتلاقـى ومحبّـة وعاطفـة خالق هذه العاطفة وتتفاعل معها لتكتسب حياة الخلـود الـتي هـي لله جـل شـأنه الذي يجسّم المحبّة والعاطفة المطلقة. فالحواس وسائل وأدوات ماديّة تفنى مـع فنـاء هذا الجسد بعد موته. أمّا عاطفة المحبّة التي تلاقت مع محبة خالقها، فـلا تفنـى بـل تخلد خلود هذا الخالق الذي تلاقت معه.

إنّ حواس هذا الإنسـان مُرتبطـة بفكـره. تنـام إذا استسـلم للنـوم، فـإن تسلّلت أفعى ولامست جسد هذا النائم يستيقظ، ولاينتبه إلى خطر هـذه الأفعـى إلاّ بعد ثوانٍ من يقظته. ففكره مُحتاج إلى تلك الثواني المعدودات لتقديـر الخطـر الذي يتهدّد صاحبه. فهي ثواني فكر وتأمّل. وهذا دليل من واقع الإنسـان يثبـت أنّ حواس الإنسان ماديّة وترتبط بالفكر أيضاً.

علـى حـين أنّ عاطفـة الإنسـان الـتي تكمـن في جبلّتـه الباطنـة ليسـت كحواس جسده. بل لها حقيقة تتصّف بالدّوام. ويستمر عملها في يقظة الإنسـان وفي حالة نومه أيضاً. ودون أي انقطاع. والمثال على ذلك هذه الأمّ النائمـة وإلى جانبها رضيعها. فإن احتـاج إلى الرضاعـة مـن ثـدي أمّـه وأبـدى هـذه الحاجـة. يُلاحظ أنّ هذه الأمّ تضمّ رضيعها إلى ثديها وهي نائمة غـير واعيـةٍ إلى ماتفعلـه. بل وتلاطف رضيعها أيضاً وهي نائمة وتربّـت علـى صـدره دون وعـي منهـا أو يقظه. تفعل ماتفعله بدافع ماتحمله لهذا الرضيع من عاطفة حيّاشةٍ في صدرها. فإنّ أقدم إنسانٌ ما، وبخِفةٍ ظاهرة، على سـرقة هـذا الرّضيـع النـائم إلى جـانب أمّـه، لاتشعر هذه الأمّ بما حدث لرضيعها، لماذا؟ الجواب هـو أنّ سـرقة الجسـد مرتبـط

بالفكر والحواس. وليس بالعاطفة. فالجوع حالةٌ باطنةٌ مرتبطةٌ بعاطفة الأمّ، ولايرتبط الجسد بهذه العاطفة إلا عن طريق الفكر والحواس، الأمر الذي يثبت منه دوام فعاليّة العاطفة في حاليّ النوم واليقظة يقيناً.

وبإمكاننا تقديم مثال آخر يثبت منه دوام عمل العاطفة وعدم دوام الحالة الفكرية. وهو أنّ الملاحظ عن الإنسان أنه إذا ماراحت ذبابةٌ تزعجه وهو يقظ غير نائم يسارع إلى ذبّ هذه الذبابة عنه وإلى طردها بل وإلى محاولة قتلها. على حين أنه إذا جاءت ذبابة ووقفت على جسد هذا الإنسان وهو نائم، لايَرعش، ولايحاول طردها عنه إلاّ إذا وقفت على مناطق حسّاسة من جسده وتسبّبت له بحركات غير واعية وغير إراديّة. فما هو سبب هذا الفارق في سلوك هذا الإنسان المتحلّي في حاليّ نومه ويقظته؟ الجواب هو أنّ خطر الذّبابة متعلق بفكر هذا الإنسان وليس بعاطفته.

وأقدّم مثالاً ثالثاً تثبت منه حقيقة دوام عمل عاطفة الإنسان ودون أيّ انقطاع في حاليّ نومه ويقظته. فلو نام ثلاثة أشخاص والد ووالدة وابنٌ لهما. وتسلّل مجرمٌ ليعتدي على أحد هؤلاء دون إحداث أيّة ضجّة كانت. وقام هذا المجرم بفعلته بعد أن كمّ فَمَ المُعتدى عليه. واستيقظ الوالد بعد فوات الأوان. نلاحظ أنّ هذا الوالد يقدم على معاتبة هذا المُعتدى عليه من أنّه لم يُحدث أيّ جلبةٍ أو حركةٍ أو صوتٍ يوقظه لمساعدته ضدّ هذا المجرم.

فلماذا لايستيقظ هذا الوالد في الوقت المناسب لمساعدة المعتدى عليه سواء أكان هذا زوجته أو ولده؟ السبب في ذلك هو أنّ ماجرى لايمسّ عاطفة الوالد وهو نائم ويتعلّق بفكره وحده.

وهذه العاطفة الفطرية عند الإنسان والتي تعمل في يقظته وفي نومه، هي المُستهدفة بالتطوير من الذرائع العشرة التي أتيت على ذكرها لجذب محبّة الخالق عزوجلّ. أي أنّ هذه الذرائع تفيد في إيجاد الجّو والحالة المناسبة لتنمية عاطفة هذا المؤمن السّالك درب عرفان ربّه، لتصبح مع مرور الزّمن عاطفة جياشةً بحبّ خالقها من خلال وعيها لتكوينها الفطري، ومن خلال عمليتي ذكرها ربّها عن طريق عبادته، وتفكرها في إحساناته، وعن طريق التوبة والاستغفار والدّعاء بين يديه وعن طريق تقوى الله وخشيته والتخلّق بصفاته وعن طريق الالتزام بخدمة مخلوقاته والعدل والانصاف معهم خلال تصرُّفاته . فإذا تحقّق لعاطفة المحبّة هذه

أن تنمو وتزدهر وتثمر جذب محبّة الله عزوجلّ نحوها. يُوهَبُ صاحبُها حواسّاً روحيّة غير حواسه الجسدية وموازية لها، وعن طريق هذه الحواس تبدأ محبّة هذا المؤمن تتفاعل مع المحبّة الإلهية ويعود هذا المؤمن يرى مالا يراه سواه ويسمع مالا يسمع سواه، ويتلقى مالا يتلقّى سواه من النّاس.لاأقول هذا من منطلق نظري، بل عن تجربةٍ شخصية وعرفان. ذلك أنّ الطّاعات أمورٌ فلسفية وفكرية، فلاتثمر ماذكرته إلاّ إذا استوفت الإيمان عن علمٍ وبيعةٍ لرسول الله وخلفائه. وهناك يكون الإثمار والعطاء. ويؤكّد ذلك قول الله عزوجلّ ﴿**إنّ الذين يُبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم.**﴾ أي أنّ الطّاعات المجرّدة لاتثمر بغير هذه الوسيلة وبغيرهذه البيعة.

من هذا نكون قد أدركنا أنّ الطّاعات المجرّدة كيفيّات عقليّة نابعة عن فلسفة مُعيّنة، ومتعلّقة بحالة يقظة الإنسان. أمّا العاطفة والمحبّة فلا تعرفان الفتور ولا الانقطاع لا ليلاً ولانهاراً.

فالمؤمن السالك درب عرفان ربّه الذي استوفى شرط الإيمان والبيعة وأخذ بالذرائع العشرة المذكورة ليجذب محبّة ربّه إليه، لا بدّ أن تتفاعل عاطفته ومحبته مع عاطفة ربّه ومحبّته، ويتقرّب بذلك إلى خالقه ويفوز بقربه ورضاه. وإلاّ فإنّ طاعاته المجرّده لاتغنيه إلا نصباً وعناءً. وهو حال من لم يتّخذ الإسلام ديناً، ولم يستجب لصوت مرسليه عزّ وجلّ.

إنّ هذا الإنسان العابد على أساسٍ عقلانّي مُجرّدٍ قد يصل مرحلةً يتشكك فيها بوجود خالقه الغائب عن عينيه. ذلك أنّ أوّل وحيٍ قرآني نبّه الإنسان إلى ضرورة الاستجابة للذي أرسله الله عزوجلّ ليحقّق هذا اللّقاء وهذه العلاقة مابين العبد وخالقه وبصريح العبارة أيضاً. فهو مانزل في غار حِراء من وحي سماوي وهو قوله تعالى: ﴿**إقرأ باسم ربّك الذي خلق. خلق الإنسان من علَق.**﴾ فماهي دلالة العلق على حسب ماأورده اللغويون : دلالة العلق على التعلّق بالمحبوب ودلالته على مخاصمته. فالعلق مصدر. فإذا قلت : نظر فلان أو فلانة نظرة من ذي علق أي نظرةً من ذي حبّ. وإذا قلت علق فلان بفلانةٍ أي هويها وأحبّها. والعلق يحمل معنى الخصومة أيضاً والجدل بخصومه. وبهذا المعنى ورد قول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿**وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً.**﴾.

وعليه فالله عزوجلّ إذ أمر رسوله محمداً (ﷺ) في هذه الآية الكريمة أن يحمل رسالة ربّه وليُبلّغها إلى مخلوقه الإنسان. فقد لفت تعالى نظر هذا الرسول الكريم من أوّل الطريق وقال: ﴿**خلق الإنسان من علق**﴾ أي أن الله تعالى غرس في جبلّةِ هذا الإنسان عاطفة المحبّة منذ أن صوّره هذا وإنّ تعاليم هذا الدّين القويم تهدف إلى تنمية هذه المحبّة في فؤاد هذا الإنسان لتعود حيّاشة بحبّ خالقها لتهواه وتستميت في طلب محبّته عزّ وجلّ.

هذا علماً بأنّ كلمة ﴿**من علق**﴾ أُغفل فيه ذكر الجهة المقصود التعلّق بها. هذا الإغفال ليفيد سعةً في دلالة العلق وفي وجهات تصريفها. أي أودع الله جل شأنه عاطفة العلق هذه لتكون أساساً لعلاقة الأبناء بوالديهم، والتلاميذ بأساتذتهم ومعلّميهم، والمؤمنين بإخوانهم من المؤمنين، وصاحب المال بماله وتجارته، هذا كلّه وليتعلّق هذا الإنسان بخالقه وليُحبّه حُبّاً يفوق محبّته لجميع ماذُكر.

وزبدة القول : إن تعاليم الإسلام نزلت تهدف إلى تنمية عاطفة محبّة الإنسان التي تكمن بين أضلعه وفي جبلّته. تنميتها باتّجاه محبّة هذا الإله الخالق لتتلاقى مع محبة ربّها وعاطفته.

وحين أقول : إنّ الله محبّ وعاطفيّ، لاأقول ذلك تصوُّراً بل من منطلق أن فاقد الشّيء لايعطيه.

فالله جل شأنه يحمل في ذاته عاطفة مُطلقةً. وهو الذي جبل الإنسان على صورته وغرس في جبلّته شيئاً من عاطفته. لذلك نُلاحظ أن الله تعالى قال في مستهلّ سورة البقرة وهي السورة الأولى منه، قال : ﴿**الم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**﴾. ففي ألفاظ ﴿**هدى للمتقين**﴾ تكمن دلالة ﴿**من علق**﴾ أي أنّ تعاليم هذا الكتاب ستثمر محبة الإنسان لخالقه. وليصبح لقاء المحبّتين ﴿**هدىً**﴾ لهذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه فيهتدي إلى وجود ربّه بأسلوب التّعامل معه، ويفوز هذا المتّقي نتيجةً لذلك بقربه من خالقه فيحصل على رضاه ويحقّق بذلك الغاية من خلق الله إيّاه. وكثيرةٌ هي الآيات التي تفسّر قوله عزوجلّ ﴿**هدى للمتقين**﴾. وقد سبق لي أن القيت الضوء على الهدايات الأربعة فيما سبق من البيان.

ويكفي أن ينتبه القارىء عند قوله تعالى ﴿**هدى للمتقين**﴾، إلى أنّ التّقوى ليست هي المقصودة في حدّ ذاتها. بل هي وسيله تحصيل هداية الله فيأخذ الله بيد هذا المتقي يهديه درب التّعرف إليه ليفوز بمحبّته وقربه ورضوانه.

وقد لفتت آيات سورة الفاتحة أنظارنا إلى مسار توحيد الله عزوجلّ. فأخبرت أنّه ﴿**ربّ العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدّين**﴾ فلماذا أمرنا ربّنا عزوجلّ أن نكرّر تلاوة ذلك في كل ركعة من رُكعات صلواتنا بين يديه، ومبتدئين بالثناء عليه وبحمده ومعترفين أنّه تعالى يستحقّ منّا جميع أنواع الحمد وأنّ الحمد كله يعود إليه؟

إنّ الجواب المختصر هو أنّه جلّ شأنه فعل ذلك لتوجيه أنظارنا إلى مايخلب أفئدتنا ويحرّك فينا عاطفة محبته. هذه العاطفة التي تتأثر بمعالم الجلال والجمال. حتى إذا اكتمل وعيُنا لِما يحمله ربّنا من صفات الحسن والإحسان والجلال والجمال، انجذبنا إليه بصورة فطريّة وسألناه محبّته وعاطفته نحونا. وهذا هو ماتفعله فينا تعاليم القرآن الكريم، فإذا ماجاشت محبتُنا لربّنا عزوجلّ تتلاقى ومحبّة هذا الرّب الخالق، ويتحقّق لنا عرفانٌ ولقاء.

وعلينا ألاّ ننسى هنا أنّ عين الإنسان ترى الجمال الظاهر من الأشياء الماديّة المحدودة المرئيّة. أي أنّ رؤية جمال الأشياء في عالم المادة تسبق رويةَ إحساناتها على الإنسان على حين أن هذه المعادلة يتبدّل طرفاها في عالم الروح غير المرئي وغير المحدود. فيلاحظ الإنسان السّالك إحسان الله تعالى عليه أولاً ومن ثم تتراءى لهذا السّالك معالم جماله عزوجلّ فنحن نلاحظ إحسان ربّنا إلينا أولاً وقبل أن نتبيّن معالم جماله. فالذات الإلهية لاتُرى للطافتها، ولاترى أعيننا إلا إحسانات هذه الذات المقدسة. وذلك وفق قول ربّنا في سورة الانعام: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾.

كذلك علينا ألاّ ننسى أنّ عاطفتا ومحبّتنا لاتجيش ولاتفور إلاّ إذا حركّها مايجذبها. والاحسان والجمال يُعتبران مُحركّان أساسيان لهذه العاطفة ولهذه المحبة الكامنة في فطرتنا. لذلك نبهنا الخالق عزوجلّ إلى صفتيه ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ ولنتدبّر دلالة هاتين الصفتين الجذّابتين. ولنتلمس معالمهما في هذا الكون المحيط بنا. فإذا تلمسّنا إحسانات ربّنا المنبثّة في كل مكان، وتحسّسنا معالم رحيميّته النابعة من جماله خصوصاً وأنّه تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿**وا لله بالمؤمنين**

رؤوف رحيم﴾. إذا قُمنا بهذه الخطوة الثانية تجيش محبّتنا نحو خالقنا، ونصل إلى حد الوَلَهِ بهذا المعبود الذي لانعود نعرف لنا محبوباً وإلهً سواه في هذا الكون المتواجدين فيه. ذلك أن إحسان الله وجماله حرّك فينا عاطفة محبّتنا لذاته جلاّ وعلا ودون حدود.

ولاشك أن المناظر الخلاّبة، والأصوات الجميلة والنسيم العليل والنُزهه في ضوء القمر. إن جميع هذه الأمور محركات لعواطفنا ومحبّتنا. بل وإنّ علاقات الزوجين الجنسيّة تؤجّج هذه العاطفة والمحبة الكامنة في أفئدة هؤلاء الأزواج، أمّا الله الخالق الذي لاتراه أعيننا، فلا يُحرّك عاطفتنا ومحبّتنا نحوه إلاّ مُحرّكان بارزان هما، حُسْنُ الله وإحسانه. وإنّ جميع تعاليم الإسلام قد نزلت لتدفع هذا المؤمن المبايع ليتعرّف ربّه ويجذب محبّته ويفوز بقربه ورضاه. هذا يُلاحظ الذي يراجع مابلغنا من أدعية رسول الله (ﷺ) دُعاءً يكشف هذه الحقيقة بكلّ جلاء. فرسول الله (ﷺ) كان يدعو : (اللّهم ارزقني حُبّك وحبّ من أحبّك وحبّ مايقرّبني إليك، واجعل حُبّك أحبّ إليّ من الماء البارد.).

وقد نبّهنا هذا الدّعاء إلى حقيقتين لاينبغي للمؤمن إغفالهما. الحقيقة الأولى أنّ طلب محبة الله هي مدار التعاليم الإسلامية. والحقيقة الثانية هي أهمية سعي المؤمن لتحصيل محبّة الله والتّلاقي معه والفوز بقربه ورضاه.

هذا وإنّ محمداً (ﷺ) عندما أنهى هذا الدعاء بقوله (أحبّ إليّ من الماء البارد). فقد أشار من خلال لفظ (الماء) إلى ماتضّمنه قول ربّه عزوجل: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ**﴾ أي أن السّعي إلى الفوز بمحبة الله، وتلاقي محبة العبد بمحبّة الله الخالق هو أساس الحياة الروحيّة ومدارها، على شاكلة مايحتل الماء المادّي من دور أساسي في وجود كلّ شيء حيّ. فكل شيء متعطّش بالفطرة إلى الماء البارد الذي يروي العطشان. فالماء المادي جُعل لاحياء كلّ شيء مادي. وماء المحبة الإلهية قد جعله الله لإحياء فطرة السّالكين درب عرفان خالقهم عزّوجل.

إنّ عيوننا التي تحملها أجسادنا الماديّة تساعدنا على رؤية جمال الأشياء المادية. كذلك فآذاننا تساعدنا على سماع الأصوات والأنغام المطربة. فكيف بإمكاننا رؤية جمال هذا الخالق الذي لاتستطيع أعيننا رؤيته ولاتستطيع آذاننا

سماع كلامه اللّذيذ؟ وقد حلّ ربّنا هذا الإشكال بأن بعث رُسُلَهُ وأنبياءه ومجددّيه لنُبايعهم ونعمل على مايأتونا به من تعاليم سماوية. فيخلق الله لنا كياناً روحياً غير كيان أجسادنا، ونؤتى بالتالي حواساً باطنة غير حواس أجسادنا. فإذا مااكتمل خلق ونموّ معالم تلك الحواس الباطنة، نتمكن حينذاك من رؤية جمال الله وأنواره، ونتمكّن من سماع كلامه اللذيذ أيضاً. ويعود تحسُّسنا لوجود ربّنا يبلغ عين اليقين.

ألا إن ذريعتيّ الذكر والفكر تخلّص أنفسنا من حالة سبوتها وغفلتها، وتنقلها إلى عالم اليقظة لنُدرك وجود خالقنا ونسعى للحضور بين يديه. فإن نحن أخذنا بجميع الذرائع العشرة التي ذكرناها وانتهينا عن منهياتها، تجيش عاطفتنا ومحبّتنا لربّنا عزّوجلّ وتنجذب عاطفة ربّنا إلينا ومحبّته. ومن تلاقي هاتين المحبّتين تُكتب لنا حياة الخلود.

أفلم نقرأ قول ربّنا عزوجل من سورة الفتح: ﴿**إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزرّوه وتوقّروه وتسبّحوه بكرةً وأصيلاً.**﴾ فقوله أرسلناك شاهداً دون تعيين مايشهد عليه ، ورد كذلك لتصريف كلمة شاهداً بجميع الاتجاهات. أي شاهداً على وجود ربّك أمام عباده، ومعايناً لجماله وقدراته وشاهداً على من استجاب لك وآمن.

ثم إنّ كلمة مبشراً تحتمل أيضاً التّصريف إلى جميع هذه الاتجاهات. أي مبشّراً كلّ من يؤمن ويستجيب يصبح من محبوبينا ويعاين جمالنا ويطّلع على مالنا من قُدُرات. إلى جانب أنه سيصبح شاهداً ومبشراً على سواه من المؤمنين.

كذلك كلمة(ونذيراً) تحتمل التّصريف إلى جميع هذه الاتّجاهات. أي تكون نذيراً ومُحذّراً كلّ إنسان ينكر وجودنا، ولايسعى للتعرّف الينا.

وأتى الله جل شأنه بعد ذلك بلام التعليل ليعلّل فعله هذا وقال: ﴿**لتُعزّروه وتُوقّروه وتُسبّحوه بُكرةً وأصيلاً.**﴾ أي أن الغاية من ذلك كله : لتتعرّفوا على ربّكم فتعظّمونه وتفخمونه وتنصرونه وتوقّرونه من خلال عبادتكم إيّاه وسلوككم مع عباده، وأن تسبّحوه فتنزّهوه عمّا ينسب إليه المشركون والكافرون.

والمهمّ أنّ هذه الآية الكريمة نبّهت أذهاننا إلى ضرورة التّعرف إلى جمال خالقنا وذلك بالعمل على أحكام كتابه العزيز لنعود بنتيجة ذلك أصحاب كيان

روحيّ وحواس روحيّه تعاين عن طريقها ماعاينه محمد بن عبد الله الصادق الأمين عليه الصّلاة والتسليم.

ثانياً ـ معالم حُسن الله واحسانه

والسؤال الآن : أين كشف الله الخالق عن معالم حُسنه وإحسانه في كتابه العزيز؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا ألاّ ننسى أنّ جمال الله أخفى من جلاله وإحسانه وعلى عكس الأشياء المادية يبدو جمالها قبل تَذَوّق إحسانها على اعتبار أنّها أشياء مادية مجسّمة ومحدودة. فالله يدرك الأبصار ولاتدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير.

من هذه المعادلة انطلق الله عزوجل يكشف وينبّه إلى إحساناته، في أوّل سورةٍ من سور كتابه العزيز. حتى إذا ماآمن المرء بوجود الله وأيقن بإحساناته هذه، أمكن أن يُمعن نظره فيما كشفه الله تعالى عليه من أسمائه الحسنى، ومن خلال قوانين تعامل الله مع عباده ويكتشف بالتالي وجه جمال ربّه الأخّاذ بمجامع القلوب.

١ً. وجه الإحسان الإلهي :

أفلم يلاحظ قارىء القرآن الكريم كيف أنّ الله تعالى مأأن انتهى من مقدّمة مضمون سورة البقرة التي اشتملت على إحدى وعشرين آية كريمة حتى توجّه بخطابه جل شأنه إلى الناس كافة وقال: ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.**﴾؟ فهو تعالى دعا الناس قاطبة لعبادته مقدّماً الدّليل على استحقاقه ذلك من خلال معالم احساناته عليهم وعلى الذين من قبلهم، وموضّحاً المقصد من هذه العبادة وأنّه مقصد سام في صالح الناس أنفسهم وأنه يستند في ذلك إلى أساس علميّ.

فلم يقل الله تعالى "ياأيها الناس اعبدوني" أو "اعبدوا الله" ، بل قال ﴿**اعبدوا ربّكم**﴾ وبالنّظر لدلالة هذين اللّفظين يكون قد قال: "ياأيّها الناس جنّاً وإنساً ذكوراً واناثاً، وبمختلف ألوانكم وألسنتكم وقوميّاتكم استجيبوا لصوتي

هذا الذي تسمعونه من خلال كتابي هـذا وأطيعوني واخضعوا لي وتذلّلوا بين يدي واخدموا دين الإسلام والتزموا ماأنزلته من تعاليم وشرّعته فيه من تشريع ووحّدوني، فأنا خالقكم وربّكم وربّ آبائكم وأجدادكم من قبلكم أشرفت على تربيتكم وتطويركم جميعاً إلى أن أوصلتكم إلى ماأنتم عليه. وأنتم معتبرين بمصائر النّاس الذين لم يستجيبوا لصوتي السّماوي.

فبهذه الألفاظ المعدودات، وبهذا الأسلوب البلاغي المُدهش حرّك الله عزّ وجلّ عاطفة النّاس ولعب بأوتار أفئدتهم، فذكّرهم أنّه تعالى هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، وأنّه تعالى هو الذي ربّاهم وطوّرهم والذين من قبلهم. أي ذكّرهم إلى أنّه هو المحسن الأعظم الذي كان له فضل وجودهم وفضل تطويرهم وفضل المحافظة على وجودهم من قبل ومن بعد. ذكّرهم كيف أنّه هو الذي أخرج أجدادهم من سكنى المغاور والكهوف وأنّه هو الذي علّمهم سُكنى السّهول وهذّبهم وحضّرهم، ولولا تدخّل ربوبيّته في أمرهم لظلّوا يعيشون حتى اليوم عيشة الأنعام ولايعرفون شريعةً إلاّ شريعة الغاب.

ونبّه جل شأنه الإنسان في الوقت نفسه إلى المقصد الأسمى من دعوته الناس إلى عبادته، فنبّه إلى أنّه لايخالطها أنانيّة شخصيّة ولاحاجة يبتغيها منهم، وكل مايرمي إليه طلبه هذا فهو في صالحهم، لذلك أضاف : ﴿**لعلّكم تتّقون**﴾. مذكّراً بالغاية من انزال هذا الكتاب وهو أن يجعله ﴿**هُدىً للمتّقين**﴾. وقد حذف هنا مفعول "تتّقون" تمكيناً منه للقارىء أن يُصرّف الفعل إلى جميع دلالاته وبجميع الاتجاهات. أي إن أنتم عبدتم الله ربّكم يهديكم درب التعرّف إليه ودرب الفوز بمحبته وقربه ورضاه. وإن أنتم عبدتم الله تتجنّبون بتعاليمه هذه مواقع الإضرار بأنفسكم وأجسادكم . وإن أنتم عبدتم الله ربّكم يقيكم الله شرور أعمالكم ويكتب لكم حياة الخلود.

وهو جلّ شأنه ووفقاً للأصول التي صاغ كتابه العزيز على أساسها، والتي منها أنه لايأتي بادّعاء إلاّ ويُقرنه بدليل من نوعه يؤيده ويثبته. فقد راح هنا يُدلي بدليل علميّ يثبت منه كون الله موجود وأنه هو الخالق والرّب والمحسن الأعظم. فقال: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثمّرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾. فأسّس جل شأنه دليله العلميّ هذا على أركانٍ متعدّدة، يستحيل أن

تجتمع وبهذه الغائيّة دون تصوّر سابق من جانبه تعالى وتخطيطٍ وحُسبان. فالركن الأول لهذا الدليل قوله ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**﴾ أي لاحظوا كيف أن كوكب الأرض ممهد للعيش على سطحه وبما يلائم الناس خاصّة ومذلّل لخدمتكم وقد مكّنكم من استخدامه كفراش تفترشونه، وقد خلق فيه ما يساعدكم على التنقّل في أرجائه.

والرّكن الثاني لهذا الدليل عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**والسّماء بناءً**﴾ أي لاحظوا كيف أنّ الذي جعل لكم الأرض فراشاً، لم يتركها دون سقفٍ يحميكم وأنتم على فراشها. بل جعل فوقكم سقفاً يحفظ ويصون كلّ مايتعلّق بأعمالكم وإطالة أعماركم، فلولا هذا السّقف البناء ألّى كان لزراعتكم وصناعتكم وتجارتكم وسعيكم في هذه الأرض وسياحتكم فيها أن تُحفظ من المؤثرات الخارجية. فللسّماء البناء دخلٌ كبيرٌ في حفظ ذلك كلّه ودوامه. خصوصاً وأنّ هذا السّقف احتوى على الهواء والضّوء المنبّث من الشمس والنجوم، وعلى مايفيد في تأمين اتّصالاتكم السّلكية واللاّسلكية، وعلى طبقة الأوزون التي تحميكم من أضرار الأشعة فوق البنفسجية القادمة من هذه الشّمس.

والركن الثالث لهذا الدّليل أفاده تعالى بقوله: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ أي لولا أن أبدع خالقكم هذا النظام الجوّي من تبخير للمياه وإنزالها على شكل أمطار فمن أين كنتم ستحصلون على هذا الرزق وهذه الثمرات؟ فماء السّماء ومايرافقه من عواصف ورياح وفيضانات هو وراء ماتنبته لكم الأرض من أشجار مثمرةٍ ونباتات.

ولو أمعن المفكّر نظره في عظمة هذا الدّليل العلمي الذي صيغ على أرقى مايُفدّمه علماء عصرنا من حُجج وبراهين. لاكتفى به وحده تدليلاً على وجود الله الخالق الرّب، وعلى صدق هذا الوحي القرآني ولَلَهج لسانه وقلبه بحمد الله تعالى على احساناته، ولاندفع يستجيب هذا النّداء الإلهي فيطيع ربّه ويخضع له ويتذلّل بين يديه ويخدم دينه ويلتزم بشرائعه ويكون من الموحّدين، ويصبح من المتّقين، ويهتدي بهدي الله ويتعرف إليه ويفوز بمحبّته وقربه ورضاه.

فقد صيغت هاتان الآيتان بلسان عربي هو في مُنتهى البلاغة صياغة وفي منتهى عظمة الدلالة مضموناً. وقد احتوت على دعوةٍ لعباد الله مع بيان المقصد الأسمى منها، وقدّمت الدليل العلميّ القاطع الذي يؤيّدها، وبأسلوبٍ تَلاعَبَ

بأوتار الأفئدة والعقول، و لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل أُنهيت هاتان الآيتان بدعوة أخرى تقوم كنتيجة طبيعية للدعوة الأولى وللتسليم بها بشكلٍ علميّ أيضاً. فقد أضاف تعالى يقول: ﴿**فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.**﴾ حيث أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليقدّم هذه الدعوة الثانية الموجهة إلى الناس قائلاً أيّها النّاس وهل بإمكان أحدٍ سوى هذا الخالق نفسه أن يُحيط علماً بجميع هذه العناصر التي ذكرناها من أرض فراش وسماء بناء وسماء وماء وماينتج عن ذلك من ثمراتٍ وماتحتوى عليه من أنواع الغذاء وأنواع الدواء وأنواع الأمور الضارّة أيضاً، هل بإمكان ندٍّ لهذا الإله الخالق أن يضارعه في مضمار إحاطته بعلم ذلك كلّه ويكون هذا النّد مخلوقاً أيضاً؟ ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾ أي أنّ من الحماقة بمكان أن تفكّروا بوجود أندادٍ لهذا الخالق خصوصاً ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ ولنلاحظ كيف أنه تعالى حذف مفعول تعلمون ليمكّن القارىء من تصريف الفعل بمختلف الاتجاهات.

أي خصوصاً وأنتم تعلمون أنّ دعوة الله إياكم لعبادته وتوحيده ليست هي دعوة حديثة، بل هي دعوة وجّهها الله الخالق الرّب للذّين من قبلكم أيضاً. كذلك أنتم تعلمون أنّ الناس انقسموا نتيجةً لذلك إلى فريقٍ مؤمن يفكّر باسلوب تفكير روحيّ ، وإلى فريق كافر يفكر باسلوب تفكيرٍ مادّيٍ محض . كذلك أنتم تعلمون أن المنطق العلميّ يقول إنّ اجتماع عناصر عديدة يستحيل أن تجتمع بعامل الصُّدفة والضرورة، وهاأننا لفتنا أنظاركم إلى هذه العناصر الضّخمة المحتوَيات والتيّ تُشكّل بموازينكم العلميّة دليلاً علميّاً على صدق مادعوناكم إليه، فعودوا عن اتخاذ الأنداد لله وعودوا إلى عبادة الله الواحد القهّار. وهكذا يكون الله تعالى قد أتى من خلال هاتين الآيتين الكريمتين بإعجاز صياغةٍ وإعجاز مضمونٍ يستحيل أن يقدر أي إنسان مهما طال باعه في لغة الضادّ أن يضاهي هذه الصياغة وهذا المضمون.

والذي يؤكّد ماذهبت إليه من بيان دار حول صياغة ومضمون هاتين الآيتين الكريمتين هو أنّ الله جل شأنه قال بعدهما وبتحدٍّ صارخ: ﴿**وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتّقوا النّار التي وقودها النّاس والحجارة، أُعِدّت للكافرين.**﴾. أي أيّها الناس الذين دعوناكم إلى عبادة

ربّكم لاتتسرّعوا بتكذيب دعوتنا التي وجهّناها إليكم، فدليلنا العلمي الذي قدّمناه لإثبات مقولتنا هو دليل من العظمة بمكان، لايجوز للعاقل المتّزن أن يرفضه دون مبالاة وبأسلوبٍ غير علميّ، فإن ارتبتم في حقيقة مادعوناكم إليه وماقدّمناه لكم من خلال هذا الإنشاء البياني الذي تضمنته هاتان الآيتان من سورة البقرة، فأتوا بسورةٍ وإنشاءٍ بيانيٍ من مثلِهِ أي بقوّة حُجّته العلميّة ومضمونه تثبتون فيها أنّ ماتّخذتموه من أندادٍ لله الخالق هو الأمر الحقّ وأنّ هؤلاء الأنداد يحيطون علماً بجميع مافي هذه السماء والأرض من أشياء وقادرون على هدايتكم وحفظكم من كل سوء، إن كنتم صادقين في تكذيبكم لدعوتنا، وتكذيبكم لدليلنا العلميّ وصادقين فيما تعبدونه من دون الله عزوجلّ.

ولم يكتف الله جلّ شأنه ببيان وجه إحسانه والتدّليل عليه، ودعوة المُكذّبين لذلك كلّه ليقارعوا الحُجّة بالحُجّة والبرهان بالبرهان، بل راح يُرّهِبُ المكذّبين بما سيؤولون إليه بسبب هذا التكذيب وقال: ﴿**فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتّقوا النّار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين.**﴾. ولنلاحظ تلكُمُ اللّفظين اللّذين تضمّنهما هذا النصّ القرآني: فاللّفظ الأول هوكلمة (الوقود) وهو ماتوقد به النّار. أي لانار بدون وقود. أي لاوجود لنار الجحيم إن توقّف النّاس عن الكفر بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. أي أن النّاس الكافرين هم وقودٌ ناري، من جرّاء مايقومون به من عداواتٍ ضدّ رسل الله وأتباعهم، فلهذه الأعمال آثارها النارية في كيانهم الباطني، وبما تنطوي عليه نفوس الكافرين من نار الحقد يأكل أكبادهم ويتجلّى يوم القيامة ناراً تخرج من صدورهم، وإلاّ فليس لجهنّم من وجود أصلاً بدون وجود مكذّبين وكافرين.

واللفظ الثاني المستعمل في هذه الآية الكريمة هو لفظ (الحجارة) فقد كنّى الله تعالى به عن زعماء هؤلاء الكافرين وعمّا اتّخذوه من آلهةٍ أصنامٍ وأرباب.

ثم إن قوله تعالى في هذه الآية ﴿**ولن تفعلوا**﴾ قُصد به التّحدي الكامل لهؤلاء المكذّبين أي لن يكون باستطاعتكم مواجهة هذا الحوار العلميّ بمثله ولاهذا الإنشاء البياني المعجز بمثله. وهذه حقيقة أثبتتها أربعة عشر قرناً مضت لم يبرز فيها إلى الميدان من جانب المكذّبين الكافرين من تصدّى إلى ماتحدّاه الله جلّ شأنه به من هذا النوع من التّحدي الذي ذكرناه.

وبما أنّه ماكان هذا الكلام ليكتمل دون ذكر ماأعدّه الله جل شأنه للذين يستجيبون لدعوته فيؤمنون به ويعبدونه وبكامل مااشتمل عليه لفظ العبادة من دلالات أتينا على ذكرها، فقد أخذ جل شأنه يَذْكُرُ ويعدّد ماأعدّه لهؤلاء المؤمنين العاملين وقال: ﴿**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، كُلّما رُزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً، قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتوا به متشابهاً، ولهم فيه أزواجٌ مُطهّرةٌ، وهم فيها خالدون.**﴾. ولايتّسع المقام هنا لشرح مضمون هذه الآية الكريمة. واكتفي بالتنبيه إلى ماتضمّنته من نقاط: فقد نبّهت أولاً إلى أن للأعمال الصالحة ثمارها الروحية. ونبّهت ثانياً إلى أن ماهية هذه الثمار تختلف عن ماهية الثمار الدنيويّة ونبّهت ثالثاً إلى أنّ ظاهرة زوجيّة كل شيء ستستمر في الحياة الآخرة، فسيكون هناك ذكر وأنثى يجتمعان، أمّا كيف وماهي الأسس فأمر مخفي لايعلمه إلا الله عزوجلّ. ونبّهت رابعاً إلى أنّ هذه الأزواج مطّهرة. ونهبّت خامساً وأخيراً إلى أن اختلاف ماهية الأشياء في الآخرة أكسبتها حياة الخلود.

وخلاصة ماذكرناه هو أنّ الله عزوجلّ كشف في هذه الآيات من سورة البقرة عن وجه جلاله وإحسانه، تفسيراً منه جلّ شأنه لصفة (الرّحمن) التي أوردتها سورة الفاتحة. فالذي يتدبّر كتاب الله العزيز سيلاحظ أمثلة لاتحصى من هذا النوع من التذكير وموافقاً للتّسلسل الموضوعي. وأنا اكتفي بهذا المثال وانتقل منه لبيان مايشرح صفة (الرّحيم) التي تعني الوجه الجمالي لهذا الخالق العظيم.

٢ـ وجه الجمال الإلهي :

أقول : إنّ الله عزوجلّ لم يبخل على عباده ببيان وجه جماله الأخّاذ. بل ترك لنا أن نستشعر جماله من طريقين اثنين : من خلال أسمائه الحسنى ودلالاتها وتجلّياتها، ومن خلال أقواله عزوجلّ ضمن آيات كتابه العزيز.

فإذا استعرضنا أسماء الله الحسنى، نلاحظ أن الله تعالى قال من جهة أنّ رحمته وسعت كلّ شيء. وأتى بمثال على سعة رحمته وجمالها وهو صفته "الستّار". من ستر الشيء غطّاه (محيطٌ المحيط) ومعلوم أن الإنسان يعمد إلى ستر أيّ شيء كان إمّا لنفاسة قيمته أو لدناءته وحقارته أو صيانةً لهذا الشيء من

الفساد. والمهمّ أنّ صفة السّتارية هي صفةٌ حميدةٌ وشيمةٌ فاضلةٌ وتكشف عن جمال وجه صاحبها. والله تعالى لم يصف نفسه أنّه ساتر بل ستّار على صيغة المبالغة والاستغراق، بمعنى أنّه يستحيل أن يضارعه أحد في صفة ستّاريته هذه.

والآن لندقّق هذه الأشياء المادية التي احتوى عليها كوننا المادي من جماد إلى نبات إلى حيوان وإنسان. ولنمعن نظرنا في النواميس الكونيّة التي استند إليها خلق الله لهذه الأشياء جميعها. فسيتراءى لنا جمال صفة الله السّتار المتجليّة من خلال خلق جميع هذه الأشياء. أي أنّه لولا أن كان الله الخالق ستّاراً لما كان لصفة السّتارية أن تبدو فعاليتها عند خلق الله تعالى لهذه الأشياء ذلك أنّ فاقد الشيء لايعطيه.

نتناول وجودنا نحن البشر. فقد ميّزنا الخالق على سوانا من مخلوقاته بجوهرة العقل. فإن نحن دقّقنا نظرنا في تقنيّة إيجاد هذا العقل البشري لاحظنا تجلي هذه الصّفة الجميلة وهي صفة الله السّتار قد لعبت دوراً مهمّاً في تقنيّة هذا العقل . فالعقل أوجده تعالى أصلاً كأداة فكر ومحاكمة.

فالخالق قد خلق هذا الإنسان إذا جلس يفكّر في أمر من الأمور ،خلقه لايُرى مايدور في خلده من أفكار خيّرة ومن أفكار شريّره. فإذا وُجد زوج وزوجته على سبيل المثال ومرّ من أمام أعينهما منظر رجل أو امرأة أو شيئاً له جاذبيّته. فكلّ طرف من هذين الزوجين يتأثّر بما رآه تأثّراً يختلف عن تأثّر الطرف الآخر. وقد يكون الذي جال في رأس كلٍّ منهما صور أفكار حسنة ، أوصور أفكار سيّئة . وقد يتمنّى أحدهما على سبيل المثال أن يكون زوجته ليحصل على ماشاهده ورآه. فلو اطّلع كل طرف على مايجول في رأس الطرف الآخر لانتهى الأمر بهما إلى فصم عُرى محبّتهما وعلاقتهما الزوّجية ولربّما انتهى الأمر بهما أيضاً إلى الاقتتال والطّلاق. وعلى هذه الشاكلة تقاس أمور كلّ إنسان يجتمع بإنسان آخر. فلولا أن تدخّلت صفة الله السّتار التي تمثّل هذا الوجه الجميل الذي يتجلّى به ربّنا الستّار . أقول لولا أن كان لهذه الصفة الالهية الجميلة دخلٌ في تقنيّة تركيبة عقل الإنسان، فلوعاد كل إنسان يرى ويشاهد مايجول في رأس الآخرين من أفكار خيّرةٍ وأفكار شريرة، لكان انتهى الأمر بالمجتمعات الإنسانيه إلى الاختلال والاقتتال، ولكان انتهى بالعلاقات الأسروية إلى الاختلال أيضاً، لكنّ الذي حدث هو أنّ الله الخالق المبدع المصّور الذي أبدع هذا الإنسان عقله،

أبدعه وبدافعٍ من كونه ستّاراً لايتسرّع في تعرية من يعصيه من أوّل مرّة يعصيه فيها، أبدع له عقله وصاغه على صورة لايُرى معها مايدور في خلده من أنواع الصّور والأفكار لأعين إنسان آخر يجلس في مقابله وينظر إليه، فما أجمل خالقنا الستّار الذي صاغ عقولنا لتعمل على هذه الصورة من الخفاء، وبحيث تخفي جميع أنواع الأفكار التي تدور في خَلَدِنا، وجميع مانمرّ خلاله من صورٍ جيّده أو غير جيّدة

ونتناول جانباً آخر من تقنيّة خالقيّة الله الستّار. فقد لاحظ الأطباء وجود أجهزة مناعة، وأجهزة إنذار، في جسم الإنسان وبتقنيّة مدهشة جداً بعد تشريحهم لجسم الإنسان ودراستهم إيّاه دراسةً علميةً تجريبيّة، فالكريّات البيضاء المتواجدة في دم الإنسان، كان من مُهمّاتها، التصدّي لهجمات الجراثيم التي تدخل جهاز الإنسان الهضمي لدى تناوله أطعمته وأشربته بأسلوبٍ غير علميّ. فالتفريط يحدُث من قبل الإنسان نفسه. ولولا وجود جهاز المناعة المذكور، لانتهى الأمر إلى هلاك هذا الإنسان البدائيّ الذي تغذّى بطريق غير علميّ. فالله الخالق، ورفقاً بهذا الإنسان، وستراً منه لظواهر ضعف هذا الإنسان وصيانةً له من محاذير تناول وجبات غذائه بأسلوب وطريقة غير علميّين، فقد اقتضت هذه الصفة الجميلة "الستّار" التي يتحلّى بها هذا الخالق المبدع ليبدع داخل جسم الإنسان جهاز المناعة المذكور ليسترُ منه جلّ شأنه ماسيبدر عن مخلوقه الإنسان من ضعفٍ وتفريطٍ بحقّ جسده. فصاغ جسم هذا الإنسان على صورة يدافع الجسم بنفسه عن نفسه، ويقي صاحبه شرور عدم اعتداله في تناول طعامه وشرابه اليومي وعدم تصرّفه تصرّفاً علميّاً. وهل يشكّ المدقّق الباحث، وهو يصل إلى علمه وجود أجهزة المناعة هذه، هل يشكّ بعدئذٍ ولو للحظةٍ واحدة في موضوع اتّصاف الذات الإلهية بصفة السّتارية الأخّاذة بمجامع القلوب وبتدخّل صفة السّتاريّة هذه لحظة عمليّة الخلق وعلى الشاكلة التي ذكرناها؟ فلايشكّ المدقّق العاقل يقيناً في ذلك لاعتقاده أنّ فاقد الشيء لايعطيه، فهذه ظاهرة جمال تجلّي رحمة الله ومظهر ستّاريته التي تشكّل أحد وجوه هذه الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء بذلاً وعطاءً. علماً بأنّه قد ثبت علميّاً أنّ تسعاً وتسعين في المائه من الأمراض التي تنتاب جسم الإنسان تنتابه نتيجة لإهماله وعدم التزامه بالنهج العلميّ عند تناوله طعامه وشرابه، ثمّ إنّ جميع هذه الأمراض، تُعالجها أجهزة

الدّفاع التي جُهِّز بها جسم الإنسان نفسه وبصورةٍ تلقائيّةٍ وخفيّة عن أنظار صاحب هذا الجسم وفي داخله، وبشكلٍ يأخذ بألباب علماء التشريح أيّاً كانوا. فما أجمل خالقنا السّتار الذي يستر ضعفنا الذي يتأتى عنّا حين تناولنا لوجبات طعامنا وشرابنا. وماأرحمه بنا إذ خلقنا على هذه الحال.

وقد تبيّن للعلماء الدارسين المُحققيّن أنّ صفة ستارية الله الجميلة هذه قد تجلت أيضاً فيما جهّز الله الخالق أعضاء جسم الإنسان من أجهزة إنذارٍ، تنذر صاحبها كلما أحدق خطر بهذه الأعضاء.

فالأسنان والقلب ومختلف أعضاء الأحشاء مُجهّزة بأجهزة إنذار تنذر صاحبها عند وقوع أيّ خللٍ في هذه الأحشاء والأعضاء، ليبادر إلى علاج هذا الخلل الطارىء ويتداركه بالدواء الناجع. والخلل في هذه الأعضاء والاحشاء يتأتّى أصلاً عن إهمال الإنسان نفسه وليس لنقصٍ في تقنيّة خلق الله تعالى لهذه الأشياء. والإنسان يستحقّ العقاب عن إهماله هذا، ولكن رحمة الله تعالى به وصفة ستاريّته اقتضت تسليح جسم الإنسان بأجهزة الانذار المذكورة ستراً لظاهرة ضعف هذا الإنسان، على شاكلة ماتفعله الأم الحنون تلفّ رضيعها بما يصون كيانه من خطر العوامل الخارجة عنه، وهو لايدري بما تقوم به هذه الأمّ ولا بما تفعله.

وهل بإمكان أحدٍ يقوم بمراقبة امرأةٍ فقيرةٍ لاتملك ثمن قماشٍ جميل تحفظ به رضيعها، هل بإمكان هذا المراقب إن شاهد هذه الأمّ تلفّ هذا الرضيع بجلد ثورٍ مثلاً أو بكيسٍ من الخيش، أن يهزأ بها؟ أم أنه سيتأثر بجمال فعلها ويعذرها ويقول مأرحم هذه الأمّ التي سترت وليدها بهذه الأشياء؟ فإنّ نحن نظرنا إلى أجهزة الإنذار التي سلّح الله الخالق بها أجسامنا منذ نعومة أظفارنا بهذا المنظار وبهذه المعايير، يتجلّى لأعيننا جمال ربّنا الأخّاذ الذي يسلب الافئدة والعقول بسموّه وعظمته. ولأيقنا بصورة لارجعة معها أنّ ربّنا وخالقنا وإلهنا ومعبودنا جميل، وجماله أخّاذ أيضاً إلى جانب كونه هو المحسن الأعظم وهو ربّ العالمين الرحمن الرحيم.

ولنلاحظ أيضاً أنّ أجهزة الإنذار والمناعة التي تكلّمنا عنها لاتفتر تعمل ليل نهار وبلا انقطاع، ولم تُصمّم على صورة تضطرُها إلى طلب الراحة من مشقّة العناء. أي أنّ أجهزة المناعة والإنذار هذه أبدعها الله الذي لاتأخذه سِنةٌ

ولانوم. وهل يقبل عقلنا ومنطقنا أن يُبدع الخالق هذه الأجهزة المستمرّة العطاء، لو لم يكن خالقنا ربّاً رحيماً لاتأخذه سِنة ولانوم. فكم هي عظيمة حكمة القائل إنّ فاقد الشيء لايُعطيه؟

على هذه الشاكلة أكون قد قدّمت أنموذجاً من أسماء الله الحسنى وبما يكشف عن جمال الله الذي يملك هذه الأسماء ويتّصف بها، ولانجد له نداً يماثله فيما اتّصف به أيضاً من صفات. وانتقل خطوة ثانية لأكشف عن جمال خالقنا من خلال أقواله في كتابه العزيز. فكلام المرء يكشف عن حقيقة مايحمله من صفات.

دونكم عاطفة الوالدين لأبنائهما. فمن ذا الذي يجهل مايتحمله الوالدان من أخطاء أبنائهم ومن نتائجها وممّا يرتكبونه من ذنوبٍ أمام أعينهم ومع ذلك يغضّ هذان الوالدان الطرف عن أبنائهم وكأنّهم لم يشاهدوا شيئاً ؟

فما الذي يحملهم على تحمّل كلّ هذا العناء إلا العاطفة والمحبّة الّتي تجيش في صدور هؤلاء الآباء تجاه هؤلاء الأبناء؟ ومع ذلك نلاحظ أنّ الوالدين إذا لاحظا عقوقاً من أحد أبنائهما، قد يطردونه من دارهما.

والآن استمعوا إلى مايقوله ربّنا عزوجلّ بحقّ المذنبين من عباده فستنتجون منه أنّ عاطفة ومحبة الله لعبادة أعظم من عاطفة الوالدين على أبنائهما بكثير، وأنّها عاطفة مطلقة لاتحدّها حدود، فهو تعالى قال في الآية (٥٣) من سورة الزّمر: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنّه الغفور الرحيم.**﴾ أي اعلموا ياعبادي أنّ محبتي لكم ورحمتي بكم لاتحدّها حدود لأنّ من أسمائي الحسنى أنّي أنا الغفور الرحيم. الغفور الذي يستر والرحيم الذي يرأف ويحب. فما أجمل هذا الوجه الجمالي الصّفاتي الغفور الرحيم، وأين منه رأفه ومحبة الآباء لأبنائهم؟

كذلك دقّقوا في تصرّفات الوالدين. فقد يعمدان إلى حرمان ابنهما العاق من إرثه، ويقاطعانه اقتصادياً، ويحرمانه من عطاءاتهما.

والآن دقّقوا فيما يقوله ربّنا عزوجلّ بحقّ من يعقّه ويكفر به ويكذب بآياته، فستستنتجون من هذا أنّ عاطفة ومحبّة الله لعباده تحول بين الله وبين أن يعمد إلى حرمان الكافرين العاقّين من عطاءاته الماديّة، فهو يعطي البارّ والعاقّ ولايفرّق حين عطائه الماديّ بين مؤمن وكافر، فالله عزوجلّ قال في الآية (١٩)

من سورة الإسراء: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلاً نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك، وماكان عطاء ربّك محظوراً.**﴾ أي وماكان عطاء ربّك محظوراً على غير المؤمنين. فهو جل شأنه يعطي ويرزق المؤمن والكافر ويمدُّه بعطائه المادي. وإن كان يُبدي شكره لعبده المؤمن الذي يبتغي عطاء الآخرة ويسعى لنيل ذاك العطاء، ومن مظاهر شكره لهذا المؤمن أنّه يعطيه في الآخرة ويعدّ له مالا يُعدّ لذاك الكافر من شكر وعطاء. فما أجمل هذا الوجه السّلوكي ومأأعظم هذه الرأفة وتلك العاطفة التي يحملها الله الخالق الرّب لعباده. وأين منه رأفة ومحبّة الآباء لأبنائهم؟

هذا، وإنّ الذي يدقّق فيما قاله الله تعالى في سورة الحديد يتبيّن له أنّ العذاب الذي يتوعّد به الكافرين من عباده، وإن كان ظاهره من قبله العذاب لكن باطنه فيه الرّحمه والرأفة والمحبة فهو تعالى قال في الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ـ أي عودوا إلى الحياة الدنيا إن استطعتم فالتمسوا من أعمالكم نوراً، فنورنا هذا ثمرة أعمالنا الصالحة هناك ـ **فضُرب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، يُنادونهم ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانّي حتى جاء أمر الله، وغرّكم بالله الغرور، فاليوم لايؤخذ منكم فديةٌ ولامن الذين كفروا، مأواكم النّار، هي مولاكم، وبئس المصير.**﴾.

ألا إنّ الله عزّوجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى أنّ عذاب جهنّم ماهو من قبيل العذاب المادي المعروف في هذه الدنيا، بل هو مجرّد آثار أفكارهم وأعمالهم التي فكروا بها وعملوها في دنياهم. فللكفر بالله وللحقد على رسل الله ولمشاققة هؤلاء ومعاداتهم آثارها النارية التي تتمثّل لهم في الآخرة على شكل عذاب ناري. أي لاتظنوا أيّها الكافرون والعاقون ربّكم أنّ عاطفته نحوكم ومحبته لكم تنقطع يوم القيامة، فها أن الجدار الذي يُضرب بينكم وبين الذين آمنوا في الآخرة، وإن كان ظاهره من قبله العذاب إلا أنه باب باطنه فيه الرحمة، أي فيه الرأفة بكم والمحبة.

المبحث الثالث
طريق الاتّصال باللّه عزوجل
الباب الأوّل

الفصل الأول
١ـ تقديم للمبحث :

دار الكلام في باب العرفان الإلهي حول مفهومه اللّغوي وعن الألفاظ القرآنيّة المعبّرة عن مراحله التي تنتهي بالفوز بمحبّة الله وقربه ورضاه. كما دار الكلام هناك حول الأصول التي تقوم عليها المحبّة الإلهية، ثمّ شرحت تعاليم القرآن الكريم المتعلّقة بكلّ مرحلةٍ من مراحل العرفان الإلهي. وتوسّعت بعدها فاستعرضت ذرائع تحصيل محبة الله تعالى، وحذّرت من المحظورات على الدّرب المذكور. ومن ثمّ تكلّمت عن مضمون المحبّة كعاطفة فطرية، وعمّا لفت القرآن الكريم أنظارنا إليه من معالم حُسنه وإحسانه لتحريك عواطفنا نحوه عزوجلّ، كل ذلك وفق معطيات كتاب الله العزيز. والآن انتقل إلى الكلام في المبحث الثالث لهذا الكتاب، عن طريقة الاتّصال بالله عزّ وجلّ، وما إليه من أمور.

وأجد من المناسب هنا التّنبيه والتذكير بأن فلسفة التعاليم الإسلامية تدور أصلاً حول الفطرة البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها. فهذه التعاليم تساعد الإنسان على مايُزكّي به نفسه، وعلى مايجنّبه عمليّة تدثيتها. وهو الأمر الذي تضمّنه قول ربّنا في كتابه العزيز: ﴿**ونفسٍ وماسّواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب مَنْ دسّاها.**﴾. بمعنى أن المسلم يجد في كتاب الله العزيز مايُعين هذا المسلم على مصارعة ميوله وشهواته وقواه الباطنة وعلى مايجذب بواسطته عاطفة ربّه ومحبّته إليه فيسعى بالتالي إلى تطويرها بما ينسجم ويوافق أسماء ربّه وصفاته. هذه الأسماء الحسنى التي يتّخذها معيار تطوير ومثلاً أعلى يُحتذي به.يُقدم على ذلك ليصبح لائقاً لجذب أنوار هذه الأسماء الحسنى في نفسه وليتلقّى تجلياتها. هذه التجليّات الذي تُنمّي قواه الباطنة وتعدّلها، وذلك تأسّياً برسول الله (ﷺ) الذي استحق نتيجةً لهذه العملية هذه التي حققها في نفسه أن يخاطبه ربّه عزوجل بقوله: ﴿**وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم.**﴾ سورة نون.

هذا وقد شبّه إمام زماننا ماتفعله تجليّات الأسماء الحسنى في فطرة الإنسان وقواه الباطنه، شبّه النفس بالحديدة التي توضع في كور الحدّاد، فإنّ هذه الحديدة تأخذ درجة حرارتها بالارتفاع وتحمّر شيئاً فشيئاً، لتعود هذه الحديدة تشعّ ناراً وهّاجة وهج النّار التي وضعت فيها، وتظهر بالتالي من هذه الحديدة نفس خواص النّار التي وضعت فيها. فالتجليّات الإلهية لها في جبلّة الإنسان مايشبه هذا التأثير. فتحدث تغييراً في تفكير المُتجلّى عليه وتبدّل نفسيّته وسلوكه اليومي، حتى يعود هذا الإنسان، ذَكراً كان أو أنثى إنساناً مباركاً وغير عادي.

ثانياً ـ المحدود لايرى غيرَ المحدود والعكس صحيح

عندما أقول إنّ الشيء المحدود يستحيل عليه رؤية غير المحدود. إنّما أُبسّطُ حقيقةً يتلّمسُها كل واحدٍ منّا في هذه الحياة الدنيا. فالذي يختبيء في غار ما، يستحيل عليه رؤية الجبل الذي هو في باطنه. حتى إذا خرج هذا الإنسان من هذا الغار، وابتعد عنه عدّة أمتار يأخذ هذا الإنسان يرى جزءً من هذا الجبل. وكلّما ابتعد عنه تراءى له الجبل أكثر فأكثر. إلى أن يبتعد عن الجبل مسافة ليست بالقليلة، فيعود يشاهد حينذاك جزء كبيراً من وجه الجبل المقابل له، لكنّه لايراه بأكمله إلاّ إذا نظر إليه من مسافة بعيدة جدّاً ومن مختلف الاتجاهات. فهذا هو حال هذا الإنسان المحدود الكيان مع كلّ شيء محدودٍ مثله. أما حاله مع الشيء غير المحدود فيستحيل عليه أن يراه.

ومثالاً آخر هذه الشّمس المتوهّجة في كبد السّماء. فقد ثبت علمياً أنّ حجمها يفوق حجم الأرض بمرّات عدّة. إذ يبلغ قطرها مايزيد عن مليوني كيلو متر ونيّف. وتبعد عن كوكبنا الأرضي مايزيد عن مائة وخمسين ألف كيلو متر. فالشّمس بالرّغم من حجمها الهائل تبدو لأعيننا في أجواز الفضاء بحجم كُرة المضرب، فإذا تضاعف بُعدها عنّا، فقد يأتي وقت لايعود باستطاعتنا رؤيتها، إلا بمساعدة منظار مُقرّب، وهذا كله يحدث لأنّ إنساناً محدوداً يراقب شيئاً محدوداً مثله. أمّا الكيان غير المحدود، فتستحيل رؤيته من قريب ولامن بعيد.

وقد أنبأنا القرآن الكريم أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء. أي أنّه ليس بمادة من جهة، وهوغير محدودٍ من جهة ثانية، ولايماثله شيء لاوصفاً ولاذاتاً من

جهة ثالثة. ولذلك اكتفى كتاب الله العزيز بانبائنا بهذه المعلومة عن ذات الله عزوجلّ. و لم يتعرّض للكلام عن تلك الذات الإلهية المقدسة بعد هذه المعلومة من قريبٍ ولامن بعيد. وراح هذا الكتاب العظيم يُنبئ عن أسماء هذه الذات الإلهية وأوصافها. حاثّاً إيّانا على استلهامنا منها مُثُلنا العُليا ومفاهيم الخير والشّر. كما حثّنا على التفكّر فيما خلق الله تعالى من مخلوقات بأسلوبٍ علمي لإدراك تجليات هذه الأسماء الحُسنى وفق تقنيّة خلقه تعالى لكلّ شيء من هذه المخلوقات. وقدّم لنا هذا الكتاب العزيز تعاليم تؤهّلنا لتلقّي تجليات هذه الأسماء الحسنى في أنفسنا، ليمكننا ذلك من الإتّصال بخالقنا عزوجلّ، وعن طريق تضرّعنا بين يديه بهذه الأسماء الحسنى التي صرّح بها القرآن الكريم.

وهناك حقيقة وهي أنّ الأشياء البعيدة عنّا بُعداً لايُقاس إلاّ بالثواني الضوئية. لاتعود أعيننا ترى منه إلاّ ماتتركه هذه الأشياء من آثار، أمّا ذات هذه الأشياء، فلايعود بالإمكان رؤيتها بالعين المجرّدة بل من خلال آثارها وبأسلوبٍ علمي وبُحسبان أيضاً.

نعود إلى مثال الشّمس، فالذي ينظر إلى هذا القُرص المتوهج في كبد السّماء يظنّ أنّه يمثّل الشمس نفسها. والحقيقة التي كشف عنها العلم في عصرنا، هو أنّ ماتراه أعيننا ليس هو الشمس ذاتها، بل ماتركته هذه الشمس من وهج ونور قبل ثماني دقائق. فالشمس الحقيقية تكون قد ابتعدت عن أعيننا بمسافة توازي هذه الدقائق الثمانية التي يستغرقها وصول نور وأشعّة الشمس إلينا وبسبب دوران كوكبنا الأرضي وبالنظر إلى المسافة التي يحتاج ضوء الشمس أن يقطعها ليصل إلى حيث نقف ننتظر وصوله، إذن نحن نرى تجلّيات الشّمس، ولانرى ذات الشمس نفسها، كذلك فما نظنه أنّها الشمّس تغرب وراء الأفق آخر النهار، ماهو بالشمس الحقيقية، بل هو وهجها ونورها المتجلّي كقرص نورٍ مشتعلٍ يغرب وراء الأفق.

بل قولوا : إنّه لم يشاهد إنسانٌ مايعيش على سطح كوكبنا الأرضي، ومنذ وجود الأرض هذه الشمّس الحقيقية. فالناس جميعهم يغلّف عقولَهم القاصرة وحواسَّهُمُ المحدودة العطاء حاجزٌ وغشاوةٌ يمنعانهم عن إدراك هذه الحقيقة، لولا أن كشفت عنها الحسابات والوسائل العلميّة المعاصرة.

وبناءً عليه يستحيل رؤية ذات الله عزوجلّ، لكون الذات الإلهية غير محدودة من جهة، ولبُعدها عنّا بما لايقْدِرُ أحدٌ إثباته بطريق علميّ. فالعلم بالذّات الإلهيّة الخالقة شأن غيبيّ، ليس باستطاعة عقلنا الإحاطة به إلا بمساعدة عامل مساعدٍ هو وحي الله تعالى نفسه ليكشف لنا عن حقيقة ذلك. والذي استفدناه من الوحي القرآني أنّه أنبأنا بقوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾، ولم يوضّح هل أنها سنوات تعادل سنواتنا، أم أنّها سنوات ضوئية بحساب الفلكيين. ويكفينا الاستنتاج من مُعطيات هذه الآية القرآنية مدى بعد الذات الإلهية الهائل عن كوكبنا الأرضي، وانطلاقاً من مصداقيّة ماينبئنا به القرآن الكريم.

من هذا ندرك استحالة امكانية رؤيتنا لذات الله عزّوجلّ ولو بالمنطق العلمّي، فإن شئنا رؤيتها، فلاسبيل أمامنا إلاّ سبيل رؤية تجلّيات هذه الذات الإلهيّة المقدّسة، وبوسيلة تطويرماتحمله من قوىً باطنة وإحداث تجانس مع أسماء الله الحسنى تأسّياً بصاحب الخُلق العظيم محمد سيد المرسلين أجمعين (ﷺ).

وحينذاك لن نرى تجليات الأسماء الحسنى بأم أعيننا هذه، بل سنتلقاها ونراها بأعين كياننا الرّوحي وبمختلف حواسه التي أوتيناها كثمرة لإيماننا بالله وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، وكثمرةٍ لمبايعتنا هذا الرسول الكريم خاتم النبيين ، وكثمرةٍ لعبادتنا ربّنا الذي أنزل على قلب محمد ﷺ تعاليم مانقوم به من أعمال صالحات، وبموازين روحيّة كشف عنها الغطاء كتاب الله العزيز. وهي موازين من ماهيةٍ تختلف عن ماهية الموازين المادية، كما تختلف عنها بقوانينها الناظمة لها أيضاً. وهذا هو السرّ الكامن وراء تركيز القرآن الكريم على موضوع أسماء الله تعالى الحسنى وإهماله الكلام عن ذاته عزّوجلّ.

ثالثاً ـ إمكانيّة الإتصال بالله تعالى :

فمن هذا المُنطلق وعلى ضوء هذا الفهم أقول: إنّ موضوع الإتّصال بالله الخالق ممكنٌ ولكن عن طريق تجليّات أسمائه الحسنى، وبوسيلة مااستفدناه من علومٍ وذرائع تضمّنها باب العِرفان الإلهي، هذا وإنّ كل إنسان يزعم خلاف ذلك، هو مطالب بالدّليل البيّن وبالأسوة العملية التجريبيّة. وإنّ على هذا

الإنسان ألاّ ينسى ماتحدّى به هذا القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.**﴾ آل عمران ٨٥ ـ

ذلك أنّ ماأنزله الله تعالى من تعاليم تضمّنها كتابه العزيز الفرقان، هي التي نزلت لتساعد المؤمن المبايع السّالك على التعرّف إلى هذا الإله الخالق. أقول لتساعده ولتأخذ بأياديه لتقرّبه من ربّه روحيّاً، وليس جسديّاً، فالجسد هو في حقيقته مجرّد أداة ماديّة، ولتمكّنه من الفوز بمحبّة الله تعالى وبلقائه عن طريق تجليّات أسمائه الحسنى، وإنّ كُلّ من يفهم من آي الذكر الحكيم غير ماذكرته، يتناقض بشكلٍ تلقائي مع نواميس الكون، ومع معطيات العلم ومع أصول فهم القرآن المجيد، ومع حقيقة الأسوة الحسنة التي قدّمها لنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين (ﷺ).

لذلك وضعت أوّل عنوان لأوّل فصل من باب موضوع الاتصال بالله تعالى عنوان : (المحدود لايرى غير المحدود، والعكس صحيح.). بمعنى أنّ ذات الله تعالى غير المحدودة قادرة على رؤية كل ذرّة من عالمنا المحدود بقدراتها الخاصّة وبما تحمله من قوى ذاتيه وامكانياتٍ غير محدودة ولإحاطتها بعلم كل شيء. وهذا الأمر نبهنا إليه قول ربّنا عزوجل: ﴿**يدرك الأبصار، ولاتدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾ صدق الله العظيم. فنحن يستحيل علينا رؤية الذات الإلهية الخالقة لكوننا محدودين، ولكون تلك الذّات المقدّسة لطيفة وخبيرة وغير محدودة.

أمّا إن نحن استوفينا ماتضمّنه القرآن الكريم من شروطٍ وتعاليم فكريةٍ وعملية، يعود بإمكاننا بعد مانؤتاه من كيان روحيّ باطن له حواسه وإمكانياته، أن نشرع نتلقّى تجلّيات وتمثّلات أسماء الله الحسنى وأنوارها وبركاتها، ويكون هذا التلقي نابعاً في حقيقة أمره، من ذات صاحب هذه الأسماء الحسنى بالأصاله. ويكون حالنا شبيه بحالنا مع هذه الشمس المتلألئة في كبد السّماء، مع الفارق الكبير، نستفيد من نورها وضيائها ووهجها وحرارتها وغذائها في وقت لاتكون ذات الشمس بمرآى من أعيننا الجسديّة، بل بمرآى من وسائلنا العلميّة.

أفلا نلاحظ كيف نعجزعلى الصّعيد العمليّ عن أن نحيط برؤية الأجسام الضخمة؟ ونُسلّي أنفسنا بتخيّل وجودها ورؤية أبعادها وبضوابط

علميّة؟ فما بالُنا تجاه ذات الله المقدّسة التي لاتحدُّها حدود بمقاييسنا العلمية المادية. هذه الذّات التي تنآى عن أن تأتي ضمن نطاق عمل رؤية أعيننا ووسائلنا العلميّة؟ ليتساءل أحدنا : هل بإمكانه رؤية جسمٍ ملاصقٍ لعينيه؟ أو رؤية جسمٍ في منتهى البعد عنه؟

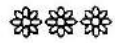
ألا إنّ شاشات أعيننا ترى الشمس كقرصٍ ملتهبٍ يسبح في الفضاء، وقد ثبت علمياً أنّ مانراه ليس هو نفس الشّمس، بل ماتركته هذه الشمس وراءها من نورٍ ووهجٍ وضياء. أمّا ذات الشّمس فهي لم يرها أحد من البشر حتى السّاعة منذ وجود هذا البشر على سطح كوكبنا الأرضي، فهذا مثال مُصغّر من واقع كوننا المادي، إن وَعيناه، ووضعناه في حُسباباتنا، عند توجهنا إلى فهم موضوع الاتّصال بالله خالقنا، يُلهمنا هذا المثال ويساعدنا كثيراً لنتفهّم ماسأقدمه من معلومات.

هذا ولاينبغي لأحدٍ أن يعترض على هذه المعلومة التي قدّمناها ويقول: مافائدة الإكتفاء برؤية تجليّات أسماء الله الحسنى، إن كان الإسلام لايدلُنا على رؤية ذات الله نفسه؟ فلاينبغي لأحدٍ الاعتراض على ذلك الأمر، لأنّه يكون باعتراضه هذا متمرداً على واقعه المادّي.

وهل لهذا المعترض أن يرفض رؤية نور الشمس ويرفض الاستفادة من وهجها وضيائها، بمجرّد أنّه لايستطيع رؤية ذات الشمس بعينيه هاتين؟ فلاأظنّ أنّ أحداً يفعل ذلك. فواقعنا المادي يفرض علينا الاستفادة من نور الشمس ومن اشعاعاتها، وإن استحالت علينا رؤية الشّمس ذاتها.

فالعبرة، كما هو معلوم، بالنتائج، وليست العبرة بالمُقدّمات. هذا ومادُمنا من حيث النتيجة نستفيد من نور الشمس ووهجها، فنحن نستفيد اذن من الشّمس ذاتها وبأسلوب يفرضه علينا واقع عظمة حجمها وواقع بُعدها الشّاهق عنّا. وهاأنّ وسائلنا العلمية اكتشفت أنّ ذات الشمس تظلّ سابقة مانراه في كبد السّماء بثمان دقائق، لكون الشمس مادّة ومحدودة الحجم أيضاً. أمّا الذّات الإلهية المقدسة فتنآى عن وسائلنا العلميّة هذه. هذا وإنّ المؤمن المبايع المعتقد بمصداقية التعاليم المُنزلة في كتاب الله والذي يعمل على هذه التعاليم، يتلقّى تجليّات الأسماء الحسنى التي تتحلّى بها الذّات الالهيّة المقدّسة، ويكون بتلقيّه هذا قد حقّق الإتّصال بذات الله المقدسة بمعنى من المعاني يقيناً. على اعتبار أنّ

تجليّات الأسماء الحُسنى تكون صادرة عن هذه الذّات الخالقة نفسها. فهذه حقيقةٌ لاخصومة فيها ولاجدال.



الفصل الثاني
تجلّيات أسماء الله الحسنى
١ً ـ المفهوم اللّغوي للتمثّل والتجلّي :

ومادمنا قد سلّمنا أنّ رؤية نور الشمس ووهج أشعتها هو بمثابة رؤية ذات الشمس نفسها. ومادمنا قد سلّمنا أيضاً باستحالة رؤية الذّات الإلهية المقدّسة، وأنّ طريق الاتّصال بهذه الذات ينحصرُ في رؤية وتلقّي تمثّلاتها وتجلّياتها. فقد اقتضى منّا هذا التّسليم التقدّم خطوة أخرى على هذا الطريق، ومحاولة فهم كلمتي التمثّل والتجلّي عن طريق تحقيق لغوي نقوم به من خلال ماقدمه لنا أصحاب المعاجم من دلالات لهذين اللّفظين المذكورين، وليكون فهمنا لدلالاتهما فهما موضوعياً أيضاً.

فما تعلّق بلفظ التجلّي فقد أفادنا معجم (محيط المحيط) أنّه مصدر من تجلّى. وتجلّى تجليّاً أي تكشّف وظهر. فالله تعالى يُجلّي السّاعة أي يظهرها. وفُلان يُجلّي عن نفسه أي يُعبّر عما في ضميره. وتجلّى الله تعالى لفلانٍ أي استَعْلَنَ وظَهَر له. والجلّي نقيض الخفي وهو الأمر الواضح.

والجليّة مؤنّث الجلّي والخبر اليقين. يُقال تكلّمَ عن جليّةٍ أي عن خبرٍ يقين. وجلّى عن فلان الأمر كشفه عنه. وجليّة الأمر حقيقته. يُقال أطلعني على جليّة أمرٍ أي على حقيقته (محيط المحيط).

وماتعلّق بلفظ التمثّل، فقد أفادنا معجم(محيط المحيط) أيضاً أنّه من مثّل فلاناً بفلان شبّهه، واسم الفاعل منه الماثل. ومثّل لفلان الشيء والمقدار والقصاص. جمعه أمثلةٌ ومُثُلٌ ومِثْل. وليس كمثله شيء أي ليس كذاته ووصفه شيء. ومن معاني المثل الحُجّة والبرهان. يُقال أقام له مثلاً أي أقام حجّة وبرهاناً، وبسط له مثلاً أي حدّثه حديثاً، وتماثل الشيئان : تشابها. والتمثيل عند أهل البيان يُطلق على المجاز المركّب وعلى التّشبيه.

والآن إن نحن تدبّرنا القرآن الكريم نلاحظ أنّه أتى على استعمال لفظيّ التمثّل والتجلّي بالمعاني التي أوردها صاحب معجم (محيط المحيط) وغيره. ففي

سورة اللّيل قال تعالى: ﴿**والنّهار إذا تجلّى**﴾. أي أُقدّمُ النّهار شهادةً إذا تكشّف وظهر. وفي سورة الشمس قال تعالى: ﴿**والنّهار إذا جلاّها.**﴾ أي إذا كشف النهار الشّمس وأظهرها. وفي الآية ١٨٧ من سورة الأعراف قال تعالى بحقّ السّاعة ﴿**قل علمها عند ربّي لايجلّيها لوقتها إلاّ هو.**﴾ أي لايكشف الساعة لوقتها ويظهرها إلا الله عزوجلّ. وفي الآية ١٤٣ من سورة الأعراف أيضاً، قال تعالى: ﴿**فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً، وخرّ موسى صَعِقاً.**﴾. ويُستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ الله عزّوجلّ إذا شاء أن يكشف عن نفسه ووجوده، يكشف ذلك ويُظهره من خلال تجليّات أسمائه الحسنى ومن خلال مايتحلّى به من صفات . فمن خلال التجلّيات المذكورة وعن طريق مشاهدة آثارها وفعّاليّاتها يَثْبُتُ لصاحب العقل السّليم وجود الذات الإلهية المقدسة التي تجلّت بهذه التجلّيات لناظريه، فموسى عليه السّلام رآى ربّه وأيقن بوجوده من خلال ماتجلّى به ربّه على الجبل. وإلاّ فلو كان يصّح رؤية ذات الله تعالى، فما كانت هناك من ضرورة لتلك التجليّات.

ثم إن القرآن الكريم أتى على استعمال لفظ التمثّل في الآية (١٧) من سورة مريم حيث قال فيها : ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوّياً.**﴾ أي تشبّه المَلَكُ لمريم وهو يحمل رسالة ربّه وبشارته على شكل بشرٍ سويّ المنظر والقامة.

ولابُدّ أن يكون القارىء قد أدرك أنّ لفظي التمثّل والتجلّي ماهما بغريبين عن ألفاظ القرآن الكريم. بل هما من الألفاظ المستعملة في آياته الكريمة، حتى وقد أوردهما القرآن الكريم بصدد إثبات وجوده وللتّدليل على موضوع إمكانيّة الإتّصال به جلّ شأنه، وعليه فلا ينبغي لقارىء هذا الكتاب أن يظنّ أني من المتصوّفين، أو أني أنقل ممّا أورده المتصوّفون في مؤلّفاتهم، فأنا استعملت هذين اللّفظين بدلالاتهما وبمفهومهما العربيّ المبين.

٢ً - مضمون تجلّيات الأسماء الحسنى:

إنّ لفظ التجلّي الذي درسناه لغوياً، يشكّل في حقيقة أمره إطاراً لفظياً معبّراً عن وسيلة الإتّصال بالله عزوجلّ، فذات الله لاتُرى، على حسب

ماوضّحناه سابقاً، بل تُرى تجليّاتها، على شاكلة الشمس لايُرى منها إلاّ وهجها ونورها، فالله تعالى يتجلّى عن طريق أسمائه الحسنى. ويتحقّق اتّصال العبد المؤمن به عزّوجلّ عن طريق هذه التجلّيات التي يَثْبُتُ منها وجود الله تعالى وكونه الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سِنةٌ ولانوم.

هذه الحقيقة التي ذكرتها دلّتنا عليها مانتلوه في كل ركعة من ركعات صلواتنا وهو ﴿**الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.**﴾. إنّ كلمتي ﴿**الحمد لله**﴾ تعنيان أنّ جميع أنواع الحمد والثناء تستحقها ذات الله على وجه الأصالة. فلماذا هذا الاستحقاق؟ هذا بسبب أنّ الله هو (ربّ العالمين) حيث تبدوا تجليّات ربوبيّته في كل ذرة من ذرات عالمنا المادي، أي أنّ الله عزوجل هو على اتّصال دائمٍ بمخلوقاته عن طريق تجلّيات أسمائه الحسنى على هذه المخلوقات.

هذا وقد سبق لي أن شرحت ظواهر هذه التجلّيات الإلهيّة من خلال تكوين الجسم البشريّ، حيث يبدو هذا الجسم مُسلّحاً بأجهزة مناعة وأجهزة إنذار ومضخة قلبيّة تضخّ شلاّلاً من الدم لتجري في عروق أجسامنا لتغذية أعضاء هذه الأجسام وتعمل ليل نهار في حالة وعينا وفي حالة غيبوبتنا. كما يبدو هذا الجسم ذو جهازٍ هضمي وجهاز تنفّسي وحواسّ تساعده على الاتّصال بالعالَم الخارج عنه.

ثم تلاحظ هناك ظاهرة التّوازن الطبيعيّ بين المخلوقات والنّباتات وسواها من الأشياء وعلى صورة مدهشة للغاية، بحيث لايحتمل هذا التوازن الطبيعي أن يحدث فيه أيّ خلل ما، وإلا تعرّض وجودنا للأخطار والويلات، أضف إلى ذلك كلّه أنّ الله تعالى تجلّى على العناصر المادية بخواصها المعروفة ففوّض إلى خواصّها صلاحيّة الإفادة والإضرار، وألزم الإنسان باستعمالها بأسلوبٍ علميٍ وشرعيٍ أيضاً.

فهذه كلّها ظواهر اتصال الله بمخلوقاته عن طريق أسمائه الحسنى. وهناك ظاهرة متعلّقة بتربية وتطوير هذا الكائن البشريّ أيضاً، وتمثل هذه الظاهرة بعثات أنبياء الله ورسله، أفلم يبعث الله جل شأنه آدم ونوحاً وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً خاتم النبيين وسواهم من أنبياء الله ورسله؟ وأوَلَمْ يُنزل عليهم شرائع وتعاليم لتطوير البشر من حالٍ إلى حال؟ وهل انتصر رسل الله وأتباعهم

على أعداء الله وأعدائهم من الكُفّار والمشركين إلاّ عن طريق اتّصال هؤلاء الرّسل بربّهم وتأييد الله إيّاهم بوسيلة تجلّي أسمائه الحسنى حفاظاً عليهم ودحراً لأعدائهم.

فنحن كمسلمين نؤمن بوجود الله خالقنا، ونؤمن باستحالة رؤية ذاته عزوجلّ وبامكانية الإتصّال به بوسيلة تجلّيات أسمائه الحُسنى، هذا مانفهمه من تلاوتنا ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾.

أما الإنسان الكافر بوجود الله وبأنبيائه وبرسله وبكتبه، فهو محرومٌ من نعمة هذا الإيمان ومن نعمة هذه التجلّيات الإلهيّة وتأييداتها، وهو في عَمَىً عن رؤية وإدراك معالم اتّصال الله تعالى بمخلوقاته وعن ظواهر تجلّياته ضمن تكوين تلك المخلوقات. وإلى هذا الأمر أشارت الآية (١٠٥) من سورة يوسف: ﴿**وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون.**﴾.

ألا إنّ مضمون لفظ التجلّي الإلهي يشتمل على هذه الحقائق المذكورة جميعها. ذلك أنّ الله عزّوجلّ هوعلى اتصال دائم بمخلوقاته، ويتجلّى هذا الإتّصال ويظهر عن طريق تجلّيات أسمائه الحسنىً التي لايفتر عملها ولو لِلَحظةٍ من اللّحظات، فظواهر تجلّي أسماء الله الحسنى تبدو داخل أجسام الأشياء وخارجها، كما تبدو من خلال تجارب المؤمنين العاملين.

فالتجلّي الإلهي والاتّصال بالله تعالى بواسطة هذا التّجلي يشكّل حقيقةً كونيّةً ثابتةً من خلال هذين الطريقين المذكورين : تقنيّة خلق كل شيء، في هذا الوجود وثمار الإيمان والأعمال الصّالحات بوجهها التجريبيّ الموضوعي.

فمضمون التجلّي الإلهي بالمعاني المذكورة توصلنا إلى وجود طريقين لاثالث لهما للاتّصال بالله الخالق عزوجل : الطريق الأول طريق التعامل مع القوانين الطبيعية وخواص الأشياء تعاملاً عِلْمياً. ونكون حينذاك نتعامل مع ظواهر تجلّيات الله نفسه، والطريق الآخر هو طريق عبادة الله والانصياع لأوامره ومأأنزله من تعاليم في كتابه العزيز وبالدّعاء من هذا الخالق وبالتذلّل بين يديه مستمطرين تجلّي أسماءه الحسنى علينا. فبالدّعاء المستجاب يتمّ الاتصال بالله عزوجلّ. إنّ الطريق الأوّل نصّ عليه قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة الرعد: ﴿**ولله يسجد مَن في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ**

والآصال.﴾ والآية (٤٩) من سورة النّحل: ﴿**ولله يسجد مافي السموات ومافي الأرض من دابّة والملائكةُ وهم لايستكبرون يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون.﴾** والسّجود يعني الطاعة والخضوع.

والطريق الثاني نصّ عليه قوله تعالى في سورة غافر الآية (٦٠): ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.﴾**.

فنحن نتعامل مع كل شيء موجود ومع النواميس الكونيّة الناظمة له على اعتبار أنهم جميعهم يجلّون تجليات أسماء الله خالقنا ويخضعون طوعاً وكرهاً لمشيئته. ونحن نعبد الله ونطيعه وندعوه ونتذلّل بين يديه لنستمطر تجلّيات أسماء ربّنا مباشرةً وليتحقّق لنا بذلك الاتّصال بربّنا عزّ وجلّ بهذين الطريقين. فهذا هو منهجنا الحياتي وأسلوب تفكيرنا الرّوحي.

أما الذين يكفرون بوجود ربّهم ويقنطون من امكانية الاتصال به عزوجلّ ويفكّرون بأسلوبٍ ماديّ محض ويسلكون منهجاً حياتياً مادياً محضاً. يَصِفُ حالَهم هذا قول الله تعالى في الآية (١٤) من سورة الرعد: ﴿**له دعوة الحقّ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسطِ كفيّه إلى الماء ليبلُغ فاه وماهو ببالغه، ومادُعاء الكافرين إلاّ في ضلال.﴾**.

هذا علماً بأنّ الله تعالى فتح لعباده المؤمنين باب الدعاء والتذلّل بين يديه، على اعتبار أنّ الله هو في حقيقته غنيٌّ عن العالمين. ولذلك قال: ﴿**مايعبأ بكم ربيّ لولا دعاؤكم..﴾**.

وصفوة القول هو أننا لانعتقد بامكانية رؤية ذات الله عزوجلّ هذا في وقت نعتقد فيه بإمكانيّة الإتّصال بهذه الذات الإلهيّة المقدّسة عن طريق تجلّيات الأسماء الحسنى. فهذا هو مضمون لفظ التجلّي الذي نورده في كتبنا وتعابيرنا وخلال حواراتنا.

٣ً ـ مضمون تمثّلات هذه التجلّيات :

نتناول لفظ التمثّل الذي أجرينا عليه دراسةً لغوية. إنّ لفظ التمثّل هذا يُشَكّل اطاراً لفظياً يحتوى مضموناً هاماً جدّاً، ففي حين دلّ لفظ التجلّي على

كيفيّة كلام الله تعالى مع عباده، أتى لفظ التمثّل ليدلّنا على كيفيّة التقال هذا التّجلي إلى هؤلاء العباد. أي على كيفيّة تكلّم ذات الله اللامحدود مع الإنسان المحدود.

فإذا تذكّرنا أنّ من معاني لفظ تمثّل هو التصوّر. وأنّ معنى مثّل لفلان الشيءَ يعني صوّره. نستنبط أنّ التصوّر والتمثّل يفيدان ظهور شيء بمظهر جديد. أي أنّ لفظ التمثّل يشتمل مضمونه على نقل كلام الله تعالى إلى عباده على صورة تمثّل وتصوير، وهي حقيقةٌ وضحّتها لنا الآية من سورة مريم: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا، فتمثّل لها بشراً سوّياً**﴾ مريم ١٧ ـ أي أن ملاك الله الذي حمل إلى مريم بشارة ربّها عزوجلّ. تصوّرُ لها هذا الملاك وتمثّله على هيئة إنسان مُكتمِلِ الهيئة والقوام ولكن ليس بماهيته الأصلية. من هذا نكون قد أدركنا كيف أنّ مضمون لفظ التمثّل قد وضّح لنا الكيفية التي ينتقل بواسطتها كلام الذات الإلهيّة اللامحدوده، إلى كيان الإنسان المادّي المحدود، هذا الكيان المركّب من جسدٍ وروح. ولاينبغي أن نظنّ من الآية المذكورة أنّ مريم قد رأت ملاك الله المتمثل بشراً سويّاً، بأمّ عينيها الجسمانيتين، بل بحواس كيانها الباطني. أفلا نتذكّر كيف أنّ جبريل كان يتمثل لعيني محمد رسول الله (ﷺ) الروحيّتين وليس لعينيه الجسمانيتين؟ فلو أنّ عيونه الجسمانيّة هما اللتان كانتا تريا وتشاهد جبريل عليه السّلام لكان جميع من يحضر في مجلسه (ﷺ) من أصحابه قد رأوا جبريل على شاكلة مارآه رسول الله (ﷺ) نفسه. والحقيقة هي أنّ تجلّي أسماء الله الحسنى وتجلّي ملائكة الله وتمثلاتهم تتوافق شدّة وضعفاً، تموّاً وتدنّياً على حسب مستوى المُتجلّى عليه والمُتمثّل له وعلى قدرتموم مقامه الرّوحي.

هذه الحقيقة الروحيّة التي ذكرتُها تتطلّب منّي الشرح والتوضيح بمثالٍ مادي مع وجود فارق بين الأمرين. وأضرب لهذا القارىء مثالاً ماديّاً: فلنتصور عظيماً ـ مُتربّعاً على عرشه المُنشأ على مكان مرتفع من الأرض. فالإنسان الذي يمرّ من أمامه لايقدر على مصافحته لانخفاض المكان الذي يقف عليه. فماذا يحدث حينئذ ؟ إنّ أبسط مايحدث هو أن ينحني هذا العظيم ليدنو من هذا الشخص مادّاً يده نحو الذي يرفع يده لمصافحته وهنا تتلاقى اليدان ويتصافحا.

فهذا مثال ماديّ مع الفارق يعطينا فكرة تقريبيّة عمّا يحدث حين يكلّم الكيان الإلهي اللامحدود، الكيان البشريّ المحدود.

فكلام الله تعالى يتجلّى ويتمثّل لهذا العبد الذي يريد ربّه أن يُكلّمه وذلك عن طريق تجلّي أسمائه الحسنى المُختصّة بذلك الكلام ومضمونه. وهذا التمثّل والتّصور يأتي على قدر مرتبة هذا العبد الرّوحية، ولايراه هذا العبد بأمّ عيني جسمه، بل بعيني كيانه الرّوحي، وبذلك يتحقّق كلام الذات غير المحدودة، مع المحدود.

أي أنّ تجليّات أسماء الله الحسنى النّاقلة كلام الذات الالهية المقدّسة غير المحدودة إلى الإنسان المحدود، تتعاظم وتتضاءل ضمن أشكال تمثّلاتها بما يوافق منزلة المُتجلّى عليه ومقامه الرّوحي، فبقدر مايسمو مقام هذا الشيء بقدر مايكون تمثلّ تجلّي ربّه عليه أرفع وأعظم.

ولنعدُ إلى الأمثلة ممّا احتوت عليه الكتب السّماوية المأخوذ بها في عصرنا الحاضر. فلقد ورد فيما نقله إلينا متّى من رواياتٍ وصلت إليه ونسّقها على شكل إنجيلٍ مقدسٍ عند المسيحيين. ورد في الاصحاح $\frac{3}{16}$ منه مايلي : (فلّما اعتمد يسّوع صعد للوقت من الماء. وإذا السّموات قد انفتحت له، فرآى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوتٌ من السّموات قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت.). ونحن لنضرب صفحاً عمّا احتواه هذا النّص وعن مدى صحته وعدم صحّته. ونكتفي بتأمل وتدبّر جُمله (فرآى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه..). فبهذه الألفاظ، ومن خلال قوله (نازلاً مثل حمامة) نستشّف المقام الرّوحي الذي كان المسيح يحتلّه عند ربّه في أوائل سِني دعوته. فلم يتجلى روح الله أي ملاكه أعظم من حجم حمامة.

فإذا قارنّا ذلك بما رآه موسى ضمن كشفٍ روحيّ تجلّى ربّه به على شكل نارٍ مضيئةٍ، ومن ثمّ تجلّى على الجبل فجعله دكّاً، وقيل له اخلع نعليك إنّك بالوادّ المقدّس طوى. وهذه حقيقة أوردها سفر الخروج من التّوراة المعاصرة في الإصحاح $\frac{3}{6-2}$ كمايلي : (وجاء (موسى) إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرّب بلهيبِ نارٍ من وَسَط عُلّيقة. فنظر وإذا العُلّيقةُ تتوقّد بالنّار، والعُلّيقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظرُ هذا المنظر العظيم. لماذا لاتحترق

العُلّيقة؟ فلّما رأى الرّب أنّه مال لينظُر ناداه الله من وسط العُلّيقه، وقال : موسى موسى، فقال : هاأنذا. فقال لاتقترب إلى هُهنا. إخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرضٌ مقدّسة. ثم قال : أنا إله أبيك ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. فغطّى موسى وجهه لأنّه خاف أن ينظُر إلى الله..) فإن نحن ضربنا صفحاً عن مناقشة هذا النّص وعن مدى صحّته أوعدمها ،نستشفّ من مضمونه مقام موسى الروحيّ ومرتبته من خلال فقرة: (وظهر له مَلاَك الربّ بلهيبِ نارٍ من وَسَط عُلّيقة..) فملاك الله لم يتمثّل "بشراً سوّياً"، و لم يحمل هذا الملاك وحياً لفظيّاً إلى موسى عليه السلام. لكنّنا إذا قارنّاه بتجلي ملاك الله على المسيح الناصري بحجم حمامة، نستشف عُلّو مرتبة موسى على مرتبة المسيح الروحيّة بدرجات.

فإن نحن عُدنا إلى تاريخ الرّساله الاسلامية، وإلى ماحدث في اليوم الأوّل من ذاك التاريخ، لاحظنا أنّ روح الله أي ملاكه تجلّى لأعين محمد على هيئة بشرٍ سويّ من جهة، ويحمل له وحياً لفظياً أيضاً من جهة ثانية فكان هذا وحي أوّل آيات سورة إقرأ كما هو معلوم وموثّق وغير مُختلفٍ فيه. فأين هذا التجلّي من تجلّي ملاك الله في نارٍ في علّيقه، ومن تجلي ملاك الله على شكل حمامة؟ فمن خلال هذه المقارنة الموضوعية ندرك صحّة ماذهبت إليه من أنّ تجليات أسماء الله الحسنى الناقلة كلام ذات الله غير المحدودة إلى الإنسان المحدود تتعاظم تمثُلاتها وتتضاءل بما يتوافق مع منزلة المُتجلّى عليه ومقامه الرّوحي.

أفلم نتلو قول ربّنا عزوجلّ في سورة النجم: ﴿**ثم دنى فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ماأوحى.**﴾. فهذه الكلمات تُفهم على ضوء مُعطيات مِثالي المادّي الذي ضربته للقارىء وليساعده ذلك على إدراك حقيقة أنّ تجلّي أسماء الله وتمثّلاته تتوافق والمستوى الروحي للمُتجلّى عليه والمُتمثّل له شدّة وضعفاً، وتَدَنّياً وسُمُوّاً، فقد أوردت هذه الآية لفظ (تدلّى) نسبةً لتجلّي وتَمَثّلُ الذات الالهيّه المقدّسة. أي أنّ المقام المحمدي كان دون مستوى هذه الذات المتربّعة على عرشها، ثم إنّ الآية: ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ماأوحى.**﴾. تعبّر عن المقام الرّوحي الذي بلغه محمد رسول الله (ﷺ) خلال سلوكه وعروجه الرّوحي. وهو مقام روحيّ تسامى عن مقامات جميع

الأنبياء والمرسلين الذين خلوا من قبله ولذلك استحقّ لقب ﴿**خاتم النبيّين**﴾ بمعنى أعظمهم شأناً ومقاماً . إضافةً إلى كونه آخرهم على شاكله قول الشاعر :

فُجع القريض بخاتم الشّعراء وغدير روضته حبيب الطّائي

بمعنى أن الشاعر القريض يعطي الشاعر حبيب الطائي الدرجة الأولى الأسمى من بين الشعراء. وبهذا المعنى قالوا : فلان خاتمة المحققين، وخاتمة المحدثين وخاتمة المجدّدين.

والخلاصة هي أنّ لتجلّيات كلام الله تعالى وتمثّلاته مدارج روحيّه لانهائية، لأنّها تصدر عن ذات الله المُقدّسة التي لاتحدّها حدودٌ بمفهومنا المادي. ويتجلّى ويتمثّل هذا الكلام للإنسان وفق مرتبته الرّوحية وبذلك فلاتحدث هذه التجليّات والتمثلات على مستوى واحد.

وأنا سبق لي أن قلت إنّ أعين الإنسان الجسديّة عاجزة عن رؤية تجلّيات كلام الله وتمثّلاته فالإنسان لايراها إلاّ بأعينه وحواسه الباطنية، فهذا القول بحاجة لى التوضيح والإثبات. ودليلنا على ذلك أنّ كلّ إنسان يتلّمس هذه الحقيقة يومياً، خصوصاً عندما يستلقي ليأخذ نصيبه من الراحة ويهيمن عليه سُباتٌ نوم عميق. أفلا يلاحظ هذا الإنسان كيف أن عينيه الجسمانيّتين اللّتين كانتا في حالةٌ يقظة لاتعودان تريان شيئاً بسبب انطباق جفونها على بعضها فلا تعود تنعكس صور الأشياء على شاشتيهما. وفي لحظات هذا السّبات العميق يدبّ نشاطٌ وحركةٌ غير عاديّتين في كيان هذا الإنسان النائم، وينقلب يرى أشياء وأشياء ويأكل ويسافر ويقوم بأفعال شبيهه بما يقوم به هذا الإنسان قبل أن ينام. فمادامت أعينه مُغمضة الجُفونَ، فبأيّةِ العيون يرى هذا الإنسان النائم مايراه؟ فلولا أن كان لكيانه الباطني حواسّاً مثل حواسّ جسمه، لاستحالت على هذا الإنسان رؤية مايراه خلال نومه. فهذا واقع لامَهْرب للمفكّر منه، بالرغم من جميع التّفسيرات التي قدّمها علماء النّفس وسواهم ممّن خاضوا هذا المجال، وسآتي فيما بعد على خلاصة ماذهب هؤلاء إليه. والمهم في الأمر هو أن النائم يرى دون وساطة عينيه الجسمانيّتين.

٤ـ فروق مابين الرؤيتين : اليقظة والنوم :

فإن نحن وازنّا مابين الرؤيتين : رؤية اليقظة ورؤية المنام، تتجلّى لنا فروقٌ جوهريّةٌ بينهما وإن تماثلتا وتشابهتا. فالفرق الأول هو انعدام الزمان

والمكان في المنام. والفرق الثاني هو أن القوانين الناظمة للرؤى المنامية تختلف عن القوانين الناظمة لرؤى اليقظة. والفرق الثالث يبدو من خلالي بثٍّ يحدث من عدّة جهات يستقبله كيان هذا النائم وكأنّه جهاز استقبال تلفزيوني، فهو يستقبل مؤثّراتٍ فكريّة، ويستقبل مؤثرات فيزيولوجية عضوية ويستقبل ويضخم مايصل إلى سمعه من أصواتٍ وموسيقى، ويستقبل ويضخّم مانام عليه من مؤثرات قوى كحقد أو حسد أو بُخل أو هوى وعشق ومايليه.

والآن فباعتبار الفرق الأول بإمكاننا القول إن كيان هذا النائم الداخليّ، يدخل عالم اللامحدود الذي ينعدم فيه الزّمان والمكان. هذا الزمان والمكان الذي لايتبقّى منه إلاّ أسماؤه أي أنّ هذا العالَم اللامحدود الذي انخرط فيه كيان الإنسان النائم تأتي أشياؤه متشابهة مع أشياء حالة يقظته، إنّما بالأسماء وليس بالماهية. وأترك الكلام عمّا نستنتجه من الفروق الأخرى لمناسبتها. وأكتفي هنا بالقول لولا أن كان لذلكيان النّفسيّ للإنسان حواسّ روحيّه شبيهة بالحواس المادية، لاستحال على هذا النائم أن يرى جميع مايراه. فهذه حقيقة تشكّل دليلاً يتلمسه كل إنسان ويركن إلى صدقه من خلال تجربته اليوميّه المذكورة.

ولنعلم أنّ الله تعالى الذي هو ربّ العالمين، ومن مُنطلق دلالة كلمة الرّب الذي يعني أنّ الله تعالى يطوّر هذا الإنسان المخلوق طوراً بعد طور، فيُرَقّيه باتّجاه التّمام. فلنعلم أنه تعالى أنزل التّعاليم التي تضّمنها كتابه العزيز ليؤتينا كياناً روحيّاً جديداً وبحواسّ جديدة باطنة تمكّننا من استقبال تجلّيات وتمثلات الكلام الذي يخاطبنا به ربّنا عزّ وجلّ . فيؤتي المؤمن عيوناً روحيةً غير عيونه، وآذاناً روحيةً غير آذانه وحواسّ روحية غير حواسّ جسده، أي أنّ هذا الإنسان الذي آمن وبايع وسلك درب عرفان ربه وسعى للفوز بمحبّة ربّه وبقربه وبلقائه ويؤتى كياناً روحياً تنمو حواسّه شيئاً فشيئاً، ليصبح هذا الكيان الروحي الجديد هو أساس حياته القادمة الخالدة اللامحدودة والتي ينعدم فيها المكان والزمان، ولايبقى منهما ومن أشياء هذا العالم المادي إلا الأسماء والأشكال فقط وبماهيّةٍ تختلف عن ماهيّة الحياة الدنيا المادّية.

فإشارة إلى هذه الحقيقة ورد قول ربّنا عزوجلّ في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها**

الأنهار، كُلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتوا به متشابهاً، ولهم فيها أزواجٌ مُطهّرةٌ، وهم فيها خالدون.﴾.

ففي قوله تعالى ﴿**وأُتوا به مُتَشابهاً**﴾ كان فيه الإشارة إلى الحقيقة التي ذكرناها، ولفظ التشابه يعني اختلاف الماهيّتين، ماهيّة أشياء الدنيا المادّية وماهيّة أشياء حياة الخلود. ولايربط بين هذه وتلك إلا الأسماء والأشكال، لذلك لاينبغي للقارىء أن يعجب لِعالَمٍ مايراه في منامه، فهو عالَمٌ نموذجيٌ عن عالَم الخلود واللاّمحدود، يعظُنا خالقنا به يوميّاً، ويشوّقنا عن طريقه إلى معرفة ماأعدّت لنا رحمة الله من نعماء. أولم نقرأ قول ربنا عزوجلّ: ﴿**هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمى.﴾**؟

وعلى هذه الصّورة نكون قد أحطنا علماً بمضمون التمثّل، وبمفهوم اللاّمحدود، إلى جانب ماعلمناه من قبل فيما يتعلق بمضمون التجلّي، هذه الألفاظ الثلاثة المُتصّلة بكلام الله مع عباده والمرتبطة به ارتباطاً موضوعياً وعضوياً.

والذي نستنتجه من دلالات هذه الألفاظ، وبشهادة الآية من سورة مريم وهي قوله تعالى ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً.﴾**. أقول إن الأمر الذي نستنتجه من ذلك كلّه هو أنّ التجلّي يسبق التمثل. فالتّجلي بداية والتمثّل نهاية. ويَحدثان في عَالَمٍ لامحلّ فيه للزمان والمكان.



الفصل الثالث
الله الخالق كان ولايزال يتكلّم مع البشر :

وسبق لي أن أثبتّ في القسم الأوّل من هذا الكتاب أنّ عقيدة وجود الخالق وتوحيده سبقت وجود عقائد الشّرك، وبذلك أثبتّ بُطلان النظريّات المضادّة المعاصرة. وجئت الآن لأثبت بالدليل القرآني والعلمّي والتاريخيّ صحّة ماذهبت إليه، وهوأنّ الله جل شأنه مايزال يتصّل بعباده ويكلّمهم منذ خلقهم وأوجدهم على سطح كوكبنا الأرضي وإلى الآن.

فليمعن قارىء القرآن الكريم في صياغة قول الله عزوجلّ: ﴿**ماكان لبشرٍ أن يُكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.**﴾ شورى ٥١ ـ فهل تساءل في نفسه في يوم من الأيّام عن حكمة إيراده تعالى لكلمة بشر في هذه الآية بدل كلمة إنسان؟

١ً ـ مفهوم إنس وبشر لغويّاً :

تعال معي أيّها القارىء إلى ماأورده صاحب معجم(المقاييس) من دلالاتٍ للفظيّ إنس وبشر. فقد كتب يقول : بشر أحرف بأصل واحد وتدلّ على ظهور الشيء مع حُسنٍ وجمال. وسُمّي البشر بشراً لظهورهم. والبشارة الجمال، والبشير الحَسَن الوجه. وتباشير الصّبح أوائله وكذلك أوائل كلّ شيء. والمبشرّات الرياح التي تبشّر بالغيث.

أمّا كلمة إنس فهي أحرف بأصلٍ واحد أيضاً . وهو كلّ شيء خالف طريقة التّوحش. وعليه فإنّ كلمة "بشر" تشير إلى التاريخ الذي ظهر فيه الإنسان على سطح كوكبنا الأرضي. وإنّ كلمة إنس تشير إلى انتقال هذا المخلوق من حالة التوحّش إلى حالة الأنسنه والتحضّر. وهذه المعاني تعني بألفاظ أخرى أنّ صياغة الآية المذكوره، قُصِدَ بها التّدليل على أنّ الله الخالق كان يشرف على هذا المخلوق الذي خلقه ليطوّره بتجليّات ربوبيّته. فكان الله الخالق

يكلّمه أيضاً ويتّصل به مُذ كان هذا الإنسان يعيش حالةً من التوّحش. فهذه معلومات أفادتنا بها صيغة هذه الآية الكريمة على ماهي عليه في كتابه العزيز. أي أنّها نبّهت أذهان الباحثين والمفكرين إلى أنّه كان من أسماء الله الحسنى" المتكلّم" لذلك فقد كان طبيعيّاً جدّاً أن يُكلّم مخلوقه الإنسان في زمن كان البشر فيه بأشدّ الحاجة إلى هدايه ربّه الذي خلقه من أجل تحقيق مقصدٍ عظيم.

٢ـ البشر القديم "جنّ" بمصطلح القرآن الكريم:

والحق أنّه ثبت علمياً أنّ البشر كانوا يعيشون حالة توحّش قبل تحضُّرهم، فكانوا يأوون إلى الكهوف والمغاور يختفون فيها عن أعين الحيوانات المفترسة ويحمون أنفسهم من تقلّبات العوامل الطبيعيّة ويقتاتون بما يحصلون عليه من صيدهم للحيوان أو الطير الذي يقدرون على اصطياده بوسائلهم البدائية جدّاً. فكانت حالتهم هذه حالة توحّش غريزية شابهوا بها حالة أنواع الطير والحيوان من حولهم الذين يحيون شريعة الغاب يأكل قويُّهم ضعيفهم بوسيلة صيده إيّاه بعد الإنقضاض عليه. ثم إنّ القرآن الكريم استعمل للبشر في فترة تاريخهم المذكور إسم "الجنّ". اشتقاقاً من جُنّ بمعنى استتر في الكهوف والمغاور على حسب ماثبت تاريخيّاً. فقد أتى جلّ شأنه بهذا المعنى في الآيتين (٢٦ - ٢٧) من سورة الحجر، حيث قال هناك: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صَلصال من حَمَإٍ مسنون. والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم.**﴾ فلم يكن المقصودُ هنا التّمييز بين مخلوقين اثنين، بل بين دورين مرّ بهما إنساننا المعاصر. فالمقصود من الجانّ في هذه الآية الكريمة البشر في حالة توحُّشه "من قبل" أن يتحضّر عن طريق بعثة آدم عليه السّلام. وليس المراد من ألفاظ (نار السّموم) معانيها الحقيقية بل المجازية بقرينه حالة التوحّش. أي أن طبائع البشر في تلك الحُقبة من الزّمان كانت طبائع نارية تلتهب لأتفه الأسباب، فهي طبائع حارّه شبيهة برياح السّموم النافذة في المسام، فهي تقتل أصحابها وتحول دونهم ودون تحضّرهم ولذلك تأخر بعث الأنبياء والمرسلين فيهم في تلك الحُقبة من تاريخهم السّابق لبعثة آدم عليه السّلام.

وسيجد القارىء في كتابي الذي هو تحت الطباعة وعنوانه (الجنّ حقيقة أم خيال) سيجد تفصيل كلّ شيء يتعلّق بشرح هاتين الآيتين وماقبلهما ومابعدهما شرحاً مستفيضاً إن شاء الله العزيز.

أفلاحظت أيّها القارىء أهميّة وعظمة وإعجاز مادلّتنا عليه صياغة قول ربّنا عزوجلّ : ﴿**ماكان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.**﴾؟ فقد كان من مفترضاً أن يُقال: "كان الله يكلّم البشر وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء". لكنّ الواقع أن الله عزوجلّ المُعجز في كلامه أعرض عن الصّياغة البّسيطة هذه. وصاغ الآية المذكورة مُفعمةً بالمعاني والدّلالات. فهو تعالى شاء أن ينبّه أولاً إلى الفترتين التاريخيّتين اللتين قطعهما هذا المخلوق. وأن يُقلّل من شأنه يوم كان بشراً متوحّشاً ثانياً. وشاء ثالثاً التّنبيه إلى أنه كان يتصل بهذا المخلوق ويكلّمه وهو على حاله تلك لتطويره منها إلى حال أفضل. وشاء رابعاً التّنبيه إلى أنّ اتّصال الله تعالى بهذا المخلوق بعد أنسنته وتحضيره وتمدينه هو حقيقة من باب أولى. وشاء خامساً التّنبيه إلى أن إتصال الله تعالى ومكالمته لاتنحصر في أشخاص الذين يصطفيهم من أنبيائه ورسله والذين يُنزل عليهم شرائعه وتعاليمه، بل بالنّاس كافّة من أي لون أو لسان أو قومية انتسبوا إليها، ذلك أنّ الله تعالى هو ربّ الناس أجمعين.

هذا وقد عمد جل شأنه إلى أسلوبه المعجز والمتميّز لتضمين هذه الآية الكريمة جميع هذه المعاني الواسعة فأتى بحرف (ما) الموصولة الحرفية التي لاتعمل إن أدخلها على الجُملة الفعليّة. خصوصاً وأنها هنا مصدرية غير زمانيّة، فأدخلها على فعل (كان) فقلّل جلّ شأنه بذلك من شأن الإنسان يوم كان بشراً يعيش حالة توحّشه، فقال (ماكان لبشر). ثم إنه عزوجلّ أتى بالحرف المصدريّ (أنْ) فأدخله على فعل يكلّم المضارع لينصبه، ويظلّ هذا المضارع في موضع رفع فقال "أن يكلّمه" وأحدث بذلك انسجاماً بلاغياً موسيقياً مابين هاتين الصّيغتين لتمسيا: ﴿**ماكان لبشر أن يكلمه الله**﴾. ومن ثمّ أتى جل شأنه بحرف الاستثناء (إلاّ) ليحصُر أخيراً طرق كلامه مع عباده فقال ﴿**إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.**﴾.

فالله تعالى وبهذا الأسلوب في صياغة هذه الآية من كتابه العزيز أمكنه أن يُضمّنها جميع المعاني الخمسة التي ذكرتها آنفاً ، وبأسلوبٍ معجزٍ يعجز عن أن يخطر ببال إنس أو جانّ.

فإن تساءل القارىء بعد أن كشفت له عن واسع دلالة هذه الآية الكريمة المذكورة، أقول : لئن تساءل في نفسه : وهل كان الله جل شأنه يتصّل بالبشر ويكلّمهم بهذه الطرق الثلاث التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة ثمّ ماهو دليلُنا على ذلك؟

٣ً ـ أدلّتُنا على أن الله تعالى كان يكلّم البشر قبل آدم وبعده:

فأُجيب على هذا وأقول : لقد كان منطقيّاً جداً أن يُكلّم الله تعالى مخلوقه هذا والذي كان لايزال متوحّشاً ووفق جبلّته وحالته البدائية أي من وراء حجاب ثم إنّ تكلّم الله تعالى مع البشر خلال أدوار تاريخه الحجرية من وراء حجاب كانت ضروريّةً أيضاً. فقد كان كلّ واحدٍ من البشر يومئذٍ يستلقي وينام ويروح في سُباتٍ عميق، على شاكله مايحدث لكلّ إنسان في عصرنا. فإذا لخصّنا ماوضّحته قبل هذا من أنّ كلام الله مع عباده يتحقّق بتوسّط تجلّيات وتمثّلات أسمائه الحسنى. هذه التجليات والتمثّلات التي تعجز أعيننا هذه عن مشاهدتها، لكننا نراها ونستقبلها بحواس كياننا الباطنيّ، هذا الكيان الذي هو أشبه بمحطّة استقبال تلفزيونية مع الفارق، فإن نحن سلّمنا بهذه الحقيقة وبواقع أنّ البشر كانوا ينامون ويرون في منامهم مايوافق بيئتهم وحالة توحشّهم، فقد كان طريق مخاطبتهم في حالة نومهم أي من وراء حجاب كان هو الطّريق الأنسب لاتّصال خالقهم بهم ، والكلام معهم من وراء حجاب. هذا وإنّ الذي يُعيد النّظر في تاريخ الشّعوب من هذه الزّاوية ومن هذا المنظار ستراءى له صحّة ماذهبت إليه. فالرؤى الرحمانية كانت دوماً مَشْغَلَةَ أذهان النّاس زمن توحشّهم حتّى وبعد تحضُّرهم وإلى هذه الأيام.

ليعد القارىء الكريم إلى سورة يوسف الآيات (٤٣ ـ) : ﴿**وقال المَلِكُ إنّي أرى سبع بقراتٍ يأكُلُهن سبعٌ عِجاف، وسبعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابسات، ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبُرون. قالوا أضغاث أحلامٍ ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين.**﴾. فقد نبّهت هذه الآيات الكريمة من جُملة مانبّهت إليه، هو أنّ النّاس أيّام الفراعنة كانوا يرون مايرونه في حالة

نومهم، وكانوا يقسّمون مايرونه إلى قسمين : قسم يُسمّونه أضغاث أحلام، من ضَغَث الحديث خلطه، وأضغث الحالِمُ الرؤيا جاء بها مُلتبسة. فأضغاث أحلام ماالتبس من الأحلام ممّا لايصّح تأويلها لاختلاطها. والقسم الثاني من الرؤى كان بالإمكان تأويلها فهي رؤىً صادقةٌ ورحمانيّةومظهر تجلّي وتمثل كلام الله مع رائيها (محيط المحيط).

فالملك حين قال : ﴿**ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبُرُون.**﴾ فقد كان يخاطب مستشاريه وعلماء مجلسه. فالملأ يعني التشاور، ويطلق على الذين يُلتمس عندهم جودة الرأي والمعروف (محيط المحيط) فالملك عرض مارآه في منامه على مستشارية يستفيتهم في أمر تأويل مارآه. فلو كان النّاس بما فيهم المَلِك ينظرون إلى مايرونه خلال نومهم على أنّه مجرّد أضغاث أحلام وحسب لايصحّ تأويل شيءٍ منه لالتباسه واختلاطه. فلو كان الأمر كذلك يومذاك، فما كان للملك أن يستفتي مستشاريه.

وكيف صدّق هذا الملك مأوّله له يوسف عليه السّلام الذي : ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سُنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ماقدّمتم لهنّ إلا قليلاً ممّا تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون.**﴾. فكيف قبل الملِكُ هذا التّأويل الذي أوّله له يوسف وأيقن أنّه نبأ وكلامٌ إلهيٌّ معه؟ فهذه حادثةٌ تاريخيةٌ أخبرنا بها كتاب الله العزيز، ولتحمل لنا حقيقة ممّا ذكرناه آنفاً، ولاينكرها إلاّ من كان يجهل تاريخ مصر، وتاريخ هذه الرؤيا، وماحدث بسببها في مصر من أحداثٍ هامة.

ألا إنّ أوّل علمٍ عرفه البشر وتعلّموه من واقع ماكانوا يرونه في منامهم هو علم الرؤيا. هذا العلم الذي أصبح مشغلةَ أذهانهم في كلّ زمانٍ ومكان. ذلك أن حالة النّوم، كانت تشكّل وسيلة تكلُّم الله مع هذا النائم من وراء حجاب. فلو تقصيّنا تلك الحقيقة من خلال ماعثر عليه الباحثون من الآثار واللُّقى والمخطوطات لجمعنا مجلّدات حول هذه الحقيقة ومجلدات.

ولاأقصد من كلماتي هذه أنّ البشر ماقبل التاريخ كانوا ينقشون على كهوفهم ماكانوا يرونه في منامهم. بل الذي أقصده، هو أنّ البشر وبعد بعثة آدم عليه السّلام قد استمرّ اتّصال خالقهم بهم بهذه الوسيلة من الإتّصال وهو الأمر

الذي وضع جلّ شأنه أساسه وقاعدته في جبلّتهم الباطنيّة وبشكل مدهش وملفتٍ للأنظار. فقد صاغ الله الإنسان محتاجاً إلى النوم والرّاحة وإلاّ فسينتهي الأمر به إلى المرض والموت يقيناً. وهذا أمر أثبتته الأبحاث العلميّة وبات أمراً مفروغاً منه. فإذا استسلم هذا الإنسان إلى النوم واستغرق فيه، ينطلق كيانه الباطنيّ في عالم ينعدم فيه الزّمان والمكان ويعود هذا الكيان الباطن كشاشة استقبال تلفزيونيّة يلتقط ماتبثّه أعماله اليومية من آثار في أعماقه من جهة كما يلتقط ماتبثّه عضويّة جسمه من تأثيراتٍ من جهة ثانية وماكان يدور في خلدِهِ نهاراً من محاكماتٍ وتصوّراتٍ من جهة ثالثة ومايحدثُهُ الضجيج حول هذا النائم من بثٍ للأصوات من جهة رابعة . فإلى جانب استقبال شاشة كيانه الباطنيّ لجميع ماتبثّه محطّات البثّ المذكورة، فإن هذه الشاشة الباطنة كانت تستقبل ماتبثّه تجليّات وتمثّلات أسماء الله الحسنى من تجليات وتمثّلات موجّهة إليه ومعبّرةٍ عمّا يريده خالق هذا البشر منه ومايشاء مكالمته به من كلامٍ من وراء حجاب.

هذا وهل يظنّ قارىء القرآنّ الكريم حينما يمرّ على تلك الآيات التي نقلت لنا أخبار مُختلف الرؤى التي رآها ابراهيم ويوسف وحزقيال وملك مصر وغيرهم، هل يظنّ هذا القارىء أنّ الله عزوجلّ يسرد لنا هذه الرؤى عبثاً ودون حكمةٍ يُريدها وهو الخبير الحكيم؟ بل كان يقصد منها تنبيهنا إلى أن كلامه مع عباده بطريق الرؤى هو كلام من وراء حجاب. وقد ذكر لنا أبرز هذه الرؤى المؤثرة في تاريخ هذا الإنسان، ومأأحدثه الله عزّ وجلّ عن هذا الطريق في تاريخ هذا الإنسان من انقلاباتٍ ردّدتها الألسن في كلّ مكان.

وبإمكان كلّ باحثٍ أن يتقصّى هذه الحقيقة على حسب ماذكرته من خلال ماتضمّنته جميع الكتب السّماويّة المعاصرة ليتحقّق من صدق ماذهبت إليه. فأنا أتناول التوراة المعاصرة على علاّتها، وأترك ماأوردته عن تاريخ موسى وعن اتّصاله بربّه. فنحن نؤمن بقول ربّنا في كتابه العزيز : ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**.﴾ أي كلّمه بجميع طرق كلامه المقرّره مع عباده الصالحين فقد كلّم الله موسى وحياً ومن ورء حجاب وأرسل إليه رسولاً من ملائكته ينقل إليه ماشاء أن يكلّمه به. فهذا هو ماأفهمه أنا من ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**.﴾ فقد حملت لنا هذه الألفاظ هذه الحقيقة التي ذكرتها وهو أنّ موسى كان قد بلغ مرحلةً من

النّضوج العقلي أهلّته لتلقّي كلام ربه بهذه الطرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة الشّورى.

لذلك أعود بالقارىء إلى التّاريخ الذي سبق بعثة موسى عليه السلام وهوماتضمنته التّوراة المعاصرة عنه من نصوص متعلقة بكلام الله مع أبرز عباده الصالحين ومن وراء حجاب.

فقد ورد في سفر التكوين $\frac{32}{24}$ ورد حرفيّاً : (وأتى الله إلى لابان الأراميّ في حُلمْ اللّيل وقال له احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شرّ.). ويروي سفر التكوين المذكور أنّ لابان المذكور اجتمع بعد هذه الرّؤيا بيعقوب عليه السلام وقال له: (ولكنّ إله أبيكم كلّمني البارحه قائلاً : احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شرّ). وهذا النصّ التوراتي إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الناس زمن النّبي يعقوب كانوا يُعطون مايرونه في منامهم أهميةً بالغةً ويعتقدون أنّ الله الخالق يتصّل بمن يشاء أن يكلّمه بهذا الطريق وهو طريق ماوراء حجاب.

وهذه التوراة المعاصرة تقصّ علينا في سفر التكوين $\frac{37}{9}$ مارآه يوسف عليه السلام في منامه، فقد أوردت حرفياً : (فقال ــ يوسف ــ إني قد حُلمت حُلماً أيضاً وإذا الشّمس والقمر وأحَدَ عشر كوكباً ساجدة لي. وقصّهُ على أبيه وإخوته. فانتهره أبوه وقال ماهذا الحُلْم الذي حَلُمْتَ. هل نأتي أنا وأمّك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته، وأمّا أبوه فحفظ الأمر.).

فبغضّ النّظر عن الاختلاف الواقع مابين هذه الرواية التّوراتيّه ومابين الرواية القرآنيّة، فيكفينا أن نستنتج من هذا النصّ التّوراتي أن ماكان يراه الإنسان النائم في منامه من رؤى صادقة كان يُعدُّ في نظر أهل ذاك الزّمان من قبيل كلام الله مع صاحب الرؤيا ومن وراء حجاب . إضافةً إلى أنّ أصحاب تلك الرؤى كانوا موقنين أنّ هذا النوع من الرؤى الصّادقة يشتمل أيضاً على كلام الله المُوجّه إلى الرّائي بطريق التّحلي والتمثّل ، وأنّ هذا التمثّل يحتاج إلى تأويله أيضاً.

وفي سفر التكوين الأصحاح $\frac{40}{1}$ أوردت التوراة المعاصرة مارآه ملك مصر ومأوّله له يوسف عليه السّلام حيث ورد فيها: (وحدث بعد هذه الأمور أنّ ساقي ملك مصر والخبّاز أذنبا إلى سيّدهما ملك مصر.. فوضعهما في حبس بيت رئيس الشّرط في بيت السّجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه..

وحَلِما كلاهما حُلْما في ليلةٍ واحدة.. فقال لهما يوسف أليست لله التّعابير. قُصّا عليّ.) وبقية القصّة معروفه توراتياً وقرآنياً. والمهم أننا نستنبط من هذا النّص أنّ يوسف حينما قال للمَسْجونين اللذين معه (أليست لله التّعابير؟) أخذ منهما إقراراً بأنّهما يعتقدان بأنّ الله يكلم الإنسان من وراء حجاب عن طريق مايراه في منامه. وهذا الأمر أقرّ به ملك مصر لذلك لاحظناه قد أخذ بتأويل يوسف لما رآه في منامه شخصيّاً، وقد أثبتت الأيام مصداقيّة ماأوّله يوسف لرؤيا ملك مصر. وهذا الأمر وهذا النصّ التّوراتي يثبت منه صدق ماذهبت إليه من أنّ كلام الله تعالى ينتقل إلى من يريد الله تعالى الاتصال به ومكالمته من وراء حجاب بطريق تجلّي أسماء الله الحسنى المختصّه وتمثّلاتها في منام من شاء الله عزوجلّ مكالمته.

وأورد لنا سفر التكوين في الإصحاح $\frac{46}{1}$: (فكلّم الله إسرائيل (أي يعقوب) في رؤى اللّيل وقال: يعقوب يعقوب! فقال : هاأنذا. فقال أنا الله إله أبيك لاتخف من النّزول إلى مصر..).

ومن خلال هذا النصّ نستنتج أيضاً أنّ الله عزوجلّ ظلّ يكلّم أنبياءه ورسله الكرام من وراء حجاب وبطريق منامهم إلى أن اكتمل نضج عقول عباده واستحقوا من الله تعالى أن يكلمهم بجميع الطرق الثلاثة المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة الشورى، وهذا الأمر إن تقصيّناه من خلال معطيات تاريخ جميع الأمم فسنصل إلى هذه النتيجة التي توصّلنا إليها آنفاً وبصورة يقينيّة. أيضاً وبامكاننا أن نجمع بذلك مجلّدات تشتمل على هذه الحقيقة ومجلّدات.

٤ـ الأدلّة القرآنيّة التي تؤكّد مكالمة الله مع البشر قبل آدم :

ولسائل أن يسأل : من أيّة الآيات القرآنية استدلّلت على أنّ الله تعالى كان يكلّم هذا الإنسان يوم كان بشراً وفي حالة توحّش، وخلال فترة ماقبل التاريخ وأنّه كان يكلّمه من وراء حجاب؟

وجواباً على هذا السؤال أقول : إنّ الذي يتدبّر الآيات القرآنيّة التالية سيوقن بما تيقّنته أنا شخصياً من مدلولاتها ويُقرّ بالتالي أنّ الله الخالق لم يقطع صلته بمخلوقه البشر بعد خلقه إيّاه، بل ظلّ يرعاه ويطوره بكلامه من وراء

حجاب. فقد استهلّ الله عزوجل سورة الدّهر بقوله تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً.**﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿**ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم.**﴾ وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمأٍ مسنون فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلّهم أجمعون. إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين.**﴾.

إن الله عزّوجلّ قد أنبأنا في الآيات من سورة الدّهر عن الدّورين اللّذين مرّ هذا الإنسان خلالهما فربّاه وطوّره إلى أن بلغ مرحلته المعاصرة. كذلك نبّه الباحثين في الوقت نفسه إلى أنّ هذا البشر لم تكن له طوال دوره الأول الحجريّ حضارةٌ ولاتهذيب. فهو في تلك الحُقبة من الزمان ﴿**لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾. كما نبّه جلّ شأنه الباحثين إلى أنّ هذا الإنسان المتوحّش كان ربّه قد طوّره بعد أن أكمل له قواه العقلية وذاكرته فجعله " سميعاً بصيراً ". أي طوّر ملكاته العقلية فمكّنه بالتالي من التزوّد بإمكانيات روحيّةٍ فوق إمكانيّاته المحدودة .

كما أنبأنا تعالى في الوقت نفسه بأنّ الذي يعجب لبقاء هذا البشر في دوره الأول هذه المدّة الطويلة من الزّمان. سيزول عجبه إن هو انتبه إلى الفارق العظيم مابين نطفة الإنسان ونطفة الحيوان. فالله عزّ وجل خلق هذا الإنسان من نطفةٍ أمشاج أي من نطفةٍ ذات قوى متقابلةٍ ومتضادّةٍ (وهو الأمر الذي وضحته في نظرية جذور الأخلاق.). وأنّ هذه النّطفة الأمشاج كانت الغاية منها، أن تؤهّل هذا الإنسان إذا ماتفتّحت عند نشوئه ونموّه ليدخل عن طريقها حياته الدّنيا حرّ الإرادة والقرار والمصير. وليبتليه خالقه عن طريق ذلك ليكرم أو يهان بعد مماته.

ثم إنّ الآية من سورة الأعراف التي قال تعالى فيها ﴿**ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم.**﴾ قد وضّح تعالى لنا من خلال فصله بين كلمتي خلقناكم وصوّرناكم بالحرف (ثمّ) وهو الحرف الذي يستعمل للترّتيب. وضّح بكلّ جلاء أنّ البشر كان محتاجاً أصلاً إلى هذه المدة الطويلة التي استغرقها دور وجوده ماقبل

التاريخ. فقد كان الخالق عزّ وجلّ يُخضع البشر لعمليّة (تصويره) ليس تصويراً جسمانياً بل حواسيّاً على اعتبار أن التّصوير الجسماني يسبق الخَلْق ترتيباً.

وهذه قرينة تنقل معنى ﴿**ثم صورّناكم**﴾ من معناها المتبادر للذهن إلى معنى النّوع والصّفة (محيط المحيط). فالبشر كانوا شابهوا ماحولهم من الأنعام في بداية خلق الله إيّاهم. ومن ثمّ أخذ خالقهم يعلّمهم مايمتازون به عن الأنعام صفةً ونوعاً سواء على صعيد أسلوب حياتهم ووسائلها وسواء على صعيد استخدامهم لعقولهم وسواء على صعيد نظرتهم إلى أنفسهم أيضاً.(راجع مؤلّف خلق الإنسان)

أما في الآيات من سورة الحجر فقد نبّه الله تعالى أذهاننا إلى أنّه صاغ جبلّتنا الباطنة فيها الإستعداد لتلبية صوته السّماوي، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾. فالصّلصال اشتُقّ من صلّ الشيء يصل صليلاً أي صوّت. والحمأ المسنون الطّين الأسود المُنتن (محيط المحيط) فهو تعالى نبّه إلى هذه الحقيقة الفطريّة في مَعْرِض كلامه عن بعثة آدم عليه السلام.

فإن نحن قُمنا باستعراض ماتضمّنته هذه الآيات جميعها من معلومات وهي أنّ إنسان ماقبل التاريخ لم يكن شيئاً مذكوراً لبعده عن التهذيب والحضارة، وأنّ الله علّمه وعلى طول تلك الحُقبة من الزّمان مايميّزه عن الكائنات الحيّة من حوله صفةً ونوعاً ، وأنّه جل شأنه كان يقوم بعمليّة تسويةٍ لهذا المخلوق بوسيلة مايعلّمه إيّاه في حالة نومه ليحوّله من بشر إلى إنسان وهو ماأشار به تعالى من خلال قوله مخاطباً ملائكته ﴿**فإذا سويّته**﴾ وليؤهّله من خلال تسويته لمرحلة النّفخ فيه من روح الله أي لإنزال تعاليمه عليه وليجعله إنساناً روحانيّاً (محيط المحيط) ليتعرّف إلى خالقه وليفوز بقربه ورضاه وليستحّق الحياة الخالدة.

ألا إنّ هذه المعلومات التي أفادتنا بها هذه الآيات الكريمة لاتبدو في ظاهرها ذات شأن كبير. لكنّنا إذا كُنّا مُلمّين بأصول تفسير القرآن الكريم تتبدّل نظرتنا إلى هذه المعلومات بصورةٍ جذريةٍ. ونُدرك أنّها تشكّل بين أيدي الباحثين منارات تهديهم على طريق بحثهم عن تاريخ إنسان ماقبل التاريخ.أي تفسّر لهم أطوار العصور الحجريّة القديمة .

فمن أصول تفسير كتاب الله العزيز أن تفسّروا آياته من منطلق أنّه كلام الله عزوجلّ، وتُفسّر هذه الآيات بما لايُخالف صُنع الله وإبداعه وذلك

بالتوفيق بين دلالاتها و بما يتّفق ومايكشف عنه العلم، إذ لايعقل أن يتضارب كلام الصّانع مع ماصنعه هذا الصّانع وأبدعه. وانطلاقاً من هذا الأصل، فمن واجب المتدبّر لآيات القرآن الكريم وقد أحاط علماً بما زوّدتنا به الآيات التي أوردناها من منارات هدى تهدينا على طريق محاولة الإحاطة بتاريخ الإنسان لمّا يعود لفترة ماقبل التاريخ يوم كان بشراً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة إنسان مُهذّبٍ ومتمدّن. فمن واجب هذا المتدبّر أن يعود إلى ماتكشّف عنه الحفريات من آثار البشر القديم، ولتهديه إلى النتائج الصّحيحة.

هذه المنارات من المعلومات التي زوّدتنا بها هذه الآيات القرآنية. لأن نضرب عن هذه المنارات صفحاً. ويذهب ذهننا باتّجاه وضع نظرياتٍ تعتمد التخيّل والفرضيّة والاحتمال. فإن أخذ متدبّر آيات هذا الكتاب العزيز بهذا الأصل التفسيريّ، يكون كمن وضع النّقاط على الأحرف ووفق دلالات هذا الفرقان.

هذا على اعتبار أن مازوّدتنا به هذه الآيات من نقاطٍ رئيسيةٍ على طريق بحث تاريخ البشر قديماً، تُلزمنا الاعتقاد بأنّ ربّ العالمين ماخلق أحدادنا الأوائل وتركهم لشأنهم، بل لابدّ أن اظلّتهم تجلّيات وتمثّلات ربوبيّته عن طريق المنام ومن وراء حجاب، فهو جل شأنه الذي مهّد هذا السبيل ليكون وسيلةً للاتصّال بهم وهم على حالة التوحّش تلك، فلابدّ أن يكون الله ربّهم قد علّمهم آنذاك كلّ مايحتاجونه إبقاءً على وجودهم ولتسوية عقولهم وتصويرهم فلم يخلقهم عبثاً حتى يتركهم لشأنهم تتناهبهم الأمراض والآفات وتقضي عليهم وتبطل المقصد من وجودهم على سطح هذا الكوكب الأرضي. فقد ثبت على سبيل المثال أن دلّت التحرّيات على أن البشر تعلموا ايقاد النار منذ أكثر من (٦٠٠٠٠٠) عام تقريباً، وراح أصحاب العقول المادّية يضعون النّظريات حول تحقّق الحدث المذكور في مثل ذاك الزمان الغابر السّحيق، على حين أنّ الذي يحيط علماً بما وضّحته ومابينته له من خلال معطيات هذه الآيات القرآنية ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد أنّ الله الخالق الربّ هو الذي علّم بشر ذاك الزمان ايقاد النّار ليشوي مايصطاده فلايأكله نيئاً على شاكلة مايفعله الحيوان من حوله، وأنّ هذا التعليم قد تحقق بطريق مايراه بشر ذاك الزمان حين ينام أي من وراء حجاب، وعلى هذه الشاكلة تُقاس بقية الأمور.

ولاينبغي أن يستغرب الباحث من طول المدّة التي قضاها البشر في حالةٍ من التّوحش، فالإنسان من طبيعة تكوينه وأسلوب تفكيره أنّه لايتغيّر بسرعة، بل يتغيّر ويتحوّل وفقاً لقوانين التطوّر، فهو عدّو ماجهل من جهة، وهو لايقتنع بفائدة شيء إلاّ بعد القيام بتجربته والإقتناع بصحّته.

فإن اقنعته تجاربه يسارع إلى الأخذ بهذا الجديد ويعمل عليه. أي أنّه يحتاج إلى فترة عدّة عقودٍ من الزمان ليأخذ بشيء جديد، وذلك على حسب ماأثبتته تجارب العلماء والباحثين.

فقد ثبت من منطق تاريخ هذا الإنسان أنّ تقليده لِما نشأ عليه تشكّل أحد سماته، وليس من السهولة بمكان أن تطوّر هذا الإنسان وتجري تغييراً فيما نشأ عليه. أفلم يخبرنا كتاب الله العزيز أنّه كلما كان يبعث الله تعالى رسولاً، كيف كانوا يقولون :﴿ **إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقتدون.**﴾ الزخرف ٢٣ ـ فهذا حال الإنسان من بعد بعثة آدم عليه السّلام. فبالأحرى أن يكون حالهم في زمن توحشّهم أسوأ من ذلك بكثير. أما وصلت إلينا أشعار إحدى زوجات معاوية رضي الله عنه وقد تزوّجها من أهل البدو. فبالرغم من حياة الترف التي لَمَسَتْها عنده فقد ألبسها أفضل الثياب في رفقته معها لاحظها تقف في شرفة قصره وتنشد وتقول :

لبيتٍ تجري الرّياح فيه ... أحبّ إليّ من قصرٍ منيف

ولبس عباءةٍ وتقرّ عيني ... إليّ من لُبس الشفوف

إلى آخر الأبيات. فهذا هو سرّ احتياج البشر قبل بعثة آدم عليه السّلام إلى هذه المدّة البالغة في القدّم. ذلك أنّ الله عزوجلّ نبّه وقال ﴿**من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه**﴾ أي نمتحن إرادته واستعماله لعقله فقد أنشأنا الإنسان حُرّ الإرادة لتمريره من هذه التجارب وهذه الامتحانات. وإلاّ فقد كان بإمكان الله الخالق عزوجلّ أن يطوّر هذا الإنسان خلال أيّام معدودات، وأن يجعل الناس أمة واحدة أيضاً. فالخالق لم يترك هذا المخلوق دون مَعُونَةٍ منه وهداية، بل كان يعلّمه من وراء حجاب.

الباب الثاني
آدم النّبي الأوّل

الفصل الأول
أخطاءُ وإشكالاتُ المفسرين :

فإلى هنا نكون قد أحطنا علماً بموضوع اتّصال الله ببشر ماقبل التاريخ ومكالمته خالقه إيّاه من وراء حجاب. لذلك نتقدّم خطوه أخرى على هذا الطريق لنتبيّن معالم النّقلة النوعية التي أحدثها ربّنا عزوجل عن طريق اصطفائه آدم، وبعد أن سوّاه وأعدّه لحمل رسالته إلى لكنّي أرى من الضروري هنا حلّ بعض الاشكالات التي وقع فيها المفسرون في موضوع آدم.

١ـ ظنّهم أنّ آدم هو أول مخلوق :

فقد ذهب ذهن بعضهم، وبتأثير ماسمعوه من المعتقدين بالتّوراة من اليهود، ذهب ذهنهم إلى أنّ آدم كان أوّل مخلوق خلقه الله عزوجلّ. على حين لو أنّهم تدبّروا الآيات القرآنية جيداً بعيداً عن الإسرائيليات، لتبيّن لهم أن القرآن الكريم يسفّه ماورد في سفر التكوين من التوراة المعاصرة. ويُعلن في الوقت نفسه أنّ آدم لم يكن أول البشر بل أوّل نبيّ اصطفاه ربّه على شاكلة مااصطفى نوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. هذه الحقيقة قد أوردها ربّنا عزوجلّ في الآية (٣٣) من سورة آل عمران : ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾.

فهو جلّ شأنه استعمل في هذه الآية الكريمة كلمة (اصطفى) التي تعني على حسب ماأورده صاحب معجم (محيط المحيط) وغيره من المعاجم تعنى اختار من خلقه. أي أن الله تعالى كان قد خلق الإنسان، ومن ثمّ اختار آدم من صفوة هؤلاء الخلق. وذلك على شاكلة اصطفائه نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وقد فضّل هؤلاء الذين اختارهم واصطفاهم على العالمين من حولهم ، وليس على النّاس أجمعين . وهذه المعاني تؤكّد وجود بشرٍ قبل آدم عليه السّلام.

كذلك نبّهنا ربّنا جلّ شأنه في الآية (١١) من سورة الأعراف بقوله: ﴿**ولقد خلقناكم ثمّ صورّناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين**﴾. فنلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ راح يُنبّه ذهن القارىء إلى ترتيب مافعله ربّه، وذلك بوسيلة الحرف (ثمّ) الذي استعمله تعالى في هذه الآية الكريمة ليفيد العطف والترتيب أيضاً (محيط المحيط) فنبّه جل شأنه بذلك إلى أنّ عمليّة اصطفائه آدم لم تحدث كبداية، بل حدثت كنهاية سبقها عمليّة الخلق ثم عمليّة التصوير للهيئة والصّفه. أي سبق زمنٌ طويل على عمليّةِ اصطفاء الله تعالى آدم فهو تعالى طوّر البشر خلال تلك المدة وميّزه عما حوله من الأنعام.

فهاتان الآيتان صريحتا الدّلالة على أنّ آدم لم يكن أوّل الخلق بل كان أوّل نبيّ اصطفاه ربّه عزّ وجل من بين خلقه. وهذه الدّلالة تسفّه ماأورده سفر التكوين من التوراة المعاصرة. في وقتٍ وتتّفق في الوقت نفسه مع ماكشف عنه علم المستحاثات وغيره من العلوم .

٢ـ ظنّهم أنّ جنّة آدم سماويّة :

وأشكل على بعض المفسرين موضوع جنّة آدم أكانت في السّماء أو كانت على الأرض. فلو أنّ هؤلاء قارنوا مابين أوصاف الجنّة الأرضيّة ومابين أوصاف الجنّة التي وُعد بها المتقّون فلما كانوا قد وقعوا في الإشكال المذكور. ذلك أنّ الله تعالى وصف الجنّة السّماوية الموعودة تارةً بقوله ﴿**لهم فيها مايشاؤون**﴾ الفرقان (١٦) وتاره **بقوله** ﴿**وماهم منها بمُخرَجين**﴾ الحجر (٤٨). على حين يتبيّن أن الجنّة التي أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام كان فيها ممنوعات ، فهو تعالى خاطب آدم وقال ﴿**ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ البقرة (٣٥)، وقال ﴿**اهبطوا منها جميعاً**﴾ البقرة (٣٨) وكلمة اهبطوا هذه لاتعني لغةً وبالضّرورة النّزول من فوق إلى تحت، بل تعني الأمر بالانتقال من مكان إلى مكان. وبهذا المعنى ورد قول ربّنا آمراً بني اسرائيل: ﴿... **اهبطوا مصراً فإنّ لكم ماسألتم...**﴾ البقرة (٦١).

وهناك فروق أخرى بين أوصاف الجنتّين لامجال لتعدادها جميعها في هذا المقام. وبإمكان القارىء تقصيّها في السّور هنا وهناك. فلو أنّ الله تعالى كان قد

أسكن آدم الجنّة الموعودة لاستحال أن ينهاه عن أحد أشيائها أو يطرده منها. بل كان آدم أوّل نبيّ، وكانت جنّته أرضيّه وسُمّيت كذلك لشدّة خصبها وكثرة مياهها. هذا ماتفيده آي الذّكر الحكيم.

واختلف المفسّرون حول حقيقة إبليس أكان من الملائكة واستثني بحرف (إلا) من السّجود، بسبب قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.**﴾ أم أن إبليس كان من مخلوق آخر غير الإنس ويُسمّى (جنّ) بحسب قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة الكهف : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً.**﴾.

أقول إنّ مرد هذا الإشكال يعود إلى سببين اثنين : السّبب الأوّل هو عدم انتباه هؤلاء الناس إلى أن لفظ (الجنّ) الوارد في آياتٍ عديدة من كتاب الله العزيز، وإن استعمله جل شأنه في موضعٍ من المواضع بمعنى مخلوق آخر غير الإنسان، إلاّ أنه لم يستعمله كذلك في مواضع أخرى، بل استعمله بمعاني مختلفة وعلى حسب مايقتضيه السّياق والسّياق. وقد استعمل الله جل شأنه لفظ الجنّ في هذه الآية من سورة الكهف بمعنى البشر الذي كان يتخفّى في الكهوف تحسُّباً من هجمات الوحوش الكاسرة عليه وهو نائم. وهو أمر أتيت على ذكره فيما سبق.

والسبب الثاني أن هؤلاء اعتبروا حرف (إلاّ) الوارد في الآيات المتعلّقة بسجود الملائكة حرف استثناء على حين لو أنّهم أمعنوا نظرهم جيّداً وتدبّروا الصّيغة التي صاغ الله تعالى بها هذه الآيات لأدركوا أنّ حرف (إلاّ) استعمل في هذه الآيات الكريمة بمعنى (غير)، ولم يُستعمل للاستثناء.

فالمعلوم أنّ من أصول تفسير القرآن الكريم أنّ آياته يفسّر بعضها بعضاً، ولايجوز تفسير آية دون الرّجوع إلى مايتعلق بموضوعها من آياتٍ موزعة على السّور هنا وهناك.. وبالنظر إلى هذا الأصل في التّفسير نعود إلى ماذكره الله تعالى في سورة الحجر. فقد قال هناك: ﴿**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع السّاجدين.**﴾.

والآن إن نحن تدبّرنا ماورد قبل حرف (إلا). نلاحظ أنّ كلمتي ﴿**فسجد الملائكة**﴾ كافيتان أصلاً للدّلالة على سجود جميع الملائكة لقوله تعالى في موضع آخر بحقّ الملائكة ﴿**ويفعلون مايؤمرون**﴾.

فالسؤال الذي ينبغي أن يُجاب عليه إجابةً مقنعةً هو : لماذا أتبع الله جل شأنه قوله هذا بكلمتي توكيد وقال ﴿**كلّهم أجمعون**﴾. فما كان هناك من ضرورة في هذا المقام للتوكيد. فالملائكة ﴿**لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون.**﴾. وهذا الأمر يُعدُّ قرينة في حدّ ذاته أنّ حرف (إلاّ) قد استعمل في الآية المذكورة من سورة الحجر بمعنى يغاير معنى الاستثناء يقيناً.

ففي المعاجم اللغويّة ورد أنّ (كلّ) هي اسم موضوع لاستغراق أفراد المعرّف والمنكر حتى واجزاءهما وتستعمل (كلّ) للمبالغة والتكثير أيضاً. ولاتُستعمل إلا مُضافة لفظاً أو تقديراً، وترد باعتبار ماقبلها : فقد تكون نعتاً لنكرة أو معرفة لتدلّ على كمال هذه النكّرة أو المعرفة، وحينئذ تُضاف إلى إسم ظاهر يماثلها لفظاً أو معنى (محيط المحيط). فإن نحن تدبّرنا الآية من سورة الحجر نصل إلى أنّ كلمة (كلّهم) قد استوفت جميع هذه الأمور. فقد استُغرِقَ بها ذكر الملائكة كمعرفة، وأضيفت لفظاً، ونُعت بها الملائكة أيضاً، ودلّت على كمالهم وأضيفت إلى اسم ظاهر يماثلها معنى، فأيّة حاجةٍ بعد هذا التوكيد ليورد الله تعالى توكيداً آخر وهو (أجمعون)؟ فكلمة أجمعون سدّ باب الاستثناء من جميع جهاته.

نعود إلى المعاجم، لنلاحظ أنّ حرف (إلاّ) يستعمل بأكثر من معنى، فهو يستعمل بمعنى (غير) فتقول (عندي رجل إلاّ زيد). كما تقول : عندي رجالٌ إلاّ رجالك أي أن جمع المنكر أو شبهه يوصف بحرف إلاّ أو لايوصف، وتكون دلالته بمعنى (غير) (محيط المحيط).

ومادام توكيد سجود ملائكة الله قد أكّده ربّنا عزّوجلّ بكلمتين هما (كُلّهم أجمعون) وانسدّ بذلك باب الاستثناء. فهذا الأمر يقضي أن نأخذ حرف (إلاّ) في الآية من سورة الحجر بمعنى غير أي غير إبليس. وتكون صفة الغيريّة قد اتضّحت لأذهاننا بهذا الأسلوب، فلا نعود نعتبر إبليس فرداً من ملائكة الله عزّوجلّ.

أمّا كون إبليس من الجنّ أي من مخلوق آخر غير الإنسان، فأمرٌ كنت أتيت على شرحه. فلفظ (الجنّ) استعمل في الآية المذكورة بمعنى أنّ إبليس كان من سكّان الكهوف. وبهذا لايعود أمام قارىء هذه الآيات القرآنية أي إشكال كان أو التباس. ويكون حرف (مع) من قوله تعالى ﴿**الاّ ابليس أبى أن يكون مع الساجدين.**﴾ يكون حرف (مع) المذكور هنا قد استعمل بمعنى (من) ومثل هذا الاستعمال شائع في كتاب الله العزيز. فإن جلس أحدنا يدعو قائلاً ﴿**وتوفّنا مع الأبرار**﴾ فلا يقصد أن يتوفّاه الله حين يموت الأبرار بل يقصد بدعائه هذا أن يتوفّاه الله من الأبرار.

٣ـ تأثّرهم بقصّة آدم التوراتية :

ومن عجائب إعجاز القرآن الكريم، وهو الذي ورد في إحدى آياته قول الله تعالى : ﴿**إنّه لقرآن كريم. في كتابٍ مكنون. لايمسّه إلاّ المطهّرون.**﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿**ولايحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بماشاء.**﴾. أقول : إنّ من ظواهر هذا الإعجاز القرآني أن تاه المفسّرون والعلماء خلال محاولاتهم فهم قصّة آدم القرآنية، فذهبوا مذاهب شتّى، متأثّرين فيها بما نقله إليهم أهل الكتاب من معلومات تتعلّق بقصّة آدم من سفر التكوين التوراتي. وذلك خلال الأربعة عشر قرنا الماضية. فلم ينتبه أحدٌ منهم إلى الفروق الجذرية الواقعة مابين الرّوايتين التّوراتية والقرآنية. (راجع مؤلف خلق الإنسان)

فالعجيب أنّهم ظنّوا أنّ القرآن الكريم يؤيّد ماذهبَتْ إليه التوراة من أنّ آدم كان أوّل مخلوق خلقه الله عزوجلّ على سطح كوكبنا الأرضي ـ على حين أنّ النّصوص القرآنيةَ ماأفادت ذلك في أيّ موضعٍ من كتاب الله العزيز. بل دلّت هذه النصوص القرآنية على أنّ آدم عليه السلام اصطفاه الله ربّه كأول نبيّ وليس كأول مخلوق.فقد خلق الله تعالى البشر الذي عاش ماقبل بعثة آدم حالة توحّش تتنافى والمقصد من وجوده. وقد بعث الله آدم ليُحدِثَ عن طريقه في حياة البشر نقلةً نوعيةً فيربّيه ويهذّبه نفسيّاً وأخلاقياً، ويعدّه بالتالي ليحقّق المقصد من وجوده وهو التّعرف إلى خالقه وليفوز بمحبته وقربه ووصاله، خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ كان يتّصل بالبشر من وراء حجاب لإكمال إنضاج عقله ليصبح مستعدّاً بذلك لإدراك الفرق مابين مفاهيم العصيان والطّاعه والنظام والقانون.

فلم يفطن مفسروا الأمة وعلماؤها إلى هذه الحقيقة الناصعة المنصوص عليها في كتاب الله العزيز لوقوعهم تحت تأثير الأفكار التوراتية. فكم وكم تلوا قول ربّنا جل شأنه: ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾. ومرّوا على كلمة (اصطفى) مرور الكرام فلم توحي إليهم خطأ ماذهبوا إليه. خصوصاً وأنّهم كانوا ينظرون إلى الآيات التي تضمنت قصّة آدم بظواهر دلالاتها المتبادرة إلى أذهانهم، فلم يتدبّروها حتى تدبّرها، ووقعوا تبعاً لذلك في أعظم إشكال واجهوه. هذا إلى أن كشفت التحرّيات في عصرنا على أنّ وجود البشر هو قديمٌ وقديمٌ جداً على سطح كوكبنا الأرضي، وتضاربت بذلك أفهامهم تلك مع ماكشف عنه العلم الحديث.

إنّ أسلافنا ظلّوا حتى اليوم يتصوّرون أنّ الله تعالى شاء أن يخلق آدم كأوّل إنسان فخلقه ومن ثمّ جمع من حوله : الملائكة والجنّ، وأمرهم بالسّجود لآدم. فأطاعَ الملائكة أمر ربّهم إلاّ إبليس الذي كان من الجنّ فعصاه ولم يسجد لآدم، فأبى وكان من الكافرين، وأنّ الله لعن إبليس وأمهله إلى يوم الدّين. ليُضلّ من يستطيع إضلاله، الأمر الذي دفع المفكّرين والباحثين الذين يُصغونَ إلى هذه القصّة وبهذه المعاني، أن يعتبروها مأخذاً على الدّين.

❀❀❀

الفصل الثاني
قصّة آدم القرآنية وردت بلسان الحال لابلسان القال :

أقول إنّ ظاهرة هذه الإشكالات ، إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على إعجاز الصيّاغة القرآنية هذه التي لايدرك عظمتها إلا الذي يتدبّر آيات هذا القرآن العظيم. وليثبت بالتالي صدق قول الله تعالى ﴿**إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لايمسّه إلا المطهرون**﴾ وصدق قوله تعالى: ﴿**لايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء.**﴾. فقد آن أن يكشف الله عزوجل عن خفايا ماتضمّنته الآيات التي تضمنت قصّة آدم، هذه القصّة التي وردت في سبع مواضع من كتاب الله العزيز. أقول : لقد آن لهذا المكنون أن يظهر من كِنّه، ليثبُتَ للعلماء الذين كشفوا عن تاريخ البشر، أنّ هذا الكتاب تكلّم وأبان الحقائق العلميّة في هذا المجال في ثوبٍ أدبّي هو في غاية الإعجاز والتحدّي أيضاً.

فقد أطلع الله عزوجل إمام زماننا على خفايا ماتضمنته آيات قصّة آدم المذكورة وبما يوافق وماكشف عنه العلم الحديث. وثبت بالتالي إعجاز هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى ليوافق كل زمان ومكان.

فالله عزوجلّ نبّه إلى أنّ قصّة آدمٍ القرآنية قد صيغت بلسان الحال وليس بلسان القال. وأنّ الفهم السّابق المتأثر بالعطاء التّوراتي هو أبعد شيء عمّا تضمنته هذه الايات. وكل مايحتاجه المتدبّر لهذه الآيات الكريمة هو أن يلتزم بأصول تفسير هذا الكتاب العزيز.

فآدم عليه السّلام ماكان أول مخلوق، بل كان من الجنّ أي من سكان الكهوف على شاكله ماكان عليه إبليس الذّي كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه. هذه الحقيقة تضّمنها قول الله عزوجلّ ﴿**إني خالق بشراً فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ فلم يقل تعالى هنا ﴿**إنّي خالق إنساناً**﴾ بل قال ﴿ **بَشَرًا**﴾. وقد سبق أن وضّحت الفرق مابين لفظيّ بشر وإنسان. ولايُغرّنا لفظ (خالق) الوارد في هذه الآية. فالخلق في اللّغة من معانيه التقدّير أي إنّي

قدّرت اصطفاء أحد البشر. ولذلك قال تعالى في موضع آخر : ﴿**إنّ الله اصطفى آدم..** ﴾ فما أعظم هذا الإعجاز في الصيّاغة والتعبير.

والملاحظ أنّ الله تعالى قال ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي**﴾. وهل يحتاج إلى التسّوية مخلوق خلقه الله تعالى بيديه؟ فهل كانت عملية الخلق هذه عملية نحتٍ على شاكلة مايقوم به النّحاتون حيث يقومون بعمليةٍ أخيرةٍ لِما نَحَتُوه وهي عمليّة تسوية أخيرة؟ إنّ دلالة كلمة البشر تجيب على ذلك. فالبشر هو الإنسان الذي كان يعيش حالة توحُّش. ويحتاج إلى تسوية دماغه وطبيعته وسلوكه ليصبح بالتالي إنساناً. وهذه التّسوية بأبعادها اكتملت بعد النّفخ في هذا البشر من روح الله وذلك عن طريق ماأنزله على آدم من تعاليم سماويّة هذّبته وحوّلته من بشرٍ متوحّشٍ إلى إنسان مهذّبٍ متمدّن نتيجة هذا النّفخ التّعليمي.

ثم إنّ كلمة (آدم) تعني اللّون الحنطيّ . وهي اسمٌ وصفيٌّ لهذا البشر الذي اصطفاه ربّه وأخرجه من كهفه وحمّله رسالته، ليعيش في السّهل تلفحه أشعّة الشّمس ويصبح بالتالي آدمي اللّون.

كذلك فإنّ كلمة (إبليس) تعني البشر الذي قنط من رحمة ربّه التي تلقّاها آدم عليه السّلام. فلم يتقبّل هذا البشر ماحملته إليه رسالة آدم من تعاليم، فكفر به وبما جاء به وكان من الكافرين.

١ـ قصّةُ الإيمان الأوّل والكفر الأوّل :

فإن نحن انطلقنا ممّا فتحه الله تعالى على إمام زماننا، فانطلقنا نفهم قصّة آدم القرآنية على أنّها صيغت بلسان الحال وتبعاً لأصول تفسير القرآن أي محاولة التوفيق بين دلالات هذه الآيات وبين ماكشف عنه العلم الحديث. نتخلّص بالتالي ممّا تركه سفر التكوين من آثار صرفت أسلافنا عن دلالاتها. وتتجلّى لنا قصّة آدم وهي مُشكّلةً الدّليل القاطع على عظمة كتاب الله العزيز.

ألا إنّ قصّة آدم القرآنية هي قصّة أوّل إيمان وأول كفر حدث في تاريخ البشر وهيهات أن يتفق ذلك مع ماأوردته التوراة المعاصرة من أباطيل. فقصّة آدم القرآنية ترسّخ في أذهاننا أن الله الذي خلق البشر، ظلّ على اتصّال بهذا المخلوق من وراء حجاب . فكان يعلّمه عن طريق مايُريه إيّاه من منامه ليصطاد ويقطف الثمار ويوقد النار وينحت الأدوات اللازمة، ويرشده إلى مايفيده من الأعشاب

من حوله ليستشفي بها إن هو حلّ به المرض. وعلمه أن يدفن موتاه وماإلى ذلك من أمور بدائية ساعدت على تنمية قواه العقلية التي تختزن هذه المعلومات، إلى أن حان الوقت ليصطفي الله من بين هؤلاء البشر من ينقلهم نقلة تهذيب نوعية فاصطفى الله تعالى من بينهم هذا البشر الذي أطلق عليه اسماً وصفياً يلائم ماسيحققه ربّه على يديه وهو آدم كما ورد في كتاب الله العزيز.

٢ـ المقاصد الموضوعية لقصّة آدم:

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: وهل كانت لله عزوجلّ مقاصد عظيمة من وراء صياغته قصّة آدم بلسان الحال وبهذا الأسلوب المجازي؟

وجوابي الذي استنبطته من دلالات آيات هذه القصّة هو أنّه تعالى كان يرمي بذلك إلى تحقيق خمس مقاصد موضوعيّة عظيمه، بالغة الأهميّة. فما كان الله تعالى ليجليّها لنا إلاّ بعد أن يكشف العلم عمّا يساعد على فهم هذه المقاصد وماتخفي من ورائها من حقائق. ليثبت بذلك صحّة إدعائه تعالى بحق كتابه العزيز **﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون﴾** وصحّة تحديه **﴿لايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء.﴾**.

وأوجز للقارىء هذه المقاصد وأقول:

المقصد الأول: تنبيه أذهاننا إلى أنّ الخالق الرّب كان على اتّصال دائم بمخلوقه لتطويره طوراً بعد طور. وهو جلّ شأنه نبّه من خلال ماتضمنته قصة آدم إلى مايحدث في مملكة الله السماوية من أحداث عندما تقتضي مشيئته بعث نبّي ليُحدث عن طريق التعاليم التي يعلّمه إيّاها مباشرة ويزودّه بها ليُحدث بها نقلة نوعيّة في مسيرة هذا المخلوق الحياتية.

والمقصد الثاني: من وراء ذلك ليعظَ الله تعالى بهذه القصّة إلى مايتولّد عن بعثة أيّ نبي كان في الأرض من أحداث. حيث ينقسم الناس إلى مؤمن بهذا النّبي وإلىمناصرٍ لدعوته. وإلى كافرٍ بهذا النّبي وإلىمكذّب بدعوته. مع بيانٍ عاقبة كلّ فريق من هؤلاء وهؤلاء.

والمقصد الثالث: الذي رمت هذه القصّة إلى تحقيقه هو تنبيه الأذهان إلى أنّ الله عزوجل الذي يتجلّى في هذه الحياة الدنيا بصفته الملك الذي سنّ لتسيير مملكته الدنيوية قوانين طبيعية ثابتة. يعود يتجلّى عند إرادته بعث أي نبّي

كان بصفته المالك يفعل مايشاء فعله ليثبت من خلال ذلك أنّه هو الخالق الرّب الفعال لما يريد.

والمقصد الرابع : الذي أراد الله تفهيمنا إيّاه من خلال ماتضمّنته قصّة آدم المُصاغة بلسان الحال ، أن يُعلّمنا أنّه تعالى خلقنا في عالمنا المادي الحاضر أحراراً ليمتحننا، خلقنا أحرار الإرادة وأحرار التفكير وأحرار العمل والتّصرف. فهذا مايقتضيه وجودنا في هذا الطّور الأوّليّ على طريق حياة الخلود.

والمقصد الخامس من صياغة قصّة أدم بهذا الأسلوب كان تلقين هذا الإنسان درساً عظيماً لاينبغي له أن يغرب عن باله، ليساعده على التّمييز به بين مفاهيم التهذيب ومفاهيم المدينة والحضارة. فيدرك بالتالي أنّ لاقيمة لحضارة لاتستند إلى تهذيب. وأنّ عمليّة تهذيب الإنسان يعجز عن أدائها إلاّ الخالق الرّب الذي خلق هذا الإنسان والذي يَعْلَمُ ماتُوَسوس به نفسه ويعلم سرّه وجهره وماتخفي الصدّور.

ولاينبغي للقارىء أن يظنّ بأني اختلقت هذه المقاصد الخمسة الكبرى من مخيلّتي. بل ليعلم أني استنبطتها من بين ثنايا ماتضمنته الآيات الكريمة التي روت لنا قصة آدم عليه السلام.

وممّا حمله إلينا أسلوب صياغتها البلاغي المعجز الذي تحدّى الله عزوجلّ به أعاظم أدباء وشعراء الجنّ والإنس وعلى مدى الدهر أيضاً. ويكفي القارىء دليلاً قاطعاً على عظمة صياغة هذه القصّة أنّها وردت على صورة لم ينكشف ماتضمنته من حقائق إلاّ بعد أن كشفت الآثار عن حقائق تاريخ البشر نفسه.

هذا وإني سأوضح للقارىء معالم هذه المقاصد الخمس الكبرى من خلال ماتضمنته صياغة الآيات التي حملتها إلينا قصّة آدم وماأحدثته بعثته من نقلةٍ نوعيّةٍ في حياة سكان الكهوف، الذين كان خالقهم يكلّمهم من وراء حجاب. علماً بأنّ قصّة آدم وبعثته تعود إلى مابين ثمانية إلى عشرة آلافٍ من الأعوام. وهذه المعلومة استقيتها من مصدرين معتمدين علمياً : المصدر الأول هو التواريخ التي ذكرتها التوراة المعاصرة، وهي تحتمل الزيادة والنقصان، والمصدر الثاني هو دليل علميّ. فقد دلّت آثار البشر القديم على أن تاريخه المعروف لدى المؤرخين يعود إلى ماقبل (٨٣٠٠) عام.

من هذا نُدرك أنّ بعثة آدم التي أسّست تاريخ الإنسان المعاصر لابدّ وأنّ تاريخها يعود لزمن يتراوح مابين المدّتين اللتّين أفادتنا بهما التوراة وهذه الآثار.

٣ـ قصّة آدم من الزاوية الموضوعيّة

والآن تعالى معي أيّها القارىء لنتدبّر قصّة آدم من المنطلقات التي ذكرناها. من مُنطلق أنّ آدم كان أول نبي اصطفاه الله تعالى من بين سكان الكهوف ليُحدث عن طريق ماأنزل عليهربّه عزّ وجلّ من تعاليم هذه النقلة النوعيّة في حياة البشر. ومن مُنطلق أنّ قصّة آدم قد صيغت بأسلوبٍ مجازي وبلسان الحال وليس بلسان القال. ولنقسّم مضامين آيات قصة آدم إلى مجموعات. مجموعةٌ مايتعلّق بإبليس وأقوله بلسان حالة. ومجموعة مايتعلّق بآدم عليه السّلام. ومجموعة مايتعلّق بملائكة الله عزوجلّ. ومجموعة مايتعلّق بالله جلّ شأنه الذي صاغ قصة آدم هذه الصياغة البلاغية المعجزة أيضاً.

٤ـ أقوال إبليس بلسان حاله :

نتناول إبليس وماصدر عنه من أقوال بلسان حاله ومجازياً. فقد نقلت لنا الآية (١١) من سورة الأعراف أنّه قال: ﴿**قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين.**﴾. ونقلت لنا سورة الحجر الآية (٣٣) قول إبليس : ﴿ **قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصال من حمأٍ مسنون.**﴾.

وسورة الإسراء نقلت لنا في الآية (٦١) من آياتها قولاً ثالثاً لإبليس وهو : ﴿ **قال أأسجد لمن خَلَقْتَ طيناً** ﴾ والآية (٥٠) من سورة الكهف معلومة عبّر تعالى عنها بقوله عزوجلّ: ﴿**إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ، بئس للظالمين بدلاً.**﴾.

أما سورة (ﷺ) فقد أوردت في الآية (٧٤) من آياتها قولاً رابعاً لإبليس: ﴿**قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين.**﴾.

فلو أنّ قصّة آدم قد رواها لنا كتاب الله العزيز بلسان كل طرف من أطراف القصّة، فهل يستسيغ عقل المرء أن يقول الله عزّ وجلّ بحق آدم تارة أنّه خلقه من طين، وتارةً أخرى أنّه خلقته من صلصالٍ من حمأٍ مسنون؟ وفي مجلس

واحد؟ أفلم يطالع القارىء فرق دلالة الطين عن دلالة الصلصال؟ إلاّ أن تكون هاتين الجملتين لكل واحدة منهما دلالته المتعلّقة بسياق الكلام، وأنّهما وردتا بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان حال إبليس وليس بألفاظه؟

ثم أفلم يلاحظ القارىء كيف أنّ إبليس الذي قال في سورة الأعراف ﴿**خلقتني من نار**.﴾ فلم لم يكررهما في مقام آخر بألفاظٍ مغايرة ؟

فإن نحن انطلقنا للإجابة على هذه التساؤلات من المنطلق الذي انطلق من أسلافنا فلن نعثر على إجابات صحيحة وشافية على هذه الإعتراضات. أمّا إذا انطلقنا من المنطلقات التي ذكرناها، وهو أنّ هذه الأقوال أوردها القرآن الكريم بلسان الحال وليس بلسان القال فإنّها تتضّح لأعيننا حقائق دلّنا عليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، وجاءت التحريّات العلمية تؤكد ماتضمّنه كلام الله علاّم الغيوب.

فإبليس عندما قال بلسان حاله ﴿**خلقتني من نار**﴾ كان القصد من ذلك التّنبيه إلى طبيعة التوحّش الناريّه التي كان يحياها سكان الكهوف ماقبل التاريخ أي زمن بعثة آدم عليه السّلام. فقد كان الواحد من البشر ناريّ الطبيعة بسبب توحّشه وخلوّه من التهذيب والتحضّر ويتصرّف بردود الفعل. ولم تكن تصطبغ تصرّفاته بعقلانية أو تهذيب. فجملة ﴿**خلقتني من نار**﴾ وردت ليس على سبيل الحقيقة من أنّ إبليس كان مخلوقاً نارياً كما يتبادر لذهن السّامع لأوّل وهلة. بل وردت جُملة (خلقتني من نار) بمعنى مجازي. بدليل أن الله تعالى قال بحق آدم ﴿**إنّي خالق بشراً**﴾ أي إنّي خالق إنساناً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة التهذيب والإنسانية وهو بحاجةٍ إلى تسوية طبعه وسلوكه.

وقد قال تعالى من جهة أخرى ﴿**إنّ الله اصطفى آدم**﴾ فالخلق هنا بمعنى التقدير والاصطفاء ذلك أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً. أي أن الله تعالى اصطفى بشراً من بين سكان الكهف الذي كان قاطنوه ذوو طبيعة نارية أبعد ماتكون عن التّهذيب والعقلانية. وكان القصد من اصطفاء الله هذا البشر، آدم، لتسوية طبعه عن طريق توجّه تجليّات وتمثلات أسماء الله الحسنى إليه من وراء حجاب. فإذا جاء آدم على قدرٍ يريد الله تحقيقه، على شاكله ماخاطب به موسى وقال ﴿**الآن جئت على قدرٍ ياموسى**﴾، إذا بلغ آدم مرحلة التّسوية هذه

ينفخ فيه من روحه أي من تعاليمه الرّوحيـة والأخلاقيـة، ليكـون طليعـه تهذيـب البشر من حوله، ليتمايزوا بذلك عن الأنعام من حولهم أيضاً.

فجملة ﴿**خلقتني من نار**﴾ تحمل حقيقـة أثبـت صحّتهـا ماكشـف عنـه علم المستحاثات بما يتعلّق بالبشر ماقبل التّاريخ. فلفظ ﴿**من نـار**﴾ اسـتعمل هنـا بدلالتـه المجازيـة، وليس بدلالتـه الحقيقيـة، فللنّـار خاصيّـة التّمـرد والإتـلاف، ولاتستعمل بمعنى البناء والإعمـار. وقـد كـان القصـد مـن بعثـة آدم بعـد تسـوية طبيعته، أن يصبح أسـوَةً عمليّـة للبنـاء والإعمـار، بعـد أن كـانت طبيعتـه شـأنها التمـرّد والإتـلاف. أي أنّ الله عزوجـلّ أراد أن يفجّـر طاقـات البشـر العقليّـة والعضليّة بهذا الإتجاه الذي ينقله نقلةً نوعيّة فيهذّبه ويُؤنسنه أي ينقله من بشرٍ إلى إنسان. فهذا هو المقصد الإلهـي الـذي اسـتنبطته مـن قـول إبليـس وبلسـان حالـه ﴿**خلقتني من نار**﴾.

فلقد ثبت علمياً أن عقل الإنسان ويداه تحمل مـن الطّاقـات مايسـتحيل تفجير هذه الطّاقات في زمنٍ واحد. بل لابد من تمريـر عقـل الإنسـان ويـداه مـن خلال أدوار كثيرة تتطلّب ملايين السّنوات. فالإنسان بالرّغم من بلوغه في زماننـا هذا المستوى من الرّقي العلمّي فقد ثبت علمياً أنّه لايستعمل من طاقاته العقلية إلاّ اليسير. هذا وإنّ قصة آدم، وبلسان حال إبليس ﴿**خلقتـني مـن نـار**﴾ نبّهـت إلى هذه الحقيقة التي كشف عنها العلم وتشـير في الوقـت نفسـه إلى أنّ الله عزوجـلّ هو الذي بعث آدم لينقل البشر عن طريق ماأنزل عليه من تعاليم نقلـةً نوعيـةً مـن حالته النّارية إلى حالةٍ طينيّة. فالبشر قبل آدم احتاج إلى ملايين السّنوات ليكتمـل نموّ طاقاته العقلية والعضلية. فلمّا بلـغ حالـة النّضـج المطلوبـة بعـث الله تعـالى آدم واصطفاه من بين البشر ليقوم بإحداث طورٍ جديد فيحياة هذا البشر .

فهذا هو أحد المقـاصد الكـبرى الخمسـة المرجـوة مـن صياغـة قصّـة أدم بلسان الحال وبأسلوبٍ مجازي. والله عـلاّم الغيـوب شـاء بذلـك أن ينبّـه أذهـان علماء القرن العشرين إلى الجواب الشّافي على سؤالهم الـذي مـافتئوا يطرحونـه في مؤلّفاتهم. وهو : كيف تمّ انتقال البشر من حالة التوّحش إلى سنّ الرّشـد؟ ذلـك أنّ علماء أوربـة المعـاصرين طرحـوا هـذا السـؤال وحـاولوا الإجابـة عليـه ضمـن عشرات مؤلّفاتهم. فهـم قـد وضعـوا نظريّـات ونظريّـات للإجابـة علـى السـؤال المذكور. لكن أيّاً من هؤلاء العلماء لم يستطع أن يجزم بجوابٍ تركن إليه العقـول

وتطمئن إليه الأفئدة. لماذا؟ السّبب في ذلك أنّهم يفكّرون في هذا المجال الغيبيّ بأسلوب بتفكير مادّي محض. حاذفين من معادلاتهم وجود الخالق، وموضوع اتّصاله بمخلوقه البشر في مختلف أدوار حياته ومن منطلق أنّه الخالق وربّ العالمين.

على حين أنّ قصّة آدم القرآنيّة المصاغة مجازياً وبلسان الحال قد أجابتهم إجابة قاطعة الدّلالة على هذا السؤال الذي طالما شغل أذهان هؤلاء العلماء.

فإبليس في هذه القصّة يرمز إلى الإنسان غير المهذّب بتهذيبٍ سماويّ. وإذا أعمل هذا الإنسان فكره، فهو يفكّر بأسلوبٍ مادّي محض لايخالطه أيّ عُنصر روحّي مُستقى من تعليم سماوي. أمّا شخصيّة آدم عليه السّلام في هذه القصة فترمز إلى الإنسان المهذّب بتهذيبٍ سماويّ. هذا الإنسان الذي إذا أعمل فكره، فهو يفكّر بأسلوبٍ روحانيٍّ يُخالطه مااستقاه هذا الإنسان من تعاليم الدّين السّماوي. أي أنّه يُفكّر على أساس مُعتقداته الإيمانية ومُنطلقاتها النظريّة.

فالمسلم على سبيل المثال، إن فكّر في أمر تكوين أي شيء من الأشياء، يدقّق نظره في تكوينه هذا الشيء من منطلق إيمانه بوجود خالق هذا الشيء، وأنّه لابدّ أن يكون الله تعالى قد خلق هذا الشيء لمقصدٍ معلوم، ومثل هذا المسلم بإمكاننا أن ندعي أنه يفكر بتفكير روحاني، وأنه مهذّب بتهذيبٍ سماوي.

أي أنّ الذي يفكّر ماديّاً ينظر إلى الأشياء بظواهرها. على عكس الذي يفكّر تفكيراً روحانياً لايقع في هذا المطبّ المُوحل. ويكون منطلق تفكيره أعمق من ذاك الإنسان بكثير. هذا وقد حذّرنا الله عزوجل في سورة الكهف الآية (٥٠) من أصحاب التفكير المادي، وهم إبليس وذريّته، ومن تولاّهم من البشر، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس، كان من الجنّ، ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني، وهم لكم عدوّ، بئس للظالمين بدلاً**﴾. فالله عزوجلّ نبّه أولاً إلى أنّ إبليس كان من الجنّ أي كان من سكان الكهوف وكان في حالةٍ غريزيّةٍ أقرب إلى التّوحش. ونبّه ثانياً إلى أن إبليس فسق عن أمر ربّه واستحقّ بذلك لعنته، بسبب تجاهله وجود ربّه وتجاهل المقصد من وجود نفسه فلم يتهذّب بالتهذيب الذي بُعث الله آدم ليهذبه به وينقله طوراً نحو أنسنته. ثالثاً ــ وحذّر الله تعالى الذين آمنوا بآدم ومن سار على خطاهم من بعدهم من بني آدم ، أي حذّر الله تعالى أبناء آدم الروحانيين تجنّب الخطّ المادي الذي اختطّه إبليس وذريّته كأسلوب

لتفكيرهم، فلاينبغي لهم أنّ يتخذونهم أولياء من دون الله عزوجلّ، بل إنّ من واجبهم أن يكون جُل همّهم أن يتولاّهم الله تعالى بعنايته. كما نبه الله تعالى أذهان بني آدم إلى العداوة الفكريّة المستأصلة مابينهم وبين ذريّه إبليس وذريّته غير المهذّبين بتهذيبٍ سماوي، فهم لهم عدّو.

وقد نبّه جل شأنه من جهة خامسة إلى أنّ المؤمن الذي يستبدل توحيد الله تعالى بالشرك به والجحود بوجوده ويسير على خُطى ابليس وذريته، أنّ الذي يفعل ذلك يظلم نفسه وبئس للظالمين بدلاً.

إنّ هذا الصّراع الفكري المتأتي عن هذين الأسلوبين المختلفين في التفكير المادي منهما والرّوحاني والذي أشارت إليه قصّة آدم، يعني بألفاظٍ أخرى أنّه لولا اتّصال الله بمخلوقاته البشر وتدخّله في شؤونه منذ ابتداء تاريخ هذا البشر، لظلّ الناس أمّة واحدةً لايلوون على شيء. وهو الأمر الذي أشارت إليه الآيات (٢١٢ ـ ٢١٣) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها: ﴿**زُيّن للذين كفروا الحياةُ الدّنيا، ويسخرون من الذين آمنوا، والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب، كان الناس أمّة واحدة، فبعث الله النبيّين مُبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ، ليُحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وماختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ماجاءَتهُمُ البيّنات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.**﴾.

وهذا الصّراع الفكري الذي نشأ عن بعثة آدم كأوّل نبّي أشارت إليه الألفاظ التي نطق بها إبليس بلسان حاله، ففي سورة الإسراء قال: ﴿**قال أرأيت هذا الذي كرّمت عليّ، لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكّن ذريّته إلاّ قليلا.**﴾. فألفاظه ﴿**هذا الذي كرّمت عليّ**﴾ أي هذا الذي عظّمته ونزّهته (محيط المحيط) ولفظ (كرّمت) هذا كرره تعالى في نفس سورة الإسراء بعده بعدّه آيات وقال: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم..**﴾ أي عظّمناهم عمّا وقع فيه ابليس وذريته، فلم يقل تعالى هنا (ولق كرّمنا البشر) أو الإنسان بل كرّمنا بني آدم. وحكمة ذلك واضحة الدّلالة.

أقول إنّ بروز هذين النّمطين من التّفكير ومالحق ذلك من صراع بين ذرية آدم وذريّه إبليس مرجعه إلى أنّ آدم وذريّته هذّبهم الله تعالى بما أنزله عليهم

من تعاليم كرّمتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبغة فعظّمتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس مرجعه إلى أنّ آدم وذريّته هذّبهم الله تعالى بما أنزله عليهم من تعاليم كرّمتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبغة فعظمتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس وذريّته من سقطاتٍ في مُستنقع الشرك والجحود بوجود الله عزوجلّ.

٥ـ الفرق مابين مفهومي الحضارة والتهذيب موضوعيّاً :

وأرى من المناسب في هذا المقام أن أعمد إلى إعطاء القارىء مايساعده على التّمييز بين مفهوم التهذيب، وبين مفهوم الحضارة والمدينة. وليتمكّن من إدراك معالم النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة آدم في حياة البشر في نهاية الفترة التي كان البشر خلالها يقطنون الكهوف والمغاور ويتخذون مابين أعضان الأشجار الضخمة مأوىً لهم من هجمات الوحوش الكاسرة آنذاك.

فإن أحبّ القارىء تمكينه من هذا التفريق مابين مُهذّب ومتحضّر. فما عليه إلاّ أن يتأمل مايجري من حوله في عصرنا هذا، ومانتقله إليه وسائل الإعلام من أمور. أفلا تصل إلى مسامعه اصطلاحات عديدة فيقولون أوربا شعوبها متحضّرة، أما شعوب آسيا وافريقيا فشعوبها متخلّفة؟ وتسعى للحّاق بركب حضارة الغرب. وأنت تسمع من جهة ثانية أنّ أكثر أنظمة دول الغرب قد تبنّت العلمانية منهجاً وتركت أمر الدين للإنسان بصفته الشخصية. أي أنّ أوربه وأمريكا لاترتبط حضارتهما بالمسيح ابن مريم إلاّ بالإسم، وإن تعاليم المسيح منهم بُراء لذلك أطلقت أحاديث محمد رسول الله (ﷺ) عليهم اسم المسيح الدّجال. فهم يدعُون في كنائسهم بالدّعاء الذي علّمهم إياه المسيح: (أبانا الذي في السماوات آتنا كفافنا..). فلما ترقب مايسعون إليه تُلاحظ أنهم يجعلون همّهم تكديس الأموال وأن يصبحوا يملكون ملايين الملايين من الدولارات.

فما هي دعائم هذه الحضارة المعاصره؟ تقوم حضارة الغرب على العمل ووحداته ومقاييسه، وعلى ماينتج عن ذلك من كشوفٍ واجتهاداتٍ ومخترعات ووسائلَ تسهّل على النّاس أعمالهم وهم يتقدّمون على طريق تفكيرٍ مادّيٍ محض،

ودعم نظامٍ رأسمالي. فحضارة الغرب إذن جلّ همّها الانتاج ومقداره ووفرته. ومايلحق به من تطوير أدوات النقل من سيّارات إلى قطارات إلى مراكب بخارية وطائرات..

كما اعتمدت حضارة الغرب هذه نظاماً مالياً يساعد على تداول أموال الأفراد فيما بينهم داخل البلد الذي يقطنونه وخارجه. إلى جانب أنّ حضارة الغرب هذه قد سنت دساتير تحمي أنظمتها وقوانين تنظّم وحدة العمل ووسائل الإنتاج وأُطُره وأدواته، وحرفه وصناعاته، دون الرجوع في ذلك كلّه إلى تعاليم سماويّ محدّد. وركّزت هذه القوانين على حماية مؤسّسات البحث العلمية لترقية العلوم الطبيعيّة في حقل المادّيات، وليس من مُنطلق تفكير روحاني. وقد أنشأت حضارة الغرب جيوشاً سلّحتها بأبشع الأسلحة الفتّاكة، وأنظمة أمنٍ لاتتقيّد بمعايير أخلاقية سماوية كل ذلك لتأمين حالة الاستقرار في نطاق حدودها، ولتزيد في رفاهيّة شعوبها، حاذفة من معادلاتها الحضارية أيّ تهذيب سماوي. لذلك لايُلاحظ المتجوّل في ربوع الدّول الغربية أيّة دلائل تشير إلى أن الشعوب الغربية قد أدركت المقصد من وجودها على سطح هذا الكوكب الأرضي. فحياة حضارة الغرب مجرّد لعبٍ ولهوٍ وتفاخرٍ وزينةٍ وتفكيرٍ بأسلوبٍ مادّيٍ محض. ألا إنّ مثل هذه الحضارة لاعلاقة لها بمفهوم التّهذيب الذي أوردناه. فالغرب متحضّر لكنه غير مهذّب بتعاليم أنزلها رب العالمين. خصوصاً وأنّ كلمة حضارة هي مصدر تعني الإقامة في المدن وليس في البادية. بعكس البدويّ يعيش في البادية حياة ترحال. (محيط المحيط). فالإنسان المتحضّر من حيث دلالته اللّغويّة هو الإنسان المستقرّ في المدن والرّيف، والمتقدّم على البدويّ في مجالات مسكنه وماًكله ومشربه ووحدة عمله ووسائل إنتاجه وتنقّله ونظامه المالي والسياسي وسواه من الأنظمة. وبهذه المعايير يُقاس تحضُّرُ شعب من الشعوب أو تخلّفه في مجالات الصناعة والزراعة والعلوم والمنتجات الاستهلاكية. وهذا كلّه لايدخل أصلاً في مفهوم التّهذيب الذي أوردناه.

فالتهذيب لُغةً مشتقٌ من هذّب الشجر قطعه ونقّاه وأصلح أغصانه (محيط المحيط). فالتهذيب هو عمليّة تشذيبٍ وتسويةٍ للقوى النفسيّة التي تحملها الفطرة البشرية. هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها بغضّ النظر عن ألوانهم وجنسياتهم ولغاتهم وقوميّاتهم. علماً بأنّ ماهيّة هذه الفطرة البشرية من

ماهيةٍ لانعلمها إلا بآثارها. كالمغناطيس لايعرف إلا بالأثر الذي يتركه على برادة الحديد من حوله. وهذه الحقيقة تؤكّد لنا أنّ مهمة اصلاح نفس الإنسان وتطويره يستحيل أن يؤدي حقّها إلا الله خالق هذه الفطرة البشرية. فإن أهملنا مازودّنا الله الخالق به من تعاليم على هذا الصعيد، ورُحنا نفكّر بتفكيرٍ مادّيٍ محض وبمعزلٍ عن هذه التعاليم السماوية. فلا نبلغ مرتبة التّهذيب النفسي الذي يقوم به وحيُ السّماء.

فمفهوم التّهذيب الذي ذكرناه، هو عملية إصلاحٍ للنّفس البشرية وتفجيرٍ لطاقات الإنسان العقلية والعضلية عن طريق هذه التعاليم السماوية التي اختُتمتْ بهذا الكتاب السّماوي الذي وُصف بأنّه قرآن وفرقان. وبالتعاليم الأولى التي أُنزلت من قِبَلِ الله عزوجلّ على آدم عليه السّلام. أيّ أنّ الحضارة بغير تهذيبٍ هي بمثابة جسدٍ بلاروح. وهل يغني جسدٌ أُوتي بسطةً وجمالاً، إذا فارق روحه؟ فهذا هو حال الحضارة الغربية المعاصرة جسد بلا روح. تبهر بما أنتجته الأبصار، لكنّ ذلك كلّه بمجرّداً عن روح التهذيب بتعاليم أنزلها الباريء عزوجلّ. لذلك راح العالم يئنّ من وطأة ماأنتجته حضارة الغرب. فلا عدالة ولاكيل بمكيالٍ واحد ولااحترام لمشاعر الآخرين.

امّا التّهذيب والحال هذه فهو مجموعة الأفكار والتصّورات والأخلاقيات والروحانيات التي أتى بها دينٌ سماوّي. وبإمكان حامل هذا التهذّيب أن يُؤسّس على قاعدته الفكرية حضارةً تصبح مضرب الأمثال.

ألا إنّ الإنسان البدويّ الذي يعيش متنقّلاً من مكانٍ إلى مكان في البادية. هذا البدوي الذي ينتقل حذاءً صنعته يداه من جلود ماشيته. والذي يرتدي رداءً خشناً غير مراعٍ فيه ماتأتي به أزياء المناطق المتحضّرة. إنّ هذا الإنسان الذي سُميه بدويّاً نسبةً إلى حياة البداوة الصحراوية. فلو استجاب هذا البدوّي للتعاليم والأفكار التي يزودّها به كتاب الله الفرقان، وسعى سعيه لعرفان ربّه وللفوز بمحبته وقربه ورضوانه واتّصف بمكارم الأخلاق.

فهذا البدويّ في مفهومنا مهذّب لكنّه غير متحضّر. أي أنه روح ينقصه جسد. والذي طالع تاريخ بعثة محمد (ﷺ) لابدّ أن يكون قد أدرك أنّ محمّداً عليه الصلاة والسلام هذّب أمّته الأميّة بتهذيبِ تعاليم ماأنزله الله تعالى عليه من

وحي سماوي. فشكّل بذلك قوّة لم تصمد في وجهها حضارتا فارس وروما العظمتين. ذلك أنّ الرّوح أقوى من الجسد ولاقيمة لجسدٍ بدون روح. ويكون الانتصار والغلبة دوماً لديناميكية الحركة التطويرية التي يقوم بها التعليم السماوي على مدى الدّهر.

فالمهمة الأساسية لبعثة الأنبياء والمرسلين وممّا يُنَزّلُ الله تعالى عليهم من تعاليم سماوية، هو قيامهم بتهذيب النفس البشرية وتزكيتها وتفجير طاقاتها العقلية والعضلية بما يتناسب والطّور الذي بلغه الإنسان في زمن من تاريخه الطويل. فإن انطلقنا ننظر إلى ماجاء به آدم وماقصدته قصّة المجازية من مقاصد عظيمة، وإلى النقلة النّوعية التي شاء لخالق إحداثها في حياة البشر الأقرب إلى التوحش والذي كان يقطن المغاور والكهوف. إن نحن نظرنا بهذا المنظار إلى قصّة آدم يعود بإمكاننا إدراك أبعاد النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة خاتم النبيين في حياة العرب الأميين.

فبعثة محمدٍ (ﷺ) وإنزال تعاليم القرآن الكريم حوّلت أنظار الإنسانية ودفعتها دفعاً لتبيّن أنموذج الإنسان الكامل التّهذيب، والذي أضحى رحمةً للعالمين، والذي فجّر طاقات أُمّتنا العربية العقلية منها والعضلية في صدر الإسلام وعلى صورة أدهشت الباحثين والمفكرين والمؤرخين.

لذلك لاينبغي لقارىء قصّة آدم القرآنية أن يدهش لسماع إبليس يقول بلسان حاله : ﴿**خلقتني من نار**﴾ وقوله بحقّ آدم ﴿**هذا الذي كرّمت عليّ**﴾. فقد صيغت هذه الأقوال بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، وليس بلسان القال، هذه الصيّاغة لتُعطي المفكّر الباحث درساً بالغ الأهمية تختفي وراءه أحد المقاصد العظيمة الخمسة المرجوّة من قصّة آدم عليه السّلام المُصاغه مجازياً وبلسان الحال. ويتلخّص هذا الدّرس في أنّ تفجير طاقات الإنسان العقلية والعضليّة مهمّةٌ مرتبطةٌ ارتباطاً عُضوياً بالتهّذيب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوةٍ على هذا الدّرب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوة على هذا الدّرب لم تستند إلى دعامة هذا التهذيب، تنقلب في نهاية المطاف وبالاً وبلاءً على أصحابها، فهذا ماأيّده منطق تاريخ الحضارات السّالفة كما هو ثابت في كتب التاريخ، فالتفكير المادّي المحض يفيد في تفجير طاقات عقليّةٍ وعضليةٍ، ويساعد على تأسيس حضارة، لكنّ شيئاً من ذلك لن يدوم بل لابدّ أن يؤول

الأمر أخيراً إلى الدّمار والزّوال لتصادم تلك العمليّة مع القانون القدريّ. فهذه هي خلاصة موضوع المقصد الأول العظيم من قصّة آدم عليه السلام.

٦ـ المقصد الثاني الكبير لقصّة آدم :

أمّا المقصد الثاني الكبير الذي ابتغاه الله جل شأنه من وراء صياغته قصّة آدم عليه السّلام هذه الصيّاغة المجازية وبلسان الحال. فهو تنبيه عقل الإنسان إلى أنّ الله الذي خلقه، لم يخلقه مُسيّراً، بل خلقه حُرّ والإرادة والتفكير والتّصرف والسّلوك. وهذا المقصد الكبير الثاني دلّنا عليه أقوال إبليس بلسان حاله في ثلاث سور هي الحجر والأعراف وسورة (ﷺ). فإبليس ورد قوله في هذه السّور: ﴿**قال ربّ فأنظرني إلى يوم يُبعثون.**﴾. وكان جواب الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿**قال إنّك من المُنظرين**﴾ وفي سورتي الحجر و (ﷺ) : ﴿**قال فإنّك من المُنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم.**﴾. والذي فهمه أسلافنا من العلماء والمفسرين لهذه الأقوال هو أنّ ابليس استمهل ربّه، فأمهله إلى يوم الدّين. والحقيقة تختلف عمّا تبادر لأذهان أولئك العلماء والمفسرين.

فإبليس طالب بفسُحة تأمّل وتجربة على أساس تفكير مادّي محض. والله عزوجلّ نبّه ذهنه إلى أنه جلّ شأنه لايُكرّه أحداً في الدّين. فمنّ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وحذّره في الوقت نفسه من عاقبة اللّعنة التي تحلّ بالذي يختطّ خطّ تفكير ماديّ بمعزل عن تهذيب تعاليم الدّين.

إنّ لفظ أنظرني اشتق من نظر بمعنى أبصر وتأمّل بعينيه. وعليه فمعنى (أنظرني) أي افسح لي مجال التبصّر والتأمّل الشّخصي، وبأسلوبي المادي لاتّخذ قراري المُستقل عن قرار آدم الذي قبل أن تَحُدَّ تعاليمُك من حريّته، فَأَنْظُرُ بالتّالي وأوازن بين مايحققه آدم ومأأحققه أنا شخصياً في مضمار التّقدم وتفجير طاقاتي العقلية والعضلية. وأفلا نلاحظ أنّ مفعول (أنظرني) هو كيان إبليس الحّي؟ فلو قلت : أنظرني دَيْنَك. فالدّين مادة، والمقصود حينئذٍ يكون طلب الإمهال مدّة من الزّمان. أمّا وقد كان مفعول (أنظرني) هو إبليس نفسه وهو كائن حيّ، فلايكون المراد في أنظرني إلا طلب السّماح بالتّبصر والتأمل بأسلوب تفكير مادّي وليس بأسلوب تفكير روحاني، ومن منطلق قول ابليس من قبل : ﴿**خلقتني من نار**﴾ أي خلقتني من طبيعة حُرّة لاترضخ للقيود.

ثم إنّ جواب الله تعالى يؤيّد هذا المعنى الذي ذهبت إليه. فالله تعالى قال: ﴿**إنّك من المُنظرين**﴾ و لم يقل "أمهلتك". فمن هم (المُنظرين)؟ ولماذا عرّف الله تعالى لفظ (المنظرين) بالألف واللاّم؟ فهذا سؤال وجيه لابدّ من الإجابة عليه.

ففي نظري أنّ صيغة ﴿**من المُنظرين**﴾ قُصد بها النّاس كافّة. أي أنّه تعالى أيّد قول إبليس من أنّ الإنسان خُلق حُرّ الإرادة والتفكير والسّلوك. فالبشر جميعهم من المُنظرين، أي مفسومح لهم مجال التبصّر والتأمل إتخاذ القرار الشّخصي فهذه الصّيغ المتمثّلة في طلب إبليس وفي جواب الله عليه هي صيغٌ مجازيّةٌ وبلسان الحال، وتقرّر حقيقةً أساسيّةً وهي أنّ الإنسان خلقه الله ربّه عزوجلّ حرّاً غير مُسَيَّر في نطاق تفكيره وسلوكه، وليس خارج هذا النّطاق، فهذا هو المقصد الثاني المُتبقى تلقين أذهاننا درسه العظيم. وهو يفسّر قوله تعالى في سورة الدهر ﴿**أنا خلقنا الإنسان من نطفه أشاج نبتليه**﴾ أي خلقناه حرّاً نمتحنه ليتأمل ويتبصر ويتخذ القرار.

بهذه المعاني يستقيم تسلسل آيات قصّة آدم الموضوعية، وليس بالمعاني التي ذَهَبَتْ إليها أفكار المفسرين القدماء. وأيّ داع يدفع إبليس ليطلب من ربّه أن يمهله إلى يوم الدّين؟ فسياق طلب إبليس لم يشتمل على تهديدٍ إيّاه بعذابٍ محدّد الأبعاد. بل إنّ كلّ ماقاله جل شأنه بلسان الحال والقرار في سورة الأعراف : ﴿**فاخرج إنّك من الصّاغرين.**﴾ وفي سورة (ﷺ) : ﴿**قال فاخرج منها فإنّك رجيم. وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين.**﴾. فهو تعالى استعمل في هاتين الآيتين لفظين متقاربي المعاني والدلالات. فكلمة ﴿**من الصاغرين**﴾ أي من المُهانين الرّاضين بالذل. فهي اشتُقت من صَغُر أي هان ورضي بالذلّ. ثم إن كلمة ﴿**عليك لعنتي**﴾ أي تُحرم من الخير وتُخزى وتُسبّ وتحتقر. فاللعنة اشتُقت من لعنة أي حرمه من الخير وأخزاه وسبّه واحتقره (محيط المحيط). هذا وإنّ مُؤدّى هذين اللفظين واحد على حسب مالاحظناه. ولاتحمل هذه المعاني أيّ تهديدٍ بضربٍ أو احراق بنار. وإلى جانب ذلك فالله تعالى قال ﴿**عليك لعنتي إلى يوم الدين**﴾ أي لاأهدّدك بأيّ عذابٍ مادي إلى يوم الدين.

ومادام الأمر كذلك فلم يكن هناك أي داعٍ موضوعي يدعو إبليس ليتمهل من ربّه إنزال عذابه عليه. وهذه الحقيقة تشكّل في حدّ ذاتها قرينةً تؤيد ماذهبت إليه من معنى، وتردّ ماذهب إليه ذهن المفسرين القدماء.

والصَّغارُ واللّعنة بالمعاني التي أوردها صاحب محيط المحيط أعلاه. تنطبق على عاقبة كل من يسير على خطى إبليس وينتهج لنفسه خطّ التفكير بأسلوبٍ مادّي محض. بعيداً عن مخالطته بأيّ عنصرٍ روحيّ تضمنته تعاليم أي دين سماوي. وهذه الحقيقة أيّدتها أحداث التاريخ. فقد ذلّ وهان وخسر واحتقر وحُرم من الخير كلّ من انتهج في تاريخ الإنسانية هذا النّهج من التّفكير المادّي فرداً كان أو جماعة من الجماعات. فأين فرعون والمصير الذي آل إليه؟ وأين أبو جهل ومصيره المشؤوم؟

فلو كان إبليس قد طلب من ربّه تأجيل لعنته إيّاه. لكان لايحقّ لإحدٍ من المؤمنين شتم إبليس وذريته أو سبّه واحتقاره والدعاء عليه بحرمانه من الخير. على حين أنّ المعاني التي ذهبت إليها، تبقي لُحَاق الصَّغار واللّعنة بإبليس وذريّته.

وهكذا يتضح لأعيننا هذا المقصد الثاني العظيم الذي قصده الله جلّ شأنه من خلال صياغته جل شأنه أقوال إبليس والتعقيب عليها بصياغة مجازيةٍ وبلسان الحال، وهو التّذكير بأنّ الله عزوجلّ خلق الإنسان حُرّاً مُخيّراً على التفكير بأسلوبٍ روحاني إن كان يبتغي أن يُؤْتى في الآخرة كتابه بيمينه، ونهاه وحذّره من التفكير بأسلوبٍ مادّي محض وإلاّ فسيعود صاغراً تحلّ عليه لعنة خالقه، ويوم القيامة يؤتى كتابُه بشماله أيضاً ويحيا هنا أعمى تتناوشه نيران النّدامة والعذاب.

٧ـ المقصد الثالث لقصّة آدم :

والمقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه الله جلّ شأنه من وراء صياغته قصّة آدم بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحال، هو تنبيه عقول المؤمنين وتحذيرهم أينما كانوا وفي أيّ زمانٍ تواجدوا، من خطر اقتفاء خُطى إبليس وذريته وأسلوبه الحياتي ونهج تفكيره المادّي. فإن فعلوا ذلك يصدّقون ظنّه بصورةٍ عملية ويخسرون قرب ربّهم ورضوانه.

فالمعلوم أنّه كلّما بعث الله رسولاً ليطّور عن طريقه عباده وينقلهم إلى طور جديد. ينقسم الناس أيّام بعثة هذا الرّسول إلى فريق مؤمن وفريق كافر. والذّي يتدبّر كتاب الله العزيز يُلاحظ أن الله تعالى اصطلح للفريق المؤمن خطاب (يابني آدم). والمقصود بهذا الخطاب كلّ مؤمن يتتبّع خطوات آدم ومساره الروحاني. فيلبّي الصّوت السّماوي الذي يرفعه كلّ نبيّ مُرسل من عند الله عزوجلّ، وبطبيعة طينيّة بعيدةٍ عن الفسوق والعصيان. كما أنّ هذا المتدبّر لكتاب الله تعالى يُلاحظ أنه جل شأنه قد اصطلح للفريق الكافر الذي يسير على خُطى إبليس ويقيظ ممّا نزل من السّماء من تعاليم رحمة، اصطلح له خطاب (ذريّة إبليس). هذا الفريق الذي حذّرنا جل شأنه منهم في الآية (٥٠) من سورة الكهف إذ قال : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق ن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ، بئس للظّالمين بدلاً.**﴾.

ولابدّ للعاقل وقد قرأ هذا التّحذير الوارد في سورة الكهف، من أن يتساءل عن أهميّته، فيتساءل في الوقت نفسه عن معالم مسار إبليس وذريته أيضاً.

هذا وإنّ الذي يتدبر تهديدات إبليس وتوعّداته المُعبَّر عنها بلسان حاله وبأسلوبٍ مجازي في قصّة آدم هذه . لابُدّ أن يدرك من خلال تلك التهديدات والتوعّدات أهميّة هذا التحذير الإلهي . فيتبيّن بالتالي معالم المسار الإبليسي الذي سيختاره كلّ إنسان يكفُرُ مهمّة داعي السماء قانطاً من رحمة ربّه عزّ وجلّ .

لذلك أجدني مضطراً لاستعراض ما أوردته قصّة آدم من تهديدات وتوعُّدات وردت في مختلف المقامات من سور القرآن الكريم. ومذكّراً القارىء في الوقت نفسه بالكلمة التي تفوّه بها إبليس بلسان حالة وهي ﴿**أنظري إلى يوم يُبعثون..**﴾ فكلمة أنظرني هذه قُصد بها طلب إمهاله للتأمّل ويتبصّر بحّريةٍ تامّين وبأسلوب تفكيرٍ مادّي محض ، مجرّداً عن كلّ تعليم روحي .

فقد أوردت سورة البقرة القول : ﴿**فأزلّهما الشيطان عنها، فأخرجهما ممّا كانا فيه.**﴾. فصوّر تعالى بذلك مايفعله الفريق الكافر زمن بعثة كلّ مُرسلٍ من عند الله تعالى.

وهذا الإجمال أوردته سورة (ص) بألفاظٍ أخرى مختلفة حيث نقلت قول إبليس وبلسان حاله: ﴿**قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المُخلصين.**﴾. أي أنّ ابليس قد هدّد أن ينقلب نفسه إلى شيطانٍ يزلّ أقدام كلّ مؤمن يستجيب لأيّ صوتٍ سماوي.

وقد راحت الآيات من سورة الأعراف تُلفت نظر المؤمن وتنبّه ذهنه إلى الشّعار الذي سيرفعه إبليس وذريّته حين ينقلبون إلى شياطين يعادون الفريق المؤمن كل حين. فشعار هؤلاء سيكون "الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة" أي أنّهم لن يتورعوا عن اللّجوء لأيّة وسيلة تمكّنهم من زلزلة أقدام المؤمنين عن صراط الله المستقيم. هذه الحقيقة جاء التعبير عنها بلسان حال إبليس متوعّداً في سورة الأعراف: ﴿**قال فبما أغويتني لأقعُدنّ لهم صراط المستقيم. ثم لآيتنّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم، ولاتجد أكثرهم شاكرين.**﴾.

أما في سورة (طه) فقد نبّهت بما نقلته بلسان حال إبليس من تهديدات وتوعُّدات، أنّ إبليس وذريّته سيعمدون إلى الطروحات الفكرية الفلسفيه يُوسوسون بها في صدور المؤمنين، موهمين أيّاهم أنّ طرحهم الفكري أهمّ ممّا تطرحه تعاليم الدّين المستندة إلى أساس روحاني. وهذه الحقيقة أوردتها الآيات من سورة (طه) وبلسان حال إبليس ومُنقلباً إلى صفة شيطان : ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلُّك على شجرة الخُلد ومُلكٍ لايبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة، وعصى آدم ربّه فغوى. ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوّ.**﴾.

وراحت قصّة آدم المجازية فوضّحت للمؤمنين أمراً هاماً في سورة الحجر. وهو أنّ كُلّ حضارة ماديّةٍ يُقيمها إبليس وذريّته من بعده وعلى أساسٍ من فكرٍ مادي خالٍ من التهذيب السّماي. ستكون أشياء تلك الحضارات جذّابةً في ظواهرها، تُزيّن للمؤمنين فوقيّتها وضرورة الأخذ بها متناسين مايكمن وراء ذلك من سمومٍ قتالة مهلكةٍ لهؤلاء المؤمنين. وهذا الأمر الهام الذي أوردته الآيات من سورة الحجر بلسان حال إبليس : ﴿**قال ربّ بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المخلصين.**﴾.

أمّا قصّة آدم المجازية الواردة في سورة الإسراء. فقد نبّهت إلى ضرورة عدم الاستهانة بتهديدات إبليس وتوعُّداته. فذريّته ستبلغ حدّاً مُرعباً من الرّقي المادّي يلفت إليها الأنظار : عدداً وعُدَداً، بحيث تعود تشارك ذريّة آدم في الأموال والأولاد. وقد نبّهت الآيات من سورة الإسراء إلى أنّ هذا كلّه سيكون من عمل ذريّة إبليس مُنقلبةً إلى شياطين مغرورة ومُستكبرة ولاتفي بالوعود. وهذه الحقيقة وردت بلسان حال إبليس في سورة الإسراء قوله: ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ، لئن أخرّتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً. قال إذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم موفوراً. واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعَدُهم، ومايعدهم الشيطان إلاّ غُروراً.**﴾.

فهذا هو ماأجْمَلَتْه هذه السّور القرآنية وماتضّمنته من حقائق احتوتها قصّة آدم المجازية وبلسان حال إبليس. وسأعمد الآن إلى تفصيل ماأورَدتْهُ مُجملاً، ومن خلال ماأوردته سُور البقرة و (ص) والأعراف وطه والحجر والإسراء. من أقوال. وسيرى القارىء كيف أنّ أقوال إبليس هذه نبّهت إلى المقصد الثالث العظيم من إيراد قصّة آدم بلسان المجاز. وهو تحذير المؤمنين في كل زمان ومكان إلى أنّ ذريّة إبليس سيكونوا دوماً المتسّببين بالشّرور في أنحاء المعمورة، وسيكونون على الدّوام سبباً رئيساً يُضلّل الناس المؤمنين ويبعدهم عن توحيد ربّهم وعن صراطه المستقيم.

أتناول ماأوردته سورة البقرة حيث قال تعالى : ﴿**فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجها ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مُستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين.**﴾. ولفظ الشيطان هنا اسم وصفي ثان لإبليس. فالذي يُبلس أي يقنط من رحمة ربّه ويكفر، إذا أقدم على مقاومة الشيء الذي كفر به وقنط من خيره، يستحق وصفه بالشيطان من شاط أي احترق. إشارةً إلى أنّ الذي يعادي رُسُل الله تعالى يكون مصيره إلى النّار في نهاية المطاف.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ أجمل ماأقدم عليه إبليس وماسعى إليه وهو حرف آدم عن صراط ربّه، وذلك من خلال لفظ (فأزلّهما). فمعنى أزلّه أماله عن خطّه الذي يسير عليه.

فلم يقل جل شأنه دفعهما إلى معصية أمر ربهما. لأنّ فعل (فأزلّهما) يحمل دلالات أوسع من ذلك بكثير. وكأنه جلّ شأنه نبّه أذهان المؤمنين عن طريق ماأجمله إلى أنّ الفريق الكافر والذي يفكّر بتفكير ماديّ بحت يسعى دوماً لإمالة المؤمنين الذين يفكرون بتفكير روحاني، إمالتهم عن صراط ربّهم المستقيم. وبهذا الإجمال يكون الله عزوجلّ قد نبّه إلى المقصد الثالث العظيم الذي صاغ قصّة آدم من أجل لفت أنظار المؤمنين إليه.

ولقد سبق هذا الإجمال المتعلّق بالغاية القصوى التي يسعى إبليس وذريّته إلى تحقيقها. سبقه إجمال آخر. فقد ورد قبل ذلك قوله تعالى: ﴿**وقُلنا يـاآدم اسكن أنـت وزوجـك الجنّـة وكُـلا منهـا رغـداً حيـث شـئتما، ولاتقربـا هـذه الشّجره فتكونا من الظالمين.**﴾.

فقد نبّهت ألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أنّ الأصل هو إباحة تناول كلّ شيء من أشياء هذه الكرة الأرضية. وأنّ نسبة المُحرّمات منها نسبة ضئيلة تكاد لاتُذكر أي نسبة شجرة واحدة إلى مافي هذه الجنّة من أشجار. ولم يكن المقصد من هذا التحريم إلاّ فائدة الإنسان نفسه. وأنّ إبليس سيركّز على إمالة المؤمنين لتناول هذه المُحرّمات وعدم التزامهم بما نُهوا عنه. وأنا حين قلت إنّ المقصد من تحريم هذه المنهيات هو فائدة الإنسان نفسه، فقد استنبطت ذلك من قوله تعالى: ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾ أي الظّالمين لأنفسكم من جرّاء هذه المخالفات.

وقد فتح الله عزوجلّ باب التّوبة لكل مؤمن يستزلّه الشيطان فيُخطيء غير مُتعمّدٍ الخطأ والعصيان. هذا الأمر صرّح به جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**فتلقّى آدم من ربّه كلماتٍ، فتاب عليه، إنّه هو التّواب الرّحيم.**﴾.

والمهمّ هو أنّ سورة البقرة أتت على ذكر قصّة آدم عليه السلام بأسلوب مجازي وبلسان الحال فأجملت مواضيع القصّة، ولم تدخل في تفاصيل مايتعلّق بكل طرفٍ من أطرافها. ونبّهت في الوقت نفسه إلى أنّ بعثة آدم كانت أساس الصّراع الدائر مابين المؤمنين أصحاب التفكير الروحاني ومابين الأبالة الكافرين برسالات السّماء وأصحاب التفكير المادّي، وأنّه من واجب كلّ مؤمن أن يحذر مايأتي به أعداء الدّين. فهؤلاء أي إبليس وذريّته يسعون دوماً لإبطال مفعول كلّ محاولة يحاولها ربّ العالمين لتطوير عباده الذين خلقهم، ولنقلهم نقلاتٍ نوعية باتّجاه السّمو والكمال.

والمعلوم أن سورة البقرة هي أوّل سورة من سور القرآن الكريم، وقد استلزم تسلسل آياتها الموضوعي هذا الإجمال الذي ذكرناه المتعلّق بقصّة آدم عليه السّلام، كذلك فإنّ سورة (ص) تعبّر آخر سورة اقتضى تسلسل آياتها الموضوعي عرض قصّة آدم وبالإجمال أيضاً، إنّما بألفاظ غير الألفاظ التي أوردتها سورة البقرة.

فقد نقلت سورة (ص)الآية (٨٣) قول إبليس بلسان حاله، وإثر طلبه (انظُرني) أي دعني أتأمّل واتبّصر بتفكيري المادي : ﴿**قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهُمُ المُخلصين.**﴾. وكلمة فبعزّتك هي كلمة تحدّي ضدّ مايخطّطه الله الرّب لتطوير عباده. فالفاء فاء الاستئناف والباء باء القسم وعزّتك إشارة إلى اسم الله العزيز بمعنى المنيع الذي لايُغالب. وانطلاقاً من أنّ القسم هو عبارة عن تقديم شهادة.

فكلمة فبعزّتك أي أنني وبأسلوب تفكيري المادّي وبعيداً عن تهذيب تعاليم الدّين سأثبت إمكانيّة إغواء هؤلاء المؤمنين الذين يفكّرون بتفكير روحيّ. أي لأتمكّن من إضلال هؤلاء المؤمنين وتخييب ظنّهم بربّهم العزيز وأدفعٌ بهم نحو الجهالة والهلاك. إلاّ عبادك منهم المخلصين.

ألا إنّ هذه المعاني التي تحملها جُملة ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين.**﴾ تحمل نفس دلالة ماورد في سورة البقرة ﴿**فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه**﴾. فسورة البقرة بهذه الألفاظ حذّرت من أنّ إبليس وذريته لهم من الأساليب الشيطانية مايمكّن من إزلال وإمالة أقدام المؤمنين عن صراط الله المستقيم. أمّا سورة (ص) فقد نبّهت إلى ماوراء هذه الأساليب الشيطانية من حقدٍ دفين على المؤمنين بالله عزوجلّ. هذا الحقد الذي يدفعهم للتفنّن في أساليب إغواء المؤمنين. فالموضوع واحد في سورتي البقرة و (ص) والفارق في زاوية النّظر إلى هذا الموضوع.

إنّ قصّة آدم المجازية الواردة في سورة البقرة، نبّهت إلى أنّ من لم تكن له تجربةٌ سابقة في تعامله من إبليس وذريّته ستزلّ قدماه عن غير قصد. كما حدث مع آدم عليه السلام الذي عصى ربّه وغوى، عن غير قصدٍ منه، لذلك تاب الله تعالى عليه، وإنّه تعالى أوصى بعد آية ﴿**فأزلّهما الشيطان..**﴾ وقال: ﴿**فإمّا يأتينكّم منّي هُدى فمن تَبع هُداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون.**﴾.

أي أن من يتمسّك بما أنزل من تعاليم سماوية حقّ التمسّك فلاخوف عليهم من أحابيل إبليس وذريّته وليس له عليهم من سلطان. فمن تزلّ أقدامهم ويحزنون على مابدر منهم، بحال من الأحوال.

فهذا هو ماتعلّق بقصّة آدم المجازية وماأوردته من أقوال إبليس وتوعّداته في سورتي البقرة و (ص) هذه الأقوال التي تعبّر عن المقصد الثالث العظيم من صياغة الله تعالى لهذه الأقوال بلسان الحال. هذا المقصد الذي ينبّه أذهان المؤمنين إلى الحقد الدّفين الذي تولّد عن بعثة آدم عليه السلام في أفئدة أصحاب الطّبائع الناريّة والذين يأبون الطبيعة الطينيّة التي تلتزم بنظام وقانون سماويّ.

فإن نحن تناولنا ماأوردته سورة الأعراف من هذه الأقوال، نلاحظ أنّها كشفت للقارىء عن الشّعار الذي سيرفعه إبليس وذريّته، وهو شعار الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة. أي أنّ هؤلاء الكُفّار لن يتورّعوا عن اللّجوء إلى أدنى وأحقر الأساليب لتحقيق غاياتهم الدنيئة التي يَسْعون إليها، وهي إغواء المؤمنين وإضلالهم وتخييب ظنّهم بربّهم العزيز ودفعهم نحو الجهالة والهلاك.

فقد أوردت سورة الأعراف هذه الحقيقة وبلسان حال إبليس: ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ماوُري عنهما من سوآتهما، وقال مانهاكما ربكُما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملَكَين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما أني لكما لمن النّاصحين، فدلاّهُما بغرور..**﴾. فالله عزّوجلّ سمّى إبليس، وهو يحاول الإغواء شيطاناً، على شاكلة مافعله في سورة البقرة. وقال ﴿**فوسوس لهما الشّيطان**﴾. والوسوسة تعني التّحديث بحديثٍ لانفع فيه ولاخير (محيط المحيط). كما أنّ الوسوسة تأتي خفيةً وليس جهاراً. فهي حديث مايخطر للإنسان في صدره. والغاية من هذا الأسلوب في التحديث إصابة الموسوس إليه في عقله، ليندفع يتكلّم بلا ضوابط ونظام، بما دفعته وساوسه إلى ذلك (محيط المحيط).

أي أنّ الله عزوجلّ استعمل هنا في سورة الأعراف لفظ (فوسوس)، إظهاراً منه جلّ شأنه لِخبث إبليس ودناءة أساليبه التي يعمد إليها لإغواء المؤمنين. أي أنّ الغاية في نظر إبليس تُبرّر الوسيلة التي يعمد إليها لتحقيق أغراضه لإغواء أصحاب التفكير الرّوحاني وإهلاكهم، وإثبات صدق ماعبّر عنه إبليس متحدّياً ﴿**فبعزّتك لأغوينهم أجمعين.**﴾.

وهو جلّ شأنه إذ قال: ﴿**ليُبدي لهما ماوري عنهما من سوآتهما**﴾ فقد أتى بكلمة (سوآتهما) وهي جمع سوءه ومعناها الخلّه والصّداقه القبيحة والفاحشة والعورة (محيط المحيط). فالمعنى أنّ غاية الشيطان من أسلوب وسوسته هو أن يدفع بهؤلاء المؤمنين لاتبّاع ميولهم الفاسدة وشهواتهم الجنسية ويكشف بذلك عن ضعفهم وعوراتهم ونقائصهم. فإن شاء القارىء توضيح ماذكرته، فليعمد إلى مُلاحظة ماتأتي به وسائل إعلام شيطان زماننا من أمورٍ القصد منها حرف شباب أمتّنا الإسلامية عن صراط الله المستقيم.

وهكذا يكون الله تعالى قد نبّه أذهاننا في سورة الأعراف ومن خلال مانسبه لإبليس من أقوال وأفعال، نبّه أذهاننا إلى أنّ هذا الشيطان رفع شعار الغاية تُبرّر الوسيلة والواسطة لإضلال المؤمنين منذ بداية صراع ابليس مع آدم وإلى نهاية الزّمان. ومن هذا يتضح المقصد العظيم الثالث الذي ابتغى الله جل شأنه تحقيقه من خلال صياغته لقصّه آدم صياغةً مجازيةً وبلسان الحال.

ومايوضّح أكثر فأكثر هذا الشّعار الذي رفعه إبليس وذريّته هو قوله تعالى قبل ذلك عن لسان حال إبليس متوعّداً ومهدّداً. قوله : ﴿**ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين.**﴾ أي لن أدع وسيلة أو أسلوباً لإضلال المؤمنين إلاّ وسأسلكه لتخريب وتشويه مابين أيديهم من تعاليم والتشكيك بما خلفهم من آمال ومعتقدات بيوم الحساب. وسأعمد إلى تفتيت وحدتهم فآتيهم عن أيمانهم. وأفتّت اقتصادهم فآتيهم عن شمائلهم، وأنتهى من ذلك كلّه لنسيان شكرك والثناء عليك وحمدك كربٍ للعالمين.

أي سأبذل قصارى جهدي وبشتّى الوسائل الرفيعة والدّنيئه لأبشع في مجتمع المؤمنين الفواحش وبلباس النّاصحين.

وقد نبّه الله جلّ شأنه في سورة (طه) إلى أن من وسائل الوسوسة التي يعمد إليها إبليس وذريّته الوسيلة الفكرية الفلسفية يبثّها ويوسوس بها بوسائل إعلامه تحقيقاً منه لأهدافه الشريرة في إضلال المؤمنين. فعبّر عن هذه الحقيقة في سورة طه بقوله تعالى: ﴿**فوسوس إليه الشيطان، قال ياآدم هل أدلُّكَ على شجرة الخُلد ومُلكٍ لايبلى.**﴾. فتعبير ﴿**شجرة الخلد**﴾ هو تعبيرٌ بلاغيٌّ فالشجرة حجازاً قُصد بها الأفكار الفلسفية لاقترانها بكلمة الخلد والتي تعني المدّة

الطويلة دامت أم لم تدم. أي أنّ إبليس يطرح أفكاراً فلسفية يوهم بها أنّها الأفكار التي إن أخذت بها أمّة من الأمم يُكتب لها الرّقي والدّوام. وبهذين اللّفظين عبّر جلّ شأنه عن حقيقةٍ طالما أيّدها الواقع التاريخي. ففي القرن التاسع عشر على سبيل المثال طُرح موضوع الإلحاد بوجود الله تعالى بشكلٍ فلسفي. وليست نظريّة دارون ببعيدةٍ عن أذهان المُتابعين لمجريات ذاك القرن. ثم إنّ الفلسفة المادية الماركسية التي طُرحت ولاقت إقبالاً من جماهير روسيا وماجاورها من شعوب تشكّل أكبر برهان على صحّة دلالة مُصطلح قصّة آدم المجازية (شجرة الخلد). فالماركسيون كانوا يوهمون أتباعهم أنّ تعاليم ماركس تمثّل "شجرة الخلد" التي ستضع أقدامهم على مسار النّهضة والتّقدم إلى أبد الآبدين.

فهذه أمثلة حيّة على صحّة مانبّهت إليه قصّة آدم المجازية من خلال ماأتت به من أقوال بلسان حال إبليس وذلك في سورة (طه) التي ذكرناها. فإبليس وذريّته يسعون منذ بداية صراعهم مع رسالات السّماء التي ابتدأت ببعثه آدم عليه السّلام، كانوا يسعون دوماً لطرح فلسفاتٍ فكريةٍ في مواجهة ماكانت تأتي به هذه الرسالات السمّاوية، فيوسوسون بهذه الأفكار والفلسفات في صدور المؤمنين، وكأنهم يقدّمون لهم "شجرة الخلد" ليميلون بهم عن صراط الله المستقيم. فهذا واقع تاريخي لايكذّبه إلاّ المعاندون.

وإبليس لم يكتف بلسان حاله أن يقول ﴿**هل أدلّك على شجرة الخلد**﴾ بل أضاف قائلاً : ﴿**ومُلكٍ لايبلى**﴾ أي أنّ هذه الأفكار الفلسفية تمكّن من إقامة حضارة ومُلكٍ لايبلى أي يدوم فلا يزول.

وأعجب من ذلك هو قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتُهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وعصى آدم ربّه فغوى.**﴾. أي كما أن استجابة آدم لإبليس وبلسان حالهما قد أدّى إلى عصيانه ربّه وغوايته. واضطرّ بعدها للعودة إلى الأخذ بحريّته تعاليم ربّه وإلى التّوبه بكلّ حرّية وهو ماعُبّر عنه بالقول: ﴿**فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنّة.**﴾. فإنّ كلّ مؤمن لايضع بحسبانه حقيقة أنّ إبليس وذريته سيطرحون أفكاراً فلسفية على الدوام يوسوسون بها في صدور المؤمنين موهمين أنها أساس التقدّم والحضارة فلابدّ أن ينتهي الأمر بهذا المؤمن الذي لم يتّعظ بمعطيات قصّة آدم المجازيه، إلى الغواية وعصيان ربّه وبالتالي بُعده عن خالقه عزوجلّ.

وقد وضّح جلّ شأنه في سورة الحجر أمراً هاماً، وهو أنّ الحضارات الماديّة التي سيقيمها إبليس وذريّته على أفكار فلسفيةٍ مُختلقةٍ ومزيّفة، ستأتي بأشياء مزيّنة جذابةٍ في ظاهرها، تجذب النفوس البشرية إليها بشكلٍ آلي وطبيعي، وعلى صورة تُنسي النّاس أنّ هذه الأشياء من صنع إبليس وذريته وأنّ وراءها ماوراء الأكمة من أسرار .

هذا الأمر الهام الذي أتت به الآيات من سورة الحجر بشأن قصّة آدم المجازية تضمّنه قول الله عزوجل: ﴿**قال ربّ بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المُخلصين.**﴾. فقول إبليس بلسان حاله هنا ﴿**لأزيّنن لهم في الأرض**﴾ قُصد به إبداع حضارات تنافسي الحضارات التي تقيمها التعاليم الدينيّة. وتكون أشياء هذه الحضارات مزيّنة أي مزخرفةً جذّابة. هذه الحقيقة التي يلاحظها كلّ مؤمن يتأمّل ماأتت به حضارة أوربة وأمريكة من مختلف الأنواع والأشكال. حتى باتت هذه الأشياء بمثابة جنّةِ المسيح الدّجال أتى بها لإغواء جماعة المؤمنين في كلّ مكان، وهي التي حذرنا من شرورها محمّد سيد المرسلين (ﷺ) حيث ورد في أحاديثه (ﷺ): (من دخل جنّة المسيح الدجال فقد دخل النّار.). أفلا نُلاحظ الجاذبيّة التي توسوسها في نفوس أبناء الجيل المسلم ماأبدعته هذه الحضارة العِلمانية الماديّة الغربيّة والتي أبعدت هؤلاء عن صراط الله، وأمالتهم إلى اتباع الشّهوات في كل مكان؟

وليلاحظ القارىء لكتاب الله العزيز أنّ إبليس ظلّ يقول بلسان حاله: ﴿**إلاّ عبادك منهم المخلصين.**﴾ (ص) والحجر ويقول: ﴿**ولاتجدُ أكثرهم شاركين.**﴾ الاعراف. ويقول: ﴿**لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً.**﴾ سورة الإسراء. فكيف يستثنى إبليس فئةً من المؤمنين المُخلصين دوما في أقواله. وهل هو علاّم الغيوب؟ بل هي قرينةٌ دالّةٌ على أنّ أقوال إبليس الواردة في قصّة آدم المجازية إنّما وردت بلسان حال إبليس ومن يسير على خُطاه ومن ذريّته وليس بلسان فمه. وأنّ المقصد الثالث العظيم المقصود من هذه الأقوال الابليسية واستثناءاتها فيها التحذير كلّ التحذير من ذريّة إبليس وفيها التبّشير من أنّ من يُدرك حقيقة هذه القصة المجازية ودلالاتها وأغراضها ومقاصدها لايضلّ عن صراط الله المستقيم في يومٍ من الأيام.

والسّورة السّابعة التي احتوت قصة آدم المجازية هي سورة الإسراء. وقد نبّهت إلى هذا المقصد الثالث العظيم من خلال مااستجدّ فيها من أقوال بلسان حال إبليس. فهو ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكّن ذريّته إلاّ قليلاً.**﴾. فتهديد إبليس وتوعّده في سورة الإسراء متعلّق بذريّة آدم، وليس بآدم نفسه. هذا من جهة، ثم إنّ ابليس لم يقل هنا (أنظرني) بل قال: ﴿**لئن أخرّتن إلى يوم القيامة**﴾ فما دلالة "يوم القيامة" في هذا المقام؟ ولماذا لم يقل (إلى يوم يبعثون) بألفاظه هذه الواردة في سورة الأعراف والحجر وسورة (ص)؟

فهل تحمل هاتان الجملتان معنى واحداً؟ أم تحملون معينين مختلفين؟ فإن كان الجواب سلباً، فما هو الدّاعي لهذا الإختلاف ومادلالاته؟ فهذه أسئلة لابدّ من الإجابة عليها إجابات وافية وشافيه. وبما أنّ كلام الله في كتابه العزيز يمتاز بتسلسله الموضوعي. فلابدّ أن يوجّهنا سِياق هذه الآية من سورة الإسراء إلى المقصود من ذريّة آدم المشار إليها هنا، وإلى دلالة يوم القيامة أيضاً.

وعليه فلنعُد معاً إلى السّياق عدّة آيات سابقة. فنلاحظ تحذيراً من الله عزوجلّ موجهاً إلى المؤمنين بصورة خاصّة يقول الله تعالى فيه: ﴿**وقل لعبادي التي هي أحسن، إنّ الشّيطان ينزغُ بينهم، إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مُبيناً.**﴾. وخطاب "عبادي" مختصٌّ بفئة المؤمنين ففي الزّمر (٥٣) ﴿**قل ياعبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإياي فاعبدون.**﴾. وفي سورة الفجر (٢٩): ﴿**ياأيّتها النّفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيه. فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي.**﴾ وأمثالها من الآيات.

وتتضمّن الآية ﴿**وقل ياعبادي..**﴾ أمرين واضحين الأول منهما ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ كمقدمة لابدّ من الأخذ بها. فإن تقاعس المؤمنين عن التقيُّدّ بها، فإنّ النتيجة التي تنتظرهم ﴿**إنّ الشيطان ينزغ بينهم**﴾. وهذان الأمران يستندان إلى حقيقة ﴿**إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً.**﴾.

ولأهمية ماتضمنته هذه الآية الكريمة، يجدر بنا تفهُّم معنى ودلالة ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ فما هو المقصود بألفاظ هذا الشطر من الآية المذكورة؟ فهي من الأهمية بمكان.

والحقّ هو أنّ الله عزوجلّ الذي نبّه في السّورة السّابقة لسورة الإسراء أي نبّه في الآيات الأخيرة من سورة النحل إلى مايوضّح ﴿**يقولوا التي هي أحسن**﴾ وبألفاظ صريحة واضحة الدلالات تمهيداً منه جلّ شأنه لينبّه هذا التنبيه المذكور. فهو تعالى أمر المؤمنين هناك بقوله: ﴿**أُدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتمُ فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين. واصبر وماصبرك إلاّ بالله ولاتحزن عليهم ولاتكُ في ضيقٍ مما يمكرون. إن الله مع الذّين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة:

أولاً- أن يلتزم الفريق المؤمن بالدّعوة إلى سبيل الله.

ثانياً ـ وأن ترتكز هذه الدّعوة المنظمّة على أسسٍ حكيمة وبيّناتٍ حسنة قاطعة الدلالات.

ثالثاً ـ وأن يجري حوار هذا الفريق المؤمن مع أعداء الذين ﴿**بالتي هي أحسن**﴾ أي بأحسن المقالات وأكملها حجماً وبراهين قاطعة.

رابعاً ـ وأن يبتعد الفريق المؤمن عن القيام ومبادرة عدّوهم بأيّ اعتداءٍ من أيّ نوعٍ كان، والصّبر على اعتداءات هؤلاء الأعداء.

خامساً ـ وأن يعتمد الفريق المؤمن وسيلة الصّبر وتحمّل كل عناءٍ كوسيلة استراتيجيّة في دعوتهم إلى سبيل الله تعالى وماصبرهم إلا بالله وتأييده.

سادساً ـ وينبّه جل شأنه إلى أن أعداءهم يتصّفون بصفة المكر والدّهاء في وسائل مناهضتهم للإسلام، ولايعتمدون الحجّة والبرهان وسيلة لتحقيق أهدافهم الدنيئة لذلك يُوصي الله تعالى المؤمنين بالتزام الدعوة إلى سبيل الله على هذه الأسس شرط أن يكونوا أتقياء فلا يقولوا مالا يفعلون وأن يُحسنوا سلوكهم ودلائلهم ووسائلهم، ليجذبوا بذلك محبّة الله وتأييده إلى جانبهم وهذا معنى ﴿**إنّ الله مع الذّين اتّقوا والذّين هم محسنون**﴾.

على هذه الصّورة نكون قد أدركنا المقصود من قول ربّنا عزوجل: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التّي هي أحسن**﴾. ففي هذه الألفاظ الموجزة تذكير للمؤمنين بالوصيّة التي كان الله تعالى قد اختتم بها سورة النّحل السابقة للإسراء. تذكير لهم بضرورة الالتزام بالدعوة إلى سبيل الله تعالى، وتحذير في الوقت نفسه

من التّنازع على الثّروة والحكم. ومايؤكّد صحّة هذا التذكير وذاك التحذير، هو إضافته تعالى قوله: ﴿**إنّ الشيطان ينزغ بينهم، إنّ الشّيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً**﴾. فهو تعالى أتى بلفظ الشيطان وهو الاسم الوصفي الثاني لإبليس، يطلقه هنا على أعداء الإسلام، مذكّراً من طرف خفي بما تضمنه قصة آدم المجازية وبلسان الحال.

والملاحظ أنّ الله عزوجلّ أتبع تنبيهه وتحذيره هذا، يقول: ﴿**ربكُم أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذّبكم، وما أرسلناك عليهم وكيلا**﴾. وهذه الآية الكريمة دلّت على أنّ الله علاّم الغيوب، كان في واسع علمه أنّ المسلمين سيُغفلون العمل على هذا التنبيه والتحذير، ويُصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، ويفسحون بذلك المجال للشيطان أن ينزغ بينهم. فما معنى "ينزغ بينهم" الوارد في الآية السابقة؟ فعل ينزغ من نزغه الشيطان إذا حثّه على المعاصي، وطعن فيه واغتابه وأفسد بين أفراده ووسوس وحرّك بعضهم على بعض (محيط المحيط وأقرب الموارد). أي كان في علم الله الغيبيّ أنّ المسلمين سيهملون أمر تنظيم الدّعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

الأمر الذي سيؤول بهم إلى إلهائهم بالمال والسلطة والجاه وتنازعهم فيما بينهم، وإفساح المجال لعدّوهم الشّيطان أن يغتنم ضعفهم هذا وتخلّفهم، فيطعن فيهم ويذكرهم بالقبيح من الأقوال ويفسد بينهم بتحريض بعضهم على بعض ويوسوس في صدورهم يحثّهم على ارتكاب المعاصي والآثام.

فقد كان هذا المصير كله في علم الله الغيبي لذلك لاحظناه جل شأنه قد أضاف يقول إنّ لكلّ مقدّماتٍ نتائجها، وإن الأمة الاسلامية التي ستهمل الدّعوة إلى سبيل الله وتتنازع، ستفقد تأييد الله ومحبّته، وتستحقّ بالتّالي العذاب. وقد عبّر جل شأنه عن هذا بقوله تعالى: ﴿**إن يشأ يرحمكُم، أو إن يشأ يعذبكّم، وما أرسلناك عليهم وكيلا**.﴾ مُسقطاً المسؤولية في الوقت نفسه عن اكتاف رسوله الأمين محمّدٌ خاتم النبيّين (ص)، هذا الرّسول العظيم الذي لم يترك سبيلاً إلى وعظ أمّته إلاّ سلكه بأحسن مايعظ به الإنسان قومه. والذي كان خلُقه القرآن وأسوةً للمؤمنين.

إلى هنا نكون قد أدركنا من خلال الآيات الكريمة التي أوردناها دلالتها وإنباءها عن زمن تخلُّف المسلمين وانحطاطهم واستحقاقهم لعذاب الله.

وإنباءها أيضاً عن أنّ عدّو الإسلام سيقوى ساعده، وينزع بين صفوف هؤلاء المسلمين. وينشأ بالتّالي سؤال هام وهو كيف سيعالج الله جلّ شأنه هذا الحال الذي سيصير إليه دين نبيّه الحنيف؟

ويُجيب الله جل شأنه على هذا السؤال هنا بأسلوبٍ بلاغي يدهش العقول ومُدعّم بالحجج والبراهين فيقول: ﴿**وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض، ولقد فضلّنا بعض النبيّين على بعض، وآتينا داوود زبوراً**﴾. فهو تعالى قال من قبل مخاطباً المسلمين ﴿**ربّكم أعلمٌ بكم**﴾. والآن راح يقول مخاطباً رسوله الكريم وبعد أن رفع عن أكتافه مسؤليته عمّا سيؤول إليه حال أمّته، يقول بلسان عالم الغيب والشهادة ﴿**وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض**﴾ مشيراً إلى الأموات والأحياء من عباده. ومذكراً بتفاوت مرتبة الذين أرسلهم الله تعالى من النبيّين. وملمّحاً إلى أنّ محمداً هو سيّد المرسلين، وهو الذي أنبأ جميع من سبقه من الأنبياء عن بعثته ومقامه السّامي بينهم. يقول تعالى ﴿**وربّك أعلم بمن في السموات والأرض**﴾ أي أعلم بهذه الأمور جميعها لأنّه جلّ شأنه هو المرجع الأول والأخير فيها. فهل يُعقل أن يترك الله أُمّتك وهو ربّك، هذه الأمّة التي شابهت ماحدث في أمّة موسى عليه السلام من قبلك؟ خصوصاً وأنّ هؤلاء الأنبياء قد انبؤوا أيضاً في كتبهم عن مصير أمّتك؟

فذكّر جل شأنه نبيّه الكريم بحال بني اسرائيل قوم موسى بعد بعثة داوود بينهم، وبمصيرهم الذي آلوا إليه وقال ﴿**وآتينا داوود زبوراً**﴾. وفي هذه إشارةٌ أخرى أيضاً إلى الدّمار الذي لحق ببغداد على أيدي هولاكوخان إثر تنازع المسلمين فيما بينهم أيضاً لتماثل الحالين والزّمانين. يوم ألهاهم ماحصلوا عليه من المُلك والثروة وتناسوا الإلتزام بتنظيم الدّعوة إلى سبيل الله. فانقسموا إلى شيعٍ وأحزابٍ يطلبون ودّ ورضا زعماءهم، مُتناسين طلب ودّ ربّهم ومحبّته ورضاه أي أنهم كانوا انغمسوا في مستنقع الشرك الخفّي.

لذلك توجّه الله عزوجلّ إلى هؤلاء بخطابه بعد أن طمأن رسوله وبرّأه من مسؤولية عمّا سيحدث لأمّته. توجّه إلى هؤلاء يقول: ﴿**قل ادعوا الذّين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضُّر عنكم ولاتحويلاً**﴾. أي أنّ انسياقكم وراء هذه الزّعامات انتهى بعاصمتكم بغداد إلى هذا الدّمار الذي شابه فترة ماحدث بعد داوود عليه السّلام. أي أنكّم سيؤول حالكم من جرّاء إهمال

الدعوة إلى سبيل الله والانسياق وراء هذه الزّعامات سيؤول حالكم إلى (الضُّر) والضُّر لغة يعني الشدّة وسوء الحال، وضدّ النّفع (محيط المحيط) أي سيأخذ الوهن والضعف سبيله إلى أمتّكم. ولن تملك زعاماتكم يومئذٍ إمكانية كشف الضّر عنكم ولاتحويله بشكل من الأشكال. فأنتم تناسيتم الدعوة إلى سبيل الله وتناسيتم أسوة رسولكم الأمين وحال جميع من سبقه من النبيّين، وقال: ﴿**أولئك الذين يدعون، يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، إنّ عذاب ربّك كان محذوراً**﴾. أي كان أحرى بكم بعد الدّمار الذي لحق ببغداد أن تعودوا إلى تنظيم الدعوة إلى سبيل الله وابتغاء قرب الله ومحبّته راجين رحمته خائفين من عذابه الذي توعّدكم به إن أنتم تقاعستم عن الدعوة إلى سبيل الله تعالى.

وليس أن تسعوا إلى هذه الزّعامات السياسيّة ترجون منها كَشْفَ الضُّر عنكم. فالذي كان عليكم أن تخشوه هو عذاب الله ربكّم. لذلك أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**إنّ عذاب ربّك كان محذوراً**﴾.

ومادام الله تعالى قد نبّه إلى الدّمار الذي لحق بهيكل سليمان بعد بعثة داوود عليه السلام. حذّر المسلمين كلّ هذا التحذير. فلابدّ أن يكون قد أشار إلى بعثة مسيح بن مريم آخر كالذي بُعث أيّام بني إسرائيل ومن طرف خفّي. وأشار بذلك إلى ماسيحدث من مماثلة له في آخر أيام انحطاط المسلمين وتخلّفهم.

أي أنّها ستقوم قيامة هؤلاء المسلمين، على شاكلة ماقامت به قيامة بني اسرائيل زمن بعثة المسيح عليه السّلام. وهذه إشارة إلى بعثة المسيح الموعود المجدّد والحكم العدل بين المسلمين في زمن يماثل المدّة التي بُعث فيها المسيح الناصري وإلى بني اسرائيل. فلا اليهود آمنوا بالمسيح الأول، ولا المسلمون المتخلّفون سيؤمنون بالمسيح المثيل، لذلك يستحق العالم أجمع عذاباً شديداً ودماراً شاملاً. هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله عزوجلّ أن يضيف قائلاً: ﴿**وإنْ من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذّبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾.

هذا وإنّ قوله تعالى بحقّ العذاب الشامل المُنتظر ﴿**كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾. ورد هنا مجملاً، بسبب أنّ الله تعالى قد خصص السورة التي تلي سورة الإسراء وهي سورة الكهف لتفصيل هذا الكلام المُجمل. فيما بعد.

والمعلوم من كتاب الله العزيز أنّ الله تعالى دأب على إنذار الناس الذّين قرّر سبحانه إنزال عذابه الشديد بهم وتخويفهم بإراءة الآيات السماوية، لعلّهم يرجعون عن تكذيبهم ومعاصيهم. فهذه سُنّة إلهيّة في هذا المجال. فالسؤال هو: مادام الله عزوجلّ قد قال هنا منبئاً عن عذاب شامل: ﴿**وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً**﴾. فهل سينزل هذا العذاب الشامل بعد التخويف وإراءة الآيات السّماوية حسب السُّنة الالهية المذكورة أم أن الله عزوجلّ قد بدّل سُنّته بعد ظهور الإسلام؟ فهذا سؤال وجيهٌ لابدّ من الإجابة عنه في هذا المقام.

والحقيقة هي أنّ ربّنا عزوجلّ لم يغفل الإجابة عن هذا السؤال هنا وضمن التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فأجاب وقال: ﴿**ومامنعنا أن نُرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون، وآتينا ثمود النّاقة مُبصرةً، فظلموا بها، ومانرسل بالآيات إلاّ تخويفاً**﴾. ولم يتدبّر المفسّرون هذه الإجابة حقّ التدبّر، وذهبوا إلى أنّها تفيد تبديل سُنّة الله عزوجلّ وانقطاع إظهار الآيات السّماوية. مع وجود قول ربّنا في مقام آخر ﴿**ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً**﴾. هذا وقد اختلق هؤلاء المفسرون رواياتٍ من عند أنفسهم لتأييد رأيهم الباطل، ممّا لاحاجة لإيراد ذلك كلّه في هذا المقام.

ألا إنه عزوجلّ مادام قد أنهى هذه الآية الكريمة ببيان المقصد الأسمى من إرسال الآيات السّماوية وحدّده بقوله ﴿**إلاّ تخويفاً**﴾ من خاف بمعنى علم ففزع فحذر فاتّقى وضدّ أمن (محيط المحيط) فهو تعالى يقرّر إذن أنّ هناك فريق من الناس يفيدهم رؤية الآيات السّماوية في مجال علم الحق والفزع منه والحذر من عذاب الله واتّقائه. ويعود هذا الفريق من الناس بالتّالي عن عنادهم وتكذيبهم لما نزل من السّماء من وحيٍ إلهي. ويكون الله عزوجلّ قد قرر بذلك عدم تبديل سُنّته القديمة، وهذه قرينة تدفع متدبّر هذه الآية الكريمة ليفهم منها عكس مافهمه هؤلاء المفسرون.

والذي أشكل على هؤلاء ورود حرف (إلاّ) هنا، فلم يفطنوا إلى أن الله عزوجلّ، قد أنهى هذه الآية بما لاحظناه ليوفّر قرينة تؤكّد أنّه تعالى استعمل (إلاّ) هنا زائدة لاعمل لها. فهذا أحد أشكال استعمالات (إلاّ) على حسب ماوضّح ذلك النحويّون. فأنت تقول: لايزال الدّهر إلاّ مُتقلّباً. أي لايزال الدهر مُتقلباً.

فعلى هذه الشاكلة أورد الله تعالى حرف إلاّ في هذه المقام. ويكون معنى الآية أنّه مامن فريق من الأوّلين لم يكذّب رسل الله تعالى بالرغم من رؤيته للآيات السّماوية منذ زمن بعثة آدم ونوح وسواهما من أنبياء الله الكرام. فهل تبدّلت سُنّة الله هذه بسبب هذا التكذيب المتواتر؟ فلو كانت هذه السُنّة الإلهية قد تبدّلت زمن آدم أو زمن نوح وسواهما فكيف آتينا ثمود النّاقة مُبصرة أي آتينا آية سماوية؟ وثمود هذه قبيلة عربيّة معروفة من قوم محمد (ص) ومن أهل الكتاب أيضاً؟ فالله عزوجلّ لم يبدّل سُنّته هذه بعد إنزال وحي هذا الكتاب العزيز.

فلّما انتهى جل شأنه من إجابته على السؤال المطروح، راح يؤكّد جوابه ويقول: ﴿**وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالنّاس، وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للنّاس، والشّجرة الملعونة في القرآن، ونُخوفّهم، فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً**﴾. أي وها أنّنا نؤكّد دوام سُننا في إراءة الآيات السّماوية ونخوّف بها. فها أن رؤيا الإسراء التي أريناك والتي جعلناها فتنةً وامتحاناً وتخويفاً لهؤلاء الذّين قرّرنا إنزال عذابنا الشديد الشامل بهم قد أكدّت أننا لم نسدّ باب إراءة الآيات السّماوية. فمعنى ﴿**إنّ ربّك أحاط بالناس**﴾ أي قرّر إهلاكهم أو تعذيبهم بعذاب شامل. أي أنّ رؤيا الإسراء تحمل نبوءة ﴿**وإن من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً**﴾. بذلك أن محمداً (ص) قد صلّى بجميع الأنبياء في رؤيا الإسراء. وتأويل ذلك أنّ عذاب الله سيشمل جميع أتباع هؤلاء الأنبياء فيخاف من يتبقّى منهم بعد ذلك ويتقبّلون الإسلام ديناً، ويتبعون ماجاء به (ﷺ).

و لم يقدّم الله جلّ شأنه هذا الدليل وحسب بل أتبعه بدليل آخر تضمّنه قوله تعالى: ﴿**والشّجرة الملعونة في القرآن**﴾ وقصد به شجرة نسل بنو إسرائيل الذّين ورد تهديد الله تعالى إيّاهم في الآيات الأوائل سورة الاسراء أيضاً. فاليهود لُعنوا في مواضع كثيرة من سورة المائدة. فقد ورد هناك: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم**﴾. كما ورد: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم**﴾ كذلك ورد بحقّهم: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ فأتباع حزب ليكود قرود مقلّدون، وأتباع حزب العمل خنازير أنجاس. هذا وإنّ استعمال لفظ شجرة كناية عن النّسب والنّسل هو أمرٌ شائع الاستعمال في جميع بلاد العرب.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجل ما إن انتهى من تقديم هذين المثالين على أنّهما يشكّلان آياتٍ سماويّةٍ مرعبة، أتبع ذلك بقوله تعالى ﴿**ونخوّفهم**﴾ أي أنّ المقصد من إيراد ذكر هاتين الآيتين السماويتين في بداية سورة الإسراء هو تخويف جميع أعداء الإسلام بما تضمنتاهما من نبوءات متعلّقةٍ بمصير اليهود والنصارى وسواهم من أتباع باقي الديانات السّماوية.

ولنلاحظ أيضاً أنّ الله عزوجلّ أضاف على كلمة ﴿**ونخوّفهم**﴾ نبوءة ثالثة وقال بحقّ هؤلاء جميعهم: ﴿**فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً**﴾ فقد أتى بفاء الاستئناف لينبّه إلى مضمون هذه الآية السّماوية الثالثة وهي أنّ هذا التّخويف الوارد في سورة الإسراء وفي الآية التي قررت عاقبة ومصير اليهود لن يفيدهم في مجال تقبّل دين محمد (ﷺ) بل مايزيدهم هذا التخويف إلاّ طغياناً أي ثباتاً على عقائدهم وتجاوزاً للحدود والأعراف والقوانين، ولايكون طغيانهم هذا عادياً بل كبيراً يطال جميع الصُّعد والأزمنة، وكأنه جل شأنه يصوّر وبهذه الألفاظ المعدودات مكائد اليهود التي اشتمل عليها تاريخهم الطّويل. فلم تحدث فتنةٌ في مكان ما من العالم إلاّ ويكون لليهود فيها يدٌ ومكيدةٌ وتجاوزٌ للحدود. وستؤلّفُ هذه المكائد في المستقبل آيةً ودليلاً على صدق هذا الذي أنبأ به القرآن المجيد عن مكائد وطغيان اليهود الكبير فتوضع بحقّها عشرات المجلّدات.

وهكذا يكون التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة الإسراء: من ضرورة تنظيم الدعوة إلى سبيل الله، إلى التّحذير من الشّيطان ومكائده، وإلى الإنباء عن دمار شامل سيحلّ بالعالم إلى توجيه أنظارنا نحو هذه الآيات السّماويّة المخوفّة والمفزعة. أقولُ: إن جميع هذه الأمور اقتضت في هذا المقام التّذكير بقصّة آدم المجازية وبما تضمّنته من أقوال على لسان إبليس وبلسان حاله لتؤكّد على المقصد الثالث الكبير من هذه القصّة وهو التّحذير من الفريق الكافر الذي يفكّر بتفكير مادّي في مواجهة ذرّية آدم الذين يفكرون بتفكير روحاني. والتّحذير من ذرّية إبليس المتمثلة باليهود والنصارى خاصّةً والمتواجدين أيّام انحطاط المسلمين المتخلّفين المهملين الدعوة إلى سبيل الله عزوجلّ بشكل منظّم والمنقسمين على أنفسهم إلى مذاهب وأحزاب والمتواكلين على زعمائهم السيّاسيين لإعادة مجد الإسلام ورفع الضُّر عن العالم الاسلامي. مُتناسين أنّ زمانهم يماثل زمن بعثة

المسيح الناصري، وأنه يقتضي ظهور المسيح الموعود. خصوصاً وأنّ تدمير بغداد على أيدي هولاكوخان يُماثل ماحدث لليهود بعد بعثة داوود عليه السلام.

فهذا كلّه يكشف عن تسلسل موضوعيٍّ بالغ السّبك بلاغياً ضمن هذه الآيات جميعها وبين المقصد الثالث العظيم لقصة آدم المجازية، ويفسّر لنا بكامل الوضوح سرّ طلب إبليس في سورة الإسراء ﴿**لئن أخّرتن إلى يوم القيامة**﴾ فهو طلبٌ بلسان حاله وفيه الدلالة على ماسيقوم به زمن تخلّف المسلمين وقيام قيامتهم وهو الزمان الذي نُعاصره يقيناً. فقد أهمل المسلمون اليوم الدعوة إلى سبيل الله ونزغ الشيطان بينهم . لذلك راح هذا الشيطان يستغيبهم ويطعن في أخلاقهم ويذكرُهم بالقبيح من القول ، ويُغري بعضهم على البعض الآخر ، وأتى هذا الشيطان باليهود الذين يمثّلون هذه الشجرة الملعونة في القرآن أتى بهم إلى فلسطين بوعدٍ من بلفور . وها أنّ اليهود والنصارى ماتزيدهم نبوءات القرآن الكريم بحقّهم إلا طغياناً كبيراً. كما يكشف هذا التسلسل الموضوعي عن سرّ قول إبليس في سورة الإسراء أيضاً: ﴿**لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً**﴾. فالمقصود من ذرّية آدم هنا هم أتباع محمد رسول الله (ﷺ). والمراد من ﴿**إلا قليلا**﴾ هنا الإشارة إلى ماورد في سورة الواقعة (١٤) ﴿**ثلّة من الأولين، وقليل من الآخرين**﴾. فليعد القارئ إلى ماكتبته في فصل سورة الواقعة من كتاب ﴿**فن الاختزال**﴾. فقد كتبت هناك أقول: "استهلّ الله جل شأنه هذه السّورة بقوله تعالى: ﴿**إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضةٌ رافعة**﴾. والواقعة في اللّغة تفيد المصادمة والحرب والنّازلة الشديدة.(محيط المحيط) وقد ربط تعالى بهذا الاستهلال مابين سورتي (الرحمن والواقعة) وكأنّه قال: إنّ ماأنبأت عنه سورة الرّحمن من عذابٍ ودمارٍ سيحلّ بمعسكري الأمم الغربية هو واقعٌ لامحالة، ولامحيد عنه. وسيُسفر عن اختلال موازين القوى في العالم، فتزول قوى وتبرز قوىً جديدة إلى مسرح الأحداث.. وانطلق الله عزوجلّ يعطي فكرة في سورة الواقعة ـ وبليغة الدّلالة عمّا ستسفر عنه هذه الحرب الضروس التي أنبأ تعالى عنها. فقال: ﴿**إذا رُجّت الأرض رجّاً. وبُسّت الجبال بسّاً. فكانت هباءً مُنبثّاً**﴾.. وقد أنبأ جلّ شأنه في سورة الواقعة أيضاً ـ بعد ذلك عمّا ستسفر عنه هذه الواقعة وقال: ﴿**وكنتم أزواجاً ثلاثة: فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة.. والسّابقون السّابقون. أولئك المقربّون. في جنّات النعيم.**

ثُلّةٌ من الأولّين. وقليلٌ من الآخرين.﴾.. ولّما كانت هذه الأنباء الغيبيّة تحيطُها هالةٌ من الاعجاز الغيبيّ، و لم تكن لتدُرَكَ من دون مُعطيات. فقد عمد تعالى إلى القَسَم في سورة الواقعة ـ وقال: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم. إنّه لقرآن كريم. في كتاب مكنون لايمسُّه إلاّ المطُهرّون. تنزيلٌ من ربّ العالمين. أفبهذا الحديث أنتم مُدهنون؟**﴾.

وهذه الحقائق جميعها تفسّر لنا ما أجاب به الله عزوجلّ وبلسان حال إبليس، فهو قال: ﴿**قال إذهب فمن تَبِعَكَ منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً**﴾. أي أنّ مايخوّف الله تعالى به اليهود والنصارى ذريّة إبليس من هذا العذاب الشامل الذي أحاط بالنّاس سيحمل منظراً جهنميّاً لهؤلاء وللّذين اتبّعوهم وتولّوهم من مسلمي عصرنا، وسيكون هذا العذاب الأرضي لهؤلاء جميعهم ﴿**جزاءً موفوراً**﴾. أي موفّراً مؤجّلاً لإنزاله بساحتهم.

و لم يكتف الله عزوجلّ بهذه الإجابة بلسان الحال والتي تحمل هذه النّبوءات المخفيّة. بل أضاف معلومةً غيبيّةً عظيمة أخرى وقال: ﴿**واستفزز من استطعت منهم بصوتك، واجلب عليهم بخيلك ورَجِلِك، وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدهم، ومايعدُهُم الشيطان إلاّ غروراً**﴾. منوّها بذلك إلى أنّ أعداء الإسلام الذين يمثّلون الاسم الوصفي الثاني لإبليس وهو اسم الشيطان، سيبلغون زمن تخلّف ذرّية آدم أي زمن تخلّف وانحطاط وانقسام أمة محمد رسول الله (ﷺ)، سيبلغون شأواً بعيداً في القوّة والمَنَعَة ويعودون يفوقون المسلمين عدداً وعُدداً، ويعودون يهدّدون الإسلام في عُقْرِ داره بما سيكون لهم من صوتٍ مسموعٍ في العالم (بصوتك) وبما سيكون لهم من جيوش جرّارة ومجهّزة بأسلحة فتّاكة (واجلب عليهم بخيلك ورَجِلِك). وبما سيكون لهم من هيمنةٍ اقتصاديّة على مصادر ثروات المسلمين كالنّفط مثلاً (وشاركهم في الأموال والأولاد)، وبما سَتَعِدُ هؤلاء المتخلّفين من وعودٍ مُغريةٍ إن هم استسلموا لمخطّطات مؤتمراتهم على الصّعيد الاقتصادي (وَعِدْهُم). ويُنهي الله تعالى هذه الأنباء التي تحققت جميعها في زماننا هذا، بقوله تعالى: ﴿**وما يعدهم الشّيطان إلاّ غروراً**﴾. أي أنّ وعود هؤلاء الذين يمثّلون ذرّية الشّيطان الذي تكلّمتْ عنه قصّة آدم المجازية وبلسان الحال لن تكون إلاّ من قبيل الكذب والخداع والتّضليل وذّر الرّماد في الأعين، وإلاّ فهم يهدفون من وراء تلك الوعود إلى تأمين استنزاف ثروات

المسلمين لصالحهم أنفسهم وليس لصالح المسلمين، لكنهم يمثّلون المسيح الدّجال الذي أنبأ رسول الله (ﷺ) عن ظهوره في آخر الزمان، أي زمان قيام قيامة المسلمين وهم أمة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

ولنلاحظ كيف أنّ قول إبليس وبلسان حاله الذي استثنى ﴿**إلاّ قليلاً**﴾ هذا القليل من المؤمنين الذين استعملّتْ لهم سورة الواقعة تعبير ﴿**ثلّة من الأولين، وقليل من الآخرين**﴾.

عقّب عليه جلّ شأنه قائلاً وبلسان حاله أيضاً، قال: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سُلطان، وكفى بربّك وكيلاً**﴾. فهو جلّ شأنه عاد فكرّر هنا كلمة (عبادي) التي أوردها من قبل في آية ﴿**قل لعبادي..**﴾. هذه الكلمة المُشتقّة من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلّ بين يديه وخدم دينه والتزم بأوامر شريعته ووحّده فلم يتخّذ له شريكاً في ملكه.

وعليه فمعنى ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلا**﴾ المقصود به الإشارة إلى جماعة هذا المجدّد المسيح الموعود المبعوث في زمن قيامة هؤلاء المسلمين. هذا المبعوث الذي سيعيد للإسلام حياته الرّوحية، فيشكّل عباداً لله جُلُّ همهم إطاعة ربّهم والخضوع له والتذلّل بين يديه وخدمة دينه والتزام أحكام الشريعة الإسلامية الواردة في هذا القرآن العظيم، وتوحيد هذا الإله الذي عبده آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران والذي بعث الله تعالى محمّداً حنيفاً يعيد الناس إلى عبادة هذا الإله الذي لاإله سواه. أقول: إن هذا المجدّد بعثه الله تعالى ليعيد عن طريق جماعته الوجه الحقيقي للتّوحيد الخالص من شوائب الشرك الجلّي والخفي.

فالله عزوجلّ قرّر من خلال ماضمّنه قصّة آدم المجازية الواردة ألفاظها في سورة الإسراء تحقيق المقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه جل شأنه منها هنا، وهو الإعلان أنّ أعظم المعارك التي ستخوضها ذريّة آدم، وذريّة الشيطان فيما بينهما ستكون زمن انخطاط المسلمين وتخلّفهم وظهور المسيح الدّجال كذلك زمن ظهور هذا المسيح الموعود الذي يكسر صليب المسيح الدّجال ويقتل خنزيره، وسيحلّ عذاب الله الشامل يومئذٍ بذرّية الشيطان ويحيط الله بهم بعذابه الشامل، ويصير الأمر يومئذٍ لله الواحد القهّار.

فما أخوف هـذه النّبـوءات، ومـا أعظـم هـذه البشـارات المرتبطـة بهـذا المقصد الثالث العظيم المُرتجى من صياغة قصّة آدم بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحـال أيضاً.

٨ـ المقصد الرابع لقصة آدم :

أما المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى الله عزوجلّ تحقيقه من خلال صياغته لقصّـة آدم صياغةً مجازيّة وبلسان الحال، فقـد كـان للتّنبيـه إلى وجـود نظـامين كونيـين، لكلٍ نظام منهما قوانينه الخاصّة به. نظام قوانين طبيعية لتسيير هـذا العـالم المـادّي ونَظْمِ مسيرته، وفق الخواص المُفوضّة إلى عناصره المادّية، من قبل الخـالق عزوجـلّ تفويضـاً محـدّد الفعاليّـة والدّائـرة. ونظـام قوانـين قدريّـة روحيّـة تختـصّ بالعـالم الروحاني ونَظْمِ مسيرته، وفق المشيئة الإلهية المباشرة. وهذا النظـام القـدريّ تعـود إليه قصّة آدم وبعثـات جميـع الأنبيـاء والمرسـلين والجماعـات المؤمنـة الصّادقـة في إيمانها، وأداته التنفيذيّة الرّوحية أيضاً وهـم ملائكة الله وجنـوده الذيـن لايعلمهـم إلاّ الله عزوجلّ وحده.

هذا وإن قصّة آدم المجازية نبّهت إلى أن إبليس الذي تمرّد على رسالة آدم وكفر بها، كان سبب ضلالته نظرته السطحية إلى هذا الكون المادي . وظنّه هـو وذُرّيته أنّ هذا الكون لاينظمه إلاّ قوانين نظام واحد طبيعي، فهـذا مـا أثمـر عنـه تفكير هذا الفريق بتفكيرٍ مادّي محض.

على حين أنّ الفريق الذي آمنَ بآدم ولم يكفر برسالته، انطلق انطلاقةً أعمـق مـن هذه النّظرة السّطحية بكثـير، انطلـق مـن وجـود الـهٍ خـالقٍ لهـذا الكـون ويُسيّره بقوانين نظامٍ قدرّي روحيٍ يهيمن ويسيطر على القوانين الطّبيعية ونظامها الكونّي المفوضّ إلى خواصّ المادة والمحدّد الدائرة والفعاليّة. وأنّ هذه الانطلاقة الأعمق التي انطلقهـا الفريـق الـذي آمـن بـآدم مكنّتـه مـن الاستظلال بهـذا النظـام القـدري الروحيّ، وعاد يفكّر في كل أموره بتفكيرٍ روحاني.

هـذه الحقـائق استنبطتها مـن أقـوال الله عزوجـل الـواردة في قصّـة آدم بلسان حاله، والمتناثرة هنا وهناك في هذه المواضع السّبع التي تعرّضت لإيراد قصّة آدم بألفاظٍ مختلفة وفق مااقتضاه تسلسل السّور الموضوعي.

فهذه سورة البقرة أوردت قصّة آدم المجازية بألفاظ مُجملة، فأشارت إلى الفريقين المؤمن والكافر، وإلى عاقبة كلّ منهما، إشعاراً منه جل شأنه لفكر الباحث المتدبّر إلى وجود هذين النظاميين الكونيّين والنّاظمين لنتائج أعمال كل فريق من هذين الفريقين. حيث أوردت قصّة آدم في سورة البقرة قول الله عزوجلّ: ﴿**فإمّا يأتينكم منّي هُدى فمن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.**﴾. فهو جلّ شأنه عبّر هنا عن حال الفريق المؤمن قائلاً ﴿**فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون**﴾. والمعلوم أنّ خوف الإنسان يتأتّى عن الأمور الآتية المُستقبليّة، فهي التي تحمل له المفاجآت السّارة وغير السّارة. أما حُزن الإنسان فلا يكون إلاّ على مافات. وهذه الجملة ﴿**فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾ والواردة بلسان حال الله عزوجلّ، تنطبق على الفريق المؤمن والذي يفكّر بتفكير روحاني ويخضع لسلطان قانون قدري مسنون لصالحه. ولاينطبق على الفريق الكافر الذي لايخضع لسلطان هذا القانون.

فالذي يعيش حياته بعيداً عن الاعتقاد بوجود خالقه، والذي لايلتزم بشرائع هذا الخالق وتعاليمه ويفكّر تفكيراً مادياً محضاً يحرم نفسه من هذه الميّزات التي اختصت بالمؤمنين.

وكأنّ الله عزوجلّ يقول هنا بألفاظٍ أخرى إنّ إبليس وذريّته إذا نظروا إلى الماء على سبيل المثال يلاحظون كونه سائلاً وبالتّجربة يتعرّفون على خواصه، فلا يرون ضمن هذه الدائرة أيّةَ يدٍ خارجةٍ عن هذين الأمرين المذكورين ـ فلا يفكرون بتفكير أعمق ولاينطلقون من أنّ هذا الماء مخلوق وأن خالقه قد فوّض إليه خواصّه وأنّ الله الخالق قادرٌ على سلب الماء خواصّه في أيّ وقت أو مكان يشاء. هذا الأمر الذي يؤمن به الفريق المؤمن الذي يُفكّر بتفكير روحاني ويؤمن بوجود نظامين كونيين. وكأن الله عزّوجلّ قال بألفاظٍ أخرى هنا أيضاً أنّ لهذا الاختلاف في المُنطلق العقائديّ نتائجه أيضاً وعواقبه. وهذه النتائج والعواقب التي يحصدها الفريق المؤمن أنّه يحيا حياة اطمئنان وسعادة ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. أمّا الفريق الكافر فيحصد نتائج وعواقب مُنطلقه هذا أيضاً فلا يَسْعَدُ ولايجد الطّمأنينه في حياته الدنيا، بل يظلّ يخشى ما سيفاجئه به مستقبله وتراه دوماً يحزن على مافات. فهو في حقيقة أمره يحيا حياة خلودٍ في نارٍ مُستعرةٍ في

صدره. فهذا إجمال ماأتى به قول ربّنا عزّوجلّ في قصّة آدم المجازية في سورة البقرة. فالألفاظ المُصاغة هنا أتت لتعطي القارئ نظرةً شاملةً عن الفريقين المؤمن والكافر: فالمؤمن يحيا في حياته الدنيا حياة اطمئنان بربّه وسعادةٍ كاملةٍ . والكافر يحيا حياته الدّنيا لايعرف فيها ضمناً لاسعادةً ولا أطمئنان.

فإن نحن انتقلنا إلى سورة الحجر التي أوردت قصّة آدم المجازية هذه . نلاحظه جلّ شأنه أنّه حذف جملة ﴿**فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾. وقال هناك : ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتبعك من الغاوين. وإن جهنّم لموعدهم أجمعين**﴾. كذلك فإنه قال في سورة الإسراء: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلا**﴾. فإن انطلق القارئ مُنطلقي من أنّ قصّة آدم مجازيّةٌ وبلسان الحال. وراح يتدبّر هذه الأقوال الثلاثة، فلا يجد بينها من فارق موضوعي إلاّ فارق الإجمال والتفصيل واختلاف الألفاظ. إلى جانب أنّها تكملّ بعضها بعضاً ضمن إطارٍ موضوعي عام.

فإذا دقّقنا فيما أوردناه من سورتي الحجر والإسراء نلاحظ ورود ألفاظٍ ثلاثةٍ جديدة فيها هي (عبادي ووكيلا وليس لك عليهم سلطان). فهيّا نتدبّر دلالات هذه الألفاظ لغوياً وعطاءاتها موضوعيّاً.

إنّ كلمة (عبادي) اشتقت من عبد الله أي آمن به وخضع له وأطاع وذلّ بين يديه والتزم دينه وخدم هذا الدّين وتبرأ من جميع أنواع الشرك وعاد من موحّديه. أي أن موضوع كلام الله هنا يدور حول زمرة المؤمنين الذين استحقّوا من جانب ربّهم تسميتهم بعباده والذين استوفوا فكرياً وسلوكياً جميع دلالات هذا اللّفظ. فكلمة عبادي لاتعني المؤمنين المصّلين أو الصائمين أو المؤدّين لأحد أو لمجموع مانُسميه عبادات. بل إن مدلول كلمة عبادي أوسع دلالة من ذلك بكثير. فلا يُسمّى عبدٌ لله تعالى إلاّ المؤمن الذي زاد على أداء هذه العبادات المنصوص عليها في كتاب الله تعالى عدّة أمور أخرى أهمّها التزام جانب طائفة المؤمنين وأداء الواجبات المترتّبة على هذا الإلتزام والتذلّل والخضوع والدعاء بين يدي الإله الذي آمن به، واجتناب كلّ خطوةٍ وسلوك يُستشمّ منه رائحة الشرك بالله عزوجل، فكلّ مؤمن اتّصف بهذه الصفات لايعود للشيطان عليه من سبيل وبالتالي فلا خوفٌ على أمثاله من المؤمنين ولاهم يحزنون.

والكلمة الجديدة الثانية التي احتوتها الآية من سورة الإسراء هي كلمة (وكيلا). هذه الكلمة التي صيغت على وزن فعيل بمعنى فاعل، وحفيظ موكول إليه أمر الحفاظ على من احتسبه ليتّخذه وكيله بصورة عملية واحتسبه في كلّ مايعرض له من أحوال. أي أنّ الجدّة في موضوع كلمة (وكيلا) أن تضيف إلى دلالات كلمة عبادي معنى وهو أنّ هذا المؤمن الذي استوفى دلالات كلمة العبودية، لاينطلق في ذلك بعقل تقليدي بل بيقين قلبي راسخ أن معبوده يملك القدرة غير المحدودة على حماية عبده من مكائد الشيطان والمحافظة عليه بشكل مُلفتٍ للأنظار. أي أنّ المعنى الذي يضيفه لفظ "وكيلاً" على دلالة ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ هو أنّ هذا النوع من المؤمنين احتسبوا ربّهم وتوكّلوا عليه في كلّ مايُقدمون عليه، وتكون نتيجة ذلك أنّ الله تعالى أضحى يدافع عن هؤلاء المؤمنين ويجنّبهم كلّ مايؤذيهم ويحول دون تطوّرهم وارتقائهم الرّوحاني. أي أنّهم بلغوا مرحلة النفس المطمئنة بربّها والرّاضية بكل شيء تتعرض له وتواجهه في طريقها. ولاتشكُّ للحظةٍ واحدةٍ أنّها بمنأى عن ربّها الذي يرعاها بحفظه ورعايته.

والكلمة الثالثة الجديدة التي احتوتها الآية من سورة الحجر هي كلمة (سلطان) إذ ورد هناك: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتّبعك من الغاوين**﴾.

وكلمة سلطان تعني الحُجّة كما تعني التسلّط والشدّة والقدرة والملك. أي أنّ الجدّة التي أضافتها هذه الكلمة على دلالة ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ هو أنّ الذي يستوفي دلالات كلمة العبودية فكراً وسلوكاً، وبفؤادٍ راسخ اليقين بقدُرات ربّه الذي احتسبه وتوكّل عليه.

إنّ هذا العبد الصالح يثبّته الله عزوجلّ في المواقف الحرجة بالقول الثابت أي بالحُجّة والبرهان القاطعين. أي يهبه الله ربّه العزّة على صعيد الفكر والحوار، على شاكلة ماوهبه السّعادة والاطمئنان القلبيين. وبذلك ينجو في المواقف الحرجة والشدّائد النازلة من جميع أنواع التسلّط وأحابيل إبليس وذريته التي إياه يكيدون.

فإن نحن استعرضنا جميع هذه الدلالات التي أفادتها بها هذه الألفاظ الثلاثة نخلص منها إلى القول: إن الفريق المؤمن العابد ماعاد للقوانين الطبيعيّة المجرّدة العائدة لهذا النّظام الكونيّ المادّيّ ، ماعاد لهذه القوانين وحدها السّلطان

عليه على شاكلة ماها على إبليس وذرّيته من أصحاب التفكير المادي. بل تدلّ هذه الدلالات مجتمعةً على أن هذا الفريق المؤمن العابد عاد يخضع في الوقت نفسه لقوانين النظام الكونيّ الثاني، وهي القوانين القدريّة الروحية التي تمثّل إرادة ومشيئة الله المباشرة والتي أوجدت لصالح هؤلاء العابدين .إرادة ومشيئة الله تعالى الّتي فوّضت إلى العناصر المادية خواصّها والقادرة على تحويلها وجهتها بما يكون في صالح هؤلاء المؤمنين.

ولايَغرّن القارئ أنّ الفريقين المؤمن والكافر عُرضةً للتأثُّر على حدٍ سواء بالمتغيّرات الجويّة وبتأثيرات الكواكب والنجوم وبالأمراض والأعاصير والزلازل وغيرها من المؤثّرات. فالتأثّر بهذه العوامل الطبيعية هو أمرٌ طبيعيٌّ ولاعلاقة له بمدلول ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾. ذلك أن هذه الألفاظ لاعلاقة لها بالمؤثرات الطبيعية، بل بالعاقبة ومكائد إبليس وذرّيته، فلا ينبغي أن يخلط المرء بين هذا وذاك.

ثم إنّ هذه الظاهرة لاتنتقص من قيمة العاقبة الحسنة التي تبشّر بها هذه الألفاظ ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾. ذلك أنّ هناك فرق واضح مابين مفهوم التأثّر بالعوامل الطبيعية ومابين مفهوم السيطرة والسلطان. وهل هناك حاكم في هذه الكرة الأرضية لايتأثر بالأمراض وأمثالها من هذه المؤثرات الطبيعية؟ ومع ذلك فلا ينتقص هذا الواقع من شأن أيّ حاكمٍ وسيادته ولايعيبه أحدٌ في ذلك. ويظلّ حاكماً لرعيّته. على اعتبار أنّ الجميع بشرٌ ويستوون على صعيد تلقّي هذه المؤثّرات.فالله تعالى وبهذه الألفاظ ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ يتكلّم عن عاقبة العباد المؤمنين وليس عن علاقتهم بهذه المؤثّرات الطبيعيّة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ الفريق المؤمن الذي يفكّر بتفكير روحانيٍّ، ومُدركاً أنّ تأثره بالعوامل الطبيعية من حوله هو شيء طبيعي بالنسبة لَه ويستوي فيه والفريق الكافر الذي يفكّر بتفكير مادّي ، يدفعه فهمه وإدراكه هذا للتصرّف في سلوكه اليوميّ على أسسٍ ومنهجٍ علميٍّ. منطلقاً من أن الخالق الذي خلق العناصر المادية قد فوّض إليها خواصها ومؤثراتها، ومن واجبه التعامل معها بأسلوبٍ علمي.

لكنّ هذا العبد المؤمن نفسه إذا واجهه فريقاً كافراً و يُهدّده بكثرة عَدَدِهِ وعُدده وأحابيل مكائده. لايخشى مواجهة هذا الفريق وإن كان هو أقل منه عُـدّة وعتاداً. ليقينه بخضوعه لنظام كوني قدريٍّ على هذا الصّعيد. مُدركاً حكمة ماقصّه عليه كتاب الله العزيز بشأن ابراهيم عليه السلام الذي حكم عليه قومه بالإعدام حرقاً. فلم يخش ابراهيم ماقررّه قومه لتقرير مصيره. وبالتالي قال الله تعالى : ﴿**يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم**﴾. فالله جل شأنه قال هذا من منطلق كونه يتجلّى كمالِكٍ لهذا الكون لحماية رسله وجماعات المؤمنين. أما دون ذلك فلا يتجلّى إلا كمِلكٍ في نطاق هذه القوانين الطبيعيّة الكونيّة المسنونه.

وهذه الحقيقة وجهتنا إليها سورة الفاتحة من خلال جواز قراءة آية ﴿**مالك يوم الدين**﴾، قراءتها ﴿**مَلِكِ يوم الدّين**﴾. وقد كان من جُملة مقاصد جواز هاتين القراءتين، تنبيه أذهاننا إلى ماتضمّنته قصّة آدم المجازية لحقّ عاقبة كُـلٍّ من هذين الفريقين: الفريق المؤمن الذي يمثل ذريّة آدم، والفريق الكافر الذي يمثّل ذريّة إبليس. فالله إذ يبعث رسولاً لتطوير البشر، يتجلّى وقتئذٍ كمالِكٍ ليتصرّف في هذا الكون المادي كما يشاء، ولينصر رسوله والمؤمنين، ويظلّ في الوقت نفسه يتجلّى كملك ليتصرّف في هذا الكون المادي ضمن القوانين الطبيعية المسنونة بالنسبة لأعداء رسوله والذين آمنوا معه. وبذلك يحقّق للفريق المؤمن ماوعدهم به في كتابه العزيز.

فبهذا الفهم لأقوال الله عز وجلّ الواردة في قصّة آدم المجازية وبلسان حاله جل شأنه، يتجلّى لنا المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى ربّنا تحقيقه من وراء هذا الأسلوب في صياغة قصّة آدم عليه السّلام. فهو جل شأنه قصد توعيتنا بأمر وجود هذين النظامين الكونيّين، وأنّه لايدرك وجودهما إلاّ العبد المؤمن الذي يفكر بتفكيرٍ روحيٍ.

أي أنّ هذه الأقوال الإلهية الواردة بلسان الحال تنبّه ذهن المؤمن المتدبّر إلى أن هذا الكون المادي لايسير من نفسه، وإن بَدا كذلك ظاهرياً. بل تحكم مسيرة هذا العالم المادي حكومةٌ سماويّةٌ تفعل ماتشاء وقادرةٌ على ماتشاء ولايخفى عنها شيءٌ في الأرض ولافي السّماء. وهذه الحكومة السّماوية هي التي تتّخذ القرارات النافذة وتقرر عاقبة المؤمنين من ذرّية آدم وعاقبة الكافرين من ذريّة

إبليس . وإشارةً إلى هذه الحقيقة وردت هذه الأقوال التي أوردناها وشرحناها واستنبطنا منها هذه الحقيقة وهذه الدّلالات.

٩ً - المقصد الخامس لقصّة آدم :

ثم إنّ الجملات الواردة في قصّة آدم المجازية وبلسان حال الله عزوجلّ والموجّهة إلى ملائكته، تعبّر عن المقصد الخامس العظيم الذي ابتغى جل شأنه تفهمينا إياه من وراء صياغتها بهذا الأسلوب المجازي.

أي أنّ ألفاظ مخاطبة الله لملائكته كان المقصود به تنبيه أذهان المؤمنين إلى مايحدث في هذه المملكة السّماوية كلّما قرر الله الربّ إرسال رسول لينقل البشر نقلة نوعية تطورّهم من حال إلى حال.

فهذه سورة البقرة التي أجمل الله عزوجلّ فيها قصّة آدم المجازية، استهلّها بقوله عزوجلّ: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾. أي أنّ أوّل مايحدث في هذا المملكة السّماوية هو إبداء صاحب هذه المملكة السماويّة مشيئته على جنوده التنفيذيين من ملائكته.

وهو تعالى نبّه أذهاننا من خلال قوله تعالى (إنّي جاعل) إلى أنّ القضيّة هي قضيّة اصطفاء أحد البشر، وجعله ينوب عنه في تحقيق مشيئته بينهم. ذلك أنّ الله عزوجلّ فسّر هذين اللفظين في مقام آخر من كتابه العزيز حيث قال هناك: ﴿**ياداوود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالعدل**﴾. أي أنه ليس المقصود من هذه الألفاظ ابداء الإرادة القاضية بايجاد مخلوق جديد. بل دلالتها على الإصطفاء من بين أفراد المخلوق الموجود أصلاً خليفةً للّه من بينهم. ليحكم وينفّذ إرادة ربّه بالعدل بين النّاس. ذلك أنّ الخلافة تعني الأمارة والنيابة عن الغير بين الناس الموجودين لسبب من الأسباب (محيط المحيط).

أمّا في سورة (ص) فقد استهلّ جل شأنه إبداء هذه المشيئه بقوله: ﴿**إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين**﴾. فبين هذين الاستهلالين المُجملين تغيير في انتقاء الألفاظ ودلالتهما وإن كانت واحدة الدّلالة منهما تختلف عن الأخرى من حيث زاوية النّظر المنظور بها لإبداء هذه المشيئة الإلهية.

فجملة سورة البقرة انطلقت من بيان الغاية وهي الاستنابة برسول عادل. بينما انطلقت جملة سورة (ص) من زاوية توضيح الوسيلة، وهي اصطفاء الشخصيّة

المطاوعة مضاوعة الضين لأيدي النّحاتين، وهو تشبيهٌ مجازيّ. أمّا المضمون في كلتا الآيتين فواحد وهو التعبير عن مشيئة الاصطفاء.

وهذا الاستهلال وُجّه الخطاب فيه إلى الملائكة في كلتا الآيتين. لتنبيه الأذهان إلى أنّ الملائكة هم الجنود التنفيذيّون المكلّفون بتنفيذ مشيئة الله والمخلوقين على هذه الحال، أي يفعلون مايؤمرون.

ثم إنّ هذه الإستهلال افتُتح بجملة ﴿**وإذ قال ربّك**﴾ واستعمل فيها صفة ﴿**ربّك**﴾ فلم لم يأت جلّ شأنه عوضاً عن صفة الربوبيّة هنا بصفة أخرى؟ الجواب إنّ انتخاب هذه الصّفة تحمل ملاءمةً تامّةً مع التّسلسل الموضوعيّ. فالله عزّوجلّ أراد تنبيه أذهاننا إلى أنّ قصّة آدم المجازية ترتبط ارتباطاً وثيقاً وموضوعياً بصلة الله بمخلوقه البشر، وبالنقلات النوعيّة التي يحدثها هذا الخالق في مسار تطوّر هذا المخلوق. ومن مُنطلق أنه تعالى هو ربّ العالمين.

وهو جلّ شأنه من خلال لفظي و "إذ قال" نبّه أذهاننا أيضاً إلى أنّ حكومة الله السماوية تختلف عن الحكومات الأرضية اختلافاً جذرياً. فالقوّة التنفيذية في الحكومة السّماوية مخلوقة على صورةٍ تنتظر صدور إشارة الخالق مُعبّراً عن مشيئته وإرادته فمعنى وإذ قال أي وإذ عبّر بلسان حاله عن مشيئته وإرادته لملائكته، ولاحاجة هناك للرّجوع إلى دساتير ومجالس برلمانية وتشريعاتٍ واتّخاذ قرارات وانزال عقوبات بالمخالفين. فملائكة الله عزوجلّ (يفعلون مايؤمرون) طواعيةً على أساس أنّ خالقهم قد خلقهم على هذه الشاكلة لأنه الخالق وفعّال لما يريد، وليس الله تعالى وهو في حكومته السماوية بملكٍ يتقيّد بدساتير ومجالس تشريع ولاتّخاذ قرارات، كما هو الحال في الحكومات الأرضية. الأمر الذّي يجلّي البون الواسع الكائن مابين حكومة السّماء وحكومات الأرض.

فهو جلّ شأنه حين يشاء إحداث نقلةٍ نوعيةٍ في حياة هذا المخلوق البشر، يتجلّى في العالم المادّي بصفته المالِك وليس بصفته الملك. لذلك يفلح في الوصول إلى تحقيق مايريده، ويفشل إبليس وذريّته فيما يعدّونه خلاف مشيئته تعالى وفيما يخطّطون له ويسعون إليه. فهذا هو ما أراد الله عزوجلّ تفهيمنا إيّاه، بلسان الحال ومن خلال هذا السّبك البلاغي الواسع الدّلالات.

وبلسان الحال نفسه صاغ ربّنا عزوجلّ ماشاء أن يُطلعنا عليه من حال ملائكته وإمكانيّاتهم الفكريّة والغيبيّة وقال: ﴿**قالوا أتجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك**

الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إنّي أعلم مالا تعلمون﴾. وليشير جلّ شأنه بهذه الألفاظ المسبوكة سبكاً بلاغياً إلى أنّ القوة التنفيذيّة السّماوية، تدرك مُهمّتها إدراكاً لايفسح المجال لوقوع أيّ خطأ كان تنفيذاً لمشيئة الله عزوجلّ. ولاتُشبه في ذلك القوّات التنفيذية الأرضية التي لاتتحلى بتلك اللّياقة المدهشة. ويصدر عنها بالتالي أخطاء قد تسيء أحياناً للحاكم الذي أصدر تلك التعليمات.

فقول الملائكة صيغ بلسان حالهم ليعبّر لنا أن الملائكة فهموا من لفظ "خليفة" أنّ الله عزوجل سيصطفي بشراً فيطوّره ويُوسيد إليه مهمّة إحداث النقلة النوعية التي شاء أن يحدثها في مسار البشر وحياتهم.

وأنّ الرّسالة التي سيُحمّلها الله تعالى هذا البشر الذي اصطفاه خليفةً له اقتضت طرح أفكار وتشريع ومن ثمّ وتجميع طائفةٍ من المؤمنين الملتزمين كما اقتضت ظهور طائفةٍ مخالفين مكذّبين وبدء صراع أيديولوجي وحضاري وبالتالي حدوث إفساد في الأرض وسفك دماء. فهذه المعلومات جميعها أمكن للملائكة إدراكها بداعي ماكانت تحمله من مؤهّلات تؤهّلها لفهم مرامي وأبعاد مشيئة الله خالقها والذي خلقها وأودعها جميع هذه المؤهّلات. ولتكون قوةً تنفيذيّةً تسبّح بحمد الله ربّها وتقدسّه فلا تتمرد عليه بشكل من الأشكال.

لكنّ الملائكة أبدت عجزها عن إدراك ماوراء ذلك من علم فالمعنى أننا أدركنا مشيئتك وماستؤدي إليه ولانعلم شيئاً ممّا وراء ذلك. فما كانت الملائكة تعلم علم الغيب الذي يؤهلها لتنظير البُعد الكبير الذي كان يرمي إليه الله جل شأنه من تطوير البشر الذين كانوا يحيون حياة أشبه ماتكون بحياة الأنعام من حولهم، وإشارة إلى هذه الحقيقة وإلى بيان محدوديّة علم الغيب لديهم راح جل شأنه يوضّح ذلك بلسان حاله: ﴿**قال إني أعلم مالا تعلمون**﴾.

وبما أنه كان من مهمّة ملائكة الله أن ينفذّوا مشيئة ربّهم كلّما شاء الله عزوجلّ إحداث نقلةٍ نوعيةٍ جديدةٍ في حياة البشر لتطويرهم باتّجاه تحقيق المقصد من خلقهم. وكان هذا الخليفة الأوّل هو آدم عليه السّلام. فقد شاء ربّنا تنبيه أذهاننا إلى أن علم المخطط السّماوي الغيبيّ الذي كانت تقتضيه ربوبيته عزوجل لتحقيق ذلك المقصد من خلق البشر، كان جاهزاً بكامل عناصره، بالرّغم من كون الله قد خلق هذا البشر حرّ الفكر والإرادة والتصرّف. وأنّه جلّ

شأنه أصْلع خليفته آدم وهو النبي الأول ضمن سلسلة هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله جلّ شأنه خلفاء له ليُحقّقوا مايقتضيه هذا المقصد الأسمى من خلق الله هؤلاء البشر من نقلاتٍ نوعيّات. ولذلك لاحظناه جلّ شأنه يضيف قائلاً: **﴿وعلّم آدم الأسماء كُلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**. أي ها أنني أصْلعت هذا الخليفة آدم على أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سأبعثهم من بعده ليُكملوا مُهمّته كخليفة لربّه عزوجلّ. فهيّا أنبؤني بأسماء هؤلاء الأنبياء في وقتٍ ستكلّفون أنتم أيضاً بمهمّة مساعدتهم على تحقيق مهمّاتهم إن كنتم صادقين فيما ستنبؤني به. وراح جل شأنه يزيدنا علماً بمؤهّلات واستعدادات قوة مملكته السّماوية التنفيذيّة، ويقول وبلسان حالهم أيضاً: **﴿قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاّ ماعلّمتنا، إنّك أنت العليم الحكيم﴾**. ونبّهنا من خلال قول ملائكته وبلسان حالهم إلى حقيقة أنهم لايعلمون الغيب إلاّ ماعلمهم الله تعالى إيّاه. وأنا قلت آنفاً (أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء) من منطلق أنه تعالى استعمل صيغة (الأسماء كلها) و لم يقل جميعها فالكل يحتمل الاستثناء.

وبما أنّ قصّة آدم المجازية وردت مجملة في سورة البقرة، فقد اقتضى ذلك أن ينبّهنا أيضاً إلى أنّ آدم سينبئ عن أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى من بعده، وبالتالي ستتطلّع الملائكة على أسماء هؤلاء الأنبياء والمرسلين. لذلك أضاف يقول وبلسان الحال أيضاً:

﴿قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم، أي أنبئهم بأسماء أبرز الأنبياء الذين سأصطفيهم من بعدك ـ فلّما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون؟﴾. فنمّح جلّ شأنه من خلال قوله هذا وبلسان حاله إلى أنّه لم يخلق الملائكة فقط كقوةٍ تنفيذية سماوية تقوم بتنفيذ مشيئته عزوجل، بل إنه خلق أيضاً هذه السماوات والأرض وماتحمله من أسرارٍ غائبةٍ عن أذهان الملائكة والبشر، وكُلّها مسخّرةٌ وبما تحمله من أسرارٍ ومؤثّرات، لتأييد هذه السلسلة التي سيبعث رجالاتها خلفاء له كأنبياء ومرسلين لتحقيق ما اقتضته ربوبيّته تعالى لتطوير البشر إلى مرتبه المقصد من خلقه إيّاهم في هذه الحياة الدنيا وذلك كمرحلة أولى من ضمن المراحل القادمة من بعد موتهم جميعاً لإمرارهم بمرحلة متوسّطة برزخية قبل بعثهم للمرة الثالثة على درب حياة

الخلود. وهكذا تتضّح لأعيننا ملامح التّسلسل الموضوعي لقصّة آدم ودلالاتها بأسلوبٍ مجازيّ وبلسان الحال.

فإن نحن عُدنا إلى ما استهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازية الواردة في سورة الأعراف، نلاحظ اختلافاً بيّناً بين هذا الاستهلال وبين استهلالي سورتي البقرة و(ص) الاجماليين. ففي الأعراف قال تعالى: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**..﴾ فدخل جل شأنه في بيان تفاصيل ما أجمله منبّهاً الأذهان إلى أنّ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ لايعني بحالٍ من الأحوال أنّه تعالى يتكلّم عن بداية خلق البشر. بل يتكلّم عن أوّل نبيٍّ يريد لله تعالى اصطفاءه لينوب عنه في موضوع إحداث عمليّة أوّل نقلةٍ نوعيّة في حياة البشر المخلوقين من قبل آدم ومنذ ملايين السنوات والذين كانوا يحيون حياةً أشبه بحياة العجماوات.

هذه المعلومة أضافها جلّ شأنه من خلال جملة ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم**﴾ وبصيغة الجمع، والكلام فيها موضوعه البشر كافّة. وقد نبّه الله جلّ شأنه من خلال هذه الألفاظ أيضاً أذهان الباحثين إلى أمرين بارزين: الأول منهما الردّ على أصحاب النظريات الزاعمة أنّ قفزةً نوعيةً حدثت لأحد أنواع القرود الذي تطوّر من جرائها إلى بشر. هذا مايُستفاد من قوله ﴿**ولقد خلقناكم**﴾. والأمر الآخر هو أنّ هذا المخلوق البشر والذي تميّز عن بقيّة المخلوقات. بجوهرة العقل احتاج لتنميّة عقله ووعيه إلى ملايين السنوات حتى تمكّن هذا البشر من وعي النظام والقانون والخطأ والصّواب. فهذا مايُستفاد من قوله ﴿**ثم صوّرناكم**﴾ فالحرف (ثم) يفيد الترتيب. وتأخير صورناكم عن خلقناكم يشكّل قرينة لغوية تنقل معنى التّصوير هنا من معناه الحقيقي المتبادر إلى ذهن القارئ إلى معناه المجازي، ذلك أنّ إعطاء الشكل والصورة يسبق عمليّة الخلق أصلاً ولايكون بعده.

وكأنه جل شأنه بهذا الاستهلال من سورة الأعراف قال بألفاظٍ أخرى: لايظنّن ظانٌّ أنّ آدم كان أول بشر خلقناه بل أوّل نبيٍّ اصطفيناه، من بين هؤلاء البشر الذين مرّ على خلقهم ملايين الأعوام تشملهم ربوبيّة خالقهم وتصوّرهم أي تُكمل عقولهم وأفهامهم ووسائل معيشتهم.

وننتقل إلى مااستهلّ الله تعال به قصّة آدم المجازيّة في سورة الحجر. فهو تعالى شرع هناك يقول: ﴿**ولقد علمنا المستقدّمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإنّ ربّك هو يحشرهم إنه حكيم عليم**﴾. أي أنه جلّ شأنه أضاف هنا معلومة جديدة ، تتمثّل في تقسيمه تاريخ خلق هؤلاء البشر إلى قسمين: المستقدّمين والمستأخرين. مُعتبراً جعل آدم خليفة له الحدّ الزّمني الفاصل بين المتقدمين من البشر والمتأخرين عنه. والله تعالى بهذا التّقسيم وافق آراء مؤرخي تاريخ البشر كلّ الموافقة.

فالعلماء من هؤلاء اعتبروا أنّ البشر ترك آثاره التاريخية منذ مايعود إلى ماقبل عشرة آلاف عام تقريباً. أما قبل هذه المدّة فلم يترك هذا البشر آثاراً تاريخية تدل على أنه كان يحيا حياةً حضارية. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ تاريخ بعثة آدم قد تحقق خلال هذه المدّة المذكورة على وجه التقريب.

ومن ثمّ راح جلّ شأنه يقسّم الطّبائع إلى قسمين أيضاً ــ طبائع البشر ماقبل آدم أنّها كانت طبائع نارية. وطبائع آدم هذا الإنسان الأول وذريّته كانت طبائع صلصالية أي تستجيب لصوت ربّها المُتمثّل ببعثة آدم ومأتى به من تعاليم. أي أنّ لفظي من نار ومن صلصال، لايقصد بهما مايتبادر لذهن القارئ من دلالاتهما الحقيقية، بل يقصد تعالى معانيهما المجازية.

فهو تعالى راح يقول بعد التّقسيم الأوّل الذي ذكرناه: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون**﴾. فالمقصود بالإنسان هنا آدم خليفة الله في الأرض، لتعريفه جلّ شأنه لفظ إنسان هنا بالألف واللاّم المشيرين إلى معهود ذهني هو آدم عليه السلام. فطبيعة آدم كانت صلصاليّة كالفخّار المشويّ إذا قرع المرء بإصبعه عليه يسمع صدور صدىً عنه. فشبّه الله تعالى بذلك الطبيعة الآدمية بهذا التّشبيه على اعتبار أنّه استجاب لصوت ربّه وردّد صداه.

والمقصود بالجانّ هنا البشر المتقدّمين في وجودهم على زمن بعثة آدم. فطبيعة أولئك المتقدّمين الذين كانوا يعيشون في الكهوف، كانت طبيعةً نارية أي طبيعة ردود أفعال، لاتتّصف بالعقلانية ولا بالإتزان. وهذا معنى ماعبّر عنه جلّ شأنه بقوله: ﴿**والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم**﴾.

والله جلّ شانه أضاف يقول إضافةً إلى ماذكرناه: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه**

من روحي فقعوا له ساجدين﴾. فأضاف من خلال قوله هذا معلومةً جديدة. وهي أنّ آدم قد خضع لتوجّه ربوبية الله نحوه منذ نعومة أظفاره، فراح يصطنعه لنفسه ويسوّي طباعه، قبل أن يؤتيه الرّسالة. وهذه المعلومة تُفيد أنّ عمليّة التربية والتّسوية والتطوير هذه يحظى كلّ نبيٍّ بنعمتها إذا ما أراد الله عزّوجلّ أن يصطفيه لتكليفه بحمل رسالة سماوية، وهذه المعلومة تفسّر ماخاطب الله تعالى به موسى وقال في سورة طه (٤٠/٤٢): ﴿**إذ تمشي أختُك فتقول هل أدلّكم على من يكفلُهُ، فرجعناك إلى أمّك كي تقرّ عينُها ولاتحزن، وقتلتَ نفساً فنجّيناك من الغمّ وفتّاك فُتوناً، فلبثت سنين في أهل مَدْين ثم جئت على قدر ياموسى. واصطنعتك لنفسي، إذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري**﴾. والذي يُراجع سيرة محمد خاتم النبيّين من زاوية نظر هذه المعلومة التي وضّحتْها قصّة آدم المجازية هنا في سورة الحجر ستأخذه الدّهشة من كثرة مايلاحظه من واقعاتٍ تؤيّد ماذكرناه.

فإن نحن عُدنا إلى ماستهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازية التي أوردها في سورة (طه). نلاحظه جلّ شأنه قد قال هناك: ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى**﴾. وقد أضاف جلّ شأنه في هذا الموضع ومن خلال هذا الاستهلال معلومة جديدة أيضاً، وهي أن لاتحسبوا أنّ الإنسان الذي يصطفيه الله تعالى لرسالته، يعود بعد بعثته شخصاً معصوماً عن الخطأ كلاّ فكل إنسان خطّاء. لكن هناك فرق بين الذي يُخطئ متعمّداً الخطأ والمعصية، وبين الذي يخطئ غير مُتعمّدٍ ما أخطأ به، فالخطأ المتعمّد إثم، على حين أن الخطأ غير المتعمّد ذنبٌ لايرقى إلى مرتبة الإثم. وها أنّ قصّة آدم المجازية قد نبّهت إلى هذه المعلومة سلفاً. ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً**﴾. وقد أكدّ جلّ شأنه صحّة معلومته هذه، مشيراً إلى أنّ هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله الخالق فتح باب الاستغفار والتّوبة لجميع الناس بما فيهم الأنبياء أنفسهم. وإشارة إلى ذلك أضاف بعد ذلك قوله: ﴿**ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى**﴾.

فإن نحن استعرضنا ما أورده جل شأنه في سورة الكهف من قصّة آدم المجازية، حيث قال هناك: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه افتتّخذونه وذريته أولياء من دوني**

وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً. وقد كنت أوردتُ تفسير هذه الآية الكريمة ضمن تفسير سورة الكهف، وربطت بينها وبين التسلسل الموضوعي للسورة هناك.

أقول: لقد تضمّن هذا الاستهلال هنا معلومة تحذير شديدٍ من خطر الانسياق وراء ماتأتي به ذريّة ابليس من حضاراتٍ وإنجازاتٍ علميّة، وتتناسى استعمال هذه الأشياء بأسلوب تفكيرٍ روحاني.

أي أنّ الله عزوجلّ ينبيء هنا عن أنّ ذريّة إبليس التي تفكر بأسلوب تفكيرٍ مادي، لابدّ أن يتحقّق على أيديهم قيام حضارات، وإنجازات علميّة. وهم بسبب تفكيرهم المادّي لن يسخّروا هذه الإنجازات لصالح البشرية، بل لصالحهم أنفسهم، ولبسط هيمنتهم على غيرهم من شعوب الأرض. وهذا الأمر يتنافى والغاية من تسخير كلّ شيء لصالح الإنسانية جميعها وضمن حدودٍ وقوانينَ نصّ عليها هذا الكتاب السمّاوي العزيز. أي أنّ سورة الكهف أوردت تحذيراً سماوياً لصالح المؤمنين أنفسهم الذين يمثّلون ذريّة آدم في مواجهة ذريّة إبليس.

وسورة الإسراء، على حسب ما وضّحته من قبل وعلى ضوء تسلسل الآيات الموضوعي، راح الله عزوجلّ يصوّر ماأورده فيها من قصّة آدم المجازيّة النّتائج الوخيمة التي ستحلّ بالمسلمين زمن ظهور المسيح الدّجال، نتيجة عدم تدبُّرهم قصّة آدم تدبّراً موضوعياً، ولتجاهلهم جميع التحذيرات التي حذّرت منها قصّة آدم المجازية من الأخطاء المتوقّعة على أيدي ذريّة إبليس. أي أنّ المسلمين لم يفطنوا إلى أنّ قصّة آدم وردت بأسلوبٍ مجازي وبلسان الحال، وبالتالي لم يفطن هؤلاء المسلمون إلى المقاصد الخمسة الكبرى المضمرة في هذه القصّة أيضاً. لذلك يؤول حال هؤلاء المسلمين إلى الإنحطاط والتخلّف بصورةٍ طبيعية.

وعلى هذه الصّورة يكون القارئ قد أدرك دلالات قصّة آدم المجازية ومقاصدها الكبرى وهي القصّة المسبوكة بأسلوب بلاغي معجز يدهش عقول المتدبّرين، هذه القصّة القرآنية التي وُزّعت معلوماتها ومقاصدها ودلالاتها هنا وهناك في سبع سور من كتاب الله العزيز. ووفق ماكان يقتضيه التسلسل الموضوعي لكلّ سورةٍ من هذه السّور السّبع.

فالمفسّرون القدماء الذين تأثروا بآراء أهل الكتاب وبما نقلوه إليهم من معلومات حول قصّة آدم ـ هؤلاء المفسّرون الذين لم يتدبّروا النّصوص القرآنية

بمعزل عن التأثير المذكور ـ خبطوا في أمر شرح الآيات التي تكلّمت عن آدم خبط ناقةٍ عشواء، وشوّهوا بذلك الوجه البلاغي لهذه الآيات، وتركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه لتهجّمات أعداء الإسلام على مضمون هذه الآيات. حتى عادوا ينسبون إلى كتاب الله العزيز اشتماله على الأساطير الخرافية.

١٠ - قصّة آدم مجازيّة وبلسان الحال في التوراة والقرآن:

وقد يسأل امرؤ هنا: مامعنى أن ترد قصّة آدم في هذه التوراة المعاصرة بدلالاتها الحقيقية، وترد نفس هذه القصّة في كتاب الله العزيز بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، ولتتسبّب بالتّالي بجميع هذه الويلات؟

وجوابي المحمل هو أنّ قصّة آدم وردت مجازيّة في التّوراة وليس في القرآن الكريم وحده، ولم ترد هنا مجازيّة وهناك بدلالات الألفاظ الحقيقية. لكنّ رجال الدّين والمفسرون هنا وهناك وقعوا في خطأ واحد، وتسبّبوا بنفس النتائج الوخيمة التي أسفرت عن خطئهم جميعهم. فإن عاد القارئ وتدبّر ماأوردته التوارة المعاصرة من هذا المنطلق وبهذا المنظار، سيتوصّل يقيناً إلى صحّة ماذهبت أنا إليه. علماً بأنّ هذه التوراة لم تكتُب في حياة موسى نفسه، بل كتبت بعده بعدّة قرون وعلى السّماع وبدون توثيق.

وهو أمرٌ سبق لي أن أثبتّه في فصل مصداقيّة القرآن الكريم من هذا الكتاب. هذا وإنّي سأثبت طرحي هذا من أنّ قصة آدم الواردة في التوارة المعاصرة مجازيّة أيضاً وذلك في الكتاب الذي سأصدره بعنوان (خلق الإنسان) إن شاء الله العزيز.

والذي أريد لفت النظر إليه في هذا المقام هو أن أقوال الأنبياء ماقبل الإسلام كانت ترد بأساليب التّشبيه والمجاز وضرب الأمثلة بصورة عامة. والقليل من أقوالهم تلك كانت ترد بدلالاتها الحقيقية. وحكمة ذلك أنّ عقل الإنسان ماكان من النّضوج إلى درجةٍ تساعده على إدراك كلّ مايأتي به نبيّ عصره. خصوصاً وأنّ المعطيات العلميّة كانت غير متوفّرة أيضاً في أزمنة ماقبل نزول القرآن الكريم.

أمّا النّصوص القرآنية فقد أوردها الله عزوجلّ بدلالاتها الحقيقية إلاّ القليل النادر منها، بعكس ماكان يجري قبل بعثة محمد خاتم النبيين (ص). وهذا النّادر القليل كانت تعمل وراءه نفس الحكمة التي ذكرناها أيضاً. ولا مجال هنا لضرب الأمثلة والشّرح والتبيان.

ونعود إلى أصل بحثنا وهو الكلام عن اتّصال الله بمخلوقه البشر منذ أن خلق الله تعالى هذا المخلوق على سطح كوكبنا الأرضي. وقد ثبت لدينا حتى الآن أنّه جلّ شأنه كان يكلّم البشر من وراء حجاب طوال ملايين السنوات، ليساعد عقل هذا المخلوق على التطوّر والنضّوج فلمّا بلغ هذا العقل المستوى اللائق لإدراك مفاهيم الذنب والعقاب والقانون. اصطفى الله تعالى من بين هؤلاء البشر (الجانّ) الذين كانو يقطنون الكهوف. أكملهم عقلاً واتزاناً، وهو آدم عليه السلام، واختصّه برسالته ليحدث نقلةً نوعيّةً في حياة هؤلاء البشر، وذلك منذ مايقارب سبعة إلى عشرة آلاف عام، وابتدأ بذلك تاريخ الإنسان بعد أن نقله آدم من حياة التوحّش إلى حياة التهذيب والتحضّر. وانقسم الناس بذلك إلى فريقين: فريقٌ مؤمن يفكّر بأسلوب تفكير روحاني. وفريقٌ كافر يفكّر بأسلوب تفكيرٍ ماديّ محض لايحسب لوجود خالقه ولا للحياة القادمة بعد الموت أيّ حساب.

❀❀❀

الباب الثالث

الفصل الأول
صلة الله بالبشر بعد آدم

والسؤال الآن: ماهي معالم اتّصال الله تعالى بهذا الإنسان منذ بعثة آدم وحتى يومنا هذا؟ وماهي معالم ماحقّقته ذريّة إبليس أيضاً خلال المدّة نفسها؟

١ً - شعار رسالة آدم الحوار لا العنف :

وقبل الإجابة على طرفي معادلة هذا السّؤال. أرى من المناسب لفت نظر القارئ إلى أنّ آدم عليه السّلام، لم يعمد إلى العنف وسفك الدّماء من أجل نشر رسالته. أي أنّ الرسالة السّماوية تلك رفعت شعار السّلام والحوار بالحجّة والإقناع. ولم يحدث أن بعث الله عزوجلّ بعد آدم نبيّاً رفع شعاراً مغايراً للشّعار الذي رفعه آدم. إلاّ أن يضطّر النّبي لمقاتلة الذين يقاتلونه وبإذن من الله علاّم الغيوب والقادر على نصرة رسله وتأييدهم من وراء حجاب ولاتقع مسؤولية الردّ على العدوان ومقاتلة المعتدين في تلك الحال على أكتاف النّبي والذين اتّبعوه. بل تقع مسؤولية ذلك على المعتدين. فهذا هو المسار الذي التزم بمبادئه وشعاراته آدم وذريّته. هذا على حين أن إبليس وذريّته لم يرفعوا هذا الشعار في يوم من الأيام.

٢ً - حركات انقلابية مادية كبرى

والآن إن نحن استعرضنا الانجازات التي تحقّقت في الجانب الذي راح يفكّر دوماً بتفكير مادّي من ذريّة ابليس، تتجلّى لأعين المحقّق معالم خمس حركات انقلابيّة كبرى وهامة تركت أظلالها هنا وهناك. وكانت حاملة فلسفات خاصّة بها، وتحقّق على أيادي أصحابها إنجازاتٌ علميّةٌ أيضاً. فالحركة الآرية ظهرت في شبه القارة الهندية. وكانت دوما تشكّل لولب أحداث تلك المنطقة من العالم. كذلك ظهرت حركة رومانيّة من شبه الجزيرة الايطالية، وكانت ولاتزال تشكّل لولب أحداث الدّول الأوربية وحتى يومنا هذا. كذلك

ظهرت الحركة الفارسية التي ظهرت في فارس، وشكّلت لولب أحداث آسيا والصيّن.

والحركة الرابعة ظهرت في أرض بابل من العراق، فكان منشؤها بلاد مابين دجلة والفرات، وكانت تشكّل لولب أحداث غربي آسيا وشمالي أفريقيا، أمّا الحركة الانقلابية الخامسة فكانت مانُطلق عليه في أيّامنا هذه مصطلح الحضارة الأوربية ـ هذه الحركة التي اتّسمت بسمة التأثير العالمي. فهذه حركات انقلابية كُبرى برزت معالمها عَبْر تاريخ البشرية من بعد بعثة آدم عليه السّلام.

هذا وإن جميع ماحدث خارج أُطر هذه الحركات فقد كانت أظلالاً لهذه الحركات وثماراً. وإن تكن هذه الحركات قد بادت واندثرت وزال أعلامها ورموزها ومؤسّسوها من الوجود.

ثم إن الباحث المتعمّق في تاريخ البشر يُلاحظ أنّ هذه الحركات لم تظهر إلى المسرح، إلاّ بسبب ماكانت تحمله من أفكارٍ جديدةٍ وفلسفات.

٣ً - الحضارة الآرّية وطروحاتها :

فالحضارة الآرية طرحت فلسفةً طبقيّة، وهو أنّ البشر لايشكّلون طبقةً واحدةً تتساوى في صفاتها ومقوّماتها. بل يشكّلون طبقات منها العليا ومنها الدنيا ومنها الغنيّة ومنها الفقيرة ومنها القوية ومنها الضّعيفة، ومنها الذّكية ومنها الغبيّة. وأنّ روح الإنسان الميّت تعود إلى الحياة وتتقمّص مولوداً آخر ومن طبقة أخرى غير طبقتها، وعقيدة التّقمص هذه أثمرتها الفلسفة الطبقيّة المطروحة من قبل الذين أسّسوا الحضارة الآرية. ولاتزال شبه القارة الهندية تُعاني من مساوئ هذا الطرح الفلسفيّ الآري حتى يومنا هذا.

٤ً - الحضارة الرومانية وطروحاتها :

ثم إن الحضارة الرومانية ارتكزت إلى فلسفة القانون وحقوق الإنسان. وأنّ الإنسان يملك بالفطرة حقوقاً إنسانيةً ثابتة. الأمر الذي يقتضي سنّ القوانين لحماية هذه الحقوق الثابتة للإنسان.

هذا وإنّ الباحث الذي يتفّحص الحضارة الغربية المعاصرة تتراءى له معالم استنادها في سنّ قوانينها وتشريعاتها، إلى القوانين الرومانية القديمة هذه وبصورةٍ بارزةٍ أيضاً.

٥ - الحضارة الفارسية وطروحاتها:

والحضارة الفارسيّة تميّزت بفلسفتين بارزتين على صعيدي السّياسة والأخلاق، فقد انطلق مؤسّسوها من وجود ظاهرتي الخير والشر في هذا العالم. فزعموا وجود إلهين هما إله الخير وإله الشرّ. وشكّلت فلسفتهم تلك ركيزة أخلاقيّة حضارتهم القديمة. وقد أثمرت فلسفتهم المذكورة عن نظام سياسيّ متميّز، وهو نظام الشاهنشاهية أي ملك الملوك. الذي يمثل إله الخير. هذا وإنّ نظام الشاهنشاهية المذكور يتزعم عدّة حكومات مستقلّة. يستعين بإخضاعها لسلطانه من الحكومات على المتمرّدة على هذا النّظام، وقد قضت الثورة الخمينيّة على نظام الشاهنشاهية المذكور.

٦ - الحضارة البابلية وطروحاتها:

والحضارة البابلية اهتمّ أصحابها بعلمي الهندسة والفلك. وكانت فلسفتهم في هذه الانطلاقة هو أنّ الشمس والقمر والنجوم تسير بنظام طبيعي أساسه علما الهندسة والفلك. الأمر الذي كان يعني في نظر مؤسّسي الحضارة البابليّة أنّ علمي الهندسة والفلك لابدّ أن يشكلاً مفتاح تقدم أمّتهم وفلاحها ولتأسيس حضارة تتباهى بها بين جيرانها من الأقوام المحيطة بها. كما أنّ تطوير هذين العلمين سيساعدهم على اكتناه أسرار الفضاء أيضاً.

٧ - الحضارة الغربية المعاصرة وطروحاتها:

ونأت أخيراً إلى الحضارة الغربية المعاصرة. فنلاحظ استنادها إلى فلسفتين بارزتين الأولى منهما ضرورة التفكير بأسلوب تفكير ماديّ علمانيّ، أي الالتزام بأسلوب البحث العلميّ المنطلق من قواعد ثلاث هي الملاحظة والتجربة والاستنتاج. وقد أسفرت هذه الفلسفة المادية عن فلسفة لاحقة وهي فلسفة القوميّة. أي لايتأتّى نجاح الفلسفة المادية هذه إلاّ تحت شعار القوميّة.

ولاشكّ أنّ الذي يفكّر بتفكير ماديّ محض وبهذا الأسلوب العلمي، ولايحسب للموت والآخرة حسابها، لابدّ أن تغلب على هذا الإنسان روح الأنانية الضيّقة، ومن هنا تولّدت فلسفة القوميّات عند الغربيّين. ثم إنّ هذا الإنسان المادّي الأناني، سيميل بشكل طبيعي إلى الأخذ بأسباب التنعم والرفاهيّة، والبذخ والترف بلا حدود، ولابدّ للذي يسافر إلى بلاد الغرب أن يرى ويشاهد

ما آلت إليه تلك المجتمعات الغربية التي تمثل هذه الحضارة الغربيّة المعاصرة، فلن يطعن في أمرٍ واحدٍ ذكرته هنا للقارئ فيما يتعلّق بحضارة الغرب هذه. وبالإضافة إلى هذا وذاك فسيلاحظ هذا المسافر تأثر تلك الشعوب بالحضارة الرومانية القديمة أيضاً.

فهذه حركات انقلابية كبرى تأتّت على أيدي ذريّة إبليس وشكّلت على ممرّ الأيّام غذاءً فكرياً وعلمياً استمر عطاؤه وبصورٍ وأشكال مختلفة لكنّها جميعها ترجع إلى هذه الجذور الخمسة الكبرى بالرغم من أنّها تأسست على العُنف بمختلف أشكاله وليس على الإقناع والحوار، ورافقها سفك دماء وتوسّع في الأرض بالقوة. فالسؤال الذي يواجه الباحث هنا: أن كيف تحققّت لها هذه النجاحات والاستمرارية؟ بالرغم من كونها من عمل ذريّة إبليس، وبعيدة عن التفكير الروحاني؟

٨ً - سرّ نجاح هذه الانقلابات الكبرى :

الجواب يعثر عليه الباحث المتفحّص، أنّ هذه الحركات جميعها انتحلت صفة الرّسالة تقليداً لصفة الرّسالات السّماوية، فقد حاول أصحابها خِداع الناس زاعمين أنّهم يحملون رسالةً فلسفيةً نابعةً من واقع الحياة وقوانينها الطبيعية، وليست الفلسفة المادية الماركسية ببعيدة عن أذهان الناس وذاكرتهم أيضاً. فالذي ينتحل صفة رسالة ويدعّم رسالته الفلسفية المزعومة هذه بالعنف وسفك الدّماء بعيداً عن الحوار والإقناع بالحُجّة والبرهان، فبإمكانه تضليل الشعوب ولكن إلى حين. وقد حذّرت قصّة آدم المجازية من الأخطار الناجمة عن الانقسام الأوّل الحادث زمن آدم كلّ التّحذير. وهذه القصّة الآدميه وتحذيراتها تناقلها جميع الأنبياء وحذّروا بها أقوامهم. وها أنّ التوراة شاهدة على هذه الحقيقة ومع ذلك يميل اليهود إلى الفكر المادّي.

كذلك فبالرغم من أنّ القرآن الكريم نبّه عقولنا إلى هذه الحقائق التي تضمّنتها قصّة آدم المجازية، والذي أنزله ربّنا عزوجلّ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فمع ذلك يميل أكثر مُسلمي عصرنا إلى تجاهل هذا التحذير الإلهي، ويُهرول أكثرهم وراء المسيح الدّجال صاحب الفكر المادّي العلمانيّ. ويصدق عليهم قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلاّ كانوا**

به يستهزئون﴾. أي يستهزئون بما يحمله إليهم قول ربّهم عزّ وجلّ من حوارٍ مقنعٍ وتحذيرات من ذريّه إبليس وتوعّداته. فالعداوة التي ابتدأها إبليس القانط من رحمة ربّه، توارثها أبناؤه وذريّته جيلاً بعد جيل. فتشكلت من جرّاء ذلك سلسلتان في سجل تاريخ هذا البشر من بعد بعثة آدم: سلسلة ذرية آدم الروحانية وسلسلة ذريّة ابليس التي تفكّر بتفكيرٍ مادّي بعيداً عن كل شيء روحانيّ .

وها أنّي بصدد استعراضٍ ماأحدثه آدم ورسالته في حياة البشر من انقلابٍ حقيقي، وما أحدثته رسالات الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من بعده أيضاً من انقلابات حقيقية، ومن ثم فأوازن للقارئ مابين هذه الانقلابات ذات السّمة الرّوحية وبين هذه الانقلابات الخمس الكبرى المادّية، إن شاء الله العزيز، فقد أحدثت الرسالات السماوية ستّة انقلابات عظمى في تاريخ البشر، وأثمرت عن هذا الفكر التوحيديّ العظيم الذي تضمّنته آيات هذا القرآن العظيم بين دفتيه. هذا في مقابل الانقلابات الخمسة المادية التي أتينا على ذكرها. تلك الانقلابات الدّموية، وصاحبة الرّسالات المزعومة والتي لاتزال البشرية تئنّ تحت وطأة زيفها وبُطلانها.

❀❀❀

الفصل الثاني
الانقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة آدم

نتناول بالذكر أول انقلاب حقيقي أحدثته بعثة آدم في حياة البشر الذين ظلوا يختبئون في الكهوف أكثر من أربعة ملايين عام ونيّف ، على حسب مادلت على ذلك آثاره التي عُثِرَ عليها حتى الآن.

١ً - الفطرة البشرية واحدة :

وقبل الدّخول في تفاصيل ذلك أنبّه وأقول: لم تكن فطرة البشر القديم تختلف عن فطرتنا المعاصرة، فالنطفة كانت ولاتزال "نطفة أمشاج" ومغايرة لنطفة جميع الحيوان، فهذه حقيقة تُبطل ضمنيّاً الزّعم الداروينيّ من أنّ الإنسان حصيلة طفرةٍ نوعيةٍ. وهذا مفتاحٌ علميٌ أضعه بين أيدي الباحثين. ثم إنّ هذه الفطرة البشرية مؤلّفه من مزيج قويٍّ باطنيّة أخلاقية متضادّة كقوتي الحبّ والبغض والشجاعة والجبن والكرم والبخل والتّضحية وحبّ الذات، إلى جانب ميولٍ خيّرةٍ وميولٍ فاسدة وإلى جانب شهواتٍ جنسيةٍ حسدية، ولولا التعاليم السّماوية لَما كان قد وُجدَ تمايزٌ مابين خيرٍ وشرّ. فالذين لا ينصبغون بصبغة الله، ومن أحسن منها صبغة؟ لابدّ أن يحيا حياةً غير سعيدةٍ، لأنّها تصير إلى حياة حرصٍ على المال، وحرصٍ على الأولاد، وحرصٍ على الجاه وحرصٍ على حسد الأغيار. وهذا الحرص كلّه ينقلب إلى عداوات تنغّص سعادة المرء وتحرفه عن المقصد من خلقه.

فهذا هو ما حدث للبشر الذين لم يستجيبوا لآدم ولتعاليمه ولصوته السّماوي. فقد أكل الحسد أكبادهم للفارق الكبير الذي تمايز به آدم والذين اتّبعوه عن أولئك الذين فضّلوا البقاء في كهوفهم.

وهذا الحسد والحقد الدّفين تجلّى من خلال ألفاظ: ﴿**فوسوس إليه الشيطان**﴾ فوسوس معناه: حدّثه بما لانفع فيه ولاخير (محيط المحيط). فآدم كان يبتغي هداية جميع البشر في منطقته. وهؤلاء جماعة إبليس الذين ناصبوا آدم العداء ماكانوا يملكون يومئذٍ إلاّ انتحال لباس المنافقين، والوسوسة بما لانفع فيه ولاخير. لذلك لم يتسنّ لإبليس أن يُحدث زمن آدم أكثر ممّا أحدثه. فبماذا وسوس هذا الشيطان إلى آدم من أمورٍ لانفع فيها ولاخير؟ لم يتطرّق القرآن الكريم إلى ذكر ذلك.

مكتفياً بالقول: ﴿**قال يآدم هل أدلّك على شجرة الخُلد وملكٍ لايبلى**﴾. وهذا كلامٌ مجازيٌّ عامّ متعلّق بالأمور المنهيّات وليس بالأمور المُباحات. والقصد منه التنبيه إلى أنّ ذريّة إبليس سيكون جُلّ همّهم أن يشيعوا الفاحشة بين المؤمنين ليشككوهم بتعاليم ربّهم وليحرموهم بالتالي من أسلوب التفكير الروحاني ومن تأييد الله الذي أمرهم أن يفكّروا بهذا الأسلوب من التفكير، وكأن هذه الألفاظ من هذه القصّة المجازية تصوّر حال غير المؤمنين تصويراً شنيعاً. فتعظ بأنّ ذريّة إبليس مخرّبون ليس إلاّ. فلا يكفي أن يؤتى الإنسان حُرّية التفكير والعمل، بل لابدّ له من واعظٍ وهادٍ يهديه سبيل استعمال ما أوتيه في فطرته من قوى كيلا تتصارعه قواه وميوله وشهواته ويتنزل بالتالي إلى أسفل سافلين.

أفلم ينتبه القارئ إلى هذه الحقيقة التي تضمّنها قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها. كذّبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها**﴾. (الشمس ٧ ــ ١٢). فكلّ من يكذّب هذه الحقيقة وطغواها، تنبعث من باطنه الشقاوة ويبتعد عن السعادة كلّ البعد ولايعود إلاّ مخرّبا في هذه المرحلة من حياته الدنيا.

٢- نقله نوعية أحدثها آدم :

والآن أحاول إبراز معالم هذه النّقلة النوعيّة وذاك الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة آدم عليه السّلام في حياة "الجنّ" أتي في حياة البشر سُكّان الكهوف، والذين كان قد مضى عليهم في حالة التوحّش تلك مايزيد عن الأربعة ملايين ونصف من الأعوام .

هذا الأمر ورد في سورة البقرة بصورة مُجملة من خلال قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء**﴾.

وورد هذا الأمر مفصّلاً وذلك في سورة طه ومن خلال قوله عزوجل: ﴿**فقلنا ياآدم إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يخرجنكّما من الجنّة فتشقى، إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولاتعرى. وأنّك لاتظمأ فيها ولاتضحى. فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلكٍ لايبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة، وعصى آدم ربّه فغوى. ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى**﴾.

فالله جل شأنه إذ أجمل في سورة البقرة ماأنجزته بعثة آدم عليه السلام، وهو تنبيه أذهاننا من خلال قوله تعالى ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ تنبيهنا إلى أنّ البشر سكّان الكهوف كانوا قد نضجت عقولهم وتمايزوا في أسلوب معاشهم عمّا حولهم من الأنعام في أواخر طور عصورهم الحجريّة وعادوا بأشدّ الحاجة إلى من ينقلهم نقلةً نوعيةً ويُحدث في حياتهم انقلاباً شاملاً واقتضت صفة الربوبيّة التي يتّصف بها خالقهم أن يرعاهم ويراعي ضرورات واقعهم الذي وصلوا إليه، فقرر الله تعالى جعل خليفةٍ له من بينهم في الأرض يُسوّي له عقله ويقوّم له سلوكه ويُعدّه ليُصبح هذا الخليفة أسوة لهؤلاء البشر يحتذون به ويمنحهم بذلك الحركة والتغيير ويحضّرهم.

والله جلّ شأنه قصد بمانقله عن الملائكة وبلسان حالهم: ﴿**قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدّماء..**﴾ قصد تنبيهنا إلى أن هذا الخليفة سيقيم نظاماً تحميه تعاليم وقوانين، تقتضي بالتالي سفك دماء وإنزال عقوباتٍ

بالمخالفين. أو قولوا إن هذه الجملات من سورة البقرة كانت تشير إلى ظهور آدم كنبيّ مُشرّع وصاحب فكر إنقلابي.

وقد راح الله عزوجلّ في سورة طه يفصّل لنا ماقام به آدم من نقلةٍ نوعيةٍ وانقلابٍ كبيرٍ في حياة هؤلاء البشر من سُكّان الكهوف. وهنا يتوجّب عليّ أن ألخّص للقارئ ما استشفّه علماء الآثار وغيرهم من علماء الطبيعة من المعلومات المتعلّقة بحالة البشر قبيل زماننا مايقارب العشرة آلاف عام أي حالهم الذي بلغوه بعد بقائهم في كهوفهم مايزيد عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام . وعلى اعتبار أنّ تاريخ البشر يعود إلى عشرة آلاف عام على وجه التقريب. وقصدي من تلخيص ذلك هو تمكين القارئ من معرفة وإدراك معالم اللّحمة الكائنة مابين واقع هؤلاء البشر المذكورين وبين ماأتى به آدم لتحضيرهم.

ألا إنّ الذي يطالع جميع ما ألّفه العلماء حول البشر وأحوالهم في عصورهم الحجريّة القديمة يتبيّن له من خلال تلك المؤلفات أنّ تاريخ وجود البشر على سطح كوكبنا الأرضي يعود إلى أكثر من أربعة ملايين ونصف من الأعوام على وجه التّقريب . وظلّ البشر خلال هذه المدة الطويلة يحيون حياةً بدائيةً وبأدواتٍ بدائيةٍ وعلى حالة واحدة يتغذّون بالصيّد الذي يصطادونه وبالثمار التي يجنونها من الأشجار البريّة. ويصنعون من أغصان الأشجار عُصيّاً يتّكؤون عليها ويستعملونها كهراوات وحربات. ويستغلّون العظام والحصى لنفس الغاية أيضاً وأنهم تعلموا ايقاد النّار منذ سبعمائة ألف عام تقريباً .

كما راحوا يلتقطون الأحجار الصّوانيه التي تنحلي عنها السّيول، فيتخذونها قذائف مقلاعٍ وسكاكين وماشابه ذلك. ثم تمكّنوا من صنع الثاقبات والفؤوس والمقادح والسكاكين بأنواعها المختلفة.

وإنّ البشر سكان الكهوف أخذت تنمو مواهبهم الفنيّة منذ مائتي ألف عام فراحوا يرسمون وينحتون على جدران كهوفهم مايكشف عن هذه المواهب الفنيّة البدائيّة. كما تعلّموا منذ مايقارب مائة وخمسين ألف عام دفن موتاهم في حفريات يحفرونها لهذه الغاية. وقد دلّت آثار البشر على أنّ البشر الذي يعود تاريخهم إلى فترة دفن الأموات كانوا يُشبهون الإنسان المعاصر كلّ الشبه في شكله الخارجي. وأنّ البشر قد بلغ قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام حدّاً متميّزاً من حيث وعيه وأدواته وأطعمته ودفن موتاه ومعالم فنونه، وأصوات تفاهم أفراده

فيما بينهم أيضاً. أو قولوا بألفاظٍ أخرى أنّ البشر قبل عشرة آلاف عام كانوا يطالبون بلسان حالهم أن يظهر الذي ينقلهم من حالهم تلك إلى حال أفضل من حالهم وليحدث في حياتهم انقلاباً كبيراً متميّزاً.

ولكن كيف ومن سيقوم بهذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير؟ فقد جاءت الآيات من سورتي البقرة وطه تكشف عن ذلك وبأسلوبٍ بلاغيّ معجز ويتفّق مع معطيات التاريخ.

ومما يثبت أنّ الله الرّب الخالق هو الذي كان يطوّر هذا البشر من حال إلى حال طوال تلك الفترة الماضية ووسيلته كانت التكلّم مع بعضهم من وراء حجاب. وها أن هذا الخالق الرّب قد بعث آدم عند حاجة البشر إليه يوم راح لسان حال البشر يطالب الخالق ببعثه لإحداث هذا الانقلاب الكبير. والذي لولاه لظلّ البشر في كهوفهم إلى هذا الزمان. فنحن مدينون لما أحدثه آدم في حياة البشر من تغيير وتبديل ، ودليلنا على ذلك أنّ العلماء الذين يفكرون تفكيراً مادياً ولايعودون إلى مُعطيات الآيات القرآنية قد وضعوا حتى الآن نظريات ونظريات، وجميع هذه النظريّات يُخمّنون فيها ماحدث لبشر الكهوف تخميناً ولايدرون شيئاً عمّن أخرج البشر من كهوفهم وطوّرهم وعلّمهم وحضّرهم؟ ولم يستطيعوا الحسم والجزم في هذا الأمر حتى هذه الأيام.

ففي سورة البقرة حيث ورد: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء..**﴾ دلّتنا هذه الألفاظ على أنّ الله عزوجلّ اتّخذ آدم خليفة له من جهة، وحضّر على يديه من آمن معه من سكان الكهوف أي أوجد الله تعالى من أجل تطوير سكّان الكهوف قيادةً وقانون. أي أنّه تعالى أوجد عن طريق بعثة آدم نظاماً سياسياً وتعاليم حضّارية، وبكلمة موجزة فإنّ مهمّة آدم انحصرت في أمرين اثنين: الأول منهما تبديل القيادة السياسيّة وقد كانت هذه القيادة تعتمد من قبل آدم على شريعة الغاب السّائدة في الكهوف والتي استُبدلت بقيادة آدم الرّوحية. وتمثّل الأمر الثاني في تأسيس مجتمع تعاوني تابع لهذه القيادة الروحية، وتنظّمه تعاليم وقوانين حضاريّة ويُعمل عليها خارج الكهوف أيضاً. وقد لخّص الله جلّ شأنه ذلك كلّه من خلال قوله تعالى في سورة البقرة وبالاجمال أيضاً: ﴿**وقلنا يا آدم**

اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

أي أننا أمرنا بإجراء انقلابٍ حقيقيٍّ في حياة البشر سكّان الكهوف، وهو أن يُغادرها آدم والذين آمنوا معه ليقطنوا خارج كهفه وفي منطقةٍ خصبةٍ رغيدة العطاء أي في جنّة من الأرض دللناه عليها، لتعريفه تعالى كلمة جنّة بالألف واللام العهدية. وقلت ﴿**والذين آمنوا معه**﴾ ذلك أنّ لفظ الزوج لايعني الزوجة فقط بل ويعني الجماعة والأتباع أيضاً (أقرب الموارد). ففي قوله تعالى ﴿**اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ دلالةٌ على الخروج من الكهف ودلالةٌ على تنظيم أسرة وبدء نظام زواج، فالمعنيان يصحّان في هذا المقام، وهو جل شأنه عندما أجمل أمره هنا وقال: ﴿**وكُلا منها رغداً حيث شئتما**﴾ فقد نبّه إلى أنّه تعالى جعل إباحة استعمال كل ما في الجنّة هو الأصل في تشريع هذه التعاونية.

أمّا التحريم فعبّر عنه بصورة مجملة وبنسان المجاز ﴿**ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾. فهو استعمل لفظ (الشجرة) مُعرّف بالألف واللام ولم يوضح أيّة شجرة هذه الممنوعة فهذا تعبيرٌ مجازيٌّ شُبّهَ فيه الأمر المُحرّم بالشجرة المحرّم عليهم الدنو منها. فلم يقل جل شأنه [ولا تأكلا من هذه الشجرة]. فلو فعل لبطل معنى المجاز. فهو تعالى قال (ولا تقربا) وهو أمر نهي عن الدنو منها يُفسّر ذلك قوله تعالى في مقام آخر: ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾. ثم إن قوله تعالى: ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾. الظّلم في اللغة يعني وضع الشيء في غير موضعه (محيط المحيط) أي إذا أقدمتم على مانهيتكم عنه وعصيتم أمري، ووضعتم الأمور في غير مواضعها، تعودون في نظر ربّكم متمرّدين على أوامره القاضية بإطاعة هذه القيادة وذلك النظام الذي شرّعته لكم. وعلى هذه الصورة تتجلّى معالم هذا الانقلاب الكبير الذي تحقق على يدي آدم عليه السّلام وبصورة مجملة وغير مفصّلة.

وقد زوّدنا ربّنا عزوجلّ في سورة طه ببعض التفصيلات بما يتعلّق بتعاونيّة آدم هذه حيث قال هناك مخاطباً آدم: ﴿**إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولاتعرى، وأنّك لاتظمأ فيها ولاتضحى**﴾. فصاغ تلك المعلومات صياغة بلاغيةً مُعجزة حقّاً، ليفيد من خلال دلالات هذه الألفاظ دلالاتٍ تملأ عدّة صفحات.

فلنُمعن نظرنا في قوله تعالى ﴿**إنّ لك ألاّ**﴾. فالحرف (إن) يستعمل للتّوكيد، وقد قرنه تعالى بلا النّافية وأفاد النّهي عمّا يريد لفت نظر آدم إليه من خلال ذلك مُؤكداً على آدم ضرورة الالتزام بتفاصيله.

وأتى بأداة النّهي مُقترنة بأن فقال (ألاّ). وأنْ هذا حرف توكيد آخر أتى به بين الكاف من (لك) ومخفوضها، وهواستعمال نادر على حسب ماوضح صاحب (محيط المحيط)، فأبطل عمل (أنْ) بهذا الأسلوب وتركه للتوكيد فقط، وبذلك يكون جلّ شأنه قد أتى بتأكيدين على آدم إشعاراً منه تعالى إيّاه بأهميّة ماراح يأمره بالقيام به من أوامر ربانيّة مرتبطة بأمر تنظيم هذه التّعاونية.

وبعد أن عمد جل شأنه إلى هذه الصيّاغة النادرة الاستعمال، أضاف قوله : (ألاّتجوع فيها) فأضحى النّهي مركّزاً على موضوع الجوع ومايلحق به من تأمين الحاجات الغذائية في هذه التعاونية. فالجنّة تحتوي على أنواع الثمار والحبوب والمياه كمرحلة أولى، لكن هذا لايكفي، بل أكّد تعالى على آدم تأكيدين على ضرورة تأسيس نظام تغذية تعاونيّ يساعد هذه الجماعة المؤمنة على مواجهة الأخطار الطارئة.

وأضاف جلّ شأنه أمراً آخر وقال: ﴿**ولاتعرى**﴾ فركّز ثانيةً على موضوع الكساء ومايلحق به من تأمين وتنظيم إيجاد لوازم الكساء، وشمل التأكيدان السّالفي الذكر موضوع الكساء أيضاً، لعطف (لاتعرى) على (تجوع) بواو العطف الفاصلة بينهما. وكأنه جل شأنه ألزم آدم بتنظيم أمر تدبير لباس يستر عورات كل فرد انضمّ إلى تعاونيته.

ثم أضاف جل شأنه يقول: ﴿**وأنّك لاتظمأ فيها**﴾ فحذف (ألاّ) النّاهية وأبقى على حرف التوكيد (أنّ) مضيفاً إليها كاف الخطاب وقائلاً ﴿ **وأنّك لاتظمأ فيها**﴾ فأتى بلا النّافية وليس النّاهية، بدليل رفع الفعل تظمأ الظّاهر على آخره. أي أنّ هذه الجنّة التي أمرتك بإقامة هذا النظام التّعاوني فيها، تجري من تحتها الأنهار ومياهها غزيرة، ولاتحتاج منكم إلاّ إلى تنظيم موضوع السّقاية بأسلوب تعاوني.

وأضاف جلّ شأنه أمراً رابعاً وقال: ﴿**ولاتضحى**﴾ فأتى بلا النافية أيضاً بدليل الحركة المقدرة على الياء المقصورة في فعل تضحى، أي إنّني إذ أمرتك أن تنشئ مسكناً لك ولزوجك فقد كنت أقصد به أن تبدأ بتأسيس نظام الأسرة

وعقد زواج كلّ فتىً مؤمن على فتاةٍ مؤمنـةٍ يلتحقـون بـك وينضّمـون إلى نظـام تعاونيتك المذكورة ، فلا تعود تضحى أنت ومن معك. وكلمة تضحى من ضحا الرّجل إذا برز للشمس وأصابته الشمس بلظى حرّها بعد أن كان في ستر (محيـط المحيط). بمعنى ياآدم أنت وجميع من معك فقد كان الكهف يستركم من لظى حرّ الشمس، وها أني إذ أمرتكم بإنشاء مساكن لكم تأوون إليها، فستستركم هـذه المساكن في هذه الجنّة التعاونية من لظى حرّ الشمس أيضاً، فلا تعودون تشـعرون بفرقٍ جوهري بين ماكنتم فيه بالأمس وبين ماصرتم إليه في هذه الجنّة .

وبإمكاننا تلخيص ماأفادته سورتا البقرة وطه بالنقاط التالية فيمـا يتعلـق بتعاونيه آدم عليه السلام:

أولاً ـ أن يقيم قيـادةً سياسيّةً تشـريعيّة في منطقـة سمّاهـا "جنّـة لكونهـا خصبةً ورغيدة الثّمار والمياه والأشجار.

ثانياً ـ وأن ينشئ آدم والذين آمنوا معه مساكن لهم في هذه الجنّة.

ثالثاً ـ وأن يبدؤوا نظاماً أسروياً قائماً على عقدٍ مـابين كـلّ فتـى وفتـاة مؤمنين.

رابعاً ـ وأنّ كلّ مافي الجنّة فحلالٌ غير محرّم على آدم ومن معـه بصـورة عامة.

خامساً ـ وأنّ المنهـي عنـه قليـل نـادر، ودون ذكـر لهـذا المنهـي عنـه في الآيات القرآنية.

سادساً ـ وأمر الله تعـالى آدم بتنظيـم أمـر تـأمين إطعـام جماعتـه المؤمنـه بشكل تعاونيّ.

سابعاً ـ وأمره أيضاً بتنظيم أمر تأمين كساء كل فرد من جماعتـه المؤمنـة وبشكل تعاونيّ

ثامناً ـ كما أمـره بتنظيـم أمـر الشـرب والسـقاية لهـم جميعهـم وبشـكل تعاونيٍّ أيضاً.

تاسعاً ـ وأمـره بتنظيـم تـأمين مسـكن لكـلّ أسـرة مـن جماعتـه المؤمنـة وبشكل يتعاونون جميعاً على إنشائه.

عاشراً ـ والأمر الخطير الذي حذّر الله عزوجلّ آدم، منه قدّمه جلّ شأنه على جميع هذه الأوامر في سوره (طه) قائلاً: ﴿**فقلنـا يـاآدم إنّ هـذا عـدوٌّ لـك**

ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾. وهو تحذير متعلّق بالنادر المنهيّ عنه.

فليتصوّر القارئ مدى عظمة هذه الصّياغة القرآنية المعجزة التي صاغ الله جل شأنه بها هذه التّعاليم العشرة التي تأسّست عليها تعاونية آدم عليه السلام. فالتحذير من عداوة إبليس لآدم ولجماعته تقدّم ذكره على بقية التعاليم التّسعة وبأسلوبٍ بلاغيٍ مدهش. كما أن هذه التعاليم استُهلت بتوكيدين وليس بتوكيدٍ واحد اشعاراً من جانبه تعالى إلى بدائية الامكانيات العقليّة التي كان يحملها آدم وسواه من سكان الكهوف يومئذ، ودليل ذلك أنّه بدر عن آدم النّسيان لبعض ماأكده الله تعالى عليه، ولم يجد الله لآدم عزماً على مخالفة ربّه بسبب تكوين عقله البدائي.

ثم إنّ هذا القارئ، لو يستعرض جميع الآيات المتضمنه قصّة آدم هذه وفي جميع مواضعها السبعة، فلن يعثر في أيٍ منها على لفظ الجلالة (الله). بل يعثر على صفة الرّب وحسب. فلم يحدث ذلك الأمر صدفة أو اعتباطاً. بل كانت الحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى أنّ الله عزوجلّ راح يكشف عن وجوده بوسيلة ماتجلّى به من صفات في الرّسالات السماوية الأولى واختصّ بكشف هذا الاسم الجلالي (الله) وبكامل دلالاته اختصّ به محمداً ورسالته على اعتبار أنّها أكمل الرّسالات السّماوية.

ثم إن هذا القارئ، لو يستعرض هذه النّصوص من زاوية الدّين ومايقتضيه من عبادات، فلن يعثر في أي منها على ذكرٍ لصلاةٍ أو صومٍ أو زكاةٍ أو حجٍّ . فهي وردت خاليةً من اشتمالها على أيّ نوعٍ من أنواع الذكر الإلهي أو مانسميه عبادات. وهذا أمرٌ يؤكّد للقارئ أنّ البشر من سُكّان الكهوف لم يكونوا زمن بعثة آدم عليه السلام قد ارتقوا إلى مستوى عقلي يساعدهم على التّعرف إلى أمور ماوراء هذه الطبيعة، وبالتّالي فلم يبلغوا حدّ إمكانيه تعرفهم على خالقهم وفوزهم بمحبّته وهم نيام. فإذا شاء الله تعالى مكالمة أحدهم وتعليمه أمراً جديداً، فقد كانت تتجلّى أسماؤه الحسنى بهذه المعلومة وتتمثّل لهذا البشر النائم وفق منهاجٍ ، سأتعرّض لبيان ماتعلّمته منه فيما بعد إن شاء الله العزيز.

ويستفاد من قصة آدم المجازية موعظة عامة وهو ضرورة مخاطبتنا كُلَّ إنسان على حسب مستواه العقلي، وهو ماأشار إليه محمد رسول الله (ﷺ)

بقوله: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم، فيها أنّ الله تعالى لم يخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما خاطب به محمداً (ﷺ)، ولا أنزل وفرض على آدم مافرضه على خاتم النبيين (ﷺ)، وبالرغم من ذلك فإنّ التعاليم التي زود الله تعالى بها آدم عليه السلام قد أحدثت أعظم انقلاب حقيقي في تاريخ البشر الذين كان قد مضى على وجودهم على سطح كوكبنا الأرضي مايزيد عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام.

وأنا عندما قلت من قبل إنّ الله تعالى ماخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما يشبه التعاليم التي أنزلت على محمد (ﷺ)، فإشارةً إلى أنّ آدم أسّس تعاونية مُنظّمة ولم يُلزم أعضاءها من المؤمنين بشيء من العبادات، فالانقلاب الكبير الذي أحدثه ينحصر في هذا التغيير في حياة البشر سكان الكهوف. فهو استبدلهم حياة كيفهم الرّتيبة، بحياة السّهل التعاونية والتي افتتح بها حياة التّحضر والسّعي والإبداع.

وأنا عندما طرحت معنى لقوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلّها**﴾ وهو أنّ الله تعالى علّم آدم أسماء أبرز الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى من بعده لإكمال مهمته ولتحضير البشر وتهذيبه في المستقبل.

فلابدّ أن يتساءل أحدنا: وبأيّة لغة علّم الله تعالى آدم هذه الأسماء؟ أقول في الجواب: إنّ الله عزوجلّ أجاب على تساؤلنا هذا في سورة الرحمن، على اعتبار أنّ كُلّ موضوع يأتي مُتناثراً في ثنايا مختلف السّور القرآنية وبما يفيد تسلسل موضوعها العام. والذي يريد التوسّع في الإجابة المذكورة فليراجع (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) صفحة ٢١٢. فقد سبق لي أن كتبت هناك:

(والمُنطلق الفكري النظريّ الأوّل الذي طرحه تعالى، طرحه بقوله: ﴿**الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان**﴾ فأعلن من خلاله أنّ الإنسان مخلوق وأنّ خالقه هو الذي علّمه البيان في أوائل سني وعيه، وهاهو يعلّمه القرآن أواخر مراحل نضجه العقلي، وبلغة البيان ذاتها التي علّمه إيّاها من قبل، ليُثبت لمخلوقه أنّه جلّ شأنه هو المنيك الرحمن المقتدر الذي أعطاه كلّ هذا العطاء﴾. وشرحت بعد ذلك فشرحت الدّليل الفلسفي الذي قدّمه الله عزوجلّ، تأكيداً لصدق الحقيقة التي ذكرناها.

فالمهمّ هو أنّ موضوع تعلّم آدم اللّغة العربية قد ورد ضمن قوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلّها**﴾ من باب الاستنباط، وليس انطلاقاً من التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة البقرة، ولايتّسع شرح ذلك في هذا المقام.

والذي أريد لفت النظر إليه هنا هو أنّ الله عزوجلّ حين يقول تارة ﴿**ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين**﴾ وتارة ﴿**رسلاً مبشّرين ومنذرين**﴾ حاذفاً مفعول لفظي مُبشّرين ومنذرين، فهو تعالى يسلك هذا الأسلوب في التّعبير ليفتح باب تصريف هذين اللفظين بمختلف الإتجاهات، وليفيد بذلك سعةً في دلالاتهما. فمن هذه الدلالات المقصوده أنّ المقصد من بعث الله للأنبياء والمرسلين أن يُنبّهوا أذهان الناس إلى أنّ خالقهم حيٌّ قيّوم، ويبشّر الذين يسلكون درب التّعرف عليه أنّهم بالغوا هذا المقصد يقيناً وملاقوه. وليلقي خالقنا حُجّته على الناس فلا يعود لأحدهم على الله حُجّة من بعد الرّسل من أنه لم يُعلّم أحداً ولاأعلمه بوجود خالقه في يومٍ من الأيام.

على أساسٍ من هذا الفهم نعود نُدرك أنّ بعثة آدم وتعاونيّه قد كانت الخطوة الأولى على طريق إلقاء حُجّه الله على الناس من جهة، ولتحضيرهم بتوجّهٍ من ربوبيّة هذا الخالق نحوهم على مدى الأيام. ألا إنّ قيام تعاونية آدم وإحداث هذه النقلة الكبرى في تاريخ بشر الكهوف، إن دلّت على شيء فقد أشعرت هذا البشر على الأقل بوجود خالقهم وربّهم. أمّا أين يتواجد هذا الرّب الخالق، وكيف، وماهي أسماؤه الحسنى. فهي التساؤلات التي لم تأت بها بعثة آدم عليه السلام لسببين رئيسيين: الأول أن عقل بشر تلك الفترة من الزّمان ماكان يملك امكانيات بحث هذه الأمور. والسّبب الآخر هو مهمّة آدم نفسه فقد انحصرت في إحداث هذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير فقط في حياة سكان الكهوف. حتى وأنّ ذاكرة آدم نفسه كانت مازالت بدائية ودليلنا هو قول ربّنا عزوجل بحقّ آدم: ﴿**فنسي آدم ولم نجد له عزماً**﴾. يعني أنّ ضعف ذاكرته كانت عُذره فيما بدر عنه من خطأٍ غير متعمّد. ولاينبغي للقارئ استغراب هذا الأمر. بل لاتزال هناك بعض القبائل المتخلّفة في بقاعٍ من أفريقيا يشكون ضعف ذاكرتهم. وهذا الأمر احتوته مؤلفات كثيرٍ من الباحثين.

٣- أول مُشاعةٍ تعاونية

لاحظنا أنّ آدم كان مُنظِّماً، وليس نبيّاً مُشرّعاً بالمفهوم المُتعارف عليه. فكل ماقام به آدم هو قيامه بتأسيس أوّل مُشاعةٍ تعاونيّةٍ خارج الكهوف في منطقتنا، ولأوّل مرّة في تاريخها، ولم تتجاوز مُقوّمات هذه التعاونية إيجاد قيادةٍ سياسيةٍ لها تشرف على التعاون على بناء مساكن لأفرادها، لتعليمهم الزراعة والرّي ولتنظيم أمر معاشهم وشربهم ولباسهم وبشكلٍ تعاونيّ. ولم يطالب آدم هؤلاء المؤمنين لابصلاةٍ ولابصيامٍ ولابسواها من العبادات.

والمعلوم هو أنّ لكلّ خطوة نتائجها، وقد أسفرت خطوة تأسيس هذه التعاونيه عن شعور بشر يومئذٍ أنّ كلّ شيءٍ على سطح هذه الأرض هو مُسخّرٌ من أجل الإنسان ، ومباحٌ له استغلاله والاستفادة منه. وقد سبق أن وضّحت أنّ الآثار التي تركها سُكّان الكهوف وضّحت للباحثين أنّ أدوات البشر قبل عشرة آلاف عام والتي كانوا يستعملونها كانت قد تعدّدت من أجل طبخهم وصيدهم ووسائل تدفئتهم حتى وأن معالم الفنّ قد بدت آثارها على جدران الكهوف، حتى أنّ فنّ نحت رؤوسٍ مشابهةٍ لرؤوس بعض الحيوانات قد نما، وترك بعض فنانيهم ماخطوه أيضاً، فالبشر يومئذٍ أمسوا مؤهّلين عملياً لاستغلال خيرات هذا الكوكب الأرضي، وكانت تعاونية آدم قد فتحت لهم هذا الباب على مصراعيه. وزالت بذلك معالم آثار الحياة الرّتيبة الواحدة التي كان يسير عليها البشر داخل الكهف طوال عصوره الحجرية القديمة وبدأت تظهر معالم نشاطٍ غير عادي وعلى مختلف صُعُد الحياة. خصوصاً وأن انقسام هؤلاء إلى فريقين: فريق آمن وفريق كفر برسالة آدم، فقد أوجد هذا الانقسام روح المنافسة بين أفراد الفريقين.

❀❀❀

الفصل الثالث
نتائج تولّدت عن هذه المشاعة :

١- **منافسة بين الذّريتين:** و الآية (٢٠) من سورة الحديد وضّحت معالم تلك المنافسة المذكورة من خلال قوله تعالى : ﴿**اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم في الأموال والأولاد، كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباته، ثم يهيج فتراه مُصفّراً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديد ومغفرةٌ من الله ورضوان، وما الحياة الدّنيا إلاّ متاعُ الغرور**﴾. فالمنافسة حدثت على مرّ السّنين بين البشر يومئذٍ في مجالات اللعب واللّهو واستغلال خيرات الأرض واستعمارها وفي بناء المساكن والتفاخر بالأموال والأولاد، وعلى حين امتازت ذرّية آدم بالتضحية ببعض حُرّياتها الشخصية في سبيل الإبقاء على كيانهم الرّوحي الجماعي. فقد اندفع أصحاب الطبائع النارية من ذُرّية إبليس وبدافعٍ من تفكيرهم المادّي المحض، اندفعوا وراء جمع الأموال كما تزعّم الاذكياء الأقلّ منهم ذكاءً ولياقات ومُستغلّين إيّاهم في حقل التفاخر بالأموال والأولاد و بمميّزاتٍ طبقيّةٍ انتهت بهم ليزعموا لهؤلاء الأتباع أنّهم من سلالة الآلهة، وليسوا كبقية النّاس وإن تشابهوا مع غيرهم من الناس في مظهرهم الخارجي، ومُستغلّين لياقاتهم النادرة وذكاءهم الخارق وعِلْمَهم المتميّز وحكمة تدبيرهم للأمور. لينافسوا ذرّية الفريق المؤمن، ظنّا منهم أنّ آدم كان يحمل مايحملونه من امتيازات وقدرات، وأنّ ما زعمه من أنه كان رسول خالقهم كان من قبيل دهائه وذكائه ولاحقيقة وراءه. فراح يترسّخ في ذرّية هذه الطبقة من الاذكياء جيلاً بعد جيل، أنهم يختلفون عمّن سواهم من البشر، وأوهموا سواهم أنهم من سلالة الألوهة وليس من سلالة بقية الناس.

٢- **التماثيل كأوّل ظواهر الشرك الجليّ:** وقد تولّد عن ذلك في منطقتنا أوّل ظواهر الشرك بالله عزوجلّ. وبدأ فنانوا تلك الحُقب من الزّمان تنحت تماثيل لأولئك الأذكياء الزعماء من أصحاب اللّياقات والوجاهات،

فابتدؤوا بذلك حقل فنّ تحتٍ لم يعتاده الفنانون في حياة الكهوف. وانقلبت هذه التماثيل على مرّ السّنين إلى أصنام يسجد أمامها عامة النّاس وبذلك ظهر الشرك الجلّي بأجلى أشكاله على أيدي ذُرّية ابليس في هذه المنطقة من العالم التي لم يكن سُكّانها بالكثرة التي كانت عليه في أواسط آسيا. حيث قامت هناك الحضارة الآرية التي سبق أن تعرضنا لذكرها والتي قامت على فلسفةٍ طبقيّةٍ، وعلى عبادة الأوثان. أي على عبادة تماثيل هذا النفر الذّكي من الناس أصحاب اللياقات الخارقة والذّكاء المفرط والذين ظنّوا وأوهموا أنهم من سلالة الآلهة. فإن نظر المُحقّق من منظاري هذا الذي وضعته بين يديه بإمكانه أن يدرك بالتالي أنّ تماثيل أفينوس وعشتار وسواها من التماثيل التي يزعم الباحثون أنّها تُمثّل الآلهة، فما هي في حقيقتها إلاّ تماثيل لأولئك النّفر الاذكياء الذين ذكرناهم والذين برزوا على المسرح السياسي في مختلف الأزمنة والأمكنة مُتميّزين عمّن سواهم من النّاس وكأنّهم من سلالة الآلهة.

هذا الطرح الذي طرحته اقتبست معلومته من مصدرين رئيسيين: المصدر الأول هو مانبهتنا اليه الآي من الذّكر الحكيم في مختلف مواضعه وبأسلوبٍ بلاغيٍ رائعٍ متميّزٍ ومعجزٍ أيضاً. والمصدر الآخر هو ماانتهى إليه الباحثون الطبيعيّون وماتضمنته مؤلفاتهم من أبحاث.

٣- أدلّة قرآنية مؤيدة: ذلك أنّ القرآن الكريم لفت أذهاننا إلى هذه المعلومة في الآية (٢٦) من سورة نوح، وفي الآية (١٦٣) من سورة النّساء، فليراجع القارئ مانقله ربّنا عزوجل على لسان نوح حيث أورد هناك : ﴿**قال نوحٌ ربّ إنّهم عَصَوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً. ومكروا مكراً كُبّاراً، وقالوا لاتذرُنّ ودّاً ولاسُواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلّوا كثيراً ولاتزد الظالمين إلاّ ضلالاً**﴾. وكأنّ نوحاً قد قال هنا وبألفاظ أخرى تحمل دلالات ماصرّحت به وأشرت إليه .

أي أنّه قال يالهي، يامن أشرفْتَ على تربيتي وإعدادي منذ نعومة أظفاري لتكلّفني برسالة إحداث انقلابٍ عظيمٍ في هذا المجتمع الغائص في مُستنقع الشرك بالله، إنّ قومي هؤلاء (اتّبعوا) بمعنى أسلموا قيادتهم من حيث واقعهم الذي يعيشونه أسلموها إلى الأثرياء منهم (الضالين) السّائرين على طريق الهلاك هؤلاء الذّين لم يزدهم مالهم وولدهم إلاّ خساراً،أسلموها إلى هؤلاء الماكرين

الذين خدعوهم وأوهموهم أنّهم من سلالة الآلهة وأرباباً من دون الله تعالى، فصرفوهم بذلك عن تحقيق المقصد من وجودهم في هذا العالم الدنيوي فمكروا بذلك مكراً كُبّاراً. فقد أكّد هؤلاء الماكرون على أتباعهم ألاّ يدعوا هذه التماثيل التي تُمثّل أبرز شخصيّات السّلف من الماكرين وعلى أنها آلهة من دونك يارّبي، على حين أنّها تماثيل صنعتها أيدي بعض النّحاتين ولتمثّل أبرز قياديّيهم هؤلاء الذين اشتهروا بأسماء: وُدّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسراً.

فنوح عليه السّلام ناجى ربّه شاكياً هذا النّفر من ذريةٍ إبليس الذين كفروا به من قومه الحائدين عن الطريق الذي اختطّه آدم عليه السلام فعدلوا عن الصراط المستقيم إلى الشرك بالله وعبادة الأصنام التي نحتتها أيديهم لهذا النّفر من أصحاب اللّياقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادي المتميّز والحكمة والتدبير في تصريف أمور رعيّتهم. هذا النّفر الذي أوهم العامّة في ذاك الزّمان الغابر ومنذ ألوف السنوات ومن قبل بعثة نوح أنّهم منحدرون من سُلالة الآلهة، و أنهم يتّصفون بصفة أصحاب رسالاتٍ في مواجهة ماقدّمته رسالة آدم عليه السّلام من انجازات عظيمة لاتزال البشرية تمتّن لها عملياً.

وعليه فإن جُمُلات هذه الآيات الكريمة من سورة نوح والتي آتينا على ذكرها حملت إلينا حقائق تاريخية بارزة تُعين الباحث على فهم تاريخ البشر مابين زمن بعثة آدم وبعثة نوحٍ عليهما السّلام ، فالأمر الأهم ضمن هذه الحقائق التي شرحتها الآية المذكورة كان لتوجيه أنظار الباحثين إلى الأصل الذي نشأت عنه عبادة الأصنام المنحوتة على شكل رجال أو نساء اشتهروا بين قومهم بهذه الصّفات المتميّزة التي ذكرناها، أي أنّ ظّاهرة الشّرك بالله تعالى كانت قد استأصلت زمن نوحٍ عليه السّلام في نفوس العامة في زمنه ، الأمر الذي صدّهم عن أن يستجيبوا لرسالة نوح عليه السلام، هذا الذي رفع شكواه بسبب ذلك إلى خالقه الذي اصطفاه رسولاً لاستئصال جذور الشرك هذه بصورةٍ جذرية. فهذه الآيات الكريمة نظّرت للباحث المرض الحقيقيّ الذي استشرى داؤه زمن بعثة نوحٍ عليه السلام. وقد علِمْنا أنّ المهمّة الأساسية لبعثات جميع الأنبياء والمرسلين تدور حول كونهم ﴿مُبشّرين ومنذرين﴾ مُبشّرين بوجود الإله الحقيقي، فهم أعلام انقلاباتٍ روحيةٍ ، ومنذرين المنحرفين والضّالين عن هذا الصراط بالعقاب الذي ينتظرهم في الدنيا ويوم الدّين. فصحيح أنّ الله عزوجلّ

خلق الإنسان حُرّ التفكير والإرادة ولتقرير مصير نفسه بنفسه، لكن هذه الحرية إذا اصطدمت بهذا الخط العام، المتمثّل في ضرورة القاء حجّة الله على عباده من أنه موجود وأنّه فعّال لما يريد، فهناك وعلى تلك الصخرة القويّة من التقدير العام المذكور تتحطّم تلك الحُريّات ويلقى أصحابها أشدّ العقوبات، ذلك أنّ المُلك لله تعالى وحده وهو الذي يقرّر مسار هذا الإنسان، وليس الإنسان نفسه. وهذه الحقيقة بمجملها والتي تضمّنتها هذه الآيات من سورة نوح على أنّ نوحاً كان قد كُلّف بالقيام بانقلاب روحاني كبير. فقد بعثه ربّه لمحاربة ذاك الشرك الجلّي الذي استأصلت جذوره في صدور العامة من قومه وبمكر من زعمائهم المُضلّين. أي أنّ مُهمة نوح المذكورة كانت قد انحصرت في عمليّة تهذيب النّفس البشريّة التي عاصرته، وليس لإنشاء حضارةٍ ماديّةٍ تنافس حضارة هؤلاء الماكرين من ذرية ابليس.

ولنتناول الآية (١٦٣) من سورة النساء والتي سبق لي أن قلت إنّها يُستشفّ منها المهمة الأساسية التي كُلّف بها نوح عليه السلام. فقد قال تعالى في سورة النساء: ﴿**إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجّةٌ بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً. لكن يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً، إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً**﴾.

وأوّل مانتساءله كمتدبّرين لهذه الآيات هو: لماذا لم يبتدئ الله عزوجلّ الآية بذكر آدم، وابتدأ بذكر نوحٍ المبعوث من بعده بمدّة ليست بالقليلة؟ أقول يُستنبط الجواب على تساؤلنا هذا من خلال حرف التّشبيه ودلالته. فلابدّ في موضوع التّشبيه من توفّر عناصر ثلاثة المُشبّه والمُشبّه به وموضوع التشبيه نفسه. فلو قال تعالى ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى آدم ونوح**﴾.. فلا يصحّ التشبيه هنا لعدم تشابه موضوع الشبه بين رسالة آدم ورسالة محمد خاتم النبيين (ﷺ). فآدم كان منظّماً ولم يأت بشرع على شاكلة ما أتى به سيد المرسلين. وأمّا نوح فيصح له كاف التشبيه على اعتبار أنّه كان أول نبي مشرّع وقد استند

تشريعه إلى توحيد الله تعالى ومحاربة الشرك الجلّي الذي كان قد استشرى مرضه بين قومه عليه السّلام. لذلك فقد كان حال قوم نوح يستدعي من الخالق بعث نبي مشرّع وليُحدث انقلاباً روحانياً عظيماً، وسط هذا القوم الذي ضلّ عن صراط ربّه وتاه في أوحال مستنقع الشّرك الجلّي.

ثم إنّ الحقيقة الثانية التي دلّتنا عليها هذه الآيات هو أنّ عذاب الطّوفان الذي حلّ بقوم نوح ساعد على دوام شرعه الذي بعثه الله تعالى به قُرابة ألف إلا خمسين عاماً. وأنّ الله عزوجلّ قد بعث أنبياء خدّاماً لشرع نوح ضمن المُدّة المذكورة، إنّما أعرض جلّ شأنه عن ذكر أسمائهم لكونهم مجدّدين تابعين. هذه المعلومة دلتنا عليها الألفاظ (كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. هؤلاء الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى مابين بعثة نوح وبعثة ابراهيم عليه السلام). لذلك نلاحظه تعالى أتى بالواو العاطفة بعد ذلك وأضاف يقول: ﴿**وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل**..﴾. وقد وضّح جلّ شأنه موضوع قوله ﴿**والنبيين من بعده**﴾ أي الذين أرسلهم بعده نوح وقال: ﴿**ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل**﴾ اشارة إلى ابراهيم ومن ورد ذكر اسمه بعده مباشرةً ، وأضاف: ﴿**ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾ إشارة إلى هؤلاء الرّسل الذين مابين نوح وابراهيم عليهما السّلام. وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز يكون جلّ شأنه قد فسّر لنا قوله تعالى الوارد في الآية (١٤) من سورة العنكبوت: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةً إلاّ خمسين عاماً، فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون**﴾. فلم يأخذ الطوفان قومَ نوح حين وفاته بل في حياته . وهو قد عاش بعد الطوفان أيضاً ليكمل رسالة ربّه ويهذّب ويعلّم الذين نجوا معه من عذاب الله الشديد، فإذا تناولنا هذه الآيات الكريمة مجتمعة، تصير قرائن بين أيدي المتدبّرين لكتاب الله العزيز، تنبّه إلى أنّ المراد من ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً**..﴾ أي لبث شرع نوح وليس نوحاً نفسه، وقد أخطأ هنا المفسرون القدماء فلم يفطنوا إلى ماذكرناه، وظنّوا أن نوحاً عاش ألفاً إلا خمسين عاماً. وكأنّ نوحاً قد كان تركيب جسده يختلف عن تركيب أجسادنا. فخطؤهم المذكور أساء كثيراً إلى القرآن الكريم من حيث مخالفته المعطيات العلمية والواقع المنظور بهذا التّفسير .

والحقيقة الثالثة التي نبّهت إليها هذه الآيات الكريمة تضمّنها قوله تعالى: ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾. فما الداعي لهذا الاختصاص وإلى اعطاء الله تعالى

هذه الميّزة لموسى في هذا المقام إلاّ أن يكون المقصد من ذلك أنّ الله تعالى كلّم موسى بجميع طرق كلامه مع عباده، وليس كالذين سبقوه من العباد فقد كان يوحي إليهم بوحي الإشارة وبوحي من وراء حجاب؟ وعلى ضوء هذه الحقيقة ندرك قيمة الوصايا العشر التي اختصّ الله تعالى بها موسى، فهي وحي كلام مباشر لذلك أمر الله تعالى موسى أن يدوّن هذه الوصايا على ألواح. وظلّت هذه الوصايا العشر أساس كل ما أتى به أنبياء بنو اسرائيل من بعده.

والحقيقة الرّابعة التي نبّهت إليها هذه الآيات الكريمة من سورة النساء إبرازها لصفتي الله ﴿**العزيز الحكيم**﴾ أي أنّ الإله الذي يتّصف بهاتين الصّفتين يستحيل عليه إهمال أمر عباده، فلا يبشّرهم بوجوده ولاينذرهم بعذابه. وهذا السبب نفسه ورد قوله تعالى هنا: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على الله حُجّة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾. وكأنه جل شأنه قد نبّه أذهاننا من خلال قوله هذا إلى أنّ الله تعالى أرسل جميع هؤلاء الرّسل الذي أورد أسماءهم وأولئك الذين أهمل ذكر أسمائهم، قد بعثهم الله تعالى جميعهم بقصد إثبات وجوده، وتبشير عباده إلى أنّ باب معرفته وقربه ورضوانه مفتوح على مصراعيه، لذلك فلا يحق لأحدٍ من النّاس الاحتجاج يوم القيامة على خالقه ويقول: مابعث الله أيّ رسول في حياتنا الدّنيا، ولا أطلعنا على وجوده لذلك فلايحق لله محاسبة أحدٍ على أعماله وشركه بالله عزوجل.

والحقيقة الخامسة التي أفادتنا بها هذه الآيات من سورة النساء التأكيد لنا على أنّ الله عزوجلّ لم يُنزل أي كتاب قبل هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا،مشابهاً له بلفظه ومضمونه، بل كان ينزل الكتب السّماوية السابقة وحياً مباشراً ومُتضمّناً العلوم المختصّة بأزمنة إنزال تلك الكتب على اعتبار أنّ تعاليمها كانت مرحليّة ومختصّة بأقوام وأزمنة محدودة.ومشافهةً لذلك ماكان يأمر بتدوين ما يتلقاه النّبي من وحيها علىً حين أنّ هذا القرآن الكريم إن هو إلاّ كلام الله نفسه الذي أوحاه إلى عبده محمد رسول الله (ﷺ)، وقد اشتمل هذا القرآن على علم الله الذي لاتقف دونه حدود. فهو كتاب بحرمن العلوم زخّار، ولاينفذ إلى يوم الدين. هذه الحقيقة الخامسة تضمّنها قوله تعالى ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً**﴾.

والحقيقة السادسة الواضحة التي أشارت إليها هذه الآيات الكريمة تضمّنها قول الله عزّوجلّ: ﴿**إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً**﴾. وقد أشار تعالى بلفظ (كفروا) هنا إلى أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى، فهذا مايحدّده التسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة، أي أنّ الذين كفروا من هؤلاء بهذه الحقائق التي تضمّنتها هذه الآيات الكريمة ﴿**قد ضلّوا**﴾، مؤكّداً جل شأنه ذلك بالحرف (قد) أي أنّ هؤلاء إن رفضوا هذه الحقائق وتنكّروا لها ﴿**قد ضلّوا**﴾ أي يكونون قد عدلوا وجاروا عن الطريق المستقيم متعمّدين. وأي ضلال هذا؟ ﴿**قد ضلوا ضلالا بعيداً**﴾ أي بعيدة آثاره المستقبلية. وهذه إشارة خفيّة إلى ماتحدّثت عنه سورة الكهف والى إنذارها هؤلاء بما أنذرته.

وزبدة الكلام هو أن هذه الآيات من سورتي نوح والنّساء نبهّت الباحثين إلى أنّ هذا النّفر من أصحاب الليّاقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادّي المتميّز وقد شكّلوا ذرّية إبليس الذي وسوس إلى آدم وأزلّه ، وقد حاول هذا النّفر منافسة فريق المؤمنين من ذرّية آدم، وأقبلوا على متاع الدنيا يُطوّرونه، وأنشؤوا حضارةً شكّلوا فيها طبقةً ممتازةً عن العامة وعلى أنها من سلالةٍ غير سلالتهم ولها صفة الألوهة: في المدارك والإمكانيات والذكاء وعلى أنّهم من سلالة الآلهة، فاشتهرت بذلك تماثيل :[ودّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسراً]، كآلهةٍ تمثّل الإله في نظر الذين هم من سلالته، وظهر بذلك الشّرك بالله تعالى جليّاً وعلى أبسط أشكاله، ومن ثم بدأت عبادة الأصنام.

وقد صوّرت لنا الآية (٢٣) من سورة المؤمنون أعداء نوح عليه السّلام، فحصرتهم في هذا النّفر من ذرّية إبليس حيث ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال ياقوم اعبدوا الله، مالكم من إلهٍ غيرُه أفلا تتقون**﴾ فالطلب الذي طلبه نوح من قومه هو أن يدعوا عبادة هذه الأصنام، فيخشون الله وحده. وأضاف تعالى يقول: ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إنْ هو إلاّ رجلٌ به جنّة فتربّصوا به حتّى حين**﴾. وكلمة الملأ الواردة هنا تعني الطبقة العليّة من أشراف القوم التي تُبهر العامة بجودة رأيها وبهيبتها وأُبهتها. فالملأ ذوو شارةٍ محددةٍ على حسب ماأورده صاحب

معجم (محيط المحيط). وهذا النّفر إذ قالوا لأتباعهم ﴿**ماهذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم**﴾ فقد أشاروا بقولهم هذا إلى أن نوحاً هو كبقية العامّة من الأتباع، لاينحدر من سلالة الآلهة على شاكلة هؤلاء النّفر الذين هم من سلالة الآلهة ، وأنّ نوحاً يدّعي مايدّعيه لأنّه ﴿**يريد أن يتفضّل عليكم**﴾. والله الذي انحدرنا منه إن شاء إرسال رسول ﴿**لأنزل ملائكة، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، إنْ هو إلاّ رجلٌ به جنّة ـ وليس هو برسول ـ أي بعقله لوثه جنون عظمة ـ فتربّصوا به حتّى حين**﴾. أي دعوا أمر نوح للأيّام تكشف لوثة عقله. وبهذه الأساليب الماكرة ضلّلوا الجماهير الرّعية، وأبعدوها عن التّوحيد الذي بعث الله تعالى به نوحاً عليه السلام.

٤ـ دليلٌ من قول مؤرّخ :ولايظنّن القارئ أن مالمستشفّيته من هذه الآيات فيما يتعلق بالأوثان وهذا النّفر من ذرّيه إبليس يتنافى وتاريخ البشر في منطقتنا. بل إنّ الذي يطالع كتب تاريخ مختلف الأمم وفي مختلف أرجاء المعمورة، سيتبيّن له أنّ جميع الأقوام حدث في تاريخهم القديم ماحدث في منطقتنا من بعد آدم وقُبَيل بعثة نوح.

وعلى سبيل المثال فإنّ مؤلف كتاب (الإنسان الأول) جول كارلس والمترجم إلى العربية والمطبوع في بيروت عام ١٩٨٨م، قد كتب هذا المؤلّف على صفحة ١٤٦ يقول: (يبدو أنّ مُشكلة نوع الإنسان لم تكن لتخطر بالبال كثيراً زمن الإغريق والرّومان، فقد ظنّ الإغريق أنّ لسلالتهم أصلٌ خاصٌ فيه شيء من الألوهة. وأن هذا الأصل يختلف كل الاختلاف على أيّ حال، عن أصل البربر الذين قال أرسطو عنهم بأنّ حرباً يقومون بها لمنع الإغريق من استعبادهم ستكون حرباً غير مُحقّه. فوسط كلّ هذه التشكيكات كانت التوراة تؤكد أنّ جميع اليهود يتحدّرون من ابراهيم، وأنّ كل الناس يتحدّرون من آدم).

فهذه أقوال رجل غربي مجاور لبلاد الإغريق والرومان، وتستند شهادته إلى حقائق تلمسها، ولامصلحة له في ابتداع مثل هذا الافتراء. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ هذا النّفر قد لعب نفس الدور في آسيا وأبدع فلسفة الطبقات . هذه الفلسفة التي تمخّض عنها حضارة الآريّين. فالبشر الأذكياء من أعداء الأنبياء في ذاك الزمن الغابر، والذين سلكوا مسلك إبليس، ضلّلوا شعوبهم مثل هذا التضليل الذي قام به قوم نوح عليه السّلام.

فإن نحن عُدنا إلى الآية (٧١) من سورة يونس حيث ورد: ﴿**واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكّلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لايكن أمركم عليكم غُمّة، ثم اقضوا إليّ ولاتنظرون، فإن توليّتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلاّ على الله، وأُمرت أن أكون من المسلمين**﴾، يتضّح لأعيننا أنّ ماحدث من طوفان في زمن نوح، دلّل تدليلاً جليّاً على وجود الله الذي أرسل نوحاً مُشرّعاً،ليُعالج ظاهرة الشّرك الجليّ التي كانت استشرت في زمنه. هذا وان ذاك الانقلاب الحقيقي الذي أحدثته بعثة نوح عليه السلام في تاريخ البشر، ماتزال أصداؤه تدوي في كل مكان من هذه الأرض. ذلك أن نوحاً عليه السّلام ابتدأ الله تعالى ببعثته حضارةً وتهذيباً أسمى ممّا تحقّق على أيدي آدم. لاحتواء رسالة نوح على تشريع وقانون ونظام يُسوّن احتياج عقل أهل ذاك الزمان. الأمر الذي يجزم بأنّ الله الخالق هو رب العالمين.

الله الذي تتجلّى ربوبيّته في الوقت المناسب وبالتعليم المناسب وبالأسلوب المناسب. وتبدو حينئذٍ ظاهرة اتّصال هذا الإله وتكلّمه مع عباده بجلال مابعده من جلال، من ذلك ندرك أنّ الانقلاب الثاني العظيم الذي حدث على أيدي نوح قد شكّل الحلقة الثانية من سلسلة الانقلابات الروحية التي تُحدثها الأديان في كل مكان.

فقد ظهر في كلّ بُقعة من الأرض مثيل آدم ومثيل نوح كحلقتين أوليتين على درب الإصلاح الروحاني، كما أنّ ظاهرة نحت تماثيل لزعماء سادة الفريق الكافر برسالة آدم عليه السلام هؤلاء الذين أوهموا شعوبهم أنّهم من سلالة الآلهة. إنّ هذه الظاهرة أودت بالناس البدائيين على مرّ الأيام إلى السّجود لهذه التماثيل التي حملت أسماء أولئك السّادة الزعماء الأذكياء. فظهر بذلك شرك جليّ بالله تعالى استدعى منه تعالى أن يبعث نوحاً. ينبّه هؤلاء البشر إلى حقيقة أمر هذه التماثيل ويشدّهم إلى عبادة خالقهم عزوجلّ.

٥ـ بوادر الشرك الخفيّ: إنّ هذا النّوع من الزّعماء السادة،الأذكياء لم يتعّظوا بطوفان نوح خصوصاً منهم الذين تزعّموا أقواماً أخرى غير قوم نوح كعادٍ وثمود وغيرهم. فقد راح هذا النّفر من الزعماء يدّعمون مراكزهم في أعين أتباعهم بأسلوبٍ فلسفي، فصوّروا لهم أنّ الذي يعبد هذه التماثيل لايعبدها

لنفسها، بل يعبدها كوسيلةٍ تقرّبه من خالقه الحقيقي الذي لايرونه، أي تقرّبهم زُلفى من الله عزوجل. فخدعو هؤلاء الأتباع البسطاء التفكير ورسّخوا بذلك أقدام هيمنتهم على تلك الجماهير التي لم يمض على هجرها كهوفها وحياة توحشّها ألوف السّنوات. هذه المدّة التي لاتكفي لإنضاج عقل الفرد من هؤلاء البشر، ليتصرّف بإرادته وحرّيته وليقرّر مصيره بنفسه، فطبقة أصحاب اللياقات والذكاء النادر من زعماء تلك الفترة من الزّمان استغلّوا ضعف عقول أتباعهم يومذاك وجاؤوهم بهذه الفلسفة المبتدعة التي أسلفت ذكرها ، وانقلب الناس يعبدون هذه التماثيل التي تنحتها أيدي فنّانيهم على أنّها تُقرّبهم زُلفى من ربهم عزّوجلّ وتفشّت بذلك ظاهرة الشرك الخفي إلى جانب ظاهرة الشرك الجلّي. والمعلوم تاريخيّاً أنّ ظاهرتي الشرك هذه امتدت أظلالها إلى زمن بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

إنّ تعاليم نوح عليه السّلام ماعادت تكفي لقمع ظاهرة الشرك الخفيّ المذكوره . فقد كانت تعاليم رسالة نوح تدور حول ضرورة تجنّب المؤمن السجود للأصنام مع إلمام بسيطٍ بمبادئ التوحيد، وبما يتناسب مع نوعيّة الشرك التي ظهرت إلى زمن نوحٍ، أمّا وقد ظهر شركٌ خفيٌ مُدعّم بفلسفةٍ أيضاً، فقد اقتضى ذلك الأمر بعث نبيٍ كابراهيم عليه السّلام وبفهمٍ توحيديٍ أسمى وبأدلّةٍ أعظم لتفنيد دقائق هذا الشرك الفلسفيّ الذي انتشر من بعد الطّوفان وتبلور في زمن بعثة ابراهيم عليه السلام، ولاأقصد أنّ توحيد نوح يُغاير توحيد ابراهيم، بل أقصد الاختصاص الذي اختصّ به ابراهيم. واضرب على ذلك مثلاً فإنّ ربّة المنزل تعرف استعمال الإبرة. إنما السيّدة التي برعت في استعمال هذه الإبرة يُقال لها خيّاطة أيضاً. فهذه تخيط وهذه تخيط ولكن الأخرى أفلح في مجال هذه الخياطة.

وعليه فإنّ بعثة ابراهيم عليه السّلام رافقها التّسلح بالأدلة التي تفنّد الشرك الخفيّ المتمثّل في الفلسفة التي روّجتها ذرّية إبليس من أولئك النّفر من الزّعماء السياسيّين الذين تزعموا أقوامهم من بعد طوفان نوح. وإلى هذه الحقيقة أشار قول الله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة الأنعام: ﴿**كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون. وكذلك جعلنا في كلّ قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا فيها، ومايمكرون إلاّ بأنفسهم ومايشعرون**﴾. فقد ذُكر هؤلاء النّفر من السياسيّين من

خلال لفظي (أكابر مُجرميها) وأتى تعالى بلام العاقبة وقال ﴿**ليمكروا فيها**﴾ أي ليخدعوا أتباعهم حفاظاً على مكانتهم بينهم.

وراح جلّ شأنه فصّور حال هؤلاء العامّة البسطاء المخدوعين بقوله في الآية (٦٧) من سورة الأحزاب وقال: ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً، خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولانصيراً. يوم تُقلّب وجوههم في النّار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهمْ لعناً كبيراً. ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يُصلح لكم أعمالكمْ ويغفرْ لكم ذنوبكم، ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.**﴾. فنحن بغضّ النّظر عن أنّ هذه الآيات الكريمة متعلّقة أصلاً بأهل الكتاب وبمصيرهم القادم المحتوم. فقد حملت لنا هذه الآيات قول هذه الجماهير قديماً وحديثاً وهو: ﴿**وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السّبيلا**﴾. بمعنى أنّ هذه الجماهير لاتتفحّص كلّ كلمةٍ ينطق بها حُكّامهم وزعماؤهم بعقلٍ نيّر، بل إنّ هؤلاء النّاس يسيرون على دين ملوكهم دون تروٍ ولاتمحيص. بسبب تخلّف عقولهم بصورة عامة من جهة، وبسبب مكر سادتهم هؤلاء وأساليب خداعهم التي يخدعونهم بها من جهةٍ أخرى.

ثم إنّ الله عزوجلّ لخصّ فلسفة الشرك الخفي التي أتيت على ذكرها في الآيات الأوائل من سورة الزّمر وقال: ﴿**ألا لله الدّين الخالص**﴾. أي الخالص من شوائب الشّرك الخفيّ وأضاف يقول ﴿**والذين اتّخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ أي أنّ هؤلاء المشركين الذين اعرضوا عن ولاية ربّهم لهم، واتّخذوا من دونه أولياء فهؤلاء السادة أولياؤهم لقّنوهم فلسفة الشّرك الخفي الذي ابتلوا به، فلقّنوهم عبادة هذه الأصنام على أنّها وسيلةٌ تقرّبهم من الله زُلفى.

وأضاف تعالى يقول: ﴿**إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إنّ الله لايهدي من هو كاذبٌ كفّارٌ**﴾. أي لن يكتب الله تعالى الهداية للذي هو كاذبٌ في فلسفته هذه ومخادعٌ ماكرٌ كفّارٌ بنعمة ربّه عزّوجلّ.

من هذه الآيات ندرك أنّ الشّرك الجلّي الذي عاصر زمن بعثة نوح عليه السلام، دُعّم بفلسفةٍ قلبته إلى شرك خفيٍ اقتضت من الله تعالى إرسال ابراهيم

عليه السّلام لتفنيد هذا النوع الجديد من الشّرك، ولتحرير عقيدة التوحيد منهاولتدعيمها بالحجج والبراهين.

على اعتبار أنّ العقل البشري قد بلغ زمن ابراهيم مرحلةً من النّضج تؤهله لتقبُّل وفَهْم هذا التّوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك والذي بُعث لإظهاره ابراهيم عليه السلام. ولكيلا يبقى للنّاس حجّة على الله بعد بعثة ابراهيم. فالوثنيّة الفلسفيّة التي تفشّت بعد الطوفان في مختلف الأقوام كعاد وثمود وغيرهم. هذه الوثنيّة التي غاير طابَعُها طابَعَ الوثنيّة التّي عاصرت زمن نوح، إنّ ظاهرة الوثنيّة الفلسفيّة هذه، اقتضت كما ذكرت إرسال ابراهيم بدينٍ توحيديّ في موازاة تلك الظاهرة وبتعاليم توحيديّة تُناسب المرحلة التي كان يمرّ بها عقل هذا الإنسان رقيّاً ونضوجاً. هذا وإنّ جميع الأنبياء من بعد إبراهيم كانوا يحملون نفس التّوحيد الابراهيمي إنّما برياضاتٍ روحيّةٍ وأدلّةٍ أكثر رُقيّاً ممّا أتى به ابراهيم إلى أن أنزل الله عزوجل هذا القرآن العظيم بأكمل تعاليم التوحيد والعبادات والأدلّة والحجج والبراهين.وعليه أصبح بإمكاننا أن نُدرك سرّ تسمية إبراهيم" أبو الأنبياء "على حين يُسمّى آدم بإسم" أبو البشر".

فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم من زاوية النظر التي قدّمتها، يلاحظ امتيازاً امتاز به ابراهيم ولم ينل شرف امتيازه هذا آدم ولانوحٌ من قبله. وهذا الامتياز تضمّنه الآية (١٢٠) من سورة النحلّ التي ورد فيها: ﴿**إنّ ابراهيم كان أمّةً، قانتاً لله حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. فلماذا وردت فقرة ﴿**وماكان من المشركين**﴾التي اختصّ بها ابراهيم حين يرد ذكره في كتاب الله العزيز، على حين لم يختصّ بها أحدٌ من الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من قبله كآدم ونوح عليه السّلام؟ الجواب المختصر هو أنّ الشّرك الخفي ماكان منتشراً زمن آدم ونوح. بل انتشر هذا النوع من الشّرك الخفي الفلسفيّ زمن ابراهيم، وقد برأ الله تعالى ابراهيم من هذا الشّرك الخفيّ الذي ابتُلي به قومه فما كان ابراهيم من هؤلاء بل كان موحّداً ظاهراً وباطناً.

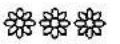
ولنتدبّر ألفاظ هذه الآية التي أوردناها من سورة النّحل، فقوله تعالى ﴿**إنّ ابراهيم كان أُمّة**﴾ فلفظ أمّة يعني الإمام والرجل الذي لانظير له ومعلّم الخير والجامع للخير (تاج العروس) ثم إن كلمة (قانتاً لله) بمعنى مُطيعاً. فقنت أي أطاع وذلّ ودعا وقام في الصّلاة وأمسك عن الكلام وداوم على الطاعة

والصلاة (اقرب الموارد)، ثم إنّ كلمة (حنيفاً) من الحنيف أي الصحيح الميل إلى الاسلام الثابت عليه والمائل من دين إلى دين، وجمعه حُنفاء (أقرب الموارد)، ومادام الله عزوجلّ قد وصف ابراهيم بهذه الصّفات التي تحمل كُلّ هذه الدّلالات، فلا يُعقل أن يكون من المشركين. فما معنى أن يُضاف على هذه الصّفات فقرة ﴿**وماكان من المشركين**﴾ إلاّ أن يكون لهذه الإضافة دلالتها الخاصة على نفي الشرك الخفّي أيضاً، هذا الشرك الفلسفي الذي روّجه الماكرون من سادة القوم من ذرية إبليس؟ وكأنّ الله عزوجل قال في هذه الآية الكريمة، وبألفاظ أخرى: هاأنّ ابراهيم كان من أصحاب اللّياقات فكان أمّة أي إماماً ومُعلماً الخير وقانتا لله وحنيفاً ومع ذلك لم يزعم لنفسه أيّة صفةٍ من صفات القداسة والامتياز على أحدٍ من البشر من بني قومه، وهذا هو السّبب في أنّ الله تعالى خاطب محمّداً (ﷺ) بعد هذه الآية بثلاث آيات قائلاً: ﴿**ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين**﴾ ومازاد الله تعالىفقرة :[وما كان من المشركين] هنا عبثاً،بل شاء تنبيه أمّة محمد (ﷺ) وبصورة خاصة الى ضرورة تجنّبها الشرك الخفي والى ضرورة توكّلها على الله عزّوجلّ في جميع أحوالها كيلا تفقد هذه الأمّة إيمانها وهداها الذي هداها الله تعالى إليه.

ولاينبغي لِلّذي يتلو هذه الآية الكريمة أن يذهب من خلال تلاوته فقرة ﴿**أن اتّبع ملّة ابراهيم**﴾ أن يذهب مذهب بعض المستشرقين الذين استنبطوا من هذه الفقرة أنّ محمداً (ﷺ) كان نبيّاً تابعاً لجدّه ابراهيم في تعاليم دينه. بل إنّ المقصود من هذه الألفاظ هو حثّ محمد رسول الله على طلب الكمال الذي سعى إليه ابراهيم. أي أن يأخذ بالإطار العام والأسس العامة لدعوة ابراهيم وليس بما جاء به دينه من تعاليم تفصيليّة، ذلك أنّ تعاليم الاسلام هي أكمل هذه التّعاليم.

٦_ خلاصة حول ظهور الشرك وتطوّره : ألا إنّ ظواهر الشرك بدأت بعد آدم بأبسط أشكالها، ومن ثم انقلبت إلى عبادة التّماثيل التي ولّدها أبرز الزعماء السياسيّين قُبيل زمن بعثة نوح عليه السلام. ولاشك أنّ قمع تلك الظاهرة يومذاك ماكانت تتطلّب عقلاً ناضجاً وعناءً كبيراً. أمّا حين ظهر الشرك الخفيّ الفلسفيّ الذي نوّهت عنه والذي عاصر بعثة ابراهيم فقد احتاج إلى عقلٍ أنضج وحججٍ وبراهين أدقّ وأقوى لقمعه واقتلاعه من أذهان البشر. لذلك جاءت بعثة

ابراهيم لتحقق هذا الانقلاب الرّوحي الكبير المذكور في حياة إنسان ذاك الزّمان ، وبذلك أضحى ابراهيم عليه السلام عَلَماً من أعـلام التّوحيـد الالهـي وأبـاً لجميـع الأنبياء الموحّدين الذين بعثهم الله تعالى من بعده.



الفصل الرابع

أدرك الإنسان مكانته على أيدي ابراهيم :

و لم يتحقق موضوع فلسفة توحيد الذات الالهية على أيدي ابراهيم عليه السلام وحسب. بل إنّ الله عزوجلّ حقّق على يديه أمراً آخر وبنفس الأهمية، وهو أن أعطى البشر مكانته السامية بين مختلف المخلوقات، وقد وضّحت لنا تلك الحقيقة الآيات (١٠٢-١١١) من سورة الصافات، حيث ورد دعاء ابراهيم: ﴿**ربّ هب لي من الصالحين. فبشّرناه بغلام حليم. فلّما بلغ معه السّعي ـ أي لّما أصبح هذا الغلام الحليم شاباً قابلاً للسّعي وهو اسماعيل عليه السلام ـ قال يابُنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما ـ أي أطاع ابراهيم واسماعيل ماأوحى ربهما إليهما من وراء حجاب ـ وتلّه للجبين. وناديناه أن ياإبراهيم قد صدّقت الرؤيا، إنّا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهوالبلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين**﴾.

فأوّل مايُلفت نظرنا في هذه الآيات الكريمة أنّ الله تعالى اختتمها بقوله: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم..**﴾. وهذه الألفاظ تذكّرنا أو إنّ لفظ «الآخرين» خاصّة يُذكّرنا بما استهلت به سورة الجمعة من آيات: ﴿**هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾. فالآخرين المنبأ عنهم في هذه الآيات هم جماعة مثيل المسيح كما سبق لي أن وضّحت ذلك بالأدلة ودلالات الفاظ هذه الآيات في (فن الاختزال في القرآن الكريم) ضمن الصفحات (٢٢٦ ـ ٢٣١). فإن أحبّ القارئ فليراجعها فيه.

ثم إنّ آية ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم**﴾ مارتبطت ألفاظها بألفاظ آيات سورة الجمعة لمجرّد الصُّدفة، بل وردت هذه العلاقة مصداقاً لدعاء ابراهيم عليه السلام نفسه في الآيات (٨٤) من سورة الشعراء، فقد قال تعالى هناك: ﴿**واتل عليهم نبأ ابراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون. قالوا نعبُدُ أصناماً فنظلّ عليها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرّون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنّهم عدوٌّ لي إلاّ ربّ العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت يشفين، والذي يُميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين، ربّ هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين.**﴾. فإبراهيم دعا ربّه في هذه الآيات وقال ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾. وللتّدليل على استجابة الله تعالى دعاءه المذكور الذي دعاء به إبراهيم، فقد أوردت الآيات من سورة الصّافات قول ربّنا عزوجل: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين**﴾. وقد أنبأ الله عزوجلّ أنّ هؤلاء الآخرين هم أصحاب مثيل المسيح وذلك في سورة الجمعة ضمن قوله تعالى: ﴿**وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾. وقد شرحت ذلك في (فن الاختزال) ثم إنّ سورة الواقعة التي أنبأت عن مصير «المسيح الدّجال» وما سيحلّ بمعسكره الغربي، وأنبأت: ﴿**وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾ وهي نبوءة خُصّت بأوردته سورة الكهف من قبل عن ذي القرنين وعن تأليفه جماعة مؤمنة للخلاص من يأجوج ومأجوج، وهذا مقصد بقوله تعالى ﴿**وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾ أي يأجوج ومأجوج، وجماعة الآخرين التي ألّفها مثيل المسيح. وقد حثّنا ربُّنا في سورة الواقعة أن نكون من ﴿**السّابقون السابقون**﴾، لنحظى بشرف أن نكون ممّن أنبأت عنهم سورة الواقعة ضمن قوله تعالى ﴿**ثلّة من الأولين، وقليل من الآخرين**﴾.

أعود إلى الآيات من سورة الصّافات، حيث قال: فأوّل مايلفت نظرنا قوله تعالى: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم**﴾. فوضّحت أنّ هذا ورد استجابةً لدعاء ابراهيم في الآيات من سورة الشّعراء وهو أن الآخرين هم

أصحاب مثيل المسيح وهم الذي أنْبَأتْ عنهم سورة الجمعة، وكذلك من قبلها سورة الكهف.

فالسؤال الذي يخطر ببال القارئ هنا، هو: هل أنّ إبراهيم كان يَعْلَمُ الغيب حتّى دعا بهذا الدّعاء؟ الجواب على هذا السؤال جدّ بسيط، دلّنا عليه قول ربّنا عزّوجلّ في قصّة آدم المجازية حيث قال هناك: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كُلّها**﴾. وكنت وضّحت أن المقصود بلفظ الأسماء معرفاً، هو أسماء أبرز الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى كحلقات ليكملوا مابدأته بعثة آدم عليه السلام.

هذا ولمّا كانت آخر حلقة من هذه الحلقات، هي بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ)، وقد ثبت لدينا أنّ الله تعالى قدّر أن يبعث مثيل المسيح من أمته (ﷺ)، ليقتل هذا المسيح الدّجال الذي أنبأت عن ظهوره سورة الكهف وأجملت موضوع هلاكه سورة الواقعة، علماً بأنّ هذا يحدث مصداقاً لطلب إبليس نفسه وبلسان حاله أن يمهله ربّه إلى زمن «اليوم المعلوم». فاليوم المعلوم هذا هو اليوم الذي أنبأت عنه سورة الواقعة، وهو يوم هلاك المسيح الدّجال، الذي تنتهي بهلاكه الويلات التي تأتت على أيدي ذريّة إبليس. أقول: فقد كان طبيعياً جدّاً أن يكون ربّنا جلّ شأنه قد أنبأ ابراهيم عليه السّلام عن هذه الأحداث القادمة من بعده، لذلك لاحظناه قد دعا ربّه عزوجلّ وقال في سورة الشعراء: ﴿**واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين**﴾ خصوصاً وأنّ الله تعالى أنبأ موسى ضمن إسرائه الموسوي عن مصير أمته أيضاً. فإبراهيم ماكان يعلم الغيب، إنّما أظهر ربّه عليه هذه الأمور الغيبيّة المتعلّقة بأمّته، وبالآخرين من أمّة المسلمين أصحاب مثيل المسيح فضلاً ومنّةً منه تعالى على ابراهيم عليه السلام.

ولاينبغي للقارئ أن يستغرب ذلك ويظنّ أنّني أزعم أمراً لادليل عليه. لا فليعلم هذا القارئ أنّ هذا الغيب نفسه اطّلع عليه موسى وهارون والياس ونصّت سورة الصّافات نفسها عليه فهو تعالى قال فيها أيضاً: ﴿**ولقد منّنا على موسى وهارون.. وتركنا عليهما في الآخرين سلامٌ على موسى وهارون إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾ كذلك ذكر تعالى إلياس وقال: ﴿**وإنّ إلياس لمن المرسلين.. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على إل ياسين إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾.

والأمر الثاني الذي يُلفت أنظارنا فيما تضمّنته الآيات التي أوردناها من سورة الصّافات، هو قول ربّنا عزوجل بحقّ اسماعيل: ﴿**وفديناه بذبح عظيم**﴾، مُخالفاً بذلك مايعتقده يهود زماننا وهو أن الله تعالى افتدى اسحاق بهذا الذبح وليس اسماعيل، زاعمين أنّ اسحاق هو الإبن البكر لإبراهيم عليه السلام.

يضيفون أنّ الله تعالى افتدى اسماعيل بضفدعة وليس بذبح عظيم. فما هو دليلُنا على صدق ما أنزله ربّنا عزّوجلّ في كتابه العزيز من أنه تعالى افتدى اسماعيل وليس اسحاق بذبح عظيم؟

الدّليل يُستفاد من نصوص هذه التوراة المعاصرة المحرّفة نفسها. فالذي يثبت منها أنّ اسماعيل هو الإبن البكر، وهو الذي ذهبت به أمّه هاجر إلى أرض الحجاز التي أطلقت التوراة والمؤرخون القدماء عليها اسم أرض فاران، أي الأرض التي فرّ إليها هاجر وابنها اسماعيل، وأنّ نسل اسماعيل لن يُعدّ من كثرته، ففي الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين ورد: (وأمّا ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرّب قد أمسكني عن الولادة، أُدخلْ على جاريتي لعلّي أُرزق منها بَنين . فسمع أبرام لقول ساراي ... فدخل على هاجر فحبلت ولمّا رأت أنّها حبلت صغُرت مولاتها في عينيها.. فأذلّتها ساراي، فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرّب على عين الماء في البريّة.. وقال ياهاجر جارية ساراي.. ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرّب: تكثيراً أكثّر نسلك فلا يُعدّ من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: هاأنت حُبلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل لأنّ الرّب قد سمع لمذلّتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر اسماعيل. كان أبرام ابن ستٍّ وثمانين سنة لمّا ولدت هاجر اسماعيل لأبرام. ولمّا كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرّب لأبرام وتكلّم الله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بَعْدُ أبرام بل يكون اسمك ابراهيم، لأني أجعلك أباً لجُمهورٍ من الأمم. وأثمرك كثيراً جدّاً وأجعلك أمماً، وملوكٌ منك يخرجون).

فهذا النّص التوراتي المعاصر يفيد عدّة أمور: يفيد أولاً أنّ اسماعيل هو الابن البكر لابراهيم، ويفيد ثانياً أنّ أبرام سُمّي بعد ولادة اسماعيل عن طريق الوحي باسم ابراهيم. ويفيد ثالثاً أنّ الله تعالى بشّر ابراهيم أنه سيكون أباً

لجمهور من الأمم، وليس أباً لبني اسرائيل وحدهم، ويفيد رابعاً أنّ نسل هاجر من اسماعيل على حسب ماقال ملاك الرّب: (تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعدّ من الكثرة) فها أنّ عدد نسل اسماعيل اضعاف أضعاف نسل اسحاق وبنوا اسرائيل الذين لايتجاوز عددهم حتى الآن العشرين مليوناً في العالم. أمّا العرب من نسل اسماعيل فيتجاوزون مئة مليون نسمة.

وللقارئ أن يعود إلى الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين نفسه ليلاحظ التناقض الواقع مع هذا النّص السابق، والذي يستشم منه تدخل يد التعصّب الاسرائيلي وتحريفاته، فقد ورد هناك: (فلمّا أتيا ـ أي ابراهيم وابنه اسحاق ـ إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك ابراهيم المذبح ورتّب الحطب وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مدّ ابراهيم يده وأخذ السّكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرّب من السماء وقال: ابراهيم ابراهيم. فقال: ها أنذا، فقال لاتمدّ يدك إلى الغلام ولاتفعل به شيئاً. لأنّي الآن علمت أنّك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي، فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبشٌ وراءه ممسكاً في الغابة القريبة. فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقةً عوضاً عن ابنه ونادى ملاك الرّب ابراهيم ثانية من السّماء وقال.. من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تُمسك ابنك وحيدك أباركك مباركةً، وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السّماء وكالرّمل الذي على شاطئ البحر.. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض..).

فهذا النّص التوراتي المعاصر يفيد عدّة أمور تناقض الأمور الأربعة المستفادة من النّص التوراتي السابق، فهذا النّص يفيد أولاً أنّ اسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم، ويفيد ثانياً أنّ اسحاق هو الذي افتداه الله بالكبش دون تعيين أكان كبشاً سميناً أو كان صغيراً هزيلاً. ويفيد ثالثاً أن نسل ابراهيم من اسحاق سيكون مباركاً وكثيراً كثرة نجوم السّماء وكثرة الرمل الذي على شاطئ البحر. ويفيد رابعاً أنّ جميع أمم الأرض يتباركون من نسل اسحاق الابن الوحيد لابراهيم.

فالقارئ الذي يُضالع هذين النّصين التوراتيين يلاحظ التناقض بين مُعطياتهما صراحةً وبوضوح تام. فإذا كان هذا القارئ غير يهوديّ وكان محايداً وواقعياً، فإنّ هذا القارئ الذي قرأ النّص القرآني من آيات سورة الصافّات

سيميل لتصديق مضمون النّص التوراتي الأوّل يقيناً. ذلك لأنّ ذاك النّص صرّح أن هاجر وابنها اسماعيل هاجراً إلى أرض فاران وهي أرض الحجاز الأمر الذي أثبتناه من قبل.

وها أنّ نسل اسماعيل تكاثر أضعاف أضعاف تكاثر نسل اسحاق. ولأنّ النّص الأول يثبت منه أنّ اسماعيل هو الابن البكر لابرهيم. فمن أرض الحجاز بعث الله محمداً رسول الله بتعاليم الاسلام وأمره تعالى في هذا القرآن الذي اشتمل على تلك التعاليم، أمره بقوله تعالى: ﴿**ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين**﴾ النحل ١٢٣. وبشّره أيضاً بقوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون**﴾ الصف: ٩. أي أنّ جميع الأقوام ستؤمن بهذا الرسول الذي هو من نسل اسماعيل وستتبارك به أيضاً. وهذا أمرٌ يُلاحظ المحقّق أنّه يتحقق الآن على أيدي هذه الثّلة من الآخرين من أصحاب مثيل المسيح عليه السلام وهم خدام محمد سيد المرسلين (ﷺ)، فأين نسل إسحاق الذين لعنه الله بعد بعثة المسيح الناصري واصطلح له اسم «الشجرة الملعونة» في القرآن الكريم في سورة الإسراء؟ أين نسل اسحاق الذي شتّته الله تعالى تحت كلّ كوكب، وعاد اليوم إلى أرض كنعان بجبل من المسيح الدّجال الذي تزعُمُ شعوبُه أنّهم هم النّاس وحدهم من دون شعوب الأرض؟ هذه العودة التي ستكون القاضية عليهم وفق نبوءات سورة الإسراء؟ فإسماعيل هو الابن البكر. أما اسحاق فولدته أمّه سارة في شيخوختها بعد ولادة اسماعيل، من بطن هاجر. يثبت هذا من الاصحاح الحادي والعشرون من سفر التكوين الذي ورد فيه: (وافتقد الرّب سارة.. فحبلت سارة وولدت لابراهيم إبناً في شيخوخته.. ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته سارة «اسحاق».. وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين وُلد له اسحاق ابنه وقالت سارة قد صنع إليّ الله ضحكاً، كل من يسمع يضحك لي..)، على حين أنّ عمر ابراهيم حين ولد له اسماعيل كان ابن ستٍ وثمانين سنة كما تبّين من النّص التوراتي الأول. وها أنّ القرآن يؤيّد أنّ سارة ولدت اسحاق وهي عجوز. ففي الآيات (٧٠-٧٤) قال تعالى: ﴿**ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبشرى.. وامرأته قائمةٌ فضحكت، فبشّرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، قالت ياويلتا**

أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً، إنّ هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمةُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميدٌ مجيد﴾.

أعود لأصل الموضوع وأقول إنّ حادثة اسماعيل عليه السّلام توضّح الشعبة الثانية للانقلاب الروحاني الكبير الذي حققّه الله تعالى على أيدي ابراهيم عليه السّلام، فما هي دلالة ﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾؟ولِمَ لَمْ يَقُل جلّ شأنه (وفديناه بكبش كبير).

وحتى يتبيّن لنا الجواب المُقنع، نعود مع القارئ إلى الآية (١٣٢) من سورة البقرة فقد خاطب تعالى فيها ابراهيم: ﴿**إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لربّ العالمين**﴾ فالمقصود بكلمة (أسلم) هنا، ليس كما يتبادر منها للذهن أن آمن وكن مُسلماً، بل يأمر الله تعالى ابراهيم أن يتميّز عن قومه فيُسلّم ويسخر عقله وعمله وذكاءه وجميع قواه لخدمة رسالة ربّ العالمين أي أن يمثّل التوحيد الكامل العمليّ، فينصاع لأمر ربّه في مأكله ومشربه ويقظته ومنامه، ولقد راح الله تعالى ينظر مدى انصياع ابراهيم لأمر ربّه، فأوحى إليه في منامه ومن وراء حجاب هذه الرؤيا التي عبّر ابراهيم عنها ومخاطباً ابنه اسماعيل: ﴿**قال يابنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟**﴾ وأجابه ابنه اسماعيل: ﴿**قال يأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾. فلِمَ لم يستغرب ابراهيم واسماعيل ماتضمّنته هذه الرؤيا؟ جوابه أنّهما لم يستغربا ذلك لأن البشر من حولهم كانوا يقدّمون الضّحايا والقرابين لآلهتهم، ولايفرّقون في ذلك بين تقديمهم إنساناً أو حيواناً ضحيّةً وقرباناً. فيضحّون بالفتى أو الفتاة كما يضحّون ببقرة أو شاة. فلا يُعطون لحياة الإنسان من قيمةٍ تمتاز عن حياة الحيوان، لأنّهم يرون أن الإنسان والحيوان يشتركان في المأكل والمشرب والمسعى والتّناسل.

ولقد نجح ابراهيم في استجابته لربّه الذي كان أمره أن أسلم جميع قواك لربّك، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿**فلمّا أسلما وتلّه للجبين، ناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا ـ أي نجحت في الامتحان المقصود بها ـ إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾. أي على هذه الشاكلة نمتحن عبادنا المُحسنين التّصرف والاستجابة لأوامرنا. وأضاف تعالى يقول: ﴿**إنّ هذا لهو البلاء المبين**﴾. أي أنّ مثل هذا الإمتحان البلاء يصلح لتمييز المُحسنين عملاً. وأضاف تعالى ثانيةً وقال:

﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾. أي استنقذناه بذبحٍ عظيم، ولم يقل بكبشٍ كبير، أي أننا استبدلنا مادرج عليه النّاس من تضحيةٍ للنّفس البشرية استبدلناه بذبحٍ ذا مغزى عظيم أعطى للنفس البشرية مكانتها بين بقيّة المخلوقات.

إنّ كلمة «عظيم» على حسب ماورد في معجم (محيط المحيط) هي نقيض «حقير». كما أنّ كلمة «كبير» نقيض صغير. والعظيم فوق الكبير، ذلك لأن العظيم لايكون حقيراً، أمّا الكبير فقد يكون حقيراً، كما أنّ الصّغير قد يكون عظيماً. إذ ليس كلٌّ منهما ضدّ الآخر. وقد يُطلق العظيم على الأمر المُستعظم عقلاً كما هو وارد في قوله تعالى ﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾ أي فديناه واستنقذناه بذبحٍ ذي مغزىً مُستعظمٌ عقلاً لدى المتفكّرين، ويتأتّى استعظام هذا الذّبح من جهة أنّ البشر قد أدرك ولأوّل مرة في تاريخه ومن خلال رؤيا ابراهيم عليه السّلام وتأويلها. أنّ البشر مخلوقٌ مكرّم من دون بقية المخلوقات، وتكريمه هذا امتاز به بمبدأ هذا الذبح العظيم.

فالله عزّوجلّ أشار من خلال هذه الألفاظ ﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾ إلى الانقلاب الكبير الذي حقّقه على أيدي رسوله ابراهيم عليه السّلام ، كما نبّه عقول هؤلاء النّاس إلى أنّ ربّهم لم يخلقهم عبثاً، بل خلقهم لتحقيق مقصدٍ عظيم من حياتهم ألا وهو أن يتعرّفوا على خالقهم ويسعوا إلى جذب محبته وليفوزوا بقربه ورضوانه. وعلى هذه الصورة تكون رسالة ابراهيم قد أتت بفلسفةٍ لامثيل لها من قبل بعثته عليه السلام. فساعدت فلسفة هذا الإنسان على تصّور عالم ماوراء الطبيعة، وتصّور عالم الآخرة وحياة مابعد الموت.

وعاد هذا الإنسان يستنكر التّضحية بالنّفس البشريّة، إلاّ في حالة الانصياع للقانون الطبيعيّ الذي سنّه الخالق عزوجلّ وهو تضحية الأدنى في سبيل بقاء الأسمى، لذلك أقرّ هذا الإنسان مبدأ التّضحية بنفسه دفاعاً عن دينه. وعلى اعتبار أنّ الدّين هو الذي طوّر عقل هذا الإنسان وكرّمه وفتح له سبيل معرفة خالقه وللتعرّف عليه والفوز بقربه ورضوانه.

فهذه هي دلالة قول ربّنا: ﴿**وفديناه بذبحٍ عظيم**﴾، دلالتها على أنّ الانقلاب الكبير الذي حقّقه الله تعالى على أيدي رسوله ابراهيم، قد تمثّل في إبطال ابراهيم لهذا التّقليد المُتوارث البالي الذي كان لايُفرّق فيه المرء مابين إنسان وحيوانٍ عند تقديم القرابين. وبذلك ربط تعليم ابراهيم مابين وجود البشر ومابين

فلسفة وجودهم الذي ذكرناه. وهذا الإنقلاب الذي قام به ابراهيم عليه السّلام أثبت بصورةٍ عمليّة أنّ رب العالمين، هو الذي كان يدري بالمرحلة المتقدّمة التي كان قد بلغها عقل البشر يومذاك، وأنّه جلّ شأنه، وبصفته ربّ هذا البشر قد بعث نبيّه إبراهيم ليُحقّق على يديه هذا الانقلاب الكبير وليحفظ للبشر إنسانيّته القائمة على فلسفةٍ ومعنىً ومقصدٍ أسمى، وليدفعه على طريق رُقيٍ لايقف عند حدود، فأين هذه الدلالات القرآنية لهذه الرؤيا، وأين ماوضحته التوراة المعاصرة فيما أوردناه.

والمهمّ في الأمر هو أنّ هذا القارئ لابدّ أن يكون قد ميّز بين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به نوح عليه السلام، وبين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به إبراهيم عليه السلام، ذلك أن الابتلاءات التي مرّ بها ابراهيم بنجاح لم يُمرّر الله نوحاً بمثلها، لذلك ظهر هذا الفارق بين الإطارين التوحيديّين، فكلّ ماوضّحه القرآن الكريم بما يتعلق بابتلاءات نوحٍ أنّه أمره بصنع السفينة ، للنّجاة . على حين أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذهب بابنه إسماعيل وزوجته هاجر ليتركهما في وادٍ غير ذي زرع من أرض فاران أي في مكة ، أن يتركهما مُتوكّلاً على عون ربّه الذي أمره بذلك الأمر . فلم ينظر في أمر تأمين طعام وشرابِ هذين معتقداً أن ربّه قد أخذ على عاتقه مسؤولية ذلك . فلما بلغ إسماعيل سنّ السعي والنشاط ، ابتلى الله تعالى إبراهيم بهذه الرؤيا ليظهر عمليّاً مدى توكّل إبراهيم على ربّه ومدى انصياعه لأوامره . وكان هذا الامتحان بلاءً مبيناً لنفسيّة إبراهيم وحقيقة توكّله على الله الذي اصطفاه لرسالته . ونتيجةً لهذا الفارق الكبير مابين ماابتُلي به نوحٌ ومابتلي به إبراهيم فقد ظهر هذا الفارق الكبير بين إطاري التّوحيد الذي بُعثا به عليهما السلام ، وظهر علوّ مقام إبراهيم على مقام نوحٍ عليهما السّلام روحانيّاً . ولنأت الآن إلى ماتحقّق على أيدي موسى من انقلابات.

الإنقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام :

لقد وضّح لنا كتاب الله العزيز الإنقلاب الكبير الذي حققه على يدي نبيّه موسى عليه السلام . فأضاف بذلك أموراً لم تأت بها بعثات آدم ونوحٍ

وإبراهيم . فقد سبق أن تبيّن لنا أنّ الله تعالى قد أسس على يديّ آدم أول نظام تعاوني خارج الكهوف . وأن نوحاً قد فرّق الله تعالى على يديه مابين مفهومي الشرك والتوحيد . وأنّ إبراهيم وضّح الله تعالى على يديه مفهوم التوحيد الخالص من شوائب الشرك . فميّز بواسطته مابين المجتمع الإيماني والمجتمع غير الإيماني دون الدخول في بيان الفروق التّفصيليّة مابين حالات الكفر ، وحالة الاستسلام فكريّاً وعمليّاً لله عز وجل وعلى جميع صُعد الحياة .

وأقول بألفاظٍ أخرى : إن الذي يستعرض الخطّ البيانيّ لتطوّر عقل البشر ونموّه ، من بعد إخراج هؤلاء البشر من حياة الكهوف ، لابدّ أن يدرك هذا الباحث أن ماأتت به بعثات آدم ونوح وإبراهيم من انقلابات كبرى في حياة هذا البشر ، إنما كانت حقائقها تتناسب وسير هذا الخط البياني . فقد أتت ماحملته تلك الإنقلابات الروحيّة الفكريّة والفلسفيّة بما كان يتناسب مع مستوى النّضوج العقلي للإنسان . أي أن تعاليم كلّ نبيّ من الأنبياء الذين ذكرناهم قد خاطبت أفراد كلّ قوم في ذاك الزمان كلاً على قدر ماوصل إليه عقله من نضوج. وثبت من خلال ذلك تدخّل ربوبيّة الله في الوقت المناسب والزمن المناسب لإحداث التغيير اللازم أيضاً . من هذا ندرك أنّ تعاليم آدم ونوحاً وإبراهيم قد انطوت على ظاهرة تدرُّجٍ عموديٍ نحو الأفضل، ويُكمل بعضها بعضها الآخر أيضاً .

فإن نحن تدبّرنا كتاب الله العزيز من وجهة النّظر هذه ، يتّضح لأعيننا سرُّ ماتضمّنته الآية (٤٢) من سورة هود : ﴿ **ونادى نوحٌ ابنه ، وكان في معزل يابني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا مَن رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المُغرقين** ﴾ . ذلك أن ألفاظ هذه الآية الكريمة قد كشفت لنا حقيقة أن التّعاليم التي كان قد بُعِثَ بها نوحٌ عليه السلام كانت إجماليّة غير تفصيلية شاملة ، فلم توضح علائق الأفراد بالأفراد بل كانت تعاليم نوح تدور حول بيان الفرق بين الشّرك والتّوحيد بصورةٍ عامّة وحذّرت من السّجود أمام هذه التماثيل التي كان قومه عليها عاكفون . ولهذا وقع نوح فيما وقع فيه من دافعٍ عاطفيٍ فنادى إبنه بهذا الدافع وليس بدافع تعليمٍ إيماني . ولذلك عَذَرَهُ ربّه وناداه قائلاً : ﴿ **قال يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غير صالح ، فلاتسألنّ ماليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ ذلك أن الله تعالى وعظ نوحاً ألا

يقف بين يديه ليدعوه طالباً منه تحقيق أمور خارجة عن دائرة ماأطلعه عليه من علوم ، ووعظه بذلك ألا يكون من الجاهلين . فلفظ الجاهل ضد العالم . وجهل ضدّ علم (محيط المحيط) أي حذّره الله تعالى ألا يتجاوز في طلباته وأدعيته حدود ماعلّمه الله إيّاه من علوم . أي انّ نوحاً أراد أن يسأل ربّه شيئاً ، فلاينبغي أن يسأل عن أمر لم يُعطِ الله نوحاً قوّة فهمه . لذلك قال تعالى لنوح ﴿ **قال يانوح إنّه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح** ﴾ وهذا القول الرباني ورد مجملاً أيضاً ولم يدخل في التفاصيل ، فلم يوضّح كيف لايكون ابن نوح من أهله ، ولاوضّح كيف أنه كان يمثّل عملاً غير صالح . فهذه الحقيقة التي دلّتنا عليها هذه الآية الكريمة عظيمة جداً . ولم نكن لندركها لولا التعرض لحادثة ابن نوح المذكورة.

كذلك كانت رسالة ابراهيم تدور تعاليمها حول بيان معالم التوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فكانت أحكام مواضيعها عامةً غير مفصّلة كما هو في هذا القرآن الكريم ولهذا السّبب فلم يكن الأنبياء من قبل بعثة موسى عليه السّلام يتحرّجون من تزويج بناتهم لغير المؤمنين أو تزوّج غير المؤمنات. والأدلة على ذلك كثيرة في كتاب الله العزيز، ممّا لاحاجة للتبسّط في شرحه في هذا المقام.

١ـ تعاليم موسى قومية شاملة :

وانطلاقاً من هذا الفهم الذي بيّناه، فقد امتازت تعاليم رسالة موسى على تعاليم الرّسالات السّماوية التي سبقتها، أنّها جاءت بتعاليم تشمل جميع نواحي الحياة : سياسياً ومدنياً واقتصادياً وروحياً.. فأمسى المؤمن بموسى يفرّق بين النّظافة والنجاسة، ويعرف حدود تعامله مع حُكّامه ومع الأفراد أمثاله، وتوضّحت للمؤمن طريقته التي يتعبّد بها ربّه ليرضيه وليحصل على محبّته ورضاه، وهذه الأحكام المفصّلة جعلت من موسى قائداً رمزاً، وحاكماً سياسياً، ونبيّاً مُرسلاً، وفي آنٍ واحد، أي أنّ مشيئة الله تعالى اقتضت أن تقدّم للعقل البشري تجربة روحية على هذه المستويات جميعها. تتناسب مع مستوى النضّوج العقلي في تلك الفترة الزمنية. فالضرورة الزمنيّة ومستوى فهم البشر قد اقتضيا يومذاك الجمع مابين تعاليم آدم ونوحا وابراهيم مُضافاً إليها تفصيلاتٍ متعلقةٍ بمختلف صُعُد الحياة. وهكذا أحدثت تعاليم موسى انقلاباً حقيقياً كبيراً ماسبق أن تحقّق على يدي أيّ نبيٍّ من قبله، وقد شمل هذا الانقلاب الرّوحي النواحي السياسيّة والمدنية والرّوحية في آنٍ واحد، إنما بما يتناسب مع حال قوم موسى وهم بنو اسرائيل.

ففي حين منحت رسالة ابراهيم عليه السلام جسد البشر مكانةً سامية تفضّل بها الإنسان عن بقيّة الأنعام فقد أتت رسالة موسى فوضّحت علاقة هذا الجسد بالرّوح، ففتحت بذلك باب التدّرج على سُلّم الرّقي الروحاني. وهذه حقيقة وضّحتها ونبّهت إليها الآية (١٥٤) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدىً، ورحمة لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾ وقد جاءت صياغة هذه الآية مُعجزةً حقّاً وبحاجةٍ للتدبّر وبشكلٍ موضوعي.

فالخطاب في سياق هذه الآية الكريمة كان موجّهاً أصلاً إلى المشركين خاصة، حيث خوطبوا: ﴿**وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولاتتبعوا السُّبل فَتَفْرق بكم عن سبيله، ذلك وصّاكم به لعلّكم تتقون**﴾. ومن ثمّ برّر جلّ شأنه طلبه هذا الذي طلبه من المشركين وقال: ﴿**أو تقولوا إنّما أُنزل على طائفتين من قبلنا، وإن كُنّا عن دراستهم لغافلين**﴾. وأشار بكلمة الطائفتين إلى اليهود والنّصارى وإهمال قريش دراسة مالدى هاتين الطائفتين من تعاليم سماوية.

فالخطاب في السّياق إذن موجّه إلى المشركين، ويختّمهم على اتباع صراط الله المستقيم الذي أنزله ربّهم لصالحهم، وليكونوا من زمرة المتّقين. وهذا الأمر استدعى منه جلّ شأنه تقديم مثال موسى ومحمد صلوات الله عليهما، كمثال يحتذى في تقوى الله تعالى واتّباع صراطه المستقيم. فقال تعالى فيما يتعلّق بمثال موسى: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن**﴾ أي أنّ موسى كان محسناً وتقيّاً ومُتّبعاً صراط ربّه المستقيم، لذلك أنعم الله تعالى عليه بالكتاب المسمّى توراة، (تماماً) أي وفقاً لحالة التّقوى التي كان موسى قد بلغها ، فقد كان موسى مُفْعماً بالعصبيّة لقومه . فأشار جلّ شأنه من خلال كلمة (تماماً) إلى أنّ تعاليم التوراة كانت مُنصبغة بصيغةٍ قوميّةٍ موسى نفسه، فلم تكن عالميّة الصبغة ولاكانت تصلح لكل زمان ومكان. فهذا ماأشارت إليه كلمة تماماً في هذا المقام، خصوصاً وأنّ النحويين وضّحوا أنّ التّام لايعني الكمال بل يحتاج إلى تكميل، فالكمال يكون أمراً زائداً على التمام، لأنّ التمام يقابل نقصان الأصل ولايقابل الكمال. أمّا الكمال فيقابل نقصان الوصف بعد تمام الأصل، فهذا ماورد في معجم (محيط المحيط). وهكذا تكون كلمة (تماماً) دالّةً على انحصار تعاليم التوراة في نطاق إصلاح بني اسرائيل من دون سائر الأمم ونفي أن تكون تعاليم التوراة

عالميّة الصّبغة والغاية. أي أنّ تعاليم التوراة هي (تماماً) بما يلائم الوضع القومي لقوم موسى - وهي تعاليم ناقصة الوصف وبحاجة إلى التكميل لتصبح ذات صفة عالميّة. وهذا هو سرّ أنّ التوراة تخاطب قوم موسى وحدهم من دون سائر الأقوام المجاورة، على حين أنّ تعاليم القرآن الكريم الذي أنزله الله جلّ شأنه على محمّد خاتم النبيّين خاطب الناس كافة يهوداً ونصارى وقريشاً وسواهم من الأقوام لقوله تعالى: ﴿**قل يأيها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً**﴾.

والله تعالى إذ أضاف بعد كلمة (تماماً) قوله: ﴿**على الذّي أحسن، وتفصيلا لكل شيء**﴾، فقد أشار بقوله هذا إلى أنّ تعاليم موسى وردت قوميّة وعلى قدر إحسان موسى وتقواه. وهذه التعاليم ورد فيها ﴿**تفصيلاً لكل شيء**﴾ أي لكلّ شيءٍ أنزله الله تعالى من قبل موسى على آدم ونوح وإبراهيم عليهم السّلام.

فقد نزلت تعاليم التوراة تفصّل ماكان مُجملاً في تعاليم أولئك الأنبياء السّابقين. بمعنى أنّ التوراة تجاوزت مرحلة الإجمال في التّعاليم. ففصلت تعاليم التوراة أمور العبادات وأمور أساليب الحكم ومايتعلق بالمرأة وشؤونها وبالاقتصاد وضوابطه، وبما يتعلق بصلة الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر، وبصلتهم بحكّامهم. إنّما ظلّ النقص يعتري تعاليم التوراة هذه على اعتبار أنها تعاليم قوميّة هي بحاجةٍ إلى التّكميل لتصبح تعاليم شاملة وعالمية.

والله تعالى إذ أضاف على ذلك كلمة (وهدىً) فبمعنى أنّ هذه التعاليم "التمام" التي أنزلناها على موسى والتي لم يسبق لنا أن أنزلناها على نبيّ من قبله، فقد أضحت هذه التعاليم (هدى) لموسى نفسه يهتدي بهداها، وليهدي بها قومه أيضاً.

وأضاف جلّ شأنه على ذلك كله قوله: ﴿**ورحمةً لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أضحت تعاليم التوراة رحمةً من الله تعالى أنزلها على قوم موسى لعلّهم يستفيدون من هذه التعاليم ويعملون عليها ولعلّهم يعملون وهم يؤمنون أنّها وسيلة لقائهم مع ربّهم وتقريبهم منه جلّ وعلا. هذا وإن استضعاف فرعون لبني اسرائيل هو الذي جذب رحمة الله نحوهم،على الوجه الذي وضّحناه إذ لابد لكلّ مقدّمةٍ نتائجها. فهذا هو مُجمل قول ربّنا عزّوجلّ : ﴿**ثم آتينا موسى**

الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون﴾.

ولمّا كان القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، فقد فسّر الله تعالى هذه الآية في الآية (١٤٥) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيء**﴾. بمعنى أنّ وصايانا العشر التي كتبناها لموسى في الألواح قد وردت متضمّنةً موعظة من كلّ شيء تطلّبت بيانه حالة قومه عليه السّلام سواء منها السياسيّة أو المدنية أو الروحية لذلك عاد موسى من جرّاء ماأنزلناه عليه من تعاليم قائداً وحاكماً ونبيّاً. أو قولوا بألفاظ أخرى أنّ تعاليم التوراة كانت أوّل تعاليم سماوية مُنزلة لبّت احتياجات عقل البشر في مرحلة نضجه يومذاك وبشكل تفصيلي، لأنّه عاد يومذاك مؤهّلاً لإدراك قيمة مواعظ تلك التعاليم ومؤهلاً للعمل عليها أيضاً.

ولنعدُ إلى آية سورة الأنعام، فبعد أن ذكّر الله تعالى المشركين بنعمة تعاليم موسى الموافقة لتقواه، راح يذكّرهم بأنّ النّقص الذي اشتملت عليه تعاليم التوراة، بسبب أنّها تعاليم قوميّة قد تداركه الله عزوجلّ عن طريق هذا النبي العربي الأمّي الذي اصطفاه الله تعالى من بينهم وهذه التعاليم التي احتواها هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى عليه، فأنزل تعاليمه عالميّة الصّبغة وتصلح لكل زمان ومكان. فهذا ماعبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه، واتّقوا لعلّكم تُرحمون**﴾ أي لعلكم تُرحمون به كما رحمنا بني اسرائيل بتعاليم التوراة التي أنزلناها على موسى عليه السلام.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى وصف هذا الكتاب القرآن أنّه (مبارك)، بمعنى أنّ تعاليمه تتّصف بالبركة والقداسة فهي شاملة وتتّصف بصفة دوام العطاء في كل زمان ومكان، فهذا هو معنى مبارك كما ورد في (محيط المحيط).

والله تعالى إذ قال ﴿**فاتّبعوه**﴾ فقد أمر المشركين بهذا الأمر لتنقلب تعاليم هذا الكتاب رحمةً لهم من جرّاء إيمانهم به وعملهم على تعاليمه. وأضاف قائلاً: ﴿**واتّقوا لعلّكم تُرحمون**﴾. مشترطاً على المشركين اتّباع تعاليم القرآن الكريم بتقوى الله، وليس بمجرّد التقليد ﴿**لعلّكم ترحمون**﴾. أي أنّ العمل على هذه التعاليم عملاً خاوياً من روح تقوى الله وخشيته ومن روح الاندفاع للتّقرب من

الله تعالى وطلب قربه ورضوانه، إنّ هذا النّوع من العمل الخاوي من تقوى الله وخشيته، هو بمثابة جسدٍ بلا روح فلا تنجذب رحمة الله إلى هذا الإنسان.

وراح تعالى يبرّر طلبه وأمره هذا الذي وجّهه إلى المشركين وقال: ﴿**أو تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإنْ كنّا عن دراسهم لغافلين، أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لكُنّا أهدى منهم، فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصَدَفَ عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوءَ العذاب بما كانوا يصدفون**﴾.

فإذا شئنا تلخيص ماذكرته وبيّنته حتى الآن، أقول: إنّ الله عزوجلّ راح في هذه الآيات يصوّر لنا اطار الانقلاب الكبير الروحي الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام. من حيث أنّ التعاليم التي أنزلها ربّه عليه قد احتوت من جهة على الأسس العامة لما أنزله الله تعالى من تعاليم على آدم ونوح وإبراهيم من قبله، وأنّ تعاليم التوراة أكملت تلك الأطر والأسس وفصّلتها من جهة أخرى فربطت بذلك مابين الدّين والدّنيا، ووضّحت التعاليم الرّوحية المتعلقة بعبادة الله ومعرفته، ووضّحت قواعد ومبادئ تعامل الإنسان الفرد مع أخيه الإنسان فرداً كان أو جماعة أو حاكماً، وبتعاليم تشمل جميع صُعُد الحياة. لذلك لم يعد الدّين زمن بعثة موسى مقتصراً على تعاليم روحية وحسب، بل ومشتملاً على تعاليم مادّية ربطت مابين الدين والدنيا، وبفلسفة حياةٍ كاملةٍ ومنظّمة، إنما على مستوى إصلاح قومٍ معين وليس على مستوى عالميّ.

٢ـ بعثة موسى وضّحت ماكان مجملاً من قبله :

فهذه هي أوّل شعبة هذا الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة موسى في منطقتنا، أمّا الشعبة الثانية الهامّة التي يتألف منها هذا الانقلاب الروحي اشتملت عليها الآية (١٤٣) من سورة الأعراف، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿**ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه، قال ربّ أرني أنظر إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني، فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً، وخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تُبت إليك وأنا أوّل المؤمنين**﴾.

ولابدّ لي قبل الافاضة في تبيان الحقائق التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من أن أُلفت نظر القارئ مرّة تلو مرّة وهو أنّ صياغة آي الذكر الحكيم تكون دوماً بليغة ومعجزة وتكمن وراءها حكم إلهية بالغة، يستحيل على القارئ إدراكها والإحاطة بدلالاتها ما لم يتدبّر النّصوص القرآنية بقلبٍ خاشع وبأصول تفسير القرآن، وبتوافق هذا التدبّر مع مشيئة الله الذي أنزل هذا الكتاب العزيز المعجز، وذلك لقوله تعالى: ﴿**لايحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء**﴾.

ولنأت الآن إلى هذه الآية من سورة الأعراف فهي مُصاغة صياغة إعجازية ومُفعمة بالمعاني والحقائق والدلالات، وقد أخبرت عن أحداثٍ حدثت لموسى على جبل الطّور، بدليل مابعدها وهو قوله تعالى: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فخذها بقوّة، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين**﴾.

فإن نحن تدبّرنا طلب موسى من ربّه: ﴿**قال ربّ أرني أنظر إليك**﴾، فالأمر الذي نستنبطه من طلب موسى المذكور هو أنه اطّلع على أسماء الله المتعلّقة بزمانه، وشاهد تجلّياتها، ولم يبق أمامه إلاّ أن يَرَ الذات الإلهية التي تحمل تلك الأسماء، لذلك راح يسأل ربّه أن يدعه ينظر إليه.

على حين أنّ الله عزوجلّ لم يورد لنا مثل هذا الطلب الذي طلبه موسى على لسان أيّ نبي بعثه من قبله. أي أنّ الله تعالى كان يكلّم من سبق موسى من أنبياء من وراء حجاب كشفاً أو في حالة نوم أحد أولئك الأنبياء. وليست قصّة رؤيا ابراهيم وهو يذبح ابنه اسماعيل ببعيدة عن أذهاننا، بالرغم من أنّها كان لها هذا الشأن الكبير من خلال دلالتها على الانقلاب الروحي الكبير الذي أحدثه الله تعالى في حياة البشر عن طريق بعثة ابراهيم عليه السلام، فلماذا لم يورد الله تعالى مثل هذا الطّلب الذي طلبه موسى من ربّه على لسان أيٍّ من الأنبياء من قبله؟ الجواب المنطقي هو أنّ مااطّلع موسى عليه من أسماء الله الحسنى، لم يسبق أن اطّلع على مثل ذاك الكمّ من أسماء الله الحُسنى أيّ نبيّ قبله.

فلماذا أَطْلَع الله تعالى موسى على أسمائه الحسنى بهذا الكمّ؟ أطلعه بسبب أنّ تعاليم رسالته جاءت تُفصّل أمور الدين والدنيا، ولم تَرِد مُجملةً كما كانت تنزل على من سبقه من أنبياء الله الكرام.

ذلك أنّ شريعة موسى نزلت تحمل فلسفة كاملةً للحياة الدنيا، واشتملت على تعاليم تنظم الأمور الروحية والمادية في آن واحد الأمر الذي استدعى من الله جلّ شأنه إطلاع موسى على أسمائه كلّها، والمتعلقة بهذه التعاليم. حتى راح موسى بعد ذلك يطلب من ربّه: ﴿**قال ربّ أرني أنظر إليك**﴾.

هذا وقد نبّه الله تعالى موسى إلى استحالة إمكانية رؤية ذاته عزوجلّ في هذا الطّور من الحياة الدّنيا، الذي لاتمكّن قوى الإنسان هذا الإنسان إلاّ مشاهدة تجليّات ماتتصف به الذات الإلهية من صفاتٍ وأسماء، وعلى حسب المؤهّلات والضرورات الزمانيّة والمكانيّة أيضاً.

ألا إنّ فهمنا وإدراكنا لهذه الحقيقة استنبطناه من هذه الآية من سورة الأعراف، التي نبّهتنا في الوقت نفسه إلى حقيقة أنّ عقل البشر زمن بعثة موسى، كان قد بلغ مرحلة متقدّمة من التّطور والنّضوج، وتأهّل بذلك للإطلاع على ماتحمله الذات الإلهية الخالقة من أسماء تتصّف بها، ليس بصورة إجمالية ولكن بصورةٍ تفصيليّة، الأمر الذي لم يكن متوفّراً في الأزمنة التي سبقت بعثة موسى عليه السّلام، فهذا هو سرّ أنّ مفهوم أحديّة الله الخالق تلقّاه آدم ونوح وإبراهيم بصورة مُجملة، على حين ورد هذا المفهوم التوحيديّ الخالص على موسى بصورة تفصيليّة.

فهذه الحقيقة بإمكان القارئ أن يُلّم بها بأسلوبٍ وطريق آخر، فيستنبطه من أقوال قوم موسى أنفسهم، ففي الآية (٥٥) من سورة البقرة، أورد لنا ربّنا عزوجلّ قوله: ﴿**وإذ قُلتم ياموسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون**﴾.

فلِم طلب بنو اسرائيل من نبيّهم موسى هذا الطّلب الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة؟ طلبوا من موسى هذا الطّلب على اعتبار أنّه أدهشهم إدعاؤه أنّه رأى ربّه في جلوة النار. فهم لم يسبق لأحدٍ منهم أن سمع أنّ مثل هذا الأمر حدث لجدّهم ابراهيم عليه السلام. فقد كان هذا الطرح الذي طرحه موسى أمامهم جديداً عليهم كلّ الجدّة، فاستنكروه على عادة الإنسان الذي يستنكر كل مايجدّ عليه من أمرٍ ويستغربه، وكان لطلب بنو اسرائيل المذكور معناه ودلالته فكأنهم قالوا لموسى بألفاظٍ أخرى: وهل كان جدُّنا إبراهيم أقلّ منك

مكانةً وقرباً من الله عزوجلّ؟ فلم يؤثر عن جدّنا إبراهيم أن أدّعى أنّه رأى جلوة ربّه عزوجلّ.

وعليه ندرك أنّ بعثة موسى عليه السّلام كانت قد أحدثت انقلاباً روحيّاً كبيراً أيضاً على صعيد علم أسماء الله الحسنى، فقلب بذلك التّوحيد الإجمالي إلى توحيد تفصيليّ وعلى قدر مابلغه عقل البشر في تلك الفترة الزمنية من تطوّر ونضوج. الأمر الذي ساعد من بعثهم الله تعالى من أنبياء بعد موسى على أن يظلّوا تابعين لشريعة موسى ومجدّدين يهتدون بهدي ماحتوته التوراة من علوم على صعيد أسماء الله الحسنى.

٣ً. الجديد في مضمار الاتصال بالله تعالى:

وقد طرأت زمن بعثة موسى عليه السلام ضرورةٌ زمنيّةٌ وتشريعيّة اقتضتا من الله عزوجلّ أن يُحدث قفزةً نوعية على صعيد مكالمته مع عباده، وكان موسى أوّل مظهر لهذه القفزة النوعية فقد علمنا حتى الآن كيف أنّ الله تعالى كان يكلّم عباده من أفراد البشر من وراء حجاب. وظلّ الأمر كذلك بصورة عامة منذ أن بعث الله تعالى آدم وأتبعه بنوح وابراهيم. أي كانت ظاهرة اتّصاله جلّ شأنه مع هؤلاء الأنبياء والصالحين من أتباعهم من وراء حجاب وفي منامهم، وفي الكشوف الرّوحية التي كانوا يتلقونها. وسبق أنْ بيّنت أن تجليات أسماء الله الحسنى تتجلّى وتتمثل في رؤى وكشوف الصالحين من عباد الله تعالى من وراء حجاب أي في حالة النوم التي هي عبارة عن استرخاء يحصل للحواس الجسديّة لكلّ إنسان. ولاشك أنّ الرؤى الصادقة مرات ودرجات وتأتي على مستوى صفاء نفس هذا الإنسان الذي يتلقّاها.

هذا الأسلوب السّابق على مستوى مكالمة الله لعباده، كانت تقتضيه عوامل عدّة، منها تخلّفُ عقل البشر في ذاك الزّمان، ومن تلك العوامل أنّ التعاليم السماوية التي كانت تنزل على رسل الله وأنبيائه كانت تعاليم تتصّف بالإجمال والعموميّة في الأمور الرّوحية والمعاشيّة.

وبعد أن كان عقل البشر قد تطوّر ونضج واتّسع أُفقه نتيجةً للانقلابات الرّوحية الكبيرة التي أحدثتها بعثات الأنبياء التي حدثت قبل موسى عليه السلام. وهذه حقيقة استقيناها من آي الذكر الحكيم وخلال أبحاثنا الماضية. فقد عاد

البشر بإمكانهم تصوّر حقيقة أنّ كلّ فرد منهم مؤلّف كيانه من جسدٍ وروح، وتصوّر حقيقة وجود عالم الآخرة والكلام في أمور فلسفة ماوراء الطبيعة، وبعد أن شكّل هذا الموضوع في نظر ربوبيّة الله تعالى، ضرورةً زمنية استدعت إنزال تعاليم سماويّة لاتقف عند حدود الإجمال، بل تتجاوزه إلى التفصيل في أمور معاش الناس. فقد اصطفى الله تعالى موسى وأنزل عليه كتاباً فيه تفصيل كلّ شيء من أمور الدنيا والدّين ـ وتماماً على حسب مابلغه إنسان زمنه وماقتضته أحوال قومه بنو اسرائيل. وقد اقتضت تلك الضرورة الزّمنية والتشريعية أن يعمد الله تعالى إلى مكالمة موسى، ليس فقط كالسابق من وراء حجاب. بل ومشافهةً وعن طريق ملاكٍ من ملائكته، أي أن يعمد جل شأنه إلى مكالمة موسى بجميع طرق كلامه مع البشر، كوسائل لإبلاغه تفصيلات كل شيء تضمّنته تعاليم رسالته، وهذه القفزة النّوعية أشار الله تعالى إلى حقيقتها ضمن ألفاظ ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أي كلّمه مشافهةً : بالإشارة السريعة ومن وراء حجاب وبارسال ملك من ملائكته . فليس في قوله تعالى ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أيّ امتياز لشخص موسى بالذات على غيره من أنبياء الله الكرام، بل وردت هذه الألفاظ تنبيهاً لأذهاننا إلى القفزة النوعية التي سبق أن تكلّمنا عنها واقتضتها الضرورتان الزمنية والتشريعيّة المذكورتين.

ولاينبغي للقارئ أن يظنّ أنّ تكلّم الله تعالى مع موسى بصورة شفهيّة ، كان يمثّل أرفع درجات مكالمة الله مع البشر، كلاّ فالكلام مشافهةً لايحمل هذه الدّرجة من السّمو وإلاّ لكان الله عزوجلّ قد أمر موسى يومذاك بتدوين ماكان يكلّمه به مشافهةً. فلم يُؤْمَر موسى إلاّ بتدوين الوصايا العشر. هذه الكلمات التي تحتاج هي أيضاً للشرح والتوضيح ووفق كل زمان ومكان.

فما هو الدّاعي الذي دعا ربّنا عزوجلّ ألاّ يأمر بتدوين كلامه مع موسى مع أنه كان كلاماً تشريعياً؟ على حين أنّه جل شأنه قد أمر محمّداً بتدوين ماأوحى إليه من وحي القرآن الكريم؟ تأتي الإجابة على هذا السؤال بسبب الفارق بين تشريعي التوراة والقرآن، فتلك كانت شريعة عارضةً تختصّ بزمان وقوم معين هم بنو اسرائيل، أما شريعة القرآن فهي شاملة وكاملة التعاليم وتصلح لكلّ زمان ومكان. هذا الأمر الذي نبّهت إليه كلمة (تماماً) الواردة في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام، وقد شرحتها في حينها. ولاداعي لتكرار هنا.

تم إنّ السّبب الثاني هو من أجل أن تعاليم التوراة وردت بألفاظ موسى نفسه وعلى حسب ماتلقّاها مشافهةً من ربّه عزوجلّ. على حين أن تعاليم القرآن الكريم دُوّنت بذات ألفاظ الكلام الإلهي الذي كلّم الله به محمداً رسول الله ﷺ وبنفس حركاته وسكناته وتوقيفاته. ووفقاً لما كان جبريل يُمليه على رسول الله ﷺ من كلام ربّه عزوجلّ، وليس بكلام محمّد رسول الله ﷺ.

كذلك بإمكان القارئ إدراك أنّ كلام الله تعالى مع موسى مُشافهةً، ماكان يمثّل أرفع درجات تكلّم الله مع البشر، من المثال المتعارف عليه بين جميع الأمم، وهو أنّ نبيّ ملك أو رئيس دولة إذا بعث برسالة إلى ملكٍ أو رئيس مثله، فإنّه يبعث برسالة شفهية يحملها مندوبه وبألفاظه. فإذا كان للرسالة شأنها التوثيقي وأهميّتها، فيبعث بها مُدوّنةً بألفاظه الملكية وبرفقه مندوبه، وتكون الرسالة المكتوبة دوماً أرفع مستوى من الرسالة الشفهيّة.

كذلك بإمكان القارئ إدراك هذا الأمر ممّا تعارف عليه الناس فيما بينهم، فكلّ إنسان يُطلع سواه على مايريد إطلاعه عليه مشافهةً ووجهاً لوجه، أمّا إذا أراد إنسان تحفيظ إنساناً آخر مايريد إطلاعه عليه يستكتبه إيّاه وبألفاظٍ جليّةٍ واضحة ليكُتب لهذا الأمر الثّبات والدّوام.

وهكذا فإنّ قوله تعالى ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ أي مشافهةً، لايعطي موسى ميّزةً خاصّة يمتاز بها على سواه من الأنبياء، بل كان القصد من ذلك أنّ طرق كلام الله مع البشر لم تعد مقتصرةً على طريق من وراء حجاب وحده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالدّلالة الثانية لهذه الجملة هو أنّ الشريعة الموسوية كانت ذات صبغة قومية ومرحلية، ولم تَرق إلى حدّ أن ينزلها ربّنا عزوجل بألفاظه على موسى عليه السلام.

لذلك اقتصرت المُشافهة مابين الله ونبيّه موسى بهذا التشريع التّوراتي المفصّل على حاسّة السّمع لدى موسى، وليس أكثر من ذلك. وهذه الحقيقة نبّهت إليها الآية المعنونة من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿**ماننسخ من آيةٍ أو ننسها، نأت بخيرٍ منها أو بمثلها ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير**﴾. ذلك أن الكلام الشفهيّ قابلٌ للنّسخ والنّسيان، على حين أنّ الكلام المدوّن غالباً مايكتب له الدوام. خصوصاً إذا تعهّد قائله ومدوّنه بالمحافظة عليه.

وعليه فتشريع موسى نزل بطريق مكالمة الله إيّاه مشافهة، لاحتوائه على تفصيل كلّ شيء يتعلق بالأمور الروحية والمدنية والسياسية. لاشتمال تشريع موسى على أمور الدنيا والدّين. وماكان الوحي من وراء حجاب كافياً لأداء هذا النوع من التشريع المفصّل. وبالتالي فقد أحدثت مكالمة الله تعالى مع نبيّه موسى مشافهة قفزةً نوعيةً على طريق تكلّم الله مع البشر، بسبب أنّ عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه، قد نضج وعاد لائقاً لتلقّي مكالمة ربّه مشافهة خصوصاً وأنّ توسع أمور معاشه قد تنوّعت إلى حدٍ اقتضى من خالقه أن يشرّع له أمور معاشه، وبتشريعٍ مُنصبغٍ بتوحيد الله عزوجل.

الانقلاب الخامس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثه المسيح الناصري :

إنّ الانقلابات الروحية الكبيرة التي ذكرتها حتى الآن رسمت للقارئ خطّاً بيانياً وضّح ظواهر تدخّل صفة ربوبية الله تعالى في حياة البشر لتطوير عقله وتهذيبه وتمدينه مذ أن أخرجه من الكهف على أيدي آدم عليه السلام. وهذا الخطّ البيانيّ يمثّل حالة التدرج فيما يتعلّق بتعاليم الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ بعثة آدم وحتى بعثة موسى، تلك التعاليم التي كانت تدور حول توحيد الله عزوجلّ، إلى جانب التحذير من الشرك بالله تعالى بصورة مجملة وليس بصورة تفصيليّة، أي أنّ تعاليم الأنبياء قبل موسى كانت تقتصر على الجانب الروحي لحياة البشر، ولاتتدخّل في أمور معاشهم اليومي.

وبعد أن طوّر الله الخالق الرّب عقل البشر وأنضجه وأعلمه بوجوده وضرورة عبادته وحذّره من الشّرك به، عمد جل شأنه بعد ذلك إلى تقويم سلوكه اليومي بما يتفق وهذا التوحيد الخالص الذي علّمه إيّاه فبعث الله تعالى موسى عليه السلام كما رأينا، وبتعاليم ربط بواسطتها مابين الدّين والدنيا وتفصيلاً لكلّ شيء، لكنّ الأمر الذي ماكان ينبغي أن يغيب عن ذهن البشر من بعد بعثته هو أنّ التّعليم الرّوحي الذي كان قد اكتمل على أيدي ابراهيم الذي لُقّب لهذا السبب بأبو الأنبياء، ويمثّل التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك بالله ماكان ينبغي أن يتناساه البشر بعد موت موسى عليه السّلام ، وتعود تفصيلاته

من قبيل القشور، والمؤسف هو أنّ هذا هو ماحدث لقوم موسى الذين اختصّهم الله تعالى بشرعه المذكور.

وأوضّح للقارئ ماأجملته فأقول: إنّ المؤمن الذي يدين بالتوحيد الإبراهيمي الحنيف الخالص من جميع شوائب الشرك، يقول بلسان حاله «إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وبذلك أُمرت وأنا أوّل المسلمين». يقول هذا ملتزماً بمضمونه قولاً وعملاً، كفردٍ منعزلٍ عمّن حوله من الأفراد، فإذا أخذ هذا المؤمن الموحّد يخالط سواه من الأفراد ويتعامل معهم على جميع صُعُد الحياة، يشعر أنّه أمسى بحاجةٍ إلى خطٍ فكريٍ يساعده على ذلك وإلى خطٍ تشريعي. فهذا المؤمن الموحّد يعود بحاجةٍ إلى التعامل بتفكيرٍ روحي ومنضبطاً بتعاليم ربّه عزوجل. هذا وإنّ الشريعة التفصيليّة التي تلقّاها موسى من ربّه قد وفّرت لكلّ إسرائيلي في زمانه عنصر التفكير الروحاني والعنصر التشريعي السلوكي، وبما كان يتناسب زمانياً وتشريعياً مع تطور عقل البشر ومقتضياته السلوكية القومية.

١ـ زوال روح الطهارة ودماران يحلّان باليهود:

فلما انتقل موسى إلى بارئه الأعلى، وناب عنه نائب، راحت حقيقة وجوهر ماأنزل الله تعالى على موسى من توحيد وطهارة تغيب عن أذهان قومه وبالتّدريج، فحقّ عليهم ماوصفهم به القرآن الكريم في الآية (٨٧) من سورة البقرة: ﴿.. **أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذّبتم، وفريقاً تقتلون؟**﴾، وعاد بنو إسرائيل مُتناسين تعاليم التوحيد الخالص الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام عاد أكثرهم يفكّر بتفكيرٍ ماديّ محض، الأمر الذي ترك آثاره البليغة على سلوكهم اليومي، فشابهوا حينئذ غير المؤمنين ممّن حولهم من الأقوام، وماعادوا ينتسبون إلى موسى وشريعته زمن بعثة المسيح الناصري إلاّ بالإسم فقط، فكانوا بذلك من الوجهتين الفكريّة والعمليّة أبعد مايكون عن التعاليم الموسويّة التي تضمّنتها ماسُمّيَ بالتوراة.

وعليه فلابدّ أن يكون القارئ قد أدرك أنّ التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك هو لبُّ لباب ماأنزله الله تعالى من تعاليم سماوية. أما ماعدا هذا اللّب وهذا الجوهر وهذه الحقيقة، فهو من قبيل الأُطُر والقشور التي تساعد على

تغليف هذا الجوهر وتحافظ عليه. وهذه حقيقة طبيعيّة يُدركها الإنسان بأسلوب الملاحظة العلّمي. فالإنسان نفسه صاغه خالقه من جسدٍ وروح، والثمار لها قشورها التي تحفظ لبابها، فما الدّين بخارج إطار هذا القانون الطبيعي، هذا وإن جميع أوامر الدّين من أحكامٍ وعباداتٍ وغيرها، فهي مجرّد أُطُر وقشور صيغت لتحفظ للمؤمن إيمانه بربّه وتوحيده توحيداً خالصاً من جميع أنواع الشرك بالله الذي لاإله إلا هو.

وبما أنّ التجربة الاسرائيلية لم تكن التجربة الأخيرة لتطوير عقل البشر وتهذيبه وتمدينه، ولّما كان في علم الله الغيبيّ أنّ بني اسرائيل سيشطّون عن سبيل موسى وشريعته هذا الشطّط، فلذلك كان قد أنذرهم جلّ شأنه على لسان موسى وتوعّدهم، وبشّرهم ببعثة المسيح ابن مريم ليردّهم إلى جوهر دينهم التوحيديّ. وقد نبّهتنا آيات سورة الإسراء إلى هذا الأمر الذي كان الله تعالى قد توعّد به بنو اسرائيل، حيث ورد قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب** ـ أي أعلمنا وبلّغنا بني اسرائيل في الكتاب الذي أنزلناه على موسى ـ **لتفسدُنّ في الأرض مرّتين** ـ وليس مرّة واحدة، وقد وضّحت سورة المائدة فترتي هاتين المرتين بقوله تعالى: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم**﴾ أي مرّة بعد داوود ومرة بعد عيسى الناصري ـ ولتعلُنّ عُلُوّاً كبيراً﴾ أي سيتملّككم التكبّر والتجبّر والغرور خلال تلك الفترتين الزمنيتين وبشكل واضح لالُبس فيه فلا تعودون موحّدين الله تعالى ولاخاضعين لتعاليمه ولامتذلّلين بين يديه.

وهذه الحقيقة التاريخيّة التي نبّهتنا إليها هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء، ماهي مجرّد إدعاء لاأصل له في التوراة، بل تؤيّده نصوص التوراة المعاصرة المُحرّفة وبشكلٍ مُدهش. فقد ورد في سفر التّثنية الاصحاح الثامن والعشرون هذا الإنذار والوعيد الذي نبّهت إليه سورة الإسراء بالألفاظ التالية: (وإذا سمعت لصوت الرّب إلهك، حافظاً جميع وصاياه التي آنا آمرك بها اليوم، وعاملاً بها، يجعلُك الربّ إلهك فوق جميع أمم الأرض وتحلّ عليك هذه البركات كُلّها وتدركُك، لأنّك سمعت لصوت الرّب إلهك.. وإن لم تسمع لصوت الرّب إلهك، حافظاً وصاياه وفرائضه التي أنا آمرك بها اليوم، ولم تعمل بها، تأتي عليك هذه اللّعنات كُلّها وتدركُك: فتكون ملعوناً في المدينة وملعوناً في البريّة.. يجعلك

الرّب تنهزم أمام أعدائك تخرج عليهم من طريق واحدةٍ وتهرب من أمامهم من سبع طرق. وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ٢٥-٢٦.

يذهب الربّ بك وبملكك الذي تقيمه عليك إلى أمّةٍ لم تعرفها أنت ولا آباؤك ٣٦ ويجلب الرّب عليك أمّةً من بعيدٍ من أقاصي الأرض كالعُقاب المحلّق، أمّة لاتفهم لُغتها، أمة صُلبةَ الوجوه، لاتهاب وجه شيخ ولاترأف الفتى ٤٩-٥١ حتّى تُهلكك وتحاصرك في مُدنك كُلّها حتى تسقط أسوارك الشامخة الحصينة التي أنت تعتمد عليها في أرضك كلها في كلّ أرضك التي يُعطيك الرّب إلهك إيّاها ٥٣ لأنّك لم تسمع لصوت الرّب إلهك، يكون، أنّ الرّب كان يُسرُّ إذا أحسن إليكم وكثّركم، أنّه يُسرُّ أيضاً إذا أهلككم وأبادكم فتقتلعُون من على الأرض التي أنت داخلٌ إليها لترثها، ويشتتك الرّب في الشعوب كلّها من أقاصي الأرض إلى أقاصيها ٦٣-٦٤ هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرّب موسى بأن يقطعه مع بني اسرائيل في أرض موآب، عَدا العهد الذي قطعه معهم في حوريب الاصحاح ٢٩ فتقول الأمم كُلّها: لماذا صنع الرّب كهذا بهذه الأرض وماشدّة هذا الغضب العظيم؟ فيُقال: لأنّهم تركوا عهد الرّب إله آبائهم، الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر ٢٤-٢٥).

وهكذا يدرك القارئ أنّ الآية من سورة الإسراء ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الأرض مرّتين ولتعلُنّ عُلُوّاً كبيراً**﴾ وردت بمعناها في التوراة،وليس بألفاظها بل إنّ النصّ التوراتي الذي أوردت للقارئ بعض فقراته، يثبت منه أنّ الله تعالى كان أنذر بني اسرائيل وتوعّدهم على لسان موسى قبل استيلائهم على أرض كنعان، وبصورة واضحة الألفاظ ومفصّلة كلّ التفصيل، ويكون الله تعالى بذلك قد أثبت من جهة أنّه علاّم الغيوب، ويكون قد ألقى حجته في الوقت نفسه على بني اسرائيل.

فبنوا اسرائيل أفسدوا في الأرض بعد النّبي داوود، فأرسل الله تعالى ملك بابل نبوخذ نصر فاستولى على فلسطين وهدم هيكل سليمان وسبى أسباط اليهود إلى بابل، وقد أوردت التوراة هذه الحقيقة مفصّلةً في سفر الملوك الأصحاح (٢٥) وفي سفر نحميا النبي الاصحاح ١٧/١٣ ممّا لاحاجة بنا لإيراده في هذا المقام، وهو الأمر الذي أشارت إليه الآية من سورة الإسراء: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد، فجاسوا خلال الدّيار**

وكان وعداً مفعولاً﴾. فمعنى جاسوا خلال الدّيار أي حوالي حدودها ومابين بيوتها(اقرب). ومعنى ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾ أي وعيداً وإنذاراً كُنّا قد توعّدنا وأنذرنا بني اسرائيل به من قبل على لسان نبيّهم موسى عليه السّلام.

وقد بعث الله تعالى المسيح الناصري من بين الاسباط الاسرائيلية التي أعادهم إلى فلسطين بعد الدّمار المذكور والسّبي الرّهيب، أعادهم مصداق ماأوردته سورة الإسراء أيضاً من خلال قوله تعالى: ﴿**ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** وقف**، وإن أسأتمّ فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبّروا ماعلوا تتبيراً**﴾. وقد تحقّق وعد الآخرة، أي وعيد المرّة الثانية الأخيرة، بعد بعثة المسيح الناصري بسبعين عاماً على أيدي الرّومان، وفي حياة المسيح نفسه الذي كان قد عاش مائة وعشرون عاماً، ولاحاجة بنا للخوض في تفاصيل جميع هذه الأمور في هذا المقام.

والذي يهمّنا التعرّض له هنا هو أنّ روح تعاليم التوحيد الإلهي الخالص الذي ضرب النبي ابراهيم عليه السلام عليه أعظم مثالٍ عمليٍ عليه، والذي جاءت شريعة موسى تكمل الناحية الدنيوية المعاشية منه، فقد غابت روح ذاك التوحيد وحقائقه زمن بعثة المسيح الناصري، وعاد بنو اسرائيل لايفهمون من شريعة موسى إلاّ ظواهر تعاليمها وقشورها. وإشارةً إلى هذه الحقيقة ورد قول ربّنا عزوجلّ في الآية (٨٧) من سورة البقرة: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفّينا من بعده بالرّسل، وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات، وأيّدناه بروح القدس، أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون**﴾. فهذه الآية الكريمة تُحدّد المهمّة الأساسية لبعثة المسيح الناصري التي هي إعادة روح تعاليم الشريعة الموسوية إلى الوسط اليهوديّ بعد أن غابت روح تلك التعاليم عن أذهان الإسرائيليّين.

٢ـ دلالة وأيّدناه بروح القدس :

والذي يؤسف له هو أنّ مفسّرينا القدماء الذين لم ينطلقوا من مُنطلق فهمي هذا لتاريخ الرسالات السّماوية، والّذين لم يتدبّروا هذه الآية التي أوردناها حقّ تدبّرها، اختلفوا على عادتهم في فهم جُملة ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾،

فمنهم من أوّلها بجبريل ومنهم من أوّلها باسم الله الأعظم، ومنهم من أوّلها بالإنجيل، ومنهم من أوّلها بالروح المقدّسه كما تقول حاتم الجود ورجل صادق. حال أنّ هذه الجملة بعيدة كل البعد من حيث دلالتها عمّا أولها به المفسرون القدماء؛ بعيدةٌ من حيث دلالتها اللّغوية، وبعيدةٌ من حيث ارتباطها الموضوعي.

لذلك أتناول جملة ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾ بادئ ذي بدء، وأناقشها على ضوء دلالات ألفاظها لغوياً، مُستعيناً في ذلك بمعاجم اللغويّين، وأوّل ماأتناوله ففعل (وأيّدناه)، هذا الفعل الذي أتى من آد الشيءُ إذا قوي هذا الشيء وصلُب واشتد. فمعنى (وأيدناه) أي وقوّيناه وشددناه.

ونأت إلى كلمتي (بروح القدس)، فالباء استعملت هنا للاستعانة، أمّا كلمة (روح) فقد قال أبو البقاء في الكليّات وعلى حسب مأورده صاحب معجم محيط المحيط، قال إنّ كلمة روح لها عدّة معاني. فهي تستعمل بمعنى نفس الإنسان، وتستعمل بمعنى استجلاب المنافع واستدفاع المضار، وتستعمل بما به حياة البدن، وتستعمل بمعنى الأمر الإلهي كما: وروح منه، وتستعمل بمعنى الوحي نحو: تنزّل الملائكة والروح. وسُمّي القرآن الكريم نفسه روحاً نحو: وأوحينا إليك روحاً من أمرنا. وتستعمل الرّوح بمعنى الرّحمة نحو: وأيّدهم بروحٍ منه. وقد يكنّى بالرّوح عن جبريل نحو: فأرسلنا إليها روحنا ـ ثم إنّ كلمة الروح هي خلاف كلمة الجسد، كذلك فإنّ الرّوح من كل شيء تعني باطنه وحقيقته، أمّا كلمة القُدس فلا تعني إلاّ الطهارة ومُشتقّة من القداسة.

وعلى أساس من هذه الدلالات لألفاظ ﴿**وأيّدنا بروح القدس**﴾، وانطلاقاً من موضوعيّة مُهمّة بعثة المسيح الناصري التي كانت تنحصر في محاولة توضيح جوهر وحقيقة التعاليم الموسويّة النابعة من عقيدة توحيد الذات الإلهية توحيداً خالصاً، هذه الأمور التي غابت عن أفهام الاسرائيليين قبيل بعثة المسيح الناصري، يعود معنى جملة ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾ أي قوّينا دلائل صدق المسيح الناصري بما كشفناه عليه من حقائق وجوهر الطّهارة التي نزلت بها تعاليم موسى ولنغرسها في أفئدة المؤمنين بالله عزوجلّ، تلك الحقائق والطهارة التي فقدها بنو اسرائيل والذين باتوا لايفهمون من تعاليم موسى إلاّ ظواهرها وقشورها.

فهذه هي دلالة قوله الله تعالى: ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾. وتأكيداً للمعنى الذي ذهبت إليه، فلنعد إلى الآية (١١٠) من سورة المائدة، فهي فسّرت جملة ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾ بنفس هذا التفسير الذي بيّنته، ومعلوم أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

قال الله تعالى في الآية (١١٠) من سورة المائدة: ﴿**إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس**﴾. فقد أتى جلّ شأنه هنا بحرف (إذ) كإسم للزمان الماضي مرّتين ﴿**إذ قال**﴾ و ﴿**إذ أيّدتك**﴾، ومذكّراً عيسى ابن مريم بما أنعمه الله تعالى عليه وعلى والدته، فحصر هذه النعمة التي أنعمها الله عليهما بجملة ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾ ولنلاحظ وجود إشارة (قف) على آخر كلمة القدس، هذه الإشارة التي يراد بها إعلام قارئ كتاب الله العزيز بانتهاء مضمون ماأراد الله تعالى إطلاعنا عليه. هذا وإنّ وجود إشارة الوقف هذه تُلزمنا أن ننظر إلى مايرد بعدها على أنّه تفسير لما قبلها. وقد أضاف تعالى يوضّح للقارئ دلالة ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾ فقال: ﴿**تكلّم النّاس في المهد وكهلاً**﴾ وهذا كلامٌ مُجملٌ أيضاً ويعني أنّ تقويتنا إياك بروح القدس ساعدتك على أن تصبح واعظاً لامثيل لوعظه في شبابك أي في سنّ المهد. وكهلاً أي في سنّ الشيخوخة، أي قبل حادثة الصّلب وبعدها، وعلى اعتبار مانبّه إليه الحديث الشريف الذي أورده البخاري من أنّ عيسى عاش مائة وعشرون عاماً.

والمهمّ هو أنّ ﴿**تكلّم الناس في المهد وكهلاً**﴾ على حين أنّها جملةٌ أجملت تفسير ﴿**إذ أيّدتك بروح القدس**﴾، فهي قد حدّدت دلالة (روح القدس) أنّ مضمونه هو ماكان يكلّم عيسى ابن مريم به النّاس من تعاليم ويعظهم بها في المهد وكهلاً. ونفت بذلك جميع المعاني التي تأوّلها المفسرون ونسبوها لهذين اللفظين.وعليه فمعنى (تكلّم النّاس) أي تعظهم بحقائق وجوهر التّعاليم الموسويّة.

ومن ثم راح تعالى يزيدنا شرحاً، وأتى بظروف الزمان (إذ) للمرّة الثالثة وأضاف يقول: ﴿**وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ أي أنه لولا أن علّمتك روح وجوهر وحقائق كتاب موسى ولولا أن أظهرت عليك حكمة وفلسفة كل تعليم من تعاليم الكتاب المذكور، ولولا أن كشفت عليك

أنّ حكمة وفلسفة تلك التعاليم كان الغرض منها تطهير النفس البشرية وصبغها بصبغة التوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فما كان باستطاعتك أن تزعم أنّك تعظ بحقيقة التوراة، ولا أن تزعم أنّك أتيت بالانجيل أي بالبشارة التي بشّرت بها التوراة، فهو تعالى عندما عطف كلمتي التوراة والإنجيل هنا على الكتاب والحكمة، فقد أصبح الكتاب والحكمة قرينة في حدّ ذاتها تنفي أن يكون المراد من لفظ التوراة هنا هو الكتاب نفسه بل وللتنبيه بهذا الأسلوب البلاغيّ إلى ماتضمّنه كتاب موسى من بشارةٍ متعلّقة ببعثة المسيح الناصري . فالانجيل معناه البشارة هنا، ولايُقصد بالانجيل في هذا الموقع سوى ماذكرت، خصوصاً وأنّ عيسى ابن مريم كان مصدّقاً لما بين يديه من التوراة.

٣ـ دلالة تُخلق من الطين كهيئة الطير :

ولنلاحظ منطقية تسلسل أفكار هذه الآية الكريمة من سورة المائدة، فقد تدرّج عرض مضمونها بشكلٍ يتصّف بمنتهى المنطقية ، فقد تدرّج من الإجمال إلى التفصيل وعلى مراحل، فلمّا أتمّ الله تعالى عرض وشرح الناحية النظريّة من الموضوع، انتقل إلى عرض وشروح الناحية التطبيقيّة العمليّة، أي انتقل ليعطينا فكرة عمّا أثمرته تلك النعمة التي أنعمها الله تعالى على عيسى ووالدته، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿**وإذ تَخْلقُ من الطّين كهيئة الطّير بإذني، فتنفخُ فيها فتكون طيراً بإذني**﴾، فلنلاحظ أولاً أنه تعالى أورد في هذه الفقرات كلمة (بإذني) مرّتين، فللإشارة إلى أن مايتحقق على أيدي المسيح لايتحقق على أيدي رجال الدين اليهودي الذين عاصروه، لكونهم منتحلين صفة الممثلين للدّين ولايمثلون الله ولايعظون بإذنه على حين أنّ المسيح الناصري هو الذي كانت له صلته بربّه ويمثّل تعاليم موسى عليه السلام ويعظ الناس بإذن الله عزوجلّ.

والملاحظة الثانية تتجلّى من خلال إيراده تعالى كلمتي تخلق والطّين. وقد وردتا في سورة الأعراف على لسان ابليس ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾، وقد استعملتا هناك بدلالتهما المجازيّة، وهي دلالة الطين على النفس البشرية ذات الطبيعة الطينيّة التي تستجيب طواعيّةً للوعظ والإرشاد الروحاني.

والملاحظة الثالثة تتجلى في كاف التشبيه الواردة في (كهيئة الطير)، فللتنبيه إلى أنّ ربّنا عزوجلّ يعمد في كلامه هذا إلى الكناية والتشبيه وبأسلوب بلاغي، فلم يورد جل شأنه ألفاظ هذه الفقرات بمعانيها الحقيقية.

فإن نظر القارئ بمنظار هذه الملاحظات الثلاث يُدرك من فوره أنّ الله عزوجل ينبّه أذهاننا من خلال هذه الفقرات وبصورةٍ غير مباشرة إلى الغاية القصوى التي نزلت تعاليم موسى لتحقيقها، ألا وهي مساعدة النّفوس ذات الطبيعة الطّينين لتتطوّر روحانياً، ولتصبح طيوراً محلّقة في سماء الروحانية، فكراً وعملاً وثماراً، وقد نبّه الله جل شأنه أذهاننا أنّه بعث المسيح بهذه الحقيقة ولذلك تطوّر حواريّوه الذين آمنوا بالله تعالى على يديه روحانياً، بينما لم يتحقق هذا الأمر على أيدي كهنة اليهود. وبذلك تعود هذه الظاهرة دليلاً عملياً تطبيقيّاً يثبت منه صدق المسيح الناصري.

٤ـ دلالة تبرئ الأكمه والأبرص بإذني :

ولفت جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرةٍ تطبيقيّةٍ ثانية عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿**وتبرئ الأكمه والأبرص باذني**﴾. فالأكمه هو من اعترت عينيه ظلمة فأمسى أعمى وأعشى (محيط المحيط). و لم يُقصد بالأكمه والأبرص هنا، العمى الذي يحصل للعين المادية، ولا البرص أي بياض بشرة الجسد المادي، بل استعمل اللّفظان هنا بدلالتهما المجازية أيضاً، وعلى شاكلة قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً**﴾. فالعمى كُنّي به هنا عن ضلالة سبيل الله عزوجلّ. ثم إنّ الأبرص فكنايةً عمّن تناسى صلته القومية مع بني جنسه وشذّ عن تعاليم موسى، فلم يعد يبدو اسرائيلياً أي فقد هوّيته الموسويّة فالله عزوجلّ إذ يقول:

﴿**وتُبرئ الأكمه والأبرص**﴾ يوضّح لنا ظاهرةً عمليّة كانت تتحقق على أيدي المسيح، وهو أنّ من كان يستجيب له ويؤمن بالله تعالى على يديه، يشفى ممّا اعترى بصيرته من ظلمة كانت قد أحدثتها سيئات أعماله، ويشفى على يدي المسيح أيضاً ممّا ظهر منه على المستوى السّلوكي من برص أي من وهنٍ وفقدانٍ لهويته القومية، وليس العكس، فلو أنّ المسيح كان كاذباً في دعواه، فما كان لهذه الظاهرة العمليّة أن تبدو بنتيجة وعظه لقومه .

٥ـ دلالة تخرج الموتى بإذني :

وقد لفت الله جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرة تطبيقيّة ثالثة ظهرت على أيدي المسيح، فقال: ﴿**وإذ تُخرج الموتى بإذني**﴾. والمراد من الموتى موتى النفوس ومجازاً، وكأنه تعالى يعيد إلى أذهاننا حقيقة أنّ جميع الأنبياء إنما يبعثهم الله تعالى لإحياء النفوس الموتى، فمُهمّتهم جميعهم كانت مهمةً روحانيّة وليست مادية.

وهذا شبيه بقوله تعالى بحق محمد سيد المرسلين ﷺ: ﴿**يأيها الذين آمنوا استجيبوا للرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ وكأنه جلّ شأنه لفت الأنظار إلى أنّه كان المقصد من تعاليم موسى هو إصلاح النفوس وتطهيرها، لذلك يعتبر إصلاح الأمور المعاشية التي تضمّنتها تعاليم ﴿**وتفصيلاً لكل شيء**﴾ من قبيل تحصيل حاصل.

٦ـ دلالة كففت بني إسرائيل عنك :

ولقد لفت الله تعالى أذهاننا إلى ظاهرة عمليّة تطبيقيّة رابعة تجلّت لأعين الباحثين، وعبّر تعالى عنها بقوله تعالى: ﴿**وإذ كففت بني اسرائيل عنك**﴾. فكلمة كففت عنك من كفّه عنه أي دفعة وصرفه ومنعه، فالله تعالى يشير من خلال هذه الألفاظ إلى النتيجة التي آلت إليها حادثة محاولة قتل المسيح على الصليب، فالله عزوجلّ كفّ عن المسيح مادبّره بنو اسرائيل للقضاء عليه، فدفع عنه ضُرّهم، وصرفهم، ومنعه حيال مؤامرتهم الشنيعة تلك، فمن أراد التوسّع في فهم هذه الظاهرة الرابعة فليراجع مؤلّفي (هل مات المسيح على الصليب؟)، فقد يجد فيه مايشفي غليله.

وخلاصة القول هو أنّ قول الله عزوجلّ بحق المسيح الناصري ﴿**وأيّدناه بروح القدس**﴾ لايعني هذا الكلام امتيازاً له على سائر أنبياء الله الكرام، بل كان المقصود منه هو التنبيه إلى المهمّة الأساسية لبعثة المسيح ألا وهي إعادة الوجه الحقيقي لتعاليم موسى عليه السلام، ذاك الوجه الروحاني الذي كان يمثل التوحيد الإبراهيمي الخالص من جميع شوائب الشرك، فهو التعليم الذي جلاّه الله تعالى على أيدي أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام، فالضرورة الزمنيّة اقتضت من ربّنا بعث المسيح وتأييده بروح الطهارة تلك وبفلسفتها وعلى اعتبار أن بني اسرائيل زمن بعثة المسيح الناصري كانت قد غابت عن أذهانهم حقائق تعاليم موسى

تلك، نظرياً وعملياً. فعاد رجال كهنوتهم لايفهمون من تعاليم كتاب موسى إلاّ ظواهرها وقشورها. وعادوا مُنتحلين صفة الممثّلين لله تعالى وأنهم يعظون بإذنه، فكذّبهم الله جلّ وشأنه وسفّه علومهم، موضّحاً أن الذي يفهم حقائق علوم التوراة وتبدو على أيديه ثمارها الروحيّة أيضاً، فهو المسيح ابن مريم وحده الذي كان مؤيّداً من الله تعالى ويعظ ويشفي روحانياً بإذن الله عزوجلّ أيضاً.

٧ً ـ كانت ضرورة زمنية لإحياء شريعة موسى:

ثم إنّ شريعة موسى التي كانت حُرّفت وشُوّهت وغاب بريق وجهها زمن بعثة المسيح الناصري، أضحت يومذاك ضرورة زمنيّة وموضوعيّة في نظر الله عزوجلّ، الله الذي بعث المسيح الناصري يومذاك لإحياء ماانذثر من تعاليم موسى. ولاعضائها وجهها الحقيقي. ولإنقاء حُجّة الله تعالى على بني اسرائيل الذين كانوا قد أفسدوا للمرّة الثانية، ولإنذارهم بالعذاب وباستبدالهم بأمّة أخرى غيرهم تعمل ثمار ماأنزل الله تعالى من تعاليم على من بعث من رسلٍ وأنبياء.

هذا وإن ظاهرة بعث المسيح الناصري، ماكانت تخالف منطق تاريخ الإصلاح الديني، بل هي ظاهرة تكرّرت من قبله كلّما شاء الله عزوجلّ تجديد شريعةٍ سماويّةٍ حرّفها أهلها وغاب عن الأنظار لمعانها وحقيقتها . وإلى نفس هذه الحقيقة أشار المسيح الناصري نفسه في انجيل متى ٥/١٧: (ماجئت لأنقض الناموس بل لأكمل). ذلك أنّ مهمة المسيح الناصري اقتصرت على تطهير باطن الإنسان المؤمن، وتأهيله لإقامة حكومة الله تعالى السماوية على فؤاده، وليصبح مهبطاً لتجلّيات كلام الله معه. وماكان من مهمة المسيح الناصري إصلاح معيشة الناس لذلك ورد عنه قوله: (اعط مالقيصر لقيصر وما لله لله).

ألا إن إنّ مهمّة تعاليم أيّة رسالة سماوية، ومغزاها ومقصدها الحقيقي، منذ آدم وإلى يومنا هذا، هو الأخذ بأيدي هذا الإنسان لتعريفه على ربّه، وليفوز بمحبة ربه ويحقّق لقاءه معه ويكسب رضاه، أمّا ماهو خارج هذا المضمون، فتعاليم أُطُرٍ وذرائع وقشور لتحفظ هذا الجوهر والحقيقة وتديم بقاءه. لذلك ماأن تفقد تعاليم هذه الأطر والذرائع والقشور مابضمنها من جوهرٍ وحقيقة. يستدعي ذلك من الله تعالى بعث من يجدّد تلك التعاليم ويعيد إليها حياتها ولمعانها.

ولكي أساعد القارئ على إدراك دلالة قوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾. أقتبس هذا القارئ نماذج مما كان المسيح الناصري يعظ به قومه قبل حادثة صلبه التي تعرّض لها في حياته بينهم.

فقد كان المسيح الناصريّ لايكتفي ببيعة اسرائيلي على يديه، بل يؤكد على هذا المبايع ضرورة الأخذ بتقوى الله في سلوكه اليومي. وعلى صورة تنافس وتسمو على تقوى الكتبة والفرّيسيّين من كهنة اليهود، فالمسيح يخاطب أتباعه ويقول على حسب ماأورده انجيل متى ٥/٢٠ (فإني أقول لكم إن لم يزد برُّكم على الكتبة والفرّيسيّين لن تدخلوا ملكوت السموات). ويضيف بعدها في ٥/٤٨ ويقول: (فكونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السّموات هو كامل). ثم إنّ المسيح الناصري كان يحذّر حواريه من الإنفاق والتصدّق مراءاةً وتغضية، فكان يعظهم أن ينفقوا سرّاً، وبغاية جذب محبّة ربهم ويقول في انجيل متى ٦/١٩-٤: (احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قُدّام الناس لكي ينظروكم. وإلاّ فليس لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السموات.. فأبوك الذي يرى في الخفاء، هو يجازيك علانية.. ويضيف ناصحاً ٦/١٩ (لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسدُ السّوس والصدأ، وحيث ينقّب السّارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السّماء حيث لايُفسدُ سوسٌ ولاصدأٌ، وحيث لاينقّب سارقون ولايسرقون). ثم إنّ المسيح النّاصري كان يحذّر من الدجّالين المدّعين بأمور كذباً وبُهتاناً، فيحثّ حواريه على التحقّق من دجلهم وإدعاءاتهم من خلال الثمار الروحية والبركات التي تتأتّى على أيديهم، مُلفتاً أنظارهم إلى قانون طبيعي وهو أنّ الأشجار تعرف بأثمارها ويقول في انجيل متى ٧/١٥-١٩: (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الخملان ولكنّهم من داخل ذئابٌ خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم، هل يُجنون من الشّوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا كلّ شجرة جيّدة تصنع أثماراً جيّدة.. كل شجرة لاتصنع ثمراً جيّداً تُقطع وتُلقى في النّار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم).

ولنصغ إلى وصايا المسيح الناصري المُوجّهة إلى حواريه والتي نقلها إنجيل متى ١٠/٥-١٠ بألفاظ كاتبه الذي ماكان يدرك حقيقة تلك الوصايا. وقد جاء القرآن الكريم يوضّح ماكانت تحمله من حقائق ودلالات. فكاتب انجيل متّى يروي: (هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم

لاتمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريين لاتدخلوا، بل اذهبوا بالحرّي إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة، وبينما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين: إنّه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى، طَهّروا بُرصاً. أخرجوا شياطين، مجّاناً أخذتم مجّاناً اعطوا مجّاناً. لاتقتنوا ذهباً ولافضّة ولانُحاساً في مناطقكم. ولامزوَداً للطّريق ولاثوبين ولاأحذية ولاعصا، لأن الفاعل مستحقٌّ طعامه). وهكذا يُلاحظ القارئ أنّ كاتب انجيل متى لايدري دلالة شفاء المرضى ولا دلالة تطهير الأبرص ولا دلالة إحياء الموتى ولا دلالة إخراج شياطين، بل يفهم هذه الأمور على ظواهر دلالاتها المادية وكأن المسيح الناصري في نظره كان طبيباً شرعيّاً حاذقاً وليس مُعلّماً روحيّاً.

والذي نستخلصه ممّا أوردناه من مواعظ المسيح النّاصري أنّ شريعة موسى كانت في زمنه قد حرّفها أهلها وشوهوا تعاليمها، وأفقدوا تعاليمها حقيقتها وجوهرها، لذلك كانت مواعظ المسيح الناصري تركّز على ضرورة فهم حقيقة وجوهر تعاليم موسى والعمل عليها من ذاك المنظار، وليس على ظواهرها وقشورها التي أوصلها إليه كهنة بنو إسرائيل. فكيف أمكن المسيح أن يعظ بهذا الوعظ، وكيف أمكن له إعادة إثمار تعاليم التوراة؟ أمكنه ذلك لتأييد وتقويه الله تعالى بيّناته ودلائله بتعليمه روح تلك التعاليم.

والذي يهمّنا من ذلك كله هو أن نعلم أنّ شريعة موسى التي كانت قد جمعت ولأول مرّةٍ في تاريخ البشر تفصيل كلّ شيء يتعلق بالدنيا والدين، ومؤسّسة ذلك كلّه على أساس من التوحيد الإبراهيمي الحنيف الخالص من جميع شوائب الشرك بالله عزوجلّ، وبما يُلائم وأحوال بني إسرائيل. أقول إنّ شريعة موسى تلك أفقدها تجّار الدّين ومنتحلوا صفة الممثّلين لتلك الشريعة، أفقدوها لمعانيها وأفرغوها من حقيقتها وجوهرها. لذلك اقتضى ذلك تجديد تلك الشريعة وبعث حقائقها وإعادة لمعانيها، فاصطفى الله عزوجلّ لتصحيح ذلك كلّه المسيح الناصري، وأحدث بواسطته انقلاباً روحياً كبيراً في تاريخ البشر، مقوّياً إياه ومؤيده بروح القدس أي بروح حقائق الطهارة التي نزلت شريعة موسى لتمثرها، وفتح الله تعالى بذلك لبني اسرائيل وللمرّة الأخيرة باب معرفته وقربه ورضوانه، فأضلّ تجّار الدين من كهنة اليهود شعبهم ، وانتحلوا صفة ممثلي الدّين لدى أتباعهم، وصدّوهم بذلك عن الإصغاء للصوت السماويّ الذي مثلته بعثة المسيح

الناصري، فاستحقوا بذلك عذاب الله الذي أنزله بهم ربّهم بعد سبعين عاماً على أيدي الرومان، ونجّى الله تعالى المسيح مما كاده له هؤلاء وكف أيديهم عنه، وأمره بالهجرة لتبشير بقية السّبي من أسباط اليهود.

ثم إنّ المسيح الناصري الذي أدرك واقع قومه السّيء، والذي كان مُضّعاً على ماتضّمنته النبوءات التوراتيّة عن مصير قومه بنو إسرائيل، قد بشّره الله تعالى بأحمد أي بمحمّد رسول الله المسمى بصيغة التفضيل أحمد أي أكمل الناس حمداً لله الذي سيكون أكمل توحيداً لله تعالى من جميع من سبقه من أنبياء الله ورسله. وأنقل هنا بعض ماأوردته الأناجيل المعاصرة من معالم تلك البشارة التي بشّر بها المسيح ابن مريم قومه بحقّ النبي الذي سيبعثه الله تعالى من بعده من أبناء عمومة قومه ووفق نبوءة سفر التثنية الاصحاح ١٨/١٨ الذي سبق أن أوردناها.

فيما أنّ إنجيل متى ٢٣/٣٨-٣٩؛ ينقل لنا قول المسيح الناصري مُحذّراً قومه ومبشراً بمن سيأتي بعده، فهو يقول: (ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها: كم مرّة أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً، لأني أقول لكم: إنّكم لاترونني من الآن حتى تقولوا مباركٌ الآتي باسم الرّب..). وهل يُلاحظ القارئ توافق قول المسيح الناصري: (ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين) مع ماورد في الآية (٨٧) من سورة البقرة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿.. **أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم، استكبرتم، ففريقاً كذّبتم، وفريقاً تقتلون**﴾؟ وأفلا يلاحظ القارئ مأينذر به المسيح قومه في هذا النّص ويقول: (هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً). هذا الخراب الذي أحقّه بهم الرومان بعد سبعين عاماً من بعثة المسيح، وهو الخراب الثاني الذي أوردته سورة الإسراء؟

ثم أفلا يلاحظ القارئ كيف أن المسيح الناصري ينبئ في هذا النّص المذكور عن بعثة النّبي الآتي (باسم الرب) هذا النّبي الذي سيبعثه الله مباركاً ومهبطاً لتجليات الله عزوجلّ. أي أنّ هذا الآتي سيمثل ذروة الارتقاء الروحاني. وهل يُلاحظ القارئ كيف أنّ كلمات هذا النّص الانجيلي، انطبقت عملياً على بعثة محمد بن عبد الله ﷺ؟

وأنقل للقارئ نصّاً آخر ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح الناصري في ١٤/٢٦ وهو قوله: (وأمّا المُعزّي، الرّوح القدس، الذي سيرسله الآب بإسمي، فهو يعلّمكم كلّ شيء، ويذكّركم بكلّ ماقلته لكم) فها أن المسيح يبشّر ببعثة (المعزّي) الذي سيأتي بتعليم كامل فيعلّم كلّ شيء، ولايكون المسيح نفسه بل نبياً آخر غيره لقوله (ويذكّركم بكلّ ماقلته لكم). فلو كان المعزي المسيح نفسه، فكيف يقول عنه" ويُذكّركم بكلّ ماقلته لكم؟" ثم إن «المعزي» هو النبي الذي يبعث العزاء في نفوس الناس، فيلوم اليهود ويصدّق المسيح، ويمثل (روح القدس) أي يمثل بأسوته العمليه وبتعاليم شريعته روح الطّهارة وروح التوحيد الذي أتى به ابراهيم الخليل عليه السلام.

وليلاحظ القارئ كيف أن كاتب انجيل يوحنا نقل لنا في ١٦/٧ـ١٤ أقوال المسيح التي يُطَمئن فيها حواريه، ويبشّر بالمعزّي من بعده ويقول: (لكني أقول لكم إنه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأنّه إن لم انطلق، لايأتيكم المعزّي، ولكن إن ذهبت أرسله لكم، ومتى جاء ذاك، يبكّت العالم على خطيّته وعلى برٍ وعلى دينونه: أما على خطيّه فلأنهم لايؤمنون بي، وأمّا على برٍ فلأنّي ذاهبٌ إلى أبي ولاترونني أيضاً.. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. إنّ لي أموراً كثيرةً لأقول لكم، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن، وأمّا متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمع يتكلّم به، ويخبركم بأمورٍ آتية. ذاك يمجّدني).

أفلم يلاحظ القارئ كيف اطلق المسيح على الآتي باسم الرّب في هذا النّص للمرة الثانية صفقة «المعزّي» الذي كان ينبئ عنه المسيح أنّه لن يكون يهودياً بل من قوميّةٍ أخرى غير بني اسرائيل؟ ثم هل بعث الله تعالى بعد موت المسيح مَنْ مجّده، وبرّأه من الموت الصليبي، ونزّه عن دعوى الألوهه، ودفع عنه اعتراضات اليهود إلاّ محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين ﷺ؟ وأفلم يلاحظ القارئ كيف أن القرآن الكريم الذي أنزله ربّنا على قلب محمد ﷺ أنزله مفعماً بالأنباء الغيبيّة وفق قول المسيح (ويخبركم بأمور آتية)؟ وهكذا فلا تنطبق أقوال المسيح الناصري المذكور إلا على محمد رسول الله ﷺ فهو "المعزي" وهو الذي مجّد المسيح وأبقى ذكراه على مدى الأيّام .

من هذا كلّه نكون قد أحطنا بمعالم الإنقلاب الروحي الكبير الذي أحدثه الله تعالى على أيدي المسيح ابن مريم والذي تحدّد في عمليّة إعادة الوجه التوحيديّ الإبراهيميّ الذي احتوته تعاليم شريعة موسى عليه السّلام. فلولا بعثة المسيح النّاصري لكانت انقطعت السّلسلة مابين ابراهيم ومابين محمد ﷺ ومابعثه الله تعالى به من تعاليم، ولكان استحال على الباحث الذي يتناول حال اليهود الفكري والعملي أن يعثر على اللُّحمة التي تربط مابين توحيد ابراهيم الحنيف وتوحيد سيّد المرسلين. ولعاد هؤلاء الباحثون يوقنون بوجود حلقةٍ مُفرغةٍ بين التّوحيدين. وهكذا أثبت الله تعالى أنّه علاّم الغيوب وأنّه رب العالمين.

الانقلاب السادس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثة محمد ﷺ:

لابدّ أن اتّضح لأعين القارئ ممّا ذكرناه حتى الآن أنّ الله تعالى الذي كان قد بعث آدم ليخرج البشر من كهوفهم، هذا الإله الرّب الذي راح يبعث رسلاً وأنبياء بتعاليم على قدر عقل البشر ولتطوير تلك العقول وللمساعدة على تهذيب البشر وتمدينهم. هذا الإله الذي وصل بالبشر إلى مرحلة ربط الدّين بالدنيا عن طريق شريعة موسى، ووضّح جوهر تلك التعاليم على أيدي المسيح ابن مريم، فبيّن أنّها قامت على أساس من توحيد الله وطلب رضوانه، فلابدّ لهذا القارئ أن يكون قد أدرك أنّ بناء الدّين الشامخ لم تعد تنقصه إلاّ لبنةٌ واحدة، ولقد شكّلت بعثة محمد وقرآنه هذه اللّبنة التي أكملت بناء هذا الدين التوحيديّ العظيم. وأحدث الله عزوجل ببعثة محمد ﷺ بالتالي أعظم انقلابٍ روحيٍ في تاريخ البشر الطويل.

١ـ القرآن كلام الله تعالى:

وبدافع أهمية هذا الانقلاب الروحي الكبير الأخير، يتساءل القارئ بالبداهة عن معالمه وموضعه من الرسالات السماويّة التي سبقت حدوثه. وأجيب أنا بالإيجاز على هذا التساؤل وأقول:

أتناول هذا الموضوع من جانب كلام الله مع عباده، وما استجدّ على هذا الصعيد ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ. فلم يحدث في تاريخ البشر أن أنزل الله تعالى كتاباً بألفاظه نفسها، إلاّ كلمات الوصايا العشر التي أنزلها على موسى من قبل. فكتاب الله العزيز الذي أنزله على قلب محمد ﷺ، أنزله الله تعالى لفظاً وحركاتٍ وتوقيفات، ووعد بالمحافظة عليه ولم يُنزل الله عزوجلّ كتابه هذا لإنجاز مهمة واحدة، بل لإنجاز مهمّات عديدة. لذلك اصطلح له عدّة تسميات: فوصفه بإسم «القرآن» وبناء منه جل شأنه على أنّ هذا الكتاب سيُستنسخُ ويُطبَع بأعدادٍ هائلة، ويتداوله الناس ويتلونه صباح مساء في مجالسهم محفوظاً ومُكَرماً، ووصفه جلّ شأنه بإسم «الفرقان» من مُنطلق أنّ ما احتوى عليه كتابه العزيز من علوم، سيفرق بها الحق عن الباطل فيكون مُهيمناً بذلك على جميع مابين أيدي الناس من تعاليم ينسبونها إلى الله عزوجل. ووصف الله تعالى كتابه العزيز هذا باسم «الحكيم» من منطلق أنه تعالى لم يورد فيه حكماً إلاّ وأتبعه بفلسفته العلميّة التي أُسس ذاك الحكم على أساس منها.. ووصف الله جل شأنه كتابه هذا باسم «الذكر» من مُنطلق أنّ في العمل على تعاليمه رفعة هذا المؤمن وسرّ تقدُّمه ورقيّه الروحي. وهذه الأوصاف تميّز بها الكتاب الذي أنزله الله تعالى على قلب محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه الخطوة التي حدثت عن طريق إنزال هذا الكتاب السماوي الأخير تجاوزت جميع طرق كلام الله مع عباده التي لاحظنا معالمها فيما مضى من بيان. تجاوزت مكالمة الله مع البشر من وراء حجاب، كما تجاوزت مستوى الكلام المشافهة الذي حدث ببعثة موسى عليه السلام. تجاوزت كلّ هذه الطرق، إلى مرحلة جديدة أسمى من جميع تلك الطّرق، وقد تمثلت في وحي القرآن المُدّون والموعود بالمحافظة عليه إلى يوم الدّين.

ويُثبتُ ادّعاؤنا هذا من طريقين: الأوّل عمليّ وهو وجود هذا الكتاب بالرغم من مضي أربعة عشر قرنا على إنزاله ، وقد سبق لي أن أثبت في المبحث الأول من مؤلّفي هذا مصداقيه القرآن المجيد ـ والطريق الثاني الذي يُثبت صدق إدعائنا الذّي ذكرناه، هو مانبّهت إليه آيات الوحي القرآني من أن موسى طلب من ربه في سورة الأعراف ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾. فلم يستجب ربه لطلبه، على حين صرحت سورة النّجم بحقّ سيد المرسلين ﷺ بقوله تعالى: ﴿**ثم دنا**

فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ماأوحى، ماكذب الفؤاد ما رأى﴾. هذا وإنّ جُملة ﴿**ثم دنى فتدلّى. فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾. تُنبّه إلى سُمو مقام محمد على مقام موسى عند الله عزوجلّ، وقد قابل هذا التمايز ماأنزل الله تعالى على محمّد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ماأوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كلّه هو أنّ الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقق على أيدي محمد رسول الله ﷺ، على صعيد كلام الله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلاباتٍ روحيّةٍ تحقّقت على أيدي المرسلين من قبله.

٢ـ التشريع الكامل :

وأتناول الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وما استجدّ على هذا الصّعيد بإنزال ماتضمّنه كتاب الله القرآن المُنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يُلاحظ القارئ كيف أنّ هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتبٍ سماويّة، وكيف أنّه تضمّن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرهما عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصّبغة ولاتصلح أحكامها وتشريعها لإقامة مجتمع ونظام عالمي؟ ثم إنّ كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعاليم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية. على قدر ماجاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعاليم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرّج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النّبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب الله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلّق بأحكام وتشريعة موسى فقال: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أن التّرجي بالحصول على لقاء الله عزوجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعاليم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكامٌ وتعاليم ذات صبغةٍ قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقيةً روحيةً كاملة تؤهّله للتشرُّف بلقاء ربّه عزّ وجلّ وجذب محبّته وقربه ورضوانه .

هذا وقد لفت الله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعاليم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربّه حاذفاً هذا التّرجي. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحقّ مدرسة أحكام وتعاليم القرآن الكريم: ﴿**لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب، ماكان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كلّ شيء، وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون**﴾. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشريعة الموسوية بقوله: ﴿**هدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلقّة بالشريعة المحمدية بقوله: ﴿**هدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والتّرجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبال كمال ماتضّمنتهُ من أحكام وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبّر، وبهذه الدّقة في التعابير والّتي لايلحظها إلا المتدبّرون.

أما هذا الكمال الذي اتّصفت به أحكام وتشريع كتاب الله القرآن، فقد صرّح به الله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن ماراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية ﴿.. **اليوم ينس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطُرّ في مَخْمصةٍ غير مُتجانفٍ لإثم، فإنّ الله غفور رحيم**﴾. فهو تعالى صرّح هنا أن اكتمال بناء الدّين الشاهق الذي تتبنّونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذّبوه وكفروا به، لموازنتهم مابين تشريعه وأحكامه ومابين مالديهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجوه الذين كفروا بشريعة الإسلام باب التّفاخر والتّباهي بما في كتبهم من أحكام وتشريع. فلمّا انتهى تعالى من التّنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وينبّه إلى أنّ واجبهم بعد اكتمال بناء الدّين بهذا التشريع أن يضعوا خوف الله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمر من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوّتهم ومظهر تعلّقهم بربّهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفّار، وإلاّ فقد ثبت ضعف إيمانهم بربّهم وقدراته عزوجلّ، بربّهم الذي أكمل

هم بناء هذا الدّين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. بربّهم الذي أتمّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنّ ألفاظ ﴿**أكملت لكم دينكم**﴾ تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي. وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكتمال تعاليمه. ثم إنّ ألفاظ ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ تشير إلى أنّ الثمار الروحية لهذا التشريع اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنّ مدرسة القرآن أضحت تدرّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرّسه تطبيقيّاً ليجني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نبّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ماأنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى النّاس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التّوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم يُلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين ابراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربّنا عزوجل قوله في سورة النّحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: ﴿**إنّ ابراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة، وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين. ثمّ وأحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. فهو جلّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنكم تعلمون أنّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤتى هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحّداً على شاكلة جدّه ابراهيم.

وأكّد الله عزوجلّ اشتراك ابراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: ﴿**قل هذه سبيلي ادعو إلى الله** وقف، **على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحان الله ومأنا من المشركين**﴾.

لكنّ هذا القارئ إذا تدبّر آي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وابراهيم من فرقٍ في مقامهما الروحي. فلابد له من أن يلاحظ علوّ مقام محمد

على مقام ابراهيم من خلال ماأنهى الله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب الله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: ﴿**ومن يرغب عن ملّة ابراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين: إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لله ربّ العالمين**﴾. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله ربّ العالمين. ولا نلاحظ وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتاب الله العزيز يزيد على وصفه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) من سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿**قل إنّني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم، ديناً قيّماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين. قل إنّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لاشريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أوّل المسلمين**﴾. فهو جلّ شأنه قد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمداً بوصف واحدٍ من جهة. وميّز محمداً في الفقرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: ﴿**وأنا أوّل المسلمين**﴾. فابراهيم أسلم نفسه لربّ العالمين، أمّا محمد خاتم النبيين ﷺ فقد كان أوّل من أسلم نفسه من نفسه لله ربّ العالمين. ليس أولهم زماناً، إذ المعلوم أنّ ابراهيم هو السّابق زماناً، وهذه قرينة لغويةٌ تصرف لفظ (أوّل) هنا من الزّمانية إلى الدّلالة على أولويّة مقام محمد ﷺ، وسمّوه. فمحمد بن عبد الله يأتي في ذروة هرم التوحيد، لذلك فهو أوّل المسلمين وكأنّ الله عزوجلّ ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بألفاظٍ أخرى منبّهاً إلى الفارق بين مقامه ومقام ابراهيم جدّه من حيث التّطبيق، وليس من حيث النظريّة والاعتقاد، قوله: ﴿**وأنا أوّل المسلمين**﴾ بمعنى أنّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فرص إثبات توحيده لربّه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسّبق الزماني لابراهيم ولاشكّ، لكنّ الأولوية في المقام الرّوحي فلمحمّد سيد المرسلين ﷺ. وهكذا تكون بعثة محمد رسول الله ﷺ قد أحدثت انقلاباً روحياً عظيماً أيضاً على الصعيد التطبيقيّ للتوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنّه لم يتحقق من إنجازات على أيدي ابراهيم تماثل ماتحقّق من إنجازات تحققّت على أيدي خاتم النبيّين. اللهم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

من هذا كلّه ندرك أن الله تعالى قد أحدث انقلاباتٍ روحيةٍ عظيمة جدّاً على صعيد كلامه مع عباده وعلى صعيد التشريع وعلى صعيد الأمور الروحيّة من خلال بعثة محمد ﷺ. فأكملت هذه الانقلابات ما اعترى من قبل أمور كلام الله والتشريع والحياة الروحيّة في الرسالات السماوية السابقة من نقص، كان سببه الضرورات القوميّة والمرحليّة الزمنيّة. وهكذا أكملت بعثة محمد ﷺ ومعه هذا القرآن بناء الدّين فعاد الدّين بالتالي مُحكماً وشامخاً وجذّاباً يأخذ بمجامع أفئدة الباحثين والمحقّقين. وبذلك رسخت قواعد الدّين في عالمنا الدنيوي في أفئدة بني آدم الذي كان قد أخرج أجدادهم من حياة الكهوف إلى حياة السّهول والتحضّر. وهذا كله جلّى لأعين الباحثين والمحققين مظاهر تجليّات ربوبية الله ربّ العالمين وتدخّلها في حياة البشر، مُذ خلق تعالى هذا البشر وإلى زمن بعثة محمد ﷺ وإنزال هذا القرآن العظيم.

٣ـ العبادات هادفة :

على هذه الصورة، فلا بدّ أن يكون قد أدرك هذا القارئ موضع الرسالة الإسلامية ومكانتها بين الرسالات السّماوية جميعها دون أيّ استثناء. وذلك من خلال ماوضّحته لهذا القارئ في الصفحات الماضية بما يتعلق بجميع صُعُد الدّين: تشريعاً، ووحياً، وحياةً روحية.

لكنّي أستشعر مع ذلك تشوّق هذا القارئ ليطّلع بشيء من التّفصيل على معالم ماأحدثته تعاليم القرآن الكريم من تغيير جذري إمتازت به عمّا سبقتها من تعاليم. لذلك أتناول كلّ أمرٍ من تلك الأمور، فأقول: هذا بحال العبادات، وطقوسها وأشكالها، فقد أحدثت تعاليم الإسلام في بحال العبادات إصلاحاً وتطويراً بما يتناسب ومرحلة النّضوج العقليّ الذي بلغه عقل البشر وإدراكه.

فقد كانت الأقوام في الماضي أقرب إلى حياة البداوة منها إلى حياة التحضّر والتمدّن. فكانت طقوس العبادات وأشكالها تتناسب وحالة الأقوام في أزمنتها تلك. وللقارئ أن يطالع على سبيل المثال سِفْر اللاّويين من التّوراة المعاصرة، فسيلاحظ من خلال مطالعته للسِفْر المذكور أنّ التعاليم التي جاء بها موسى عليه السّلام، كانت أوجدت طبقة كهنةٍ كما أوصت بتحديد أمكنةٍ للعبادة لاتجوز العبادة خارجها، وأوسد أمر الإشراف عليها وإقامة الشعائر الدينيّة

فيها إلى طبقة الكهنة المذكورة، ولتتوسّط طبقة الكُهّان هذه مابين الله تعالى ومابين الذين يعبدونه من عامة بني إسرائيل، ووفق طقوس نصّ عليها سفر اللاّويين المذكور.

والآن إن تدبّر هذا القارئ ماتضمنته تعاليم القرآن الكريم، فسيلاحظ أنّ القرآن الكريم نصّ صراحةً على إلغاء نظام الرّهبنة والكهانة تلك، وألغى بذلك كلّ وساطةٍ مابين الله عزوجلّ وبين الذين يعبدونه، وأمر بإقامة شعائر الدّين دون توسّط أحدٍ من طبقة رجال الدين. فخففت تعاليم القرآن الكريم عن كاهل المؤمنين ما اشترطته الرسالات السّماوية السابقة من أثقالٍ وقيود. وعادت الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

ثم إنّ هذا التبديل والإصلاح الذي أحدثته تعاليم القرآن الكريم على صعيد العبادات أذهل طبقة الرّهبان من أهل الكتاب. حيث راح الرّاهب يتساءل في صدر بعثة الرسول الكريم ﷺ: وهل يصحّ للؤمن أن يتعبّد دون توسّط راهبٍ يرعى مكاناً مخصّصاً للعبادة؟ وأين بقي المذبح والقرابين وإشعال البّخور؟

ثم إنّ القرآن الكريم لم تلغ تعاليمه نظام الرهبنة وتوابعه وحسب، بل واشترطت إقامة العبادة وفق نظام جماعي. الأمر الذي اقتضى من المسلمين تشييد مساجد، لتفي بالحاجة التي يقتضيها نظام العبادة المذكور، ولإقامة الصلوات جامعةً في هذه المساجد بسهولةٍ ويُسرٍ تامّين.

وقد أوجبت تعاليم القرآن الكريم إقامة خمس صلوات يوميه بصورة جماعية. مُركّزة في ذلك على ضرورة خشوع المصلّي في صلواته. وربط القرآن الكريم موضوع فلاح هذا المؤمن وفوزه بمحبّة ربّه وقربه، بحالة الخشوع المطلوبة منه في صلاته. مُعرضاً عن التّفصيل في شكل الصلاة ذاتها، وتاركاً أمر ذلك إلى الأسوة العملية لرسوله الكريم ﷺ بشكل مقصود والحكمة منه إشعار المؤمن بأهميّة الخشوع وبأهمية مضمون الصلاة ذاته، وأنّ حركات الصلاة المطلوبة هي مجرد أُطر وقشور ولم تكن هي المقصود بعينها في أصل تعاليم الدّين الإسلامي. علماً بأنّ الحركات والتلاواة المطلوبة إنما في الصّلاة، قد أسّسها ربّنا عزوجلّ على أسسٍ علميّةٍ وفلسفية أيضاً لتساعد هذا المصلّي على استحضار حالة الخشوع بين يدي ربّه عزّوجل.

هذا وقد حدّدت تعاليم القرآن الكريم المقصد من العبادة، فأطرّته في نطاق محاولته التّعرف إلى خالق هذا العابد وجذب محبته والفوز بقربه ورضوانه، منوّهة أنّ شكل العبادة لم يكن هو المقصود من عبادة الله عزوجلّ، فالله الخالق لاينظر إلى شكل عابده وصورته، بل ينظر إلى ما انطوى عليه فؤاده، لذلك عاد بإمكاننا القول جازمين: إنّ الصلاة الإسلامية وبقية أشكال العبادات الإسلامية قد فتحت للعابد باب تعرّفه إلى ربه بصورة يقينيّة، وهو أمرٌ فصّلتُ الكلام عنه في المبحث الثاني من هذا الكتاب، كما فَتَحَتْ تعاليم القرآن الكريم بذلك لهذا العابد باب التّرقي الروحاني على مختلف درجات سُلّمة وحثّهُ دعاءُ الفاتحة أن يسعى ليكون مع النّبيين والصّديقين والشهداء والصالحين، واعداً إياه بقوله تعالى: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً﴾**.

ولمّا كان موضوع محاولة التّعرف على هذا الخالق، يقتضي تعرّف المؤمن العابد على ماتتّصف به ذات خالقه من صفات، وماتحمله من أسماء حُسنى فلابدّ أن لاحظ هذا المؤمن كيف أنّ هذا الكتاب الحكيم قد اشتمل على جميع أسماء الله الحسنى المطلوب معرفتها، موضّحاً مابين هذه الأسماء من روابط وعلاقات، كماوضّح كيفيّة عمل كلّ صفةٍ من هذه الصفات. وأغنت تعاليم القرآن الكريم بذلك المؤمن السالك درب عرفان ربّه، أغنته عن مراجعة ماتضمّنته الكتب السماوية السّابقة المنسوخة، من معلومات تختصّ بهذا المجال.

وقد أعطى القرآن الكريم نظريّةً متكاملة فيما يتعلّق بهذا الكون من حولنا وأشبع تساؤلات الإنسان عن المقصد من وجوده، من أين أتى وإلى أين المصير، وقدّم القرآن الكريم لهذا الإنسان الأدلّة العلميّة التي تثبت طروحاته، فأضحى لدى هذا الإنسان فكرةً واضحة عن مرحلة حياته الدنيا، وفكرة مُجملةً عن حياة مابعد الموت، ووضّح القرآن الكريم لهذا الإنسان أنّ لأعماله الدنيوية ثمارها الروحيّة نوراً أو ناراً، ودعّم له هذه الحقيقة من خلال مانبأه عن تفصيلات ماسيلاقيه يوم البعث والنّشور، وبأسلوبٍ مجازي رائع السّبك والدّلالة، وبتدعيمٍ من حقائق علميّة يواجهها في حياته الدنيا هذه، وهذه الحقائق وهذه المعلومات التي قدّمها القرآن الكريم على هذا الصعيد، لايجد الباحث أيّ أصلٍ لها في الكتب المُنزلة المنسوخة، وعليه يُعد القرآن الكريم أوّل كتابٍ سماوي يتطرّق لهذه

الأبحاث وبأسلوبٍ علمي. وبذلك تكون تعاليم القرآن الكريم قد أحدثت انقلاباً جذرياً على صعيد العبادات والأمور الروحيّة.

وبنفس روح التّصحيح والأسلوب العلمي وبما يناسب مرحلة النضوج العقلي التي بلغها البشر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وبما يناسب كل زمان ومكان وبروح الشمولية، أحدثت تعاليم القرآن الكريم انقلاباً جذرياً في بُنيه الأحكام الشرعية والتشريع، ممّا لايجد له أصلٌ في سفري التكوين والتّثنية من التّوراة المعاصرة. فتعاليم هذين السّفرين الشرعية اتّصفت بشدةٍ تتناسب وحال قوم موسى الذين كانوا أقرب إلى البداوة منهم إلى روح التحضّر والتمدّن والتهذيب. خصوصاً وأنّ روح العبوديّة كانت قد سَرَت في دم كلّ إسرائيلي نتيجة لاستعبادهم من قبل ملك مصر آنذاك. وهذه حقيقة تساعد القارئ على إدراك سرّ نسخ القرآن الكريم لتعاليم التّوراة والإنجيل خاصة.

وقد أتت أحكام الشريعة الإسلامية التي شرّعها القرآن الكريم تمتاز بكمالها وبشموليتها وبمرونة أحكامها. فشملت جميع مجالات الحياة: أخلاقاً واقتصاداً وتعليماً وثقافةً سياسيّة. فقدّمت لجميع هذه المجالات الحياتيّة حلولاً شافيةً ووافيةً وصالحةً للعمل عليها في كلّ زمان ومكان ـ وهكذا أغنى التشريع الذي أتى به القرآن الكريم الحياة الإنسانية في جميع جوانبها بما لاقته من هذا التشريع الإسلامي من رعايةٍ كاملة وحلولٍ واقعية ملائمة ومؤسّسة على أسسٍ علمية.

ولابدّ من التنويه هنا إلى أنّ تأسيس أحكام التشريع الإسلامي الذي تضمّنه القرآن الكريم، على أسسٍ وأصولٍ علميّةٍ فلسفية، ساعدت على إنهاء الصّراع الذي كان دائراً مابين العلم والدّين قبل إنزال هذا الكتاب السّماوي العظيم. فقد نبّهت آي هذا الذّكر الحكيم أذهان البشر إلى أن القرآن الكريم إنّما هو كلام الله تعالى الذي خلق هذا العالم المادي من حولنا. وأنّه بذلك يستحيل وجود خلافٍ أو تضادّ مابين قول الله تعالى وصُنعه. وهذه حقيقة تعني بألفاظٍ أخرى أن لاتضاد مابين العلم والدّين. فإن فهم أيّ إنسان أي حكمٍ تشريعي بما يُغاير هذا المُنطلق، فمردّ ذلك يعود إلى ضعف إدراكه نفسه. وهكذا قفز التشريع الإسلامي قفزةً نوعيةً، من حيث أنّه نقل الدّين من مجال المُغيّبات إلى مجال العلم القائم على الملاحظة والتجربة والإستنتاج، لذلك يتوجّب على كلّ امرئٍ باحثٍ

في أمور التشريع الإسلامي إجراء مطابقة مابين قول الله وفعله، ليتمكّن بتلك العمليّة من الوصول إلى حقيقة الأمر الذي تناوله بالبحث والتدقيق. وعلى هذا الباحث أن يضع نصب عينيه أنّه إذا لم يوفّق إلى المطابقة مابين قول الله وفعله، فمعنى ذلك أنه لايزال فهمه بعيداً عن إدراك الحقيقة التي أتى بها التشريع الإسلامي. وبهذا المُنطلق الذي انطلقت منه أحكام التشريع الإسلامي، تكون قد قطعت على أعداء الدّين الإسلامي خطّ رجعتهم، وتكون في الوقت نفسه قد سلّحت المؤمنين بسلاحٍ بتّارٍ لايقدر أن يُفلّه أيّ سلاحٍ آخر يقوم في مواجهته.

ثم إنّ الذي يدقّق في أسفار التوراة المُعاصرة، يجدها خاليةً من التّعاريف الشرعية لكلّ مايمتّ للدّين بصلةٍ من الصّلات، فإذا شاء الباحث تعريف كلمة (نبيّ) على سبيل المثال، أي إذا استقصى تعريف كلمة (نبي) وعلامات ظهور نبيّ ، ومعايير صدق نبي وحدود عمل نبيّ وتعريف صفة هذا النبيّ بربّه، وتعريف حدود صلة هذا النّبي ببني نوعه المرسل إليهم. إذا تقصّى هذا الباحث جميع تعاريف هذه الأمور في التّوراة المعاصرة، فلا يعثر على تعريف أيٍّ منها على الإطلاق.

على حين أنّ أنّه إذا تقصّى هذا الباحث تعريف لفظ نبي أو سواه مما يمتّ لأمور الدّين في آي الذكر الحكيم، يصل لامحالة إلى هذه التعاريف مع شيء من التدبّر والتّمحيص. وبذلك يكون الإسلام وبهذه المصطلحات الشرعيّة التي وضعها، قد امتاز على جميع ماسبقه من أديان. ويكون قد أتى بأمرٍ جديدٍ كل الجدّة على صعيد الدّين. وساعد بذلك على استحضار كلّ أمرٍ عرّفه، على شاكلة مايستحضر الباحث أي أمرٍ متعلّق بالعلوم الماديّة. وبهذه المزيّة يكون القرآن الكريم قد حفظ تعاليمه من الضّياع، وصان من جهة أخرى أذهان المؤمنين من التّشويش، وهاتان فضيلتان تحلّى بهما التعليم القرآني، ولايعرف قدرهما إلاّ أفاضل الباحثين والعلماء.

ثم إنّ المدقق الباحث يلاحظ أنّ هذا الكتاب العزيز مانصّ على أيّ حكمٍ تشريعي، إلاّ وقَرَنه ببيان الحكمة منه وبما وراءهُ من فوائد مرجوةٍ منه. وهذه مزيّة لم يتّصف بها أي كتابٍ سماوي سابق لنزول القرآن الكريم. وهذه مزيّة منحت تعاليم هذا الكتاب السّماوي استقلاليّته، وأغنت الإسلام عن بعث نبيٍّ جديد

يُكمل تعاليمه. هذا إلى جانب اتّصاف أحكام الشريعة الإسلامية بصفة المرونة والاعتدال الأمر الذي يُكسبها القُدرة على مواجهة المتغيّرات والتّطورات التي تؤول إليها قوى هذا الإنسان وطاقاته العقليّة على مرّ الزّمان. فبهذه المعلومات المُحملة أكون قد أعطيت القارئ فكرةً موجزةً عن معالم الانقلاب الروحيّ الكبير الذي أحدثته بعثة محمد رسول الله ﷺ على صعيد التّشريع الذي زوّده به هذا الكتاب السّماوي .

٤ـ معالم الشموليّة والعالميّة :

كذلك لاينبغي أن يغرب عن ذهن القارئ صفة الشموليّة والعالميّة التي اتّصفت بها تعاليم القرآن المجيد. فالإسلام وبواسطة هذه التعاليم التي تضّمنها كتابه السّماوي، يكون قد وضع أساساً لوحده عالمية: تشريعيّة وروحيّة، ليتسابق أصحاب مختلف القوميات، وعلى قدر نضوجهم العقلي، ليتسابقوا في السّعي على درب التّعرف إلى ربّهم الذي خلقهم وأنعم عليهم بهذا الإنعام، فيتسابقون طلباً لمحبة ربّهم وقربه ورضوانه، فلا تستعلي ضمن هذا السباق قوميّةٌ على قوميّة، ولا لونٌ على لون، ولا لسانٌ على لسان. فبهذه الوحدة التّشريعية والروحيّة يتأنسنون بما يهذّبهم به الإسلام ويمدّنهم بتعاليمه. ذلك أنَّ من مقاصد تعاليم الإسلام أنسنة البشر وتهذيبهم وتمدينهم بأكمل التعاليم وأعظمها تأثيراً نفسيّاً. ويوم يتحقّق هذا المقصد العظيم، يكون الإسلام قد أكمل مابدأه آدم عليه السلام، وماطوّره نوح وابراهيم وموسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله الكرام، وتتجلّى بالتالي ظاهرة ربوبيّة الله لهذا البشر كالشمس في رابعة النهار.

فهذا ما أنبأت به الآيات (٢٧ ـ ٣٠) من سورة سبأ التي قال الله تعالى فيها: ﴿**قل أروني الذين ألحقتم به شركاء، كلاّ، بل هو الله العزيز الحكيم، ومأرسلناك إلاّ كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعادٌ يوم لاتستأخرون عنه ساعةً ولاتستقدمون**﴾. فهذه الأنباء التي تضمنتها هذه الآيات من سورة سبأ، لاينبغي للقارئ أن يمرّ عليها مرور الكرام، بل عليه أن يتدّبرها حقّ التدبّر، وأن يعطيها حقّها من التّبصر في أسلوب صياغتها ومنزلتها من التّسلسل الموضوعي للسّورة التي تضّمنتها.

فقد أنبأت آيات سورة سبأ هذه عن المستقبل المُشرّف الذي ينتظر البشر بعد أن يؤمنوا بالاسلام ويعملوا على تعاليمه. وقد تضمّنت هذه الآيات الإشارة إلى الأخطبوط المسيح الدّجال الذي يعربد في أيامنا هذه منذرةً ومتوعّدةً إيّاه، وواعدةً البشر بتحقيق وحدةٍ عالميةٍ شاملة في الأمور التّشريعية والروحيّة كنتيجةٍ حتميةٍ لبعثة محمد الأمين ﷺ الذي بعثه الله تعالى للناس كافة بشيراً ونذيراً. وليكمل عن طريق بعثته مابدأه الله تعالى ببعثة آدم عليه السلام وماطوّره على أيدي نوح وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله الكرام. فالله عزوجلّ أنبأ في هذه الآيات عن اليوم الذي ستزفرف فيه راية الإسلام على جميع أنحاء كوكبنا الأرضي. ثم إنّ عظمة ماتضمّنته هذه الآيات من نبوءات استدعت من الله عزوجلّ أن يتبع قوله: ﴿**وماأرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيرا ونذيرا**﴾. أن يُتبعه بقوله تعالى: ﴿**ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾.

ولاينبغي للقارئ أن ينسى حالة الحيرة والدهشة التي تملّكت قوم محمد ﷺ يوم سمعوا هذه الآيات الكريمة تتداولها ألسنة المؤمنين، فلم تستوعب عقول مفكّري قريش وسواهم من العرب إمكانية حدوث مثل هذا الانقلاب العالميّ الشامل، في عالم كان العرب لاوزن لهم فيه ولاشأنٌ يذكر.

فبعثة محمّد ﷺ ومراميها حيّرت معاصريه، على شاكلة ماحيّرت بعثة آدم معاصريه من البشر أيضاً، فما كان يخطر للبشر الذين كانوا يقطنون الكهوف، أن ينقلب أمر نظامهم المعاشيّ من حال إلى حال. وماكانوا يتخيّلون أن يأتي من يتدخّل في شؤون مَسْلكهم اليوميّ ويحدّ من حرّياتهم لصالحهم جميعاً.

على هذه الشّاكلة تحيّر قوم محمد ﷺ وأذهلهم ماأنبأت عنه هذه الآيات الكريم ونسبوا بذلك إلى شخصه حالة جنون. ذلك لأنّهم تصوّروا استحالة قبول الايرانيين والرومان والهنود والصينيين والأوربيين وسواهم من سكان الأرض تعاليم هذا الدّين الذي تلقّاه محمد بن عبد الله ﷺ.

هذا وإنّ هذا الإدّعاء النّظري الذي تنبّأت به هذه الآيات من سورة سبأ، توالت الأحداث لِتُثْبته بصورةٍ عمليّة. فها أنّ الإسلام قد رفرفت راياته على كثير من بقاع الأرض، وها أنّ صفة عالميّة نظامه التّشريعي والرّوحي قد عمّت الأقطار التي تقبّل أهلها هذا الدين القويم، وها أنّ روح المساواة والإخاء قد برزت في تلك المجتمعات التي تقبّل أهلها الإسلام ديناً. وهكذا تحقّق حتى أيامنا

هذه ماكان يستحيل تصوّره في أذهان قريش ومَنْ حولهم من قبائل العرب. فتحقق الأمر النظريّ على الصّعيد التّطبيقي، وثبت بذلك مرحلياً صحّة ماأنبأت عنه الآيات من سورة سبأ المذكورة، هذا وإنّ الزّمان المقبل كفيل بتحقيق مايتعلق بمصير هذا المسيح الدّجال يقيناً، وعش رجباً ترى عجباً.

٥ً. انقلاب عملي :

ألا لو تقصّى القارئ تاريخ الأمم التي تقبّلت الإسلام ديناً، للاحظ أنّ تعاليم الإسلام النظريّة قد أحدثت على صعيد واقع هذه الأمم انقلاباً جذرياً شمل جميع صُعُد الحياة لدى أفراد تلك الأمم. فالإسلام قلب فكر وعلم وفلسفة وعواطف وأخلاق وتهذيب واقتصاد وثقافة تلك الأقوام من حال إلى حال، وهل كان لمثل هذ التأثير والانقلاب الجذريّ ليحدث على الصّعيد العمليّ لولا أن كانت تعاليم الإسلام تتّصف بصفة المرونة والشموليّة والعالميّة، هذه الصفات التي لفتت هذه الآيات من سورة سبأ أذهان القُرّاء والباحثين إليها؟

٦ً. عملية تلخيص واستنتاجات :

وألخّص للقارئ أخيراً ماذكرته وأحدثته بعثة محمد خاتم النبيين ﷺ في حياة البشر ولتطوير عقولهم، وما أكملته من تعاليم الرّسالات السماوية التي ابتدأها ربّ العالمين بآدم وتعاونيّته، ألخصه في الأمور التالية:

أولاً ـ ألغى الإسلام الرهبانية، وألغى بذلك الوساطة مابين الإنسان وخالقه.

ثانياً ـ نزلت تعاليم الإسلام عالمية الصّفة وشاملة وتمتاز بالمرونة والاعتدال، وتصلح لكلّ زمان ومكان.

ثالثاً ـ وامتازت تعاليم الإسلام بدعم أحكامها بأدلّتها وفلسفتها إلى جانب بيان فوائدها.

رابعاً ـ وحرّرت تعاليم الإسلام العبادة من ارتباطها بمكان عبادةٍ محدّد، وربطت العبادة بنظام الجماعة.

خامساً ـ وقد تضمّن القرآن الكريم جميع تعاليم الإسلام. على اعتباره كلام الله المقدس بألفاظه وحركاته وتوقيفاته.

سادساً ـ وقد زوّد هذا القرآن الكريم المؤمن بالله تعالى بما تحمله ذات الله تعالى من أسماء حسنى، شارحاً إيّاها وموضّحاً مابين أسماء الله من روابط وعلاقات.

سابعاً ـ ثم إنّ القرآن الكريم هو أوّل كتابٍ سماويٍّ تكلّم عن حياة مابعد الموت وحياة المعاد ببحثٍ مفصّل وبأسلوبٍ علميٍ وفلسفي.

ثامناً ـ وامتاز القرآن الكريم بوضوح اصطلاحاته الشرعية للمواضيع التي تناولها بالبحث، وحَفِظَ بذلك علومه من الضيّاع.

تاسعاً ـ وتناولت تعاليم القرآن الكريم جميع نواحي الحياة المدنية منها والسياسيّة والاقتصادية والثقافية والروحيّة.

عاشراً ـ ثم إنّ تعاليم القرآن الكريم وفّقت مابين العلم والدّين، من حيث تأسيسها أحكامها على أسسٍ علميّة.

إحدى عشر ـ وقد وضعت تعاليم هذا الكتاب العزيز حجر الأساس لتكوين وحدةٍ عالميةٍ تشريعيّةٍ وروحيّة لاتفرّق مابين قوميّةٍ وقومية، ولابين لون ولون، ولابين لسان ولسان.

اثنا عشر ـ كما قدّمت تعاليم هذا الكتاب العزيز مبادئ لتكوين هيئة أممٍ تساعد على تثبيت دعائم الأمن والسلام في العالم. وبهذا التلخيص أكون قد وضّحت لأعين القارئ معالم هذا الانقلاب الرّوحي الكبير الذي تحقق ببعثه محمد سيد المرسلين ﷺ. اللهم صل عليه وسلم وبارك إنك حميد مجيد.

استنتاجات

والآن وقد فرغنا من استعراض الانقلابات الكبرى الروحيّة التي حدثت في الجانب الذي يفكّر بتفكيرٍ روحانيّ على المنهج الذي ابتدأه الله عزوجلّ بآدم عليه السلام، وذلك في مقابل الحركات الانقلابيّة الكبرى الماديّة التي سبق لنا أن استعرضناها، تلك التي حدثت في جانب ذُريّة الذي عادى آدم وقنط من رحمة ربّه عزوجلّ والذي دأب على التّفكير بتفكيرٍ مادّي محض وبما يخالف المنهج

الآدمي. فنحن إذ فرغنا من استعراض ذلك كلّه، نحاول. وبصورةٍ تلقائيةٍ استخلاص النتائج من خلال مقارنتنا بين هذين النّوعين الانقلابيّين. فأقول:

أولاً - وأول مايتراءى لأعيننا هو أنّ الانقلابات المادية الكبرى المذكورة، لاتتواصل فيما بينها، ولاتترابط، على حين أن الانقلابات الروحيّة الكبرى مُترابطة ويُكْمِل بعضها بعضها الآخر، وانتهت إلى تشكيل هذا البناء الكامل الشّامخ المتمثّل في الدّين الإسلامي الحنيف.

ذلك أننا لاحظنا كيف أن الحركة الآرية في شبه القارة الهندية كانت قد طرحت فلسفةً طبقيّة لاتزال تعاني تلك المنطقة من ويلاتها، ولاحظنا كيف أن الحركة الفارسية كانت قد تميّزت بفلسفتي السّياسة والأخلاق. ولاحظنا كيف أنّ الحركة البابلية كانت قد اهتمت بعلمي الهندسة والفلك. ولاحظنا كيف أنّ الحركة الرومانية كان محورها فلسفتا القانون وحقوق الإنسان. ولاحظنا كيف أنّ الحضارة الغربية المعاصرة تميّزت بفلسفة القوميّة وفلسفة الرّفاه غير المحدود.

هذا على حين أننا نلاحظ انعدام ظاهرة التشتّت تلك من بين ماذكرناه من انقلاباتٍ روحيّةٍ كبرى، وأنّ الوحدة في المنطلق والهدف والفلسفة يحلّ محلّ ظاهرة التشتّت تلك. وتبدو تلك الانقلابات الروحيّة صادرةً عن جهةٍ واحدة مُخَطِّطةٍ وقادرةٍ وهادفة. فهل يستسيغ عقل الباحث أن يحدث ذلك كلّه عبثاً وصُدفة ؟.

ثانياً - والأمر الثاني الذي نُلاحظه من خلال تاريخ هذه الانقلابات جميعها. هو أنّه في الوقت الذي كانت جميع الانقلابات المادّية الكبرى قد اختار مؤسّسوها سبيل العنف والإرهاب وسفك الدّماء لتحقيق أهدافهم وفلسفاتهم، فإننا نلاحظ أنّ مؤسسي هذه الانقلابات الروحيّة الكبرى كانوا قد اختاروا دوماً سبيل الدّعوة بالحُجّة والبرهان لتحقيق مابُعثوا لتحقيقه من أهدافٍ وفلسفة.

فلانذهب بعيداً، فهاهي حضارة الغرب قد قامت على الثّورات وسفك الدماء في مختلف أرجاء القارة الأوربية - وليست الثّورة الافرنسية، ولا الثورة الالمانية، ولا الثورة الايطالية التي حدثت ومهّدت لقيام هذه الحضارة ببعيدة عن أذهان الباحثين؟

ثالثاً - والأمر الثالث الذي نستخلصه من خلال موازنتنا مابين هذين النّوعين من الانقلابات الكبرى التي أتينا على ذكرها سابقاً، هو أنّ أصحاب

ومؤسسي كل حركةٍ انقلابيّة من تلك الحركات الانقلابيّة الكبرى الماديّة، كانوا يحاولون مُنافسة وتسفيه ماكان قد تحقق على أيدي أصحاب ومؤسّسي ماسبقهم من حركات، مع الإدّعاء بفوقيّة مأتوا به. أي أن حالهم ذاك بالإمكان أن يوصف بما وصفهم به كلام الله عزّوجلّ من أنّه كلّما جاءت أمّة لعنت أختها.

على حين أنّ هذه الظاهرة البشعة تغيب حين يستعرض الباحث حال أصحاب ومؤسّسي الحركات الروحيّة الكبرى، ولاتغيب هذه الظاهرة وحسب، بل تحلّ محلّها ظاهرة اعتراف أصحاب ومؤسّسي كلّ حركةٍ روحيّه حدّثت بما أتى به أصحاب ومؤسسوا الحركة الروحيّة التي تسبقهم زماناً.

ويكفي الباحث أن يراجع آيات سورة الصّافات التي تنبّه أذهاننا إلى هذه الظاهرة، ففي سورة الصّافات هذه تتوالى قصص الذين أحدثوا انقلابات روحية في أزمنتهم، ويعترف بهم هذا الكتاب القرآن العظيم، ويورد على مسامعنا أقوال الله الذي أرسل أولئك الرسل جميعهم، أقواله جلّ شأنه: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على نوحٍ في العالمين**﴾ ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على ابراهيم**﴾ ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على موسى وهارون**﴾ ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على إلياسين**﴾. ويقول تعالى أخيراً ﴿**وسلام على المُرسلين، والحمد لله رب العالمين**﴾ ومعنى أنّ ظاهرة الترابط هذه وظاهرة اعتراف جميع أصحاب وموسّسوا هذه الانقلابات الكبرى الروحيّة بعضهم ببعضهم الآخر، يُستدل منه على تدخّل تجلّيات ربوبية الله الأحد طوال تاريخ البشر الطويل على تدخلها في شؤون هذا البشر المخلوق، وعلى تدخلها لتطوير عقله ووضع أقدامه على صراط الله المستقيم، ليتعرّف إلى خالقه وليطلب ودّه ومحبّته وقربه ورضوانه، وَيَثْبُتُ بالتّالي أنّ الحمد كلّه يرجع في ذلك كله إلى الله ربّ العالمين، فهذه هي دلالة هاتين الفقرتين الأخيرتين من سورة الصّافات ﴿**وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين**﴾.

إنّ ما استخلصناه من خلال استعراضنا لهذين النّوعين من الانقلابات الكبرى التي حدثت في تاريخ البشر، منذ مايقارب الثمانية آلاف عام وحتى يومنا هذا، أقول إنّ هذه الاستنتاجات التي أضحت بين أيدي قارئ هذا الكتاب، وهذا المبحث الثالث منه خاصة، إن دلّت هذه الأمور على شيء، فهي تؤيّد ماذهبتُ إليه في هذا المبحث الثالث من أن البشر مخلوق منذ ملايين السنوات،

وأنّ خالق البشر، ظلّ يكلّمهم من وراء حجاب في حالات نومهم، وقد هداهم إلى استعمال النّار ودفن موتاهم وأسلوب ونوعيّة غذائهم، إلى أن بعث الله تعالى لهؤلاء البشر آدم قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام فأخرج هؤلاء البشر من كهوفهم وأسس معهم أوّل تعاونيّةٍ ومُشاعةٍ في الأرض ووفق مستواهم العقلي، وراح يبعث الله برسله تترى يطوّر عقول هؤلاء البشر ويعرّفهم على وجوده ويطلعهم على المقصد من حياتهم إلى أن اكتمل بناء هذا الدّين على أيدي آخر من أرسله الله تعالى سيّداً وخاتماً، ومعه هذا القرآن وبتعاليم تساعد البشر على استمرار التّطور في كلّ زمانٍ ومكان.

❁❁❁

الفصل الخامس
الله جلّ جلاله يُحدثُ في عصرنا انقلاباً سابعاً روحياً كبيراً

إنّ القارئ الذي تابع كل مانظّرته له فيما يتعلّق بالانقلابات المادّية والروحيّة الكبرى التي حدثت منذ بعثة آدم، والتي انتهت ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، لابد أن يكون قد ابتهج لتلك المعلومات، لكنّ بهجته تلك تأخذ في التراجع، وسروره ذاك يأخذ في الذبول ماإن تُعاوِدُهُ الصّورة القاتمة التي يعرفها عن حال المسلمين المعاصرين، ويتوق إلى معرفة ماتضمّنه كتاب الله العزيز من علاج لهذا الواقع المؤلم، وليمنح ذلك هذا القارئ بصيص نور يبشّره بمستقبل الإسلام خاصة والعالم بصورة عامة، ويتوق في نفسه لرؤية معالم انقلابٍ روحي سابعٍ يغيّر مجرى الأحداث ويُحلّي بالتالي وجه تدخّل صفة ربوبية الله عزوجلّ.

فالسؤال الهام هنا: هل كان أنبأ القرآن الكريم عمّا آل إليه حال المسلمين من تخلّف وانحطاط،وهل أنّ آي الذكر الحكيم قد تضمّنت معالم طريق الخلاص وبشّرت بانقلاب سابع روحيّ كبير ؟

وأجيب على هذا السؤال مطمئناً هذا القارئ، ولن أتجاوز في جوابي دلالات آي الذكر الحكيم. لكني أجد ضرورياً تذكير هذا القارئ بقول ربّنا عزوجلّ: ﴿**وإنه لقرآن الكريم، في كتابٍ مكنون، لايمسّه إلاّ المطهّرون**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء**﴾. وقوله تعالى: ﴿**إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه**﴾. ذلك أنّ الله عزوجل ربط بيان ماتضمّنته آيات القرآن المجيد من علوم ونبوءات غيبيّة بالمستقبل، وأنّه لايُجلّيها لوقتها إلاّ هو حل شأنه وبأساليب تجلّياته الربّانية.

وبهذه المناسبة أرى من المناسب أن أُطمئن هذا القارئ أيضاً، أنّ ماسأطلعه عليه من حقائق قرآنية ومعلومات خبّأها ربّنا عزوجلّ في ثنايا آيات كتابه العزيز، تلك الحقائق والمعلومات المكنونة وبما يتعلّق بهذا السؤال العريض

الذي طرحناه، قد كشفها ربّنا عزوجلّ على هذا العبد الضعيف العاجز، بفضل منه ومنّة، حينما جلست أتناول هذا العنوان بالإجابة عليه، وبصورة موضوعية مُنسّقة والحمد لله رب العالمين ذلك أنّ جميع من سبقني من الكُتّاب الذين تناولوا السؤال المذكور، كانت الأحاديث الشريفة هي مرجعهم في كتاباتهم، على حين أنّ مرجعي الأساسي هو آي هذا القرآن الحكيم.

أولاً ـ الإجابة القرآنية موزعة على حلقات :

فكلٌّ منّا يعلم أنّ لكلّ كاتب أسلوبه المميّز في عرض مايريد الكتابة عنه، وهل يستسيغ عقلنا ألا يكون لله عزوجلّ أسلوبه الخاص المميّز فيما أنزله في كتابه العزيز الذي تحدّى به الإنس والجانّ؟

أجل لقد كشف الله تعالى عليّ أنّه قد أجاب على السؤال الذي طرحناه، بأسلوبٍ رائع مُميّز ومعجز. وبدءً من سورة هود خاصة، لذلك استعرض للقارئ معالم الحلقة الأولى للإجابة القرآنية المذكورة، هذه الحلقة الأولى التي تضمّنتها الآيات الأوائل من سورة هود التي افتتحت بالأحرف المقطّعة (الر) والمختزلة من جملة (أنا الله أرى) والرؤية هنا مُستقبليّة كما سنرى، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ عندما تلقّى آيات سورة هود، ورد عنه قوله عليه الصلاة والسّلام: (شيبتني سورة هود) وهذه محاورة تستعمل عند استعظام أمرٍ من الأمور.

أ ـ حلقة سورة هود :

أفلم يلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى تحدّى الذين كفروا أن يأتوا بعشر سورٍ من مثل سور القرآن وخاصة من مثل سورة هود، وذلك في الآية الثالثة عشرة حيث قال: ﴿**أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مُفتريات، وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾. وأردف تعالى بعد تحدّيه المذكور يقول: ﴿**فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزل بعلم الله، وأنْ لاإله إلا هو، فهل أنتم مسلمون؟**﴾. فحكمة ومناسبة هذا التّحدي هنا، لاتنبع علاقته بالإعجاز البلاغي الذي تتصّف به آيات سورة هود وحسب، بل وتنبع من عظمة ماتضمّنته هذه السّورة من أنباء غيبيّة يثبت منها أنّ الله يرى ماستتطّور

إليه مُجريات الأحداث في المستقبل البعيد، وهو جلّ شأنه راح يخاطب النّاس الذين سيتواجدون يوم تتحقّق تلك النبوءات، خاطبهم في هذا المقام خاصة وقال: ﴿**فهل أنتم مسملون؟**﴾. والذي يؤكّد ذلك، أن راح جلّ شأنه يقول بعد ذلك: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لايُبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار. وحبطٌ ماصنعوا فيها وباطلٌ ماكانوا يعملون**﴾. فهذا الكلام متعلّق بالنّاس المكذّبين يوم تتحقق نبوءات سورة هود خاصّة منها مايتعلّق بالذين يريدون زينة الحياة الدنيا، فباطلٌ مايصنعون وليس لهم في الآخرة أي في الزمن الذي اصطلح القرآن له لفظ الآخرة في مقامات عديدة، ليس لهم يومئذٍ إلاّ النّار التي لاتبقي ولاتذر ممّا يصنعون.

وقد راح جلّ شأنه يحدّد المستقبل المشار إليه، ويعطي القارئ إحدى علاماته الكبرى، وبأسلوبٍ بلاغيٍ معجزٍ لايُدرك مضمونه إلاّ من شاء الله جل شأنه أن يكشف له عن حقيقته المكنونة، بدليل أنّ أحداً من المفسرين القدماء، لم يستطع ذهنه الإحاطة بهذه الحقيقة إلى أن تحققت النبوءه والعلامة الكبرى المقصودة هذه والتي سبق أن قلت إنّ الله تعالى قد كشفها عن شخصي الضعيف بصورة موضوعية.

هذه العلامة الكبرى، نبّه إليها ربّنا عزوجلّ من خلال دليلٍ قاطع الدّلالة أتى تعالى به بعد آية التحدي المذكورة وتوابعها، ودليله تعالى مُكوّنٌ من عناصر ثلاث ماإن اجتمعت في شخص أيّ مُدّعٍ للنبوّة، يستحيل إلاّ أن تُعدّ دليلاً قاطعاً على صدق نبوّته. وهذه العناصر الثلاث منها مايتعلق بالماضي ومنها مايتعلّق بحاضر زمن المدّعي، ومنها مايتعلّق بالمستقبل. وقد جمع الله جلّ شأنه هذه العناصر الثلاث ضمن قوله تعالى بعد الآيات التي ذكرناها وقال: ﴿**أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه، ويتلوه شاهدٌ منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنّار موعده، فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحقّ من ربّك، ولكّن أكثر النّاس لايؤمنون**﴾. وهو جل شأنه قدّم دليله القاطع الدلالة هذا بأسلوب الاستفهام ﴿**أفمن كان..**﴾، وحذف جواب هذا الاستفهام لضرورة بلاغية، وتقديره: كمن هو كاذب لاتتوفّر فيه هذه العناصر الثلاث المذكورة والمتعلقة بأزمنة ثلاثة ؟

فالعنصر الأول من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿**أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه**﴾. والمتعلّق بزمن نزول القرآن الكريم. والعنصر الثاني من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى: ﴿**ويتلوه شاهدٌ منه**﴾ والمتعلّق بالزّمان المستقبل. والعنصر الثالث من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة**﴾ والمتعلّق بالزمن الماضي، أي كأنّ الله عزّوجلّ راح يقول بألفاظٍ أخرى، ومخاطباً المقصودين بقوله من قبل ﴿**فهل أنتم مسلمون؟**﴾، أولئك الذين سيأتون في المستقبل، الذّين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، الذين ليس لهم في الزمن «الآخرة» إلاّ النّار - إشارةً إلى الذين قالوا اتّخذ الله ولداً، ومن لفّ لفّهم، أولئك الذين كان يراهم الله تعالى من خلال علمه الغيبي الدّال عليه أحرف المقطعات ﴿**آلر**﴾. أي أنّه تعالى يقدّم لهؤلاء الذّين سيزعمون أنّ محمداً ﷺ هو الذي افترى هذا القرآن العظيم واختلقه من عند نفسه، يقدّم لهم هذا الدليل القاطع والمؤلف من هذه العناصر الثلاث والتي يثبت من خلالها صدق رسوله الأمين ويقول: يامن اتّخذتم لله ولداً أنتم ومن وراءكم من اليهود هاأنّ كتاب موسى الذي تؤمنون به يحمل من النبوءات الدّالة على صدق هذا الرسول الأمين مايشكّل لكم إماماً، يقودكم ويرشدكم إلى صدق رسولنا هذا، وبذلك يشكّل كتاب موسى ودلالات نبوءاته رحمةً لهدايتكم أيضاً إن أنتم اتّخذتم تلك النبوءات إماماً لتبيّن صدق هذا الرسول الأمين. فهذا هو مايتعلق بعنصر الزّمن الماضي. ويخاطبهم جل شأنه بشأن العنصر الثاني المتعلّق بزمن بعثة محمد رسول الله ﷺ، فيذكّرهم أنّه كان على بيّنةٍ من ربّه، فهذا ماأثبتته أحداث تلك الفترة من الزمان. والبيّنة هي الحجّة والبرهان، فقد أثبتت وقائع حياة رسولنا الكريم أنّه ماتنبّأ بشيء إلاّ وتحققت نبوءته وعصمه الله تعالى من كيد الكائدين من مكذّبي زمانه ونصره على أعدائه نصراً مؤزراً. كما يخاطب الله تعالى الذين اتخذوا لله ولداً وهيمنوا على العالم زمن تخلّف المسلمين وانحطاطهم، ومن مُنطلق (الـر) أي رؤيته المستقبليّة ويقول ﴿**ويتلوه شاهد منه**﴾ أي سأبعث في زمن عروجكم ﴿**شاهداً منه**﴾ يأتي من بعد هذا الرسول الكريم، يشهد على صدق رسولنا وصدق كتابنا، ويكون هذا الشاهد (منه) أي من أمّة محمد ﷺ، وليس من قوم آخر سواها، فهذا هو مايتعلق بعنصر الزمن المستقبل.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجلّ مابإن انتهى من تقديم هذا الدليل القاطع المؤلّف من هذه العناصر الثلاث،إلاّ وراح يقول جازماً ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ أي أنّ الباحثين عن الحقيقة يقنعهم هذا الدليل القاطع فيؤمنون بمحمدٍ ودينه، وأضاف يقول : ﴿**ومن يكفر به من الأحزاب، فالنّار موعده**﴾ إشارةً إلى قوله تعالى قبل ذلك: ﴿**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار، وحَبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون**﴾.

وليلاحظ القارئ أنّ الله جلّ شأنه مابإن انتهى من تقديم هذا الدّليل، وهذا الإنذار بالنار، إلاّ وعاد يوجّه خطابه إلى محمد رسوله الأمين، مُطَمْئِناً إيّاه من أنه سيبعث بهذا الشاهد من أمته يوم طغيان هؤلاء وهيمنتهم على العالم وأضاف ناهياً إيّاه ومطمئناً: ﴿**فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحق من ربّك، ولكن أكثر الناس لايؤمنون**﴾.

فلماذا هذا النّهي وهذا التطمين في هذا الموضع بالذات وماهي مناسبته؟ إلاّ أن ينحصر ذلك في العنصر المستقبليّ المُعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿**ويتلوه شاهدٌ منه**﴾؟ فالله جل شأنه إذ قدّم دليلاً قاطعاً على صدق رسوله وصدق كتابه لهؤلاء الذين تحدّاهم من قبل أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود، يوم تُكتب لهم الهيمنة على العالم، ويتّهمون محمداً أنّه كان قد افترى هذا القرآن، فالله جل شأنه نفسه راح ينبئ أنّ هؤلاء المكذبين سيعجزون عن قبول هذا التحدّي، فيستغلّون هيمنتهم وسلطانهم ليّوجهوا إلى رسوله وكتابه العزيز مثل هذا الإتهام فيقولون "افتراه" . فيبعث الله هذا الشاهد من أمته، ليشهد على صدق رسوله وصدق كتابه العزيز ويؤيده وينصره ليُكمل ومن خلال بعثته هذه العناصر الثلاث التي تؤلّف هذا الدليل القاطع على صحّة الإسلام وصدقه. فهذا هو سرّ هذا النّهي والطمأنة المعبّر عنها في هذا المقام : ﴿**فلاتك في مريةٍ منه، إنّه الحقّ من ربّك**﴾، وقد أنهى الله تعالى قوله هذا بجملة ﴿**ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون**﴾. وهي جملة مُفعمة ألفاظها أيضاً بالحقائق والدلالات.

فحرف

(لكنّ) على حسب مأورده (محيط المحيط) المشهور أنّه للإستدراك، ينسب لما بعده حُكماً مخالفاً لما قبله أي لابدّ أن يتقدّم (لكنّ) كلام مناقض لما بعدها. وها أنّه تعالى أثبت صدق الإسلام وأتى بحرف لكنّ للاستدراك فأتى

بكلام مناقض وهو أنّ أكثر الناس لايؤمنون بهذا التّحدي وهذا الدّليل القاطع الذي قدّمناه.

وهو تعالى إذ استعمل صيغة (أكثر الناس) فإشارةً خفيّة إلى أنّ هؤلاء المكذبين الذين سيُهَيْمِنون على العالم سيزعمون أنهم المتمدّنون وحدهم، وكلّ ماعداهم من البشر لايستحق أن نُسمّيه إنساناً، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة الناس بالألف واللاّم. وليصبح معناه أنّ أكثريّة هؤلاء المكذّبين من أدعاء المدنيّة والتحضّر لن يؤمنوا بهذا الدين، ولن يكونوا بالتالي مسلمين. وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز ربط الله جل شأنه بين مضمون هذا الدليل، وبين ماأنهى به تحدّيه بعشر سور من قبل وقال: فهل أنتم مسلمون؟

ألا إنّ هذه الحقائق التي تضمنتها هذه الآيات من سورة هود خاصة، ألا إن هذه الحقائق الغيبيّة تُجلّي إعجاز آيات سورة هود صياغة ومضموناً. وهذه الحقائق الغيبيّة هي التي دفعت محمداً رسول الله ﷺ ليقول مقولته الشهيرة (شيبتني سورة هود)، وبهذا الفهم الذي كشفه الله عزوجلّ على شخصي الضّعيف يعود التّرابط والتّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

والذي يهمُّنا من جميع ماذكرناه هو أنّ الله عزوجلّ أتى في سورة هود بأوّل حلقة من حلقات إجابته على السؤال الهام المتعلّق بحال المسلمين المعاصرين والعالم من حولنا، من أنّ الانقلاب الروحي السّابع الكبير مرتبطٌ ببعثة هذا «الشّاهد» الذي تكلّمتْ عنه سورة هود والذي سيكون من أمّة محمد خاتم النبيين ﷺ. وليثبت الله تعالى ببعثه هذا الشّاهد وبما يكلّفه به الله تعالى من مهام صِدْقَ قول ربّنا عزوجلّ بحق محمّد وبحق رسالته: ﴿**وماأرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لايعلمون**﴾. هذا وإنّ هذا الشاهد هو نفس الشخص الذي أوردت جميع كتب الحديث أنباءً عن ظهوره في آخر الزمان.

ألا لقد اختلف المفسّرون القدماء في أمر هذا الشاهد اختلافاً كبيراً. ذلك لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن تظلّ حقيقته خافيةً إلى حين بعثته وظهوره. خصوصاً وأنّهم لم يلتزموا بأصول تفسير القرآن الكريم. ولايظنّن ظانٌّ أنّ الله تعالى لم يُطْلِع محمداً ﷺ على شخصية هذا الشاهد بل أطلعه يقيناً خصوصاً وأننا لاحظنا أنّه قد حذّره ربّه وطمأنه عنه أيضاً في هذه الآيات من سورة هود، ولهذا

السّبب نفسه يُلاحظ دارس الأحاديث، أنّ علامات هذا الشاهد وعلامات متغيّرات زمانه تملأ كتب الأحاديث.

وهكذا أكون قد وضعت بين أيدي القارئ مفتاحَ خَلاصِ أمتنا وخَلاصِ العالم من حولنا من خلال ماستنبطته من هذه الآيات الأوائل من سورة هود التي أنبأت بصورةٍ غير مباشرة عن المستقبل التي سيحتاج المسلمون والعالم فيه إلى ظهور شاهدٍ من محمد ﷺ نفسه يشهد على صدق نبوّته وعلى صدق ماجاء به من كتاب .

وسيتساءل هذا القارئ بصورةٍ تلقائيّةٍ بعد قراءة ماذكرته له، فيعجب ويتساءل في نفسه: وهل أنّ بعثة هذا الشاهد لاتتصادم ومفهوم خاتم النبيّين؟

وأجيبه وأقول: لنمعن نظرنا في كلمة «شاهد»، فدلالاتها ترشد إلى الإجابة الصحيحة، ففي محيط المحيط تقول: أَشْهَدُ أي أعلم وأبيّن، وشاهَدَه عاينه، وشهد الجمعة: أدركها، والشاهد في المحكمة هو المُخبر بحقّ للغير عن آخر عن يقين في مجلس الحكم. والمؤذّن يؤذّن مقدّماً نَفْسَهُ شاهداً على وجود الله وعلى وحدانيّته وعلى صدق رسوله الكريم. وهذه الدلالات جميعها تزوّدنا بحقائق: الأول منها أن الشاهد لايُطلب أصلاً إلاّ في حالة الحاجة إليه. والثاني منها هو ضرورة توفّر عنصرين لدى الشاهد: العلم والقدرة على توضيحه. ثالثاً: ومن الضروري جدّاً أن يكون هذا الشاهد مُعايناً للحقيقة التي جاء يشهد على صحّتها. رابعاً ـ وأن تكون شهادته تتضمّن إخبار حقٍ ويقيني في نظر المحكمة.

ألا إنّ هذه الأمور الأربعة تعني بألفاظ أخرى أنّه سيأتي زمان على أمّة محمد خاتم النبيّين لايبقى فيه من الإسلام إلاّ إسمه، ومن القرآن إلاّ رسمه، مساجدهم عامرة ولكنّها خرابٌ من الهدى. وعلماؤهم ليسوا على مستوى علماء. وهذا زمان نُعاصره، لذلك يسمع المُصّلون في المساجد مناشدة خطباء المساجد لهؤلاء المصلّين أن يرجعوا إلى دينهم، وعاد دين الإسلام بالتّالي بحاجةٍ إلى هذا الشاهد الذي أشارت إلى بعثته سورة هود، ثم إنّ هذا الشاهد سيكون (منه) (شاهد منه) أي من أمّة محمد خاتم النبيّين، ومن فيض نبوّته، وليس هو بنبي مستقلٍ عن نبوّته، وتأتي أهميّة بعثه هذا الشاهد أنّ ذِكْرَهُ والإنباء عنه اقترن بتحدّي الله تعالى مكذّبي الإسلام أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود، فهذا التّحدي مهّد الله تعالى به للإعلان عن بعثة هذا الشاهد في المستقبل. وقلت: في

المستقبل، بسبب أنّ الله تعالى افتتح سورة هود بأحرف المقطعات (آلر) بمعنى أنني أنا الله أرى غيب المستقبل ولايخفى منه عليّ شيء من الأشياء.

ألا فلينتبه هذا القارئ إلى أنّ موضوع هذا الشّاهد، هو مقدّمة لموضوع واسع يشمل أحداث المتغيّرات التي نواجهها في عصرنا بالذات، هذه الأيام التي تعطي المراقب لمُجرياتها صورةً قاتمةً عن مستقبل الاسلام والعالم أيضاً، هذا الصورة التي دعتني لأحبّر هذه الكلمات، ولأرسم لقارئ كتابي هذا طريق الخلاص الذي نبّهنا إليه عزّوجلّ في كتابه العزيز.

ومن المعلوم أنّ الكاتب بعد أن يأتي بمقدّمة كتابه يعمد بعد ذلك إلى تفصيل ماتضمّنته مقدّمته، وهذا الأسلوب نفسه اختار سلوكه رب العالمين الذي أنزل هذا القرآن الفرقان، فهو جلّ شأنه أتى في سورة هود بما أتى به، وأنبأ بصورة مُجملة أن طريق خلاص المسلمين والعالم سيتحقّق على أيدي (شاهدٍ منه) أي على أيدي شاهد يبعثه الله تعالى من فيض محمد ﷺ نفسه، وراح جلّ شأنه يفصّل ماتضمنته مُقدّمة هذا الموضوع في سورة الكهف. موضّحاً في آيات مُقدّمتها أنّه تعالى كان قد بعث محمداً ﷺ مُحمّلاً بإنذارين وليس بإنذار واحد، وبتبشيرين وليس بتبشير واحد، فهو كان مُكلّفاً بإنذار وتبشير معاصريه، كما كان مُكلّفاً لإنذار وتبشير ﴿**الذي قالوا اتّخذ الله ولداً**﴾ الذّين سيُعاصرون تخلّف أمة محمد وانحطاطها في المستقبل الذي أشارت إليه الأحرف (آلر) في سورة هود.

٢ً ـ حلقة سورة الكهف :

فقد هال محمداً ﷺ ماسيؤول إليه حال أمته وقال (شيبتّني سورة هود) لذلك خاطبه تعالى هناك مُحذّراً ومُطمْئناً: ﴿**فلاتك في مرية منه، إنه الحقّ من ربك، ولكن أكثر الناس لايؤمنون**﴾. وهال محمّداً أن يؤول أكثر الذين اتّخذوا لله ولداً إلى النّار والهلاك، فلا يؤمن أكثرهم بالإسلام على أيدي هذا الشاهد الذي سيبعثه الله تعالى زمن هيمنة هؤلاء على العالم. لذلك يُلاحظ القارئ كيف

أنّ الله تعالى راح يواسي رسوله الكريم في سورة الكهف ويقول: ﴿**لعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾. فأيّ حديث هذا المشار إليه هنا، إلاّ مايُحدّث به الله تعالى رسوله الكريم بخصوص ماسيفصّله ضمن سورة الكهف؟

وكلّ من طالع تفسير سورة الكهف الذي أضحى متداولاً بين أيدي الناس سيُلاحظ كيف أنّ الله عزوجلّ استعرض للقارئ الأدوار التاريخية الثلاثة التي مرّ بها الذّين اتخذوا لله ولداً، والتي انتهت بدورهم المعاصر الذي «يصنعون» فيه عجائب سلبت عقول النّاس وأفئدتهم. مُتناسين المقصد من حياتهم والمقصد من جعل ماعلى الأرض زينةً لها ليبلوا الله تعالى بها أيّ النّاس يُحسن عملاً. فقد صنع هؤلاء العجائب، وتناسوا المقصد الذي من أجله خُلقت زينة الأرض والمقصد من حياتهم، كما تناسوا هذا التحدّي الإلهي وهو أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود وماتحمله من علم وأنباء ، خصوصاً إنباءها عن بعثة هذا الشاهد الذي ستسفر عنه فيوض مُحمّد ﷺ الروحيّة. وثابروا على توجيه إتّهامهم محمّداً أنّه افترى هذا الكتاب العزيز على الله عزّ وجلّ . لذلك أضحوا في نظر الله تعالى لم يُحسنوا صُنعاً. فأنذرهم جلّ شأنه في مقدمة سورة الكهف وقال: ﴿**وأنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً**﴾. أي قاعاً صفصفاً لاترى فيه عوجاً.

وإني أناشد هذا السّائل، وكل قارئ، أن يُطالع ماأتت به أظلال دلالات سورة الكهف هذه من معلومات وليستفت قلبه حول مدى مصداقيّتها ـ فسيلاحظ هذا القارئ يقيناً أن هذه السورة لم تنبئ عن حال الذين اتّخذوا لله ولداً المعاصر، بل وأنبأت عن حال تخلّف المسلمين المعاصر أيضاً، كما أنبأت أنّ طريق الخلاص مُنعقدٌ على أيدي «الشّاهد» المُنبأ عنه في سورة هود. هذا الشاهد الذي وُصف هنا في سورة الكهف باسم «ذو القرنين». فالشّاهد الذي يعني لغوياً المهدي والحَكَم العَدْل. هو نفسه ذو القرنين بمعنى أنه سيصبح مُجدّداً لقرنين زمنيّين من تاريخ أمة محمّد ﷺ، وليس كبقيّة المجددين الذين سبقوه. هذا وإن الآيات من سورة الكهف قد حدّدت مهمة هذا الشاهد ذو القرنين، وهو أن يؤسّس جماعةً من طالبي الحقيقة، الذين يبتغون الخلاص من شرور ماصنعه الذين اتخذوا لله ولداً، جماعةً مؤمنين يرجون التعرّف إلى ربّهم ليفوزوا بمحبّته وقربه ورضوانه. ويقيم ذو القرنين بذلك سدّاً بين جماعة المؤمنين، وبين هؤلاء المفسدين

الذين استعمل الله تعالى لهم اسم يأجوج ومأجوج، هذا الاسم المشتقّ من أجّج النار أشعلها، وأجّج الفتنة أثارها، فهذه هي صفات المعاصرين من الذين اتخذوا لله ولداً. يقيم ذو القرنين هذا السّد، ويُقيم بذلك جدار الإسلام الذي يريد أن ينقضّ.

وعلى هذه الصورة يكون ربّنا عزّوجل الذي أتى في سورة هود بمقدّمة موضوع جوابنا على السؤال المطروح في مستهل هذا البحث، تلك المقدمة التي لخّصت الجواب من خلال إنبائها عن (شاهد منه). يكون تعالى قد فصّل وشرح لنا في سورة الكهف كل مايحدّد شخصيّة هذا الشاهد وزمن بعثته وماسيتحقق على يديه وسمّاه «ذو القرنين» أيضاً. ويكون جلّ شأنه قد وضع بذلك بين أيدي القارئ السائل مفتاح دراية جميع ماوصله من أحاديث تتعلّق بهذا الشاهد ذو القرنين. انطلاقاً من أنّ القرآن الكريم هو المرجع الأساس لكل مسلم، لذلك كان من واجب هذا المسلم معرفة الأصل الذي استندت إليه أحاديث رسول الله ﷺ ضمن كتاب الله العزيز.

وأقول، والأسف يتملكّني، هو أن علماء ومفسّري أمّتنا لم ينتهجوا المنهج الذي بيّنته، فذهبوا من خلال ماوصلهم من أحاديث مذاهب شتى، واتّخذوا هذا القرآن مهجوراً في أمر هذا الشخص الذي أنبأت عنه أحاديث رسول الله ﷺ. فظنّوا أنّه المسيح النّاصري، قد أصعده الله تعالى إلى السماء، وأنّه سينزل هو نفسه زمن تخلّف المسلمين وهيمنة الأمم عليهم، ليقوم بما أنبأت عنه الأحاديث من مهام.

٣ً ـ حلقة سورة الزخرف :

ولمّا كان فهم المسلمين المشار إليه ساذجٌ ويخالف صريح القرآن الكريم، وكان من الضروريّ أن يبحثه الله تعالى ضمن جوابه على السؤال المطروح، فلم يأت جلّ شأنه على بحث هذا الأمر في سورة الكهف بل راح جلّ شأنه في سورة الزخرف يوضّح ماالتبس أمره على علماء المسلمين ومفسّريهم، ونبّه أذهاننا فيها إلى أنّ هذا الشاهد ذو القرنين سيكون مثيلاً ونظيراً للمسيح بن مريم في مُهمّته وبُعده الزمانيّ عن زمن موسى عليه السلام، ولن يكون هذا الشّاهد ذو القرنين هو المسيح بن مريم نفسه.

هذا الأمر أورده الله جلّ شأنه في الآية (٥٧) من سورة الزخرف التي قال تعالى فيها: ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدُّون**﴾. فالمثل في اللّغة يستعمل للشّبه والنّظير ويجمع على أمثال (محيط المحيط) أي أنّ ماتضمنته سورة الزخرف من معلومات تشكّل حلقة ثالثة من موضوع ماأجاب به ربّنا جلّ شأنه على السؤال المطروح في بداية بحثنا هذا، بحث طريق الخلاص من حال تخلّف المسلمين المعاصر وهيمنة الذين اتّخذوا لله وليداً عليهم وعلى بقيّة أمم العالم.

وبما أنني تعرّضت لبيان هذه الحلقة الثالثة في (فنّ الاختزال)، لذلك اقتبس للقارئ ممّا كتبته هناك بعض الشّذرات لتُعطيه فكرة واضحة عن ذلك وعن علاقته بالتسلسل الموضوعي لآيات سورة الزخرف: قلت على الصفحات (١٧١ - ١٧٤): (يلاحظ القارئ أنه تعالى أوصى رسوله الكريم في الآية (٤٣) بقوله تعالى: ﴿**فاستمسك بالذي أوحي إليك، إنّك على صراطٍ مستقيم، وإنه لذكر لك ولقومك، وسوف تسألون**﴾. فلماذا أتى بسوف في هذا المقام؟ وهي تستعمل للمستقبل البعيد، ولم يقل ستُسألون؟ حكمة ذلك أنّه تعالى يحمّل الأمة الإسلامية مسؤولية حمل دعوة الإسلام إلى العالم قاطبة، فإن قصّرت هذه الأمّة في هذه المسؤولية، وقعد افرادها عن الدعوة إلى الإسلام والتّبشير به، لايكونون قد أدّوا هذه المسؤولية، فيعتبرون في نظر ربّهم مُقصّرين ومُدانين، لأن الهدف من دين الإسلام قد حدّده قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كُلّه ولو كره المشركون**﴾. ففي هذا التحذير ﴿**وسوف تسألون**﴾ نبوءةٌ غيبيّةٌ عن مستقبل الأمة الإسلامية من أنّها ستُشابه في المستقبل، من سبقها من أمم الأرض، الذين عادوا يقولون مالا يفعلون. فلمّا انتهى الله عزوجلّ بعد عدّة آيات ذكّر فيها الأمّة الإسلامية بزمن موسى وفرعون، انتقل ليقول في الآية (٥٧): ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً، إذا قومك منه يصدّون**﴾. فالمثل في اللغة يستعمل للشّبه والنظير كما يستعمل للحّجة ويصدّون أي يضجّون ويميلون عن هذا النظير ويُعرضون.. فالله تعالى يُنذر المسلمين في هذه الآية الكريمة أنّهم إذا تقاعسوا في المستقبل عن التبشير بالإسلام ونشره على العالم، ينذرهم ببعث نظيرٍ للمسيح بن مريم وشبيهٍ لإحياء شريعة الإسلام على شاكلة مابعث به ابن مريم لإحياء شريعة موسى من قبل، فإن عَلِمْنا أنّ بعثة ابن مريم قد تمت بعد موسى بثلاثة عشر قرناً من الزمان، فهي نفس المدّة التي انقضت على

زمن بعثة محمد ﷺ أيّ أنّ الله تعالى ينبئ هنا عن بعثة نظير وشبيه لابن مريم وذلك بعد ثلاثة عشر قرناً من بعثة محمد رسول الله ﷺ، وتكون مهمّته على شاكلة مُهمّة ابن مريم وكان القصد منها محاولة إحياء شريعة محمد ﷺ. وهي المدّة المُنبأ عنها في سورة السجدة أيضاً.. فالآية المذكورة تنبئ إذن عمّن تحدّثت عنه أحاديث رسول الله ﷺ الوارد فيها نزول المسيح في آخر الزمان والوارد في الحديث (وإمامكم منكم) بمعنى أنّ الذي سينزل، والنزول هنا للتشريف كما تقول نزل رئيس الدولة في دار الضيافة، فالذي سينزل هو مثيل المسيح ابن مريم ونظيره، وهو أحد أفراد أمة محمد رسول الله ﷺ.. فإن تذكّرنا تنديد الله تعالى بالمنافقين في سورة الأحزاب من قبل، فقد اقتضى التسلسل الموضوعي أن يبعث الله عزوجلّ مثيل ابن مريم لإصلاح حال المسلمين، الّذين تفشّى النّفاق بينهم، ولقيادة مسيرة الدعوة إلى الإسلام من جديد.. وليلاحظ هذا القارئ كيف أنّ الله تعالى قال بعد ذلك وفي الآية (٦١) ﴿**وإنّه لَعِلْمٌ للسّاعة فلا تَمْتَرُنّ بها، واتّبعون هذا صراط مستقيم**﴾. فضمير (وإنّه) يعود على القرآن الذي يُعْلمنا في هذه الآيات عن ساعة زوال الذين اتخذوا لله ولداً، والذين هيمنوا على العالم إثر تخلّف المسلمين وانحطاطهم، وهاهو ذا جلّ شأنه يتوجّه بعد ذلك للكلام عن هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً ويقول: ﴿**أم أبرموا أمراً فإنّا مُبرمون. أم يحسبون أنّا لانسمع سرّهم ونجواهم، بلى ورسُلُنا لديهم يكتبون. قل إن كان للرّحمن ولدٌ فأنا أوّل العابدين. سبحان ربّ السموات والأرض ربّ العرش عمّا يصفون. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يُلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ ٧٩ــ٨٣ وهذه الآيات الكريمة واضحة الدّلالة على أنّ الله عزوجلّ سبق أن خصّص ساعةً لزوال هؤلاء الغربيين المشركين وأنّه جلّ شأنه يسمع نجواهم ومأأبرموه، ويعلم سرّهم ومايبرمون.

فبهذا الذي أتت به سورة الزخرف، يكون جلّ شأنه قد وضّح للعلماء والمفسّرين ماالتبس عليهم أمره بشأن هذا الشاهد ذو القرنين، فوضّح تعالى لهؤلاء أنّ هذا المثيل ماهو المسيحَ ابن مريم نفسه، بل سيكون نظيراً له وشبيهاً من حيث مُهمّته ومن حيث بُعْدِ بعثته الزمنيّة عن موسى عليه السّلام، فهذا النّص القرآني يشكل أصل الحديث القائل (كيف أنتم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم). فالنّزول هنا استعمل للتكريم. ثم إنّ استحقاق هذا الشاهد ذو القرنين

لإسم ابن مريم، فَلِكَوْنه مثيلاً له ونظيراً كذلك ألفاظ (وإمامكم منكم) وفي رواية (وأمّكم منكم) قد صرّح ﷺ من خلالها بأن هذا الشاهد ذو القرنين مثيل ابن مريم سيكون أحد أفراد أمّة محمد خاتم النبيين ﷺ نفسه.

ويكون الله جل شأنه قد وضّح الحلقة الثالثة المختصّة بموضوع هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير الذي يقف العالم على عَتَبته. هذه الحلقة التي تضمّنها قول الله تعالى في سورة الزخرف: ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومُك منه يَصُدّون**﴾. فليمعن القارئ نظره في حرف (لمّا) الذي افتتحت به هذه الآية الكريمة. ففيه الإنباء والدّلالة على أنّ ظهور مثيل ابن مريم أمرٌ متوقّعٌ ومفروغٌ منه. ذلك أنّ اللغويين قالوا إنّ منفيّ حرف لم غير متوقّع ثبوته على عكس منفيّ حرف (لمّا) فهو متوقّع ثبوته. على شاكلة القول (لمّا يذوقوا عذاب النار) أي أنّ ذوقهم للنّار مُتوقّعٌ وإن لم يذوقوه إلى الآن (محيط المحيط) فمضمون الآية التي نحن بصددها ورد في سياق الكلام عن امكانيّة تخلّف المسلمين وتقصيرهم في أداء المسؤولية الملقاة على عاتقهم وهي ضرورة استمرارهم بمهمّة التبشير بالإسلام ولنشره على العالم كلّه. فمن خلال الإيتاء بحرف (لمّا) نبّه ربّنا أذهاننا بأسلوبٍ بلاغيٍ مُعجز إلى أن هذا التّقصير من جانب المسلمين مُتوقّع في المستقبل، لذلك فمتوقّع أيضاً احتياج هؤلاء إلى بعثة نظيرٍ لابن مريم وشبيهٍ به من بينهم وليعيد بذلك إلى الإسلام حيويّته.

٤ً. حلقة سورة الصّف:

والذي يتدبّر تسلسل مضامين السّور القرآنية تدبّراً حقيقياً، ومن زاوية نظر الكلام عن حلقات هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير المقبل. ستواجهه سورة الصّف التي تتناول حال المسلمين يوم يتخلّون عن مسؤولية الدعوة إلى الإسلام، ويُصابون بالتخلّف والانحطاط من جرّاء ذلك، ويفقدون بالتالي تأييد ربّهم عزّ وجلّ ونُصرته، بل ويعود الله تعالى ينظر إليهم نظرة مقتٍ شديد لإساءتهم إلى الله ورسوله عملياً. ويحتاج الإسلام يومئذٍ إلى بعثة مثيل ابن مريم ونظيره، حيث يُطالب الله أولئك بنصرة هذا الشاهد النظير لابن مريم وتأييده والانضمام تحت جناحيه، لكنّ مسلمي عصر التخلّف المذكورين سيكون موقفهم خلاف ماتطالبهم به سورة الصّف، فيكذّبون مثيل ابن مريم الذي يأتيهم بالبيّنات

على شاكلة ماأتى به المسيح ابن مريم فيما مضى في أُمّة موسى بالبيّنات، ويتهمونه بالافتراء على الله. ضاربين عرض الحائط كونه لايدعوهم إلاّ إلى الإسلام.

وقبل تناولي آيات سورة الصّف لإثبات صحّة مازعمته من مضمونها، أجد لزاماً عليّ أولاً العودة بالقارئ إلى التّسلسل الموضوعي للسّور الذي أشرت إليه. فقد قال تعالى في سورة الأحزاب من قبل ﴿**ماكان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكلّ شيء عليماً**﴾. فحرف (لكن) يفيد مابعده نقيض ماقبله على حسب ماأورده اللغويّون. أي أنّ الله عزوجلّ نفى عن رسوله الكريم أُبوّته الجسدية، وأثبت في الوقت نفسه نقيض ذلك أي أثبت أبوته الروحيّة لأمّته. لذلك قال بعد ذلك بحقّ زوجات رسوله الكريم ﴿**وزوجاته أمّهاتكم**﴾ أي أمّهاتكم الرّوحيات. وقد اشترط الله جلّ شأنه على المؤمنين ألاّ يؤذوا محمداً وزوجاته، فإن فعلوا هذا يحرمُون أنفسهم من جرّاء ذلك من هذه الأبوة الرّوحيّة التي هي لرسوله الكريم، فهذا ماأنهى الله تعالى به سورة الأحزاب حيث قال هناك: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لاتكونوا كالذّين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيهاً، ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يُصلح لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم، ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، إنّا عرضنا الأمانة ـ أي أمانة الدعوة إلى الإسلام بهذا القرآن ـ على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ـ أي حملها هذا البشر الذي هذّبناه بتعاليم هذا القرآن ـ إنّه كان ظلوماً جهولاً. ليُعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً**﴾. فقد حذّر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات الأخيرة من سورة الأحزاب من مغبّة إهمالهم لمسؤوليتهم المتعلقة بحمل الأمانة المتعلّقة بنشر تعاليم القرآن الكريم على العالم كلّه. كما حذّرهم من ترك تقوى الله والقول السّديد، وحذّرهم من معصية الله ورسوله، كيلا يؤذوا رسوله محمداً خاتم النبيين، وكيلا يُعدّوا في نظر ربّهم منافقين ويستحقّون بالتالي عذاب الله تعالى ويفقدون محبّته وتأييده ونصرته.

ماأنزل الله تعالى على محمّد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ماأوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كلّه هو أنّ الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقق على أيدي محمد رسول الله ﷺ، على صعيد كلام الله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلاباتٍ روحيّةٍ تحقّقت على أيدي المرسلين من قبله.

وأتناول الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وماستجدّ على هذا الصّعيد بإنزال ماتضمّنه كتاب الله القرآن المُنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يُلاحظ القارئ كيف أنّ هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتبٍ سماويّة، وكيف أنّه تضمّن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرها عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصّبغة ولاتصلح أحكامها وتشريعها لإقامة مجتمعٍ ونظام عالمي؟ ثم إنّ كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعاليم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية، على قدر ماجاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعاليم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرّج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب الله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلّق بأحكام وشريعة موسى فقال: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدى، ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. أي أن التّرجي بالحصول على لقاء الله عزوجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعاليم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكامٌ وتعاليم ذات صبغةٍ قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقيةً روحيةً كاملة تُؤهّله للتشرُّف بلقاء ربّه عزّ وجلّ وجذب محبّته وقربه ورضوانه.

هذا وقد لفت الله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعاليم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربّه حاذفاً هذا التّرجي. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحقّ مدرسة أحكام وتعاليم القرآن الكريم: ﴿**لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب، ماكان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كلّ شيء، وهدى، ورحمة لقوم**

يؤمنون﴾. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشريعة الموسوية بقوله: ﴿**هدى ورحمة لعلهم بلقاء ربّهم يؤمنون**﴾. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلّقة بالشريعة المحمدية بقوله: ﴿**هدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والتّرجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبال كمال ماتضّمنتهُ من أحكام وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبّر، وبهذه الدّقة في التعابير والّتي لايلحظها إلا المتدبّرون.

أما هذا الكمال الذي اتّصفت به أحكام وتشريع كتاب الله القرآن، فقد صرّح به الله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن ماراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية ﴿.. **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطُرّ في مَخْمصةٍ غير مُتجانفٍ لإثمٍ، فإنّ الله غفور رحيم**﴾. فهو تعالى صرّح هنا أن اكتمال بناء الدّين الشاهق الذي تتبنّونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذّبوه وكفروا به، لموازنتهم مابين تشريعه وأحكامه ومابين مالديهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجوه الذين كفروا بشريعة الإسلام باب التّفاخر والتّباهي بما في كتبهم من أحكام وتشريع. فلمّا انتهى تعالى من التّنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وينبّه إلى أنّ واجبهم بعد اكتمال بناء الدّين بهذا التشريع أن يضعوا خوف الله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمر من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوّتهم ومظهر تعلّقهم بربّهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفّار، وإلاّ فقد ثبت ضعف إيمانهم بربّهم وقدراته عزوجلّ، بربّهم الذي أكمل لهم بناء هذا الدّين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. بربّهم الذي أتمّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنّ ألفاظ ﴿**أكملت لكم دينكم**﴾ تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي، وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكتمال تعاليمه، ثم إنّ ألفاظ ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ تُشير إلى أنّ الثمار الروحية لهذا التشريع

اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنّ مدرسة القرآن أضحت تدرّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرّسُه تطبيقيّاً ليجني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نبّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ماأنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى النّاس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التّوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإن تدبّر القارئ آي الذكر الحكيم يُلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين ابراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربّنا عزوجل قوله في سورة النّحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: ﴿**إنّ ابراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة، وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين، ثمّ وأحينا إليك أن أتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين**﴾. فهو جلّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنّكم تعلمون أنّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤت هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحّداً على شاكلة جدّه ابراهيم.

وأكّد الله عزوجلّ اشتراك ابراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: ﴿**قل هذه سبيلي ادعو إلى الله** وقف، **على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني، وسبحان الله ومأنا من المشركين**﴾.

لكنّ هذا القارئ إذا تدبّر آي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وابراهيم من فرق في مقامهما الروحي، فلابد له من أن يلاحظ علوّ مقام محمد على مقام ابراهيم من خلال ماأنهى الله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب الله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: ﴿**ومن يرغب عن ملّة ابراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين: إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لله ربّ العالمين**﴾. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله ربّ العالمين. ولا نلاحظ

وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتاب الله العزيز يزيد على وصفه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) من سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿**قل إنني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم، ديناً قيّماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين. قل إنّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لاشريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أوّل المسلمين**﴾. فهو جلّ شأنه قد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمداً بوصف واحدٍ من جهة. وميّز محمداً في الفقرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: ﴿**وأنا أوّل المسلمين**﴾. فابراهيم أسلم نفسه لربّ العالمين، أمّا محمد خاتم النبيين ﷺ فقد كان أوّل من أسلم نفسه من نفسه لله ربّ العالمين. ليس أوهم زماناً، إذ المعلوم أنّ ابراهيم هو السّابق زماناً، وهذه قرينة لغويةٌ تصرف لفظ (أوّل) هنا من الزّمانية إلى الدّلالة على أولويّة مقام محمد ﷺ، وسُموه. فمحمد بن عبد الله يأتي في ذروة هرم التوحيد، لذلك فهو أوّل المسلمين وكأنّ الله عزوجلّ ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بألفاظٍ أخرى منبّهاً إلى الفارق بين مقامه ومقام ابراهيم جدّه من حيث التّطبيق، وليس من حيث النظريّة والاعتقاد، قوله: ﴿**وأنا أوّل المسلمين**﴾ بمعنى أنّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فُرص إثبات توحيده لربّه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسّبق الزماني لابراهيم ولاشكّ، لكنّ الأولوية في المقام الرّوحي فلمحمّد سيد المرسلين ﷺ. وهكذا تكون بعثة محمد رسول الله ﷺ قد أحدثت انقلاباً روحياً عظيماً أيضاً على الصعيد التطبيقيّ للتوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنّه لم يتحقق من إنجازات على أيدي ابراهيم تماثل ماتحقّق من إنجازات تحققّت على أيدي خاتم النبيّين. اللهم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

الأقل أهميّة من المقصد الذي ذكرناه، هو محاولة تنبيه أذهان المسلمين المعاصرين الذين اعتقدوا برفع المسيح ابن مريم إلى السّماء بجسده العنصري وبنزوله آخر الزمان. تنبيه عقول هؤلاء إلى أن ابن مريم نفسه قد مات، وها أنّه قد بشّر برسولٍ يأتي من بعده إسمه أحمد ومثيل المسيح ابن مريم. فلو كان المسيح حيّاً في السّماء وسينزل آخر الزّمان، فلا معنى لتبشيره بأحمد، بل كان ينبغي له أن يبشّر ببعثة رسولٍ من بعده اسمه محمد. والمقصد الثالث من وراء إيراد هذا التبشير بأحمد هنا، هو تنبيه عقول المسلمين المعاصرين إلى أن عودة عيسى ابن مريم إلى الأرض بعد محمّد خاتم النبيين، يتناقض ودلالة ألفاظ خاتم النبيّين. فلا نبيّ يأتي من بعد محمّد من خارج أمّته. فإن حدث وأتى ينقضٍ بمجيئه ختم نبوّة سيد المرسلين. حتى ولو كانت نبوّة هذا المبعوث سابقة زمنياً بعثة محمد خاتم النبيين. فلا نبيّ يأتي من خارج أمّة محمدٍ من بعده ولو كانت نبوّته سابقة لبعثته الثانية. هذه هي دلالة خاتم النبيّين.

هذا وقد سبق لي أن وضّحت عند الكلام عن قوله تعالى ﴿**وشاهدٍ منه**﴾ أنّ هذا الشاهد سيمثّل فيض محمد الرّوحاني ومن أمّته، فهو منه. وليس من أُمّةٍ أُخرى غير أمّة محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه هي الحقائق الكامنة وراء التّبشير باسم أحمد على لسان مريم في هذا المقام. ذلك أنّ المخاطبين هنا هم مسلموا عصر التخلّف والانحطاط، وليس اليهود أو المسيحيّين. ودليلنا على ذلك مأورده الله جلّ شأنه بعد ذلك من أقوال. فهو تعالى قال بعد ذلك: ﴿**فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾.

ومن المعلوم أنّ القاعدة العربية تقول: إنّ الضمير لايعود إلى شيء غائبٍ عن النّص. وهذه الآيات التي ذكرناها تخلو من ذكر المسيحيين، والمخاطب فيها، هم مسلموا عصر التخلّف والانحطاط. لذلك فإنّ ضمير ﴿**فلمّا جاءهم**﴾ يعود على هؤلاء المسلمين المعاصرين. والذي جاءهم هو أحمد مثيل ابن مريم ونظيره الذي جاءهم ببيّنات القرآن الكريم التي غابت عن أذهان هؤلاء المسلمين المعاصرين.

وليَعُدْ هذا القارئ بذاكرته إلى الآية من سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿**ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون**﴾. أي أنّ حال المسلمين من

قومك، إذا بعث الله تعالى فيهم مثيل ابن مريم، لايؤمن أكثرهم به، بل يضجّون منه ويكذّبونه ويميلون عنه ويُعرضون (محيط المحيط). وهاأنّه جلّ شأنه يثبت مقولته الغيبيّة هذه من خلال قوله تعالى: ﴿**فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين**﴾. وهو جلّ شأنه استهلّ هاتين الآيتين أيضاً بحرف (لمّا) الذي يفيد مابعده نقيض ماقبله. كذلك أتى بفعل جاء وفعل قالوا بصيغة الماضي وليس بصيغة المضارع ليفيدا الجزم بعد بعثة هذا الشاهد المثيل لابن مريم والموعود بظهوره، وبعد أن تتضّح دلالات الآيات الواردة في سورة الصّف. فصياغة أفعال الآية وردت بصيغة الماضي لتساعد أيضاً كلّ مؤمن بهذا المثيل ويقف مدافعاً عن صدق بعثة هذا المثيل لابن مريم.

وليُلاحظ القارئ أنّ الله عزوجلّ لم يكتف بإثبات مقولته الغيبيّة بدليل واحدٍ على حسب ماوضّحناه. بل قدّم بعد ذلك دليلاً آخر أقوى من الأوّل، ومُصاغاً بأسلوب بلاغيّ معجز أيضاً، فقد راح تعالى يقول: ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله الكذب، وهو يُدعى إلى الإسلام، والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. فقوله تعالى (ومن أظلم) المقصود به هؤلاء المسلمين المعاصرين الذّين كذّبوا مثيل ابن مريم وقالوا هذا سحرٌ مبين. يقول تعالى وهل يُتصوّر أن يأتي غيرهم بظلم أعظم من ظلمهم هذا الذي يرتكبونه؟ فهم يتهمون الله ربّهم بالكذب والجنوح عن الحقيقة من خلال تكذيبهم لهذا الشاهد مثيل ابن مريم، فهم يكذّبون ماأنبأ الله به عن ظهوره وعن علامات ظهوره. ويضيف جل شأنه يقول ﴿**وهو يُدعى إلى الإسلام**﴾ أي أنّ مايزيد في بشاعة ظلم هؤلاء المسلمين هو أنّهم يكذّبون هذا الشاهد المثيل الذي يدعوهم إلى العودة إلى تعاليم دينهم الإسلام وقد أتى لهم ببيّنات دينهم الإسلام. فقد كان من واجبهم مناقشة مايدعوهم إليه، لاأن يتهمونه بالسّحر أي بالخداع والتّمويه وإخراج الأشياء في أحسن معارضها لِيُفتَنَ بها الناس (محيط المحيط)، والمعنى أفلا يخجل هذا الظالم أن يُدعى من قِبَلِ هذا الشاهد النظير لابن مريم إلى الإسلام ويتغافل عن دعوته تلك ؟ وهو جلّ شأنه عندما أنهى الآية بقوله: ﴿**والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. جزم بحقيقة ظلم المسلمين المعاصرين الكبير، كما جزم بإبقائهم على ظُلمهم وزيغانهم عن الصراط المستقيم.

وقد راح جلّ شأنه يبدي مقته لهؤلاء الذين آذوا رسوله محمداً ﷺ، وافتروا على ربّهم كذباً، وقال بلهجة الإله العزيز الفعّال لِما يريد: ﴿**يُريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم، والله مُتِمُّ نوره، ولو كَره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون**﴾. أي أنّ تكذيب مسلمي عصر التخلّف والانحطاط هذا المبعوث الشاهد مثيل ابن مريم، يُعدُّ في جوهره محاولةً لإطفاء نور الله الذي راح ينوّر به العالم هداية عباده الضّالين. ثم إنّ محاولتهم هذه تأتي (بأفواههم) وليس بأداة أقوى من ذلك. أي أنّهم يعتمدون على نشر الإتهامات والأكاذيب والتخويف من هذا المبعوث، ولايقابلونه بسلاح الحجّة والبرهان والحُوار المنطقيّ. فسلاحهم هذا لاوزن له ولاشأن ولاقوة له على مغالبة نور الله. لذلك نَدَعُهُم لشأنهم ومحاولتهم تلك، لكن ليعلموا أنّ الله العزيز الذي لايُغالب والفعّال لِما يريد ﴿**مُتِمُّ نوره**﴾ أي لايتراجع عن خطوته التي خطاها لهداية العالم ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ أي ولو كره هؤلاء الذين يكذّبون هذا الشاهد المثيل لابن مريم، والذين يكذّبون كلامي ونبوءاتي، هذه المعاني جميعها محتملة هنا، بسبب أنّ الله تعالى عرّف كلمة (الكافرون) بالألف واللاّم.

وراح جلّ شأنه يبرّر عمليّة ﴿**متمُّ نوره**﴾ أي يبرّر مثابرته على تأييد مثيل ابن مريم، موضّحاً المقصد الأسمى من بعثه إياه، وقال: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون**﴾. أي أنّ تخاذل مسلمي عصر التخلّف والانحطاط عن أداء مهمتهم التي حدّدتها لهم آيات سورة الأحزاب وهو ضرورة الاستمرار في القيام بالتبشير بالإسلام ونشره على العالم كله.

فقد استدعى هذا التّخاذل الذي أبدوه، أن يبعث الله تعالى مثيل ابن مريم، خصوصاً وأنّ حال هؤلاء قد شابه حال أمّة موسى من قبلهم. أن يبعثه ليكمل مسيرة الدعوة الإسلامية، فقد كان من مهمّة صاحب دعوة الإسلام وهو محمد ﷺ أن يظهر دين الإسلام على جميع الأديان، لاأن يظل أتباعه أقل من هؤلاء المشركين الذين اتّخذوا لله ولداً وهيمنوا على العالم الإسلامي، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة (المشركون) بالألف واللام العهدتين، ولمناسبة التّسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فلم يكن المقصود هنا مشركي قريش.

وبعدما فرغ الله جلّ شأنه من تقديم هذه الحقائق التي أتت بها آيات سورة الصّف، وبسبكٍ بلاغيّ معجز وأخّاذ، راح تعالى يخاطب هؤلاء المسلمين الذين ينسبون أنفسهم إلى رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ. راح يخاطبهم بأسلوب النّاصح الأمين ويقول: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ـ يغفر لكم ذنوبكم ويُدخلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبةً في جنّات عدن، ذلك الفوز العظيم. وأُخرى تُحبّونها، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبشّر المؤمنين**﴾.

فالله عزوجلّ غمز جانب هؤلاء المسلمين المعاصرين مُشعراً إيّاهم أنّه لاحظ غلبة الرّوح المادّية على تفكيرهم وسلوكهم اليومي وهم من جرّاء ذلك ينتظرهم عذابٌ من الله أليم، فنصحهم أن يفكّروا تفكيراً روحانياً وأن يقدّموا مصلحة الدين على جشعهم المادّي الدنيويّ وعبّر عن ذلك كله بقوله تعالى ﴿**هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم**﴾. كذلك نصحهم بتجديد إيمانهم بالله ورسوله والمجاهدة لنشر الإسلام على العالم تحت راية هذا الشاهد المثيل لابن مريم. وأنهى هذا الجانب الثاني من نصحيته تعالى هؤلاء المسلمين المعاصرين بقوله: ﴿**ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون**﴾ وحذف مفعول تعلمون توسيعاً لدلالة هذا اللّفظ ولتصريفه إلى مختلف الاتّجاهات. والتقدير هذا إن كنتم تعلمون قيمة نصيحة ربّكم هذه، وإن كنتم تعلمون ماتضمنته التّوراة والإنجيل من نبوءات تتعلّق ببعثة محمّد ﷺ وبعثة مثيل ابن مريم، وإن كنتم تعلمون معايير صدق المصلحين السماويّين. ومن ثم لاحظ أيها القارئ كيف بشّر الله تعالى الذين سيأخذون بنصيحة ربّهم هذه وقال: ﴿**يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبّةً في جنّات عدن ذلك الفوز العظيم**﴾. فأشار تعالى بهذه الألفاظ عدّة إشارات: أشار إلى أنّه واسع المغفرة فهو سيغفر لمن يستجيب لنصح ربّه ذنوبه التي بدرت عنه قبل تجديد بيعته لله ولرسوله، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب والملتزم سيفوز بقرب ربّه ومحبّته وتحسُّنُ بذلك عاقبته، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب سيفوز بوعود سورة الكهف، ويرث مساكن الذين اتّخذوا لله ولداً بعد أن تأتي ساعة دمارهم. وهذا بمجموعه يشكّل فوزاً عظيماً.

وأضاف جلّ شأنه يبشّر المسلم المتخلّف المعاصر إن هو استجاب لنصيحة ربّه هذه، من أنه جل شأنه قد بعث بمثيل ابن مريم لينصر دين محمدٍ ﷺ وليحقّق الفتح على بقيّة الأديان، وقد عبّر عن ذلك وقال: ﴿**وأُخرى تحبّونها نصرٌ من الله، وفتح قريبٌ، وبشّر المؤمنين**﴾. وأثبت الله عزوجلّ من خلال ماتضمّنته نصيحتهُ هذه وبشاراته، أثبت أنه يعمد إلى هذا النُصح والتبشير كلّ من ينسب نفسه إلى رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ. كما يمقت كلّ من يؤذي هذا الرّسول الأمين ولو زعم هذا المؤذي إيمانه بالله ورسوله، ذلك أنّ الله تعالى لايُولي الأقوال الأهميّة التي يوليها للأفعال.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الصّف بآيةٍ صريحة الدّلالات، ولاتحتمل التأويلات، وتكشف عن صدق جميع مافهمناه من آيات سورة الصّف من دلالات أتينا على ذكرها آنفاً. ومن واجب القارئ أن يُصغي إلى هذه الآية الأخيرة إصغاء المتدبّر اللاّهف لكشف دلالاتها. ذلك أنّ الله عزّ وجلّ راح يخاطب مسلمي عصر التخلّف والإنحطاط الذين باتوا يقولون مالا يفعلون. راح يخاطبهم للمرّة الثالثة والأخيرة، حاثّاً إيّاهم على الإنضمام إلى جماعة مثيل ابن مريم بألفاظٍ صريحةٍ وواضحة وراح يقول: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريّون نحن أنصار الله، فآمنت طائفةٌ من بني اسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ أي ياأيها الذين آمنوا بي وبرسولي ناصروا مثيل ابن مريم هذا، على شاكلة مافعل بعض أفراد قوم موسى الذين استجابوا لصوت المسيح الناصري. تلك الأحداث التي أدّت إلى إنقسام بني اسرائيل إلى طائفتين طائفة مؤمنة، وطائفة مكذّبة بالمسيح الناصري، وكانت النتيجة أن أيّد الله تعالى الذي استجابوا لنُصح ربّهم وآمنوا بصدق المسيح الناصري وأعرضوا عن تكذيبه، أن أيّدهم الله على الطائفة المعادية لهم، وتقلّبت الظروف والأحوال والأسباب فكتب الله للذين آمنوا بالمسيح الناصري ونصروه الغلبة على اليهود الذين أصرّوا على تكذيبه فأصبحوا ظاهرين عليهم عدداً وعُدّة وعتاداً وأموالاً وأولاداً. فهذا هو مصير الذين يناصرون مثيل ابن مريم المذكور، فستكون لهم الغلبة أخيراً لامحالة بإذن الله تعالى.

على هذه الشاكلة تكون سورة (الصفّ) قد شكّلت الحلقة الرابعة من موضوع الانقلاب الروحيّ السابع الكبير الذي يهيّئ الله عزوجلّ أسباب تحقيقه، للإكمال نشر الإسلام على العالم ولتثبيت الأمن والسلام في ربوع هذا الكوكب الأرضي.

وإنّ القارئ الذي تابع هذه الحلقات الأربع المتعلّقة بموضوع بعثة (شاهدٍ منه)، هذا الذي سُميّ في سورة الكهف باسم ذو القرنين، كما سُمّي في سورة الزخرف باسم مثيل ابن مريم، لابدّ أن لاحظ هذا القارئ كيف أنّ الحلقة الرابعة قد صوّرت وبأسلوب معجزٍ ماسيؤول إليه حال مسلمي آخر الزمان وذلك في سورة الصّف. هؤلاء المسلمون الذين تناسوا قدرات ربّهم عزوجل، فتناسوا ماأحدثه من انقلاباتٍ روحيّة على أيدي الذين اصطفاهم من أنبيائه ومرسليه.

٥ً- حلقة سورة الجمعة

فإن تدبّر هذا القارئ سورة الجمعة يتضح له أنّها أنبأت عن بعثه هذا الشاهد المثيل وعن الجماعة المؤمنة التي ستتشكّل على يديه، فإن راجع هذا القارئ ماأورده محمد رسول الله ﷺ من قول في تفسير ذلك يتطابق قوله ﷺ مع سأبيّنه لهذا القارئ من دلالات آيات سورة الجمعة بإذن الله تعالى.

ليتبيّن عن طريق ذلك معالم الحلقة الخامسة من موضوع هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير الذي لازلنا في بداياته، والذي ستثبت منه بعد اكتماله ما لله الخالق من قُدُراتٍ وعلم غيبي لاتقف دونهما حدود. ذلك أنّ سورتي الصف والجمعة هي جزء لايتجزّأ من السّور السّبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) على حسب مابيّناه في (فنّ الاختزال القرآني) وقد جنّى الله عزوجلّ في هذه السّور التابعة لسورة (ق) قُدُراته وعِلْمه الغيبي بشكلٍ لايدركه إلا المتدبّرون لآيات هذا القرآن العظيم.

أفلم يتذكّر القارئ كيف استهلّ الله تعالى سورة الصّف بفعل سبّح بصيغة الماضي إشارةً إلى ماأحدثه من انقلاباتٍ روحيّةٍ كبرى قبل بعثة محمد ﷺ. فليلاحظ هذا القارئ كيف أنّه تعالى استهلّ سورة الجمعة بالتّسبيح أي التّنزيه أيضاً. لكنّه استبدل صيغة الماضي سبّح بصيغة المضارع يسبّح، ليشير إلى ماسيحدثه من انقلاباتٍ روحيّه كبرى في المستقبل. ليشير إلى الانقلاب السادس

الذي تحقّق على أيدي رسوله محمد ﷺ وليشير بالتالي إلى الانقلاب السّابع الذي نقف نحن والعالم عند أعتابه.

فهو جلّ شأنه راح يقول بألفاظٍ مجملة: ﴿**يسبّح لله مافي السموات ومافي الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم**﴾. بهذه الألفاظ التي أنزلها في المدينة المنوّرة ليباهي أعداء الإسلام في حينه أن أمعنوا نظركم في ثمار تجلّيات ربكم الملك القدوس العزيز الحكيم. هذه التجليّات التي تحقّقت وتتحقّق على أيدي هذا الرسول الأمّي الذي اصطفاه الله من بينكم فالله ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾. أي لاحظوا كيف يتلو هذا الرسول آيات الله الملك على صحابته، وكيف يزكّيهم ويطهّر نفوسهم بتعالم هذا الملك القدوس الطاهر. وكيف يعلّمهم الكتاب أي الأحكام والقوانين التي سنّها هذا الملك العزيز الذي لايغالب، والغالبُ على أمره، وكيف يعلّمهم رسولنا الأميّ هذا الحكمة أي يعلّمهم كيف يُتقنون أمور دولتهم، وكيف يجمعون بين معتقدهم ومسلكهم اليومي، وكيف يزودّهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، فهذه هي دلالات الحكيم، فمن أين له أن يعلّمهم الحكمة لولا أنّه كان مهبط تجلّيات صفة الله الحكيم؟

ومن خلال صيغة المضارع (يسبّح لله) الدّالة على المستقبل أيضاً، راح جلّ شأنه ينبئ عن مستقبل أمّة محمد ﷺ يوم يتخلّف أفرادها، ويعودون يقولون مالا يفعلون، ويهملون مسؤوليتهم في نشر الدعوة الإسلامية على العالم. راح جل شأنه ينبئ عن أنّه في ذاك الزّمن سيبعث مثيلاً لابن مريم شاهداً من أمة محمد ﷺ لكنه من قوميّةٍ غير عربيّة، ليشكّل طائفةً مؤمنةً جديدة تسير على نهج الطّائفة التي ألّفها محمد رسول الله ﷺ، وتحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية على أكتافها لإكمال مسيرة الإسلام ولإظهاره على الدين كلّه وبفضلٍ من الله وتأييده، فهو جلّ شأنه أضاف قائلاً: ﴿**وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾. فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجلّ قد أنبأ عمّا ذكرناه بهذه الألفاظ المعدودات.

إنه جل شأنه حذف فعل (وسيبعث). فقد كان ضرورياً أن يقول (هو الذي بعث في الأميين.. وسيبعث في آخرين)، حذف فعل سيبعث لتدلّ عليه

جملة (لمّا يلحقوا بهم). فالتقدير «وهو الذي سيبعث في آخرين رجلاً منهم يحمل نفس مبادئ الأوّلين من الأمّيين».

ثم إنه جل شأنه أتى بحرف (لمّا) من (لمّا يلحقوا بهم). وقد علمنا سابقاً أنّ مابعد حرف لمّا يكون مغايراً دوماً لِما قبلها، والحكمة من ايتائه بحرف (لمّا) هنا، هو تنبيه أذهاننا إلى أنّ الآخرين المذكورين سيكونون غير الصّحابة الأوّلين ويكون هذا المبعوث من بينهم غير عربيّ أيضاً.

ثم إنه جلّ شأنه أتى بعد حرف (لمّا) بفعل (يلحقوا) من لحق به أدركه ولصق به (محيط المحيط) تنبيهاً لأذهاننا إلى أنّ جماعة هذا المبعوث هي التي قُدّر لها أن تلحق بركب مسيرة الإسلام التي ابتدأها صحابة محمّدٍ رسول الله ﷺ، وليس هؤلاء المسلمون المتخلّفون الذين يقولون مالا يفعلون. وأكّدت هذه الحقيقة الجار والمجرور (بهم) من (يلحقوا بهم) التي تعود إلى صحابة الرسول الأعظم صلوت الله وسلامه عليه.

وليلاحظ القارئ أنّ الله تعالى لم يُنه نبأه المتعلّق ببعثه الشاهد مثيل ابن مريم والذي سيحقق الله تعالى على يديه الانقلاب السابع الرّوحي الكبير، لم ينهه بالصفات الأربع: الملك القدوس العزيز الحكيم. بل أنهى الآية هذه بصفتين فقط من هذه الصفات هما (العزيز الحكيم). تأكيداً من جانبه عز وجلّ على أنّ هذا المبعوث لن يأتي بتعاليم جديدة بل يتقيّد بتعاليم القرآن المجيد المنزل من قبل الله الملك، كما أنه سيزكيّ طائفته بنفس التعاليم القرآنية المتعلّقة بتزكية النفس المؤمنة وتطهيرها. فلن يأتي على صعيدي صفتي (الملك القدّوس) بشيء جديد. لكنّ الجديد يتمثّل في تجلّي صفتي (العزيز الحكيم) عليه. هاتان الصفتان اللّتان غاب بريقهما من وسط المسلمين المتخلّفين اللّذين فقدوا تأييد ونصرة ربّهم العزيز الذي لايُغالب، وفقدوا الحكمة بخصوص إكمال مسيرة دعوة الإسلام.

إنّ المعاني التي أفادنا بها قول الله جل شأنه ﴿**وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾ تؤيّدها الروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ، والتي وصلتنا بطريق كتب الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير تحت تفسير هذه الآية الكريمة ص٣٦٣ الجزء الرابع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه في القطر المصري الشقيق: (قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله،

حدّثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة ﷺ، قال: كُنّا جُلوساً عند النبي ﷺ فأُنزلت عليه سورة الجمعة ﴿**وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم**﴾. قالوا من هم يارسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً. وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال «لو كان الإيمان عند الثريا، لنا له رجال - أو رجلٌ - من هؤلاء». ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به).

وقد أضاف جلّ شأنه بعد ذلك يقول: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم**﴾. وهو تعالى أتى هنا بحرف الإشارة للبعيد (ذلك)، عوضاً عن (هذا) وهو للقريب، تعظيماً منه تعالى لهذا الفضل الإلهي الذي سيتفضّل به على الشاهد الذي سيبعثه في «الآخرين». هذا الشاهد الذي ستتشكّل على يديه هذه الطائفة من المؤمنين على نسق ونهج الطائفة الأولى من صحابة محمد سيّد المرسلين ﷺ. وبألفاظ هذه الآية الكريمة يكون الله جلّ شأنه قد أتى على الحلقة الخامسة من موضوع الحديث عن هذا الانقلاب الرّوحي الكبير السّابع الذي نقف والعالم على أعتابه يقيناً.

وقد كان في علم الله الغيبيّ أنّ مُسلمي عصر التخلّف والانحطاط، لن يفهموا من سورة الجمعة مافهمناه، وأنّهم سيكذّبون هذا الشاهد الذي سيبعثه الله (في آخرين منهم). فلا يغيّرون حالهم في شيء ويظلّ حالهم ﴿**يقولون مالا يفعلون**﴾. لذلك راح جل شأنه بعد هذا الإنباء العظيم يذكّرهم بحال قوم موسى أولئك الذين بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم بالبيّنات لإحيائهم، فلم يستجيبوا لصوت الله تعالى وكذّبوه، وبقوا على حالتهم التّعيسة المتخلّفة تلك، فقد كان في علم الله الغيبي ذلك كلّه فذكّر هؤلاء المسلمين المتخلفين بأولئك وقال: ﴿**مثل الذين حُمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لايهدي القوم الظالمين**﴾. أي وهل يستفيد الحمار من الكتب التي توضع على ظهره؟ فقد كان هذا هو حال قوم موسى يوم بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم، لم يرجعوا إلى مافي التّوراة من نبوءات تنبئ عن حالهم وعن علامات ظهور عيسى ابن مريم من بينهم، وها أنّ حال مسلمي آخر الزّمان قد شابه حال المذكورين، وكذّبوا هذا الشاهد المثيل

لابن مريم والذي بعثه الله تعالى من بينهم، ضاربين عرض الحائط بجميع ماأنبأ عنه القرآن المجيد عنه، وعن جميع علامات ظهوره، ولم يؤازروه في دفاعه عن الإسلام مُتناسين أنهم يقولون مالا يفعلون وقد باتوا من جراء ذلك في نظر ربّهم من الظّالمين المحرومين من نعمة هداية الله تعالى ﴿**والله لايهدي القوم الظالمين**﴾.

وليلاحظ القارئ هنا هذه النتيجة العمليّة التي يستخلصها ربّنا عزوجلّ من واقع هؤلاء المسلمين المتخلّفين. فهو جلّ شأنه نبّه إلى أن الذي يقلّد شيئاً عملياً، يعود محسوباً على هذا الشيء، ومادام هؤلاء المسلمون قد شابهوا اليهود عمليّاً من خلال الحال الذي آلوا إليه، فقد هادوا في نظر ربّهم عزوجلّ، وإن لم يصرّحوا بهذا الأمر بألسنتهم، وحدث هذا مصداق ماأنبأ به محمد رسول الله ﷺ نفسه أمته بقوله: (لتتبعُنّ سُنن مَنْ قَبْلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا حُجْرَ ضبٍ لدخلتموه).

فمن هذا المنطلق راح جل شأنه يقول: ﴿**قل ياأيها الذين هادوا**﴾ فالكلام موجّه هنا إلى المسلمين الذين لايرجعون إلى ماتضمّنه القرآن الكريم من نبوءات وتعاليم، كحال اليهود الذين شبّههم الله تعالى بالحمار يحمل أسفاراً. وليس الكلام موجّهاً هنا إلى قوم موسى. فهذا مايقتضيه التسلسل الموضوعي.

قال تعالى: ﴿**قل ياأيها الذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء لله من دون النّاس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين**﴾. أي ياأيها المسلمون الذين ساروا على نهج اليهود إن زعمتم أنّ الله عزوجلّ لايزال يتولاّكم بنصرته وتأييده وينظر إليكم على أنكم تمثّلون هذا الدّين الحنيف من دون سائر الناس ﴿**فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين**﴾ فيما تزعمون. فما معنى ﴿**فتمنّوا الموت**﴾؟ هذه محاورة كلامية تدخل في معنى المباهلة التي شرحها القرآن الكريم من خلال قوله تعالى في الآية (٦١) من سورة آل عمران: ﴿**فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾. فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً. ثم إن كلمة (فتمّنوا)، بينها وبين فتزّحوا فرق في المعنى. أي أن التمنّي هو غير التّرجي، ولايقصد بالتمّني هنا التّرجي. ذلك أن التّمني مصدر تمنّى. ويُطلق عند أهل العربية على طلب حصول الشيء على سبيل المحبّة، وعلى الكلام الدّال على هذا الطلب، وهو بهذا المعنى من أقسام الإنشاء، لذلك أورد تعالى هنا ﴿**فتمنّوا**

الموت إن كنتم صادقين﴾. بأسلوب المحاورة، أي إن كنتم أيها المسلمون الذين تقولون مالا تفعلون تحبّون إثبات أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أنتم الذين تمثّلون الإسلام في عصركم، وأنّ هذا الذي يزعم أنّه الشاهد المنبأ عنه في كتاب الله تعالى هو كاذب في دعواه فادخلوا معه في مباهلة بين يدي الله عزوجلّ فتمنوا الموت إن كنتم صادقون فيما تزعمونه من جانبكم. ويجزم الله جلّ شأنه في أمر هؤلاء المكذّبين، فيضيف قائلاً: ﴿**ولايتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم، والله عليم بالظالمين**﴾. فبهذا الأسلوب البلاغي ذو السّبك المعجز أفادتنا آياته الكريمة التي أوردناها من سورة الجمعة بهذه الحقائق وتلك الدّلالات.

فلمّا يصل جلّ شأنه إلى هذا الحدّ من البيان، يأمر: ﴿**قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم، ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾. أي إن كنتم تحجمون عن مباهلة هذا الشاهد المثيل لابن مريم، فلن ينجيكم هذا من الموت الذي ينتظركم، فتُردّون بعده إلى الله العالم بأحوالكم وعالم الغيب الذي هو خاف عنكم، حيث يُبدي هناك إعلانكم وإسراركم وينبئكم بذلك بما كنتم تعملون.

ألا إن من عجائب إعجاز القرآن الكريم أنّه صيغ على صورةٍ تصلح لكل زمان ومكان. ففعل (قل) الوارد في هذه الآيات الكريمة يرجع بالأصالة إلى محمد رسول الله ﷺ. وفي الوقت نفسه يرجع إلى مثيل ابن مريم كشاهد ظلّ محمّد ﷺ والذي ينوب عنه أيّام بعثته، فهو منه وليس بخارج عنه، وتأكيداً من الله الذي أنزل هذه السورة، فقد أضاف جلّ شأنه خطاباً موجّهاً أيضاً إلى الطّائفتين التّابعتين لهاتين الشخصيتين: طائفة صحابة محمد رسول الله، وطائفة مثيل ابن مريم، وقال: ﴿**يأيها الذين آمنوا ـ والخطاب مشترك هنا بين طائفتي المؤمنين بمحمّد وبالشّاهد الذي هو منه، قال ـ إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قُضيت الصّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون**﴾. فما هي مناسبة الإتيان بهذا الحكم الشرعي هنا إلاّ أن يكون مرتبطاً موضوعيّاً بسياقه وسباقه وللغاية التي ذكرتها، ومُنسجماً بذلك مع التّسلسل الموضوعي لسورة الجمعة؟ فهذه إحدى ظواهر إعجاز القرآن الكريم أنّ القارئ في كل زمان ومكان لايشعر شعور غربة وهو يتلو آيات هذا الكتاب

العظيم المُعجز العزيز. فآيات سورة الجمعة عالجت أحوال وظروف سنوات البعثة الأولى وذلك بترتيب نزولها، كما تعالج أحوال وظروف سنوات هذه البعثة الثانية للإسلام. فما أعظم هذا السّبك البلاغي المعجز للإنس والجان.

قد يقول قائل هنا: الملاحظ أنّ هؤلاء المسلمين المتخلّفين الذين يرفضون مثيل ابن مريم المذكور، يلبّون نداء الجمعة ويسعون إلى ذكر الله في المساجد ويذرون البيع. فما الفرق بينهم وبين أفراد الطائفة التي لبّت صوت هذا الشاهد المثيل لابن مريم من حيث الشكل والجوهر؟ والجواب الموجز أنّ الفرق بين الفريقين هو ماكان من فرق بين أتباع موسى وأتباع عيسى الذي كان منه أيضاً.

أما الجواب الحقيقي فهو أنّ الذي أضحى ممقوتاً في نظر ربّه، ورافضاً تلبية صوته، فهو وإن أدّى صلاة الجمعة من حيث الشكل على حسب ماهو مطلوب منه، فإنّ صلاته من حيث جوهرها لاتثمر في نفسه روحياً ماهو مطلوب منها إثماره. فإلى هذه الحقيقة ورد قول محمد رسول الله ﷺ: (كم من مصلٍ ليس له من صلاته إلاّ النّصب).

وتأكيداً هذه الحقيقة التي ذكرناها، فقد أنهى جلّ شأنه سورة الجمعة واصفاً الحالة النفسية والعمليّة للفريق المكذّب، وقال: ﴿**وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً، قل ماعند الله خيرٌ من اللّهو ومن التّجارة، والله خير الرازقين**﴾. فلنتدبّر معاً أيّها القارئ ألفاظ هذه الآية الكريمة التي فهم المفسرون منها أنّها صورت حال منافقي البعثة الأولى للإسلام. فهل تعني هذه الآية الكريمة ماذهبت إليه روايات المفسرين من أنّ المنافقين كانوا إذا سمعوا بطبول تجارة، كانوا يتركون صلاة الجمعة ويتركون محمداً قائماً لوحده؟

فإن نحن عُدنا إلى معاجم اللّغويين، فقد قالوا: إنّ الرؤية تكون بالعين كما تكون بالقلب. وسماع طبول التجارة لايكون برؤية العين والقلب إنّما يكون عن طريق حاسّة الأذن. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كلمة تركوك قائماً، فقد وردت محذوفاً فعلها، فلم يقل جل شأنه وتركوك قائماً تصلّي، ولاقائماً تخطب ولاقائماً بأمرٍ آخر من الأمور، ولابدّ في هذه الحالة أن نقدّر فعل (تركوك) على أساس من معطيات التسلسل الموضوعي للسّورة، الدّائر حول (وآخرين منهم) المصرّح بهم في مُستهل سورة الجمعة، فالتسلسل الموضوعي

للسورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في آخر الزمان يوم يعود المسلمون يقولون مالا يفعلون.

ثم إنّه جلّ شأنه وقد أتى بكلمة قائماً، ومحذوفاً فعله لايخلو ذلك من حكمةٍ بالغة. تقول: قام بأمر: أي تولاّه. ومن منطلق أن مُهمّة مثيل ابن مريم هي القيام بتجديد أمر الدّعوة إلى الإسلام فهو القائم بهذا الأمر. وبهذا المعنى ورد قول حكيم بن حزام على حسب ماورد في محيط المحيط وغيره: بايعت رسول الله ﷺ أن لاأخرّ إلاّ قائماً ـ أي لاأموت إلاّ ثابتاً على الإسلام. فهذه الدّلالة إلى جانب قرائن التسلسل الموضوعي لسورة الجمعة، ومرتبطة بسورة الصّف التي قبلها، كلّ ذلك يرجّح معنى الرؤية هنا رؤية الفؤاد. خصوصاً وأنّه جل شأنه قد أتى بحرف إذا وقال (وإذا رأوا..). هذا الحرف الدّال على ماهو مُقبلٌ من الزمان. فلم يأت بحرف (إذ) الدّال على الزمن الماضي. ليصوّر عن طريقه أحداثاً أو حادثه بدرت عن فئة منافقي صدر البعثة الأولى للإسلام.

فإذا تدبّرنا أيها القارئ ألفاظ هذه الآية الأخيرة من آيات سورة الجمعة، وعلى ضوء دلالاتها التي بيّنها اللّغويون في معاجمهم، فلا أظنّ إلاّ وأنك تتفّق معي أنّ موضوع هذه الآية لايصوّر حادثةً بعينها، لكنه يُصوّر الحالة القلبّية لمسلمي آخر الزمان، والمشغولة دوماً بالبحث عن اللّهو والتّجاره، والتي لاتكون مشغلتها مناصرة هذا الشاهد القائم بمسؤولية الدعوة الإسلامية، ولاذكر الله ومحاولة التّعرف إليه والفوز بمحبّته وقُربه ورضوانه، وإن كانوا من حيث ظاهرهم مسلمين.

إنّ ألفاظ هذه الآية الكريمة صوّرت بدقّةٍ متناهيةٍ كيف عاد مسلمو عصرنا يسيرون على نهج الذين كذبوا عيسى ابن مريم، فما عاد لهم من هم إلاّ تجارة المال، والبحث عن اللّهو اشباعاً لميولهم وشهواتهم التي سيطرت عليهم ـ لذلك نلاحظه جلّ شأنه قد أنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿**قل ماعند الله خيرٌ من اللّهو ومن التّجارة، والله خير الرازقين**﴾. فالخطاب موجه هنا إلى هذا القائم بمسؤوليّة الدّعوة إلى الإسلام يقيناً. هذا الذي ورد بحقّه: (وتركوك قائماً).

فلا تعني هذه الآية والحال هذه ماذهب إليه ذهن المفسّرين منها، فالرؤية المقصودة هنا قلبيّة، هنا وإلاّ لكان تعالى قد قال (وإذا سمعوا) وليس (وإذا رأوا). ثم إنّ موضوع السورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في (وآخرين منهم)، وهو

المشار إليه أنّه يكون يومئذٍ قائماً أي قائماً بمسؤولية الدعوة إلى الإسلام ويكون المسلمون في الوقت نفسه تاركين الدعوة إلى الإسلام فلا يناصرونه ولايؤازرونه. فهذه هي حكمة حذف فعل قائماً في هذا المقام.

كذلك فإنّ الله عزوجلّ قال في مستهلّ هذه الآية الكريمة: (وإذا رأوا) ولم يقل (وإذ رأوا) بصيغة الماضي والحكمة من ذلك هو الإخبار والإنباء عن هذه الحالة القلبيّة الماديّة التي سيكون عليها مسلموا عصر التخلّف والإنحطاط.

على هذه الصّورة فلا بدّ أن تكون قد اتّضحت معالم الحلقة الخامسة من موضوع هذا الانقلاب الروحي السّابع الكبير الذي نبهت إليه سورة الجمعة، التي وصفت حال التخلّف والانحطاط الذي يؤول إليها حال المسلمين زمن البدء بإحداث هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير على أيدي (شاهدٍ منه) ومثيلٍ لابن مريم، هذا الذي ستتشكّل على أيديه جماعة (الآخرين) على نسق الأولين من صحابة الله الكرام.

فالله عزّوجلّ يعطي القارئ الذي يعاصر هذه الأحداث التي تنبئ عنها سورتا الصّف والجمعة، يعطيه فكرةً تقريبيةً عمّا لربّه من قُدراتٍ لاتقف دونها حدود، خصوصاً وأنّ سورتي الصّف والجمعة هاتين هما جزء لايتجزّأ من السّور السبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) على حسب ماوضحت ذلك في (فنّ الاختزال)، فهذه السّور شكّلت فصولاً تكمل دلالات الحرف (ق) المختزل من اسم الله القادر والقدير.

٦- حلقة سُورة المنافقون والتغابن والطلاق:

ومن واجب هذا القارئ أن يتساءل عن حكمة ورود سورة (المنافقون) مباشرة بعد سورتي الصف والجمعة، كذلك عن حكمة أن يُتبع الله تعالى سورة المنافقون بسورتي التغابن والطلاق.

والحقيقة هي أنّ من الصفات البارزة للمنافقين أنّهم يقولون مالا يفعلون. ومادام هذا هو الحال الذي سيؤول إليه حال مسلمي عصر التخلّف والانحطاط. فقد استدعى ذلك من الله جل شأنه وشفقةً منه على أُمّة رسوله الكريم محمّد خاتم النبيين أن يأتي جل شأنه بهذه السّور الثلاث: المنافقون والتغابن والطلاق، ينذر فيها هؤلاء المسلمين الذين عادوا يقولون مالا يفعلون، ينذرهم ويتوعّدهم،

ويضرب لهم الأمثال من مصائر الأمم التي سبقتهم، لعلهم يتّعظون بها ويعودون إلى حمل مسؤولية الدعوة إلى سبيل الله بكلّ أمانةٍ وإخلاصٍ وليدفعهم على تقديم دينهم على دنياهم.

بل وأتى جلّ شأنه بعد هذه السور الثلاث بسورة التحريم، فخاطب فيها مسلمي عصر التخلف والانحطاط بصورة خاصة هؤلاء الذين زعموا إيمانهم بالله وبرسوله، فقال بألفاظٍ مُفعمةٍ بالنّصح والانذار معاً: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لايعصون الله ماأمرهم، ويفعلون مايؤمرون**﴾. وبما أنّه كان في علم الله أنّ أكثرية هؤلاء لاهيةٌ قلوبهم باللّهو والتجارة، ولن يتّعظوا بجميع مانصحهم به ومانذرهم به، فقد أضاف بعد ذلك يضيف وبألفاظٍ لم تتكرّر في كتاب الله العزيز، قال: ﴿**ياأيها الذين كفروا ـ والخطاب موجه إلى هؤلاء المسلمين الذين كفروا بنعمة هذا الدين الحنيف الذي وصل أراضيهم ونشؤوا عليه قال ـ لاتعتذروا اليوم إنما تُجزون ماكنتم تعلمون**﴾. أي أنكم كفرتم بفضل الإسلام ونعمته، وتقاعستم عن أداء مسؤولية العمل على تعاليمه وإظهاره على الدّين كله، هذا بالرغم من جميع هذا التحذير الذي حذّرناكم به، وأمسيتم تقولون مالا تفعلون، فأيّة قيمة لإيمانكم بي وبرسولي بالنّسبة واللّسان؟

ومن ثم أتى الله جلّ شأنه بسورة المُلك وهي السورة السابعة عشرة والتابعة لمضمون سورة (ق). أقول أتى الله جل شأنه بهذه السورة هنا تنبيهاً لأذهان مسلمي عصر التخلف والانحطاط إلى عظمة الله وقدراته التي لاتحدّها تحدود، وعلى أنه جل شأنه هو مالك هذا الكون من حولنا، وأنّه قادرٌ على تحقيق جميع مأنبأ به وشاء تحقيقه، إشارة إلى إرادة تحقيق هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير على أيدي هذا الشاهد مثيل ابن مريم، ولم يكتف جلّ شأنه بهذا الإدّعاء المذكور بل دعّم مقولته تلك بدليلين عظيمين قاطعي الدلالة: الأوّل منهما دليلٌ كونيٌّ احتواه قوله تعالى: ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خَلْق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾. وتفصيل وشرح معالم هذا الدليل الكوني احتواه مؤلّف (فن الاختزال في القرآن الكريم).

وأتبع الله جلّ شأنه هذا الدّليل الكونّي بدليلٍ آخر متعلّق بالنّظام الروّحي الكونيّ المشابه للنّظام المادّي الكوني عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**ولقد زيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين، وأعتدنا لهم عذاب السّعير. وللّذين كفروا بربّهم عذابُ جهنّم وبئس المصير**﴾. ولامجال لشرح هذا الدليل الثاني أيضاً في هذا المقام. والمهم هو أنّ الله عزوجلّ قدّم هذين الدليلين إثباتاً منه جل شأنه ملكيّته لهذا الكون، وتدليلاً على أنه تعالى قادرٌ على تحقيق هذا الانقلاب الرّوحي السابع الذي نقف ويقف العالم على عَتَباته. وبذلك أكمل الله عزوجلّ تقديم الحلقة السّادسة من موضوع هذا الانقلاب المذكور. هذه الحلقة التي أنبأ فيها عن تشكّل ثلّةٍ من المؤمنين في عصر الخطاط وتخلّف المسلمين، تماثل وتضارع ثلّة الأوّلين من صحابة الرسّول الكريم، كما أنبأ فيها عن موقف هؤلاء المتخلّفين من هذا الشاهد مثيل ابن مريم وجماعته المُنبأ عنها. وأعلن جلّ شأنه وبألفاظٍ صريحةٍ أنّ مسلمي تلك الفترة الزمنيّة سيشابه حالهم حال قوم موسى الذين كذبوا عيسى ابن مريم الذي لم يأتهم بدين جديد بل ببيّنات ما احتوته تعاليم موسى نفسها. كما حذّر تعالى هؤلاء من نار العذاب الذي سينزله بالذين اتخذوا لله ولداً، ولابدّ أن تمسّهم تلك النّار إنْ هم لم ينتصروا هذا الشاهد المثيل لابن مريم ولم يقوا بذلك أنفسهم وأهليهم من لظى تلك النّار التي ستنزل بساحة المكذّبين، والتي سيكون وقودُها ﴿**النّاس والحجارة**﴾ فالنّاس إشارةٌ إلى أمم المسيح الدّجال الذين يحسبون أنفسهم أنّهم وحدهم النّاس المتحضرون. والحجارة إشارةٌ إلى زعمائهم الذين عادوا كالأصنام تعبدهم الجماهير.

٧- حلقاتٌ أخرى أنبأت وقررّت مصير أعداء الإسلام :

وآخذ الآن بيد هذا القارئ الذي تابع هذه الحلقات الستة التي أبرزتها لعينيه والتي بحثت موضوع هذا الانقلاب الرّوحيّ السابع الكبير المُقبل، هذا الانقلاب الرّوحي الذي يحدثه الله عزوجلّ على أيدي شاهدٍ من أمة محمد ﷺ، ومثيلٍ لابن مريم، إحياءً للدّين الإسلامي، ولاظهاره على الدّين كله بسلاح الحُجّة والبرهان وإثباتاً منه عزّوجلّ أنّه هو الحيّ القيّوم، آخذ بيد هذا القارئ وأدلّه على المقامات التي تشكّل الحلقة السابعة والأخيرة من هذا الموضوع،

والمتعلّقة بمصير هذه الأمم الغربية التي سبق أن أنبأت سورة الكهف عن نهضتها، منذرةً أهلها الذين لم يعودوا عن شركهم عن اتّخاذهم المسيح ابن مريم ربّاً وولداً لله المليك المقتدر الرحمن وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾. علماً بأنّ الله العزيز الحكيم قد وزّع حلقات هذا البحث، وحسب أسلوبه المتميّز المُعجز، في طرحه للمواضيع التي بحثها في كتاب العزيز، وزّعها على سور وبما يتناسب والتسلسل الموضوعي لمضامين هذه السّور القرآنية فوزّع الحلقة السابعة هذه ابتداءً من سورة الكهف فالرحمن فالمعارج فسورة القيامة.

فالجزء الذي تضمنته سورة الكهف، بإمكان القارئ الرجوع إليه في (ظلال دلالات سورة الكهف). لذلك أتناول ماتضمنته سورة الرّحمن بشأن ذلك. حيث نبّه الله عزوجلّ ذهن القارئ ضمن آياتها إلى أنّه سيفرُغُ بعد إنزاله هذا القرآن الكريم بثلاث عشر قرناً من الزّمان، يوم بعثة مثيل ابن مريم ذو القرنين، سيفرُغُ لمعالجة أمر هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً، الذين ضلّوا وكذّبوا رسوله محمداً ﷺ واستهزؤوا ببيّنات هذا الكتاب السّماوي الذي أنزله الله تعالى على قلبه. وليثبت الله بذلك عظمة قُدراته وعظمة علمه الغيبي. ذلك أنّ سورة الرّحمن تتّبع موضوعيّاً سورة (ق)، وجاء ترتيب تلاوتها بعد سورة القمر التي أنهاها الله جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**إنّ المُتّقين في جنّاتٍ ونَهَر، في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر**﴾. ولينبّه تعالى ذهن القارئ إلى أنّ من الأسماء البارزة لهذا الإلهَ المليك المقتدر، إسم «الرّحمن» الدّال على عطاءاته التي لاتنضب وعلى رحمته الشاملة. وكانت الحكمة من ذلك أيضاً أن يتساءل القارئ: وماعلاقة صيغة الرّحمن هذه بالإنذار الذي أنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً. هؤلاء الذين هيمنوا اليوم على العالم وعلى العالم الإسلاميّ خاصّة بعد أن تقاعس مسلموا عصرنا عن حمل مسؤوليّتهم المتعلّقة بالدّعوة إلى الإسلام لإظهاره على الدين كلّه، وعادوا يقولون مالا يفعلون على حسب ماوضّحته الآيات من سورتي الجمعة والصّف.

وقد انطلق هذا المليك المقتدر في سورة الرّحمن يجيب على هذا التساؤل مبتدئاً من الكلام عن مُصطلح جغرافي اصطلحته هذه الأمم الغربية في عصرنا بالذّات، وراح يتداوله النّاس في كلّ مكان من سكان كوكبنا الأرضي، وهو

تقسيم هذا الكوكب إلى مشرقين ومغربين: أدنى وأقصى فنبّه جل شأنه أذهان هؤلاء إلى أنّ هذا المليك المقتدر، الرّحمن، هو ﴿**ربّ المشرقين وربّ سكان المغربين**﴾ ولو أنّكم حاولتم وتحاولون يامن اتّخذتم لله ولداً أن تفرضوا مشيئتكم على أهل هذين المشرقين وهذين المغربين.

وإثباتاً من طرف هذا المليك المُقتدر الرّحمن لحقيقة ادّعائه المذكور، راح فقدّم دليلين عظيمين يثبتان صحّة هذا الإدعاء، وعلى شكل نبوءتين عظيمتين، فأنبأ أولاً عن أن هؤلاء الذين اصطلحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين، سيعمدون إلى حفر تُرع تَصلُ مابين البحار لتيسير نقل بضائعهم وترويج تجارتهم، وللتّقليل من نفقاتهم، مشيراً إلى ترعتي بناما والسّويس وقال: ﴿**مَرَجَ البحرين يلتقيان. بينهما برزخٌ لايبغيان، فبأي آلاء ربّكما تكذّبان**﴾.

وأنبأ ثانياً عن أنّ هؤلاء الذين اصطلحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين سيخترعون الآلة البخارية وينشؤون أساطيل بحرية تسير على البحار، فترى من بعيد من عظمة حجومها وكأنها المنشآت كالأعلام. وقال ﴿**وله الجَوَارِ المنشآت في البحر كالأعلام. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾. وهو جلّ شأنه وقد أتى هنا بالجار والمجرور (وَلَهُ) لتفيد اللاّم الملك، أي أنّهم انشؤوا هذه الأساطيل البخارية الضخمة للسيطرة على البحار ولتأمين مصالحهم الإستعمارية، على حين أنّه جلّ شأنه هو الذي ألهمهم صناعتها ولتحقيق إرادته وهو لتسهيل إيصال دعوته إلى أطراف الأرض. والمهم هو أنّه جلّ شأنه عرض موضوع ظهور هذه الأساطيل البخارية زمن هيمنة الذين اتخذوا لله ولداً على العالم، فأنبأ عن ظهورها لتشكل هذه النبوءة دليلاً ثانياً على أنه الإله الحقيقي المليك المقتدر الرّحمن الفعّال لما يريد.

وقد راح جلّ شأنه في الآية (٣١) من سورة الرّحمن هذه، وبعد إثباته لهؤلاء كونه المليك المقتدر. الرحمن، أقول راح يتكلّم عن هؤلاء الغربيّين الذين فتحوا تُرعتي السويس وبناما وانشؤوا هذه الأساطيل البخاريّة واستغلّوا تخلّف المسلمين ونفاقهم ليزدادوا استهانةً بالإسلام وتكذيباً لكتابه العزيز، راح يخاطبهم ويقول قبل أن يبلغوا مابلغوه بثلاثة عشر قرناً من الزمان: ﴿**سنفرغ لكم أيّها الثّقلان**﴾ واستهلّ قوله هذا بحرف السّين الذي أدخله على فعل نفرغ من فرغَ له إذا توجّه إليه وقصده. ادخل حرف السين عليه ليفيد أمراً واقعاً لامحالة، ولو تأخّر

إلى حين، على حسب قول الزمخشري - أي أنه جلّ شأنه نبّه من خلال قوله هذا إلى أنه سيعمد يومئذٍ إلى حسم قضيّة هؤلاء الضالين المكذّبين، مخاطباً إياهم بأيّه الثّقلان، إشارة منه تعالى إلى أنّ هذه الأمم المسيحية ستنقسم يومئذٍ إلى معسكرين وإلى مركزي ثِقَلٍ في العالم. وأضاف تعالى بعد هذا التّنبيه يقول: ﴿**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾ هذه الآية التي راح يكررها في كل مرّة بدلالةٍ موضوعيةٍ جديدةٍ تتناسب مع مقامها، وهو جل شأنه أتى بهذه الآية هنا ليقول لهؤلاء: إنّ ماأسبغناه عليكم من نعمةٍ تجلّت في هذه النّهضة العلميّة التي نهضتوها، لانرى أنّكم قدّرتم نعمتنا هذه، فلم تنجذبوا إلى معرفة هذا الإله المليك المقتدر الرّحمن. وثابرتم بالتالي على تكذيبكم هذا الدّين القويم والاستهتار ببيّنات هذا القرآن الظيم، لذلك سنفرغ لكم أيّها الثّقلان لننزل بكم العقاب الشديد الذي تضمّنه إنذارنا في سورة الكهف ﴿**وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾.

ولابدّ أن يتساءل القارئ هنا فيطالب بعلامةٍ مُميّزةٍ يتحدّد له من خلالها توقيت نزول العذاب الموعود بهؤلاء، ولو على وجه التّقريب. ويتحوّل الله جلّ شأنه للإجابة على هذا التّساؤل بأسلوبٍ بلاغيٍ معجز. وعلى شكل خطاب يخاطب به أهل هذين الثّقلين، ويقول: ﴿**يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لاتنفذون إلاّ بسلطان**﴾. أي ياأهل هذين المعسكرين الذين شكلتم مَركزَيْ هذين الثقلين في الأرض، شعوباً كانوا أو زعماء: لاريب أنّكم ستبلغون يومئذ حدّاً كبيراً من التّقدم العلميّ إلى درجةٍ تتمكّنون معه من صُنع مركباتٍ فضائية تمتطونها عبر الفضاء، وتتجاوزون أقطار جاذبيّة الأرض وغيرها، ميّممين اكتشاف مجاهل السّماء من فوقكم لعلكم تبسطون هناك هيمنتكم على شاكلة مابسطتموه من هيمنةٍ على أهل المشرقين وأهل المغربين. فاعلموا أيّها الثقلان أنّ رقيكّم العلميّ المذكور، لايخرج عن نطاق علمنا الغيبيّ. ﴿**فانفذوا لاتنفذون إلاّ بسلطان**﴾ أي حاولوا ذلك لِتُثبتوا من خلاله تفوّقكم وقدرتكم، وهذا ماأتى به الإسلام. لكن اعلموا أنّ ماتبلُغونه من تقدّم لن يصل إلى حدّ تشكيل هذا الدّليل الذي تريدونه، ولو أنّكم قطعتم مثل هذا الشوط من النّفاذ من أقطار جاذبية الأرض وسواها. وهنا قطع جل شأنه كلامه بعد أن أتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فبأيّ آلاء ربكّما تكذّبان**﴾ أي ها أننا أنبأناكم بما سيتحقق على أيديكم يومئذ نعمةً من طرفنا. فلا نراكم قد قدّرتم

نعمتنا هذه، بل ثابرتم على ضلالتكم وتكذيبكم بنعَمِ الله المليك المقتدر الرّحمن، فبأيّ هذه النّعماء تكذّبان؟

وبعدما خاطبهم جل شأنه بخطابه المذكور، مذكّراً إيّاهم بكفرانهم لنعمائه، أرعد كلام ربّنا وأنبأ نبأً ترتجف لوقعه الأوصال، وقال: ﴿**يُرسل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران**﴾، فأبهم مصدر الشّواظ المؤلف من نار ونحاس وذلك من خلال إيتائه فعل «يُرسل» مبنيّاً للمجهول. هذه النّار والنّحاس الذي سيشكّل قوام عذاب هذين الثّقلين وعنصره الأساسي. وأتى بهذا الإبهام ليزيد في حيرة وخوف أهل هذين الثقلين. ومن ثمّ أنهى قوله تعالى جازماً وحاسماً موضوع محاولة هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً وشكّلوا مَرْكَزَي ثِقَلٍ في العالم لاكتشاف مجاهل الفضاء ولبسط هيمنتهم عليه أيضاً، أنهى قوله بلفظين بالغَي الدّلالة وقال ﴿**فلا تنتصران**﴾ أي سينزل بكم العذاب فيرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس قبل أن تفلحوا مخطّطاتكم هذه، فلا تنتصران. وأضاف من جديد يقول: ﴿**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾ أي وهل ينبئكم بمثل هذا النّبأ الخطير إلا الله المليك المقتدر الرحمن؟ فبأيّة هذه النعماء تكذّبان يا أهل هذين الثقلين؟ وكأنه جلّ شأنه لفت أذهان هؤلاء إلى ماتوصّل إليه علماؤهم من أنّ عظمة هذا الكون لابدّ أن تكون دالّة على موجد هذا الكون، وأنه يشكّل العقل المطلق المتوراي وراء عظمة هذا الكون.

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف من جديد وقال: ﴿**فإذا انشّقت السّماء فكانت وردةً كالدّهان فبأي آلاء ربّكما تكذّبان**﴾. فكنّى بلفظ السّماء في هذا المقام عن حال الدّين الذي بعث به محمداً ﷺ، وحال بيّنات هذا القرآن المنزل عليه. وأتى بحرف إذا وهو ظرف لما يُستقبل من الزّمان، ولقد فهمنا من لفظ السّماء هنا الدّلالة به على الدّين لقرينة قوله تعالى ﴿**فإذا انشّقت السّماء**﴾ والسماء فضاء لاينشق، خصوصاً وأنّ الانشقاق فيه الدّلالة على شقّ عصا الطّاعة، أي إذا أتى الزّمان الذي تشقّ البشرية فيه عصا طاعة هذا المليك المقتدر الرّحمن، بسبب مادبّرتموه من مؤامرات ضدّ الإسلام ومازوّرتموه من عقيدة ضلال فاتّخذتم لله ولداً من دون حجّة وبرهان، حتى عاد هذا الدّين وتعاليم كتابه العزيز كالوردة الباهت لونها، كالدّهان الباهت اللّون المائل للإصفرار.

وأضاف جل شأنه يستأنف كلامه ويكرّر ألفاظ: ﴿**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾ أي وأيّة جريمة هي أعظم من جريمتكم هذه أنكم ماقدّرتم نعماء هذا المليك المقتدر الرّحمن، حتى بلغ حال دين الله تعالى هذا الحال المأساويّ.

وهنا راح تعالى ينوّه بضرورة إنزال عذابه بهذين الثقلّين، فعذابهما أضحى أمراً مفروغاً منه، فأعمال السّوء التي قام بها هؤلاء، وهذه النتائج التي أسفرت عنها، استدعت إنزال الله تعالى عذابه بهؤلاء الضّالين المكذبين الأشرار وبما لايحتاج إلى مبرّر يبرّره. فهذا مأراد الله جل شأنه التّعبير عنه بقوله بعد ذلك: ﴿**فيومئذٍ لايُسأل عن ذنبه إنسٌ ولاجانّ**﴾. أي لاحاجة يومئذ لإجراء أيّة محاسبة لهؤلاء، فقد تبيّنت مساوئ أعمالهم على الصّعيد العمليّ، لذلك أضاف جل شأنه يقول: ﴿**فبأي آلاء ربكّما تكذّبان**﴾ أي وهل يحتاج ذلك كله إلى البرهنة عليه، فبأيّ دليل من هذه الدلائل التي ينبئكم بها هذا المليك المقتدر الرّحمن، تكذّبان؟

وأضاف جلّ شأنه يقول: ﴿**يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنّواصي والأقدام**﴾. أي أنّ هؤلاء زرق العيون المنبأ عنهم في سورة الكهف والمنبأ عن جرائمهم الشّنيعة تَسْهُلُ معرفتهم، وقوله تعالى: ﴿**فيؤخذ بالنّواصي والأقدام**﴾ وهذه محاورةٌ كلاميةٌ يكنّى بها عن الشلّل والعجز التام. فالإنسان الذي يؤخذ بناصيته وأقدامه، لاتعود له القدرة على مقاومة مهاجميه، وينبئ تعالى بألفاظ هذه المحاورة عن النّهاية البشعة المحزنة التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون. وأضاف نفس ألفاظ تلك الآية التي راح يكررها بدلالات مختلفة وقال: ﴿**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**﴾، أي إن تحققت نبوءتنا هذه فيكم، وانتهيتم إلى هذه النهاية البشعة المحزنة، فهل يعود لمن يتبقّى منكم من مبرّر ليكذّب بهذه الآلاء التي جلاّها ربّكم المليك المقتدر الرّحمن؟

وهنا أطلق جلّ شأنه على هذه النهاية التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون، اسم جهنّم وقال: ﴿**هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آنٍ**﴾. أي أنّه ونتيجة لأخذ الملائكة هؤلاء بالنّواصي والأقدام، سيشكّل مصيرهم هذا ونهايتهم تلك نهايةً جهنميّة لهم لاتقوم لهم من بعدها نهضة أو قيامة، فيطوفون بين هذه النهاية الجهنميّة، وبين حميم آن وهو الماء المغليّ إلى درجة كبيرة جداً، كنايةً عن المشكلات الاقتصاديّة التي سترافق هذه النهاية الجهنميّة. وهي المشكلات التي سيقدّر أسبابها هذا المليك المقتدر، الرّحمن، من

قبل إنزاله هذا العذاب بساحتهم. وهو تعالى إذ قال ﴿**هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون**﴾، فقد قال مضيفاً قوله: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذّبان**﴾. أي وهل بإمكانكم أيها الثقلان تكذيب آلاء ربكما هذه التي تجلّت لكم في إطار النهاية الجهنميّة، وهذه المشكلات الاقتصادية التي أوقعكم بها هذا المليك المقتدر؟ فهذا هو ماأورده الله جلّ شأنه في سورة الرحمن بما يتعلّق بإنذار سورة الكهف بحقّ الذين اتخذوا لله ولداً. ولاحظوا كيف أنّ الله عزوجلّ قد خصّص لتحقيقه الزمن الذي يبعث فيه (شاهدٍ منه) ومثيلٍ لابن مريم وليحدث على يديه هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير.

٨- حلقة سورة الواقعة خاصّة:

وفرز الله جل شأنه سورة أخرى تأتي بعد سورة الرّحمن مباشرة، وتنطوي تحت مضمون سورة (ق) الدّالة على الله القدير على تحقيق كل أمرٍ يشاؤه، وهي سورة الواقعة، خصّصها للكلام على نوعيّة هذا العذاب الذي أنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً والذين ضلّوا وكذّبوا محمداً رسول الله وسَخِروا من بيّنات ماجاء به القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلبه.

فاستهلّ الله عزّوجلّ سورة الواقعة هذه بقوله تعالى: ﴿**إذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضةٌ رافعة**﴾. بمعنى أنّ الله المليك المقتدر، هذا الرّحمن الذي سيفرغ لمعالجة أمر هذين الثّقلين إثر نهضتهم الثالثة وبعد هيمنتهم على العالم من حولهم، وسعيهم للهيمنة على مافي السّماء أيضاً، إنّه جلّ شأنه سيسبّب أسباب وقوع حرب ضروسٍ بينهم، تنتهي بتدمير جميع ماأوجدوه، ذلك أنّ كلمة الواقعة تعني الحرب الضروس الشّديدة (محيط المحيط).

فهو جلّ شأنه أتى بحرف (إذا) الدّال على هذا الزمان المُقبل الذي سيفرغ الله تعالى فيه لمعالجة أمر هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً وقال ﴿**إذا وقعت الواقعة**﴾ فأتى بكلمة الواقعة مُعرّفة بالألف واللاّم إشارة إلى العذاب المعهود ذهنياً والمُنذر به في سورة الكهف. أي إذا حلّ زمن حدوث تلك الحرب الضّروس المقدّرة أسبابها لإهلاك أهل هذين الثقلين. ﴿**ليس لوقعها كاذبة**﴾، أي أنّها حرب ضروسٌ يستحيل منع وقوعها وتكذيبه من أيّ طرفٍ كان، هذا وإنّ

الموازين في عالم يومئذٍ ستختلّ، بسبب أنّ الله المليك المقتدر. الرّحمن، قدّرَ لتلك الحرب أن تُحلّ بقوى الثقل المعهودة، وتكون الحرب المذكورة ﴿**خافضة رافعة**﴾ خافضة لمعسكري هذين الثّقلين، ورافعة للطّائفة التي ستتشكّل على أيدي متيل ابن مريم في الزّمن المذكور.

ومن ثم أتى جل شأنه بحرف (إذا) الدّال على الزمن الآتي الذي تكلّمت عنه سورة الرّحمن، وراح يصف تعالى للقارئ ماستسفر عنه الواقعة أي تلك الحرب الضروس التي ستحدث يومئذٍ، وقال: ﴿**إذا رُجّتِ الأرض رجّاً. وبُسّتِ الجبال بسّاً. فكانت هباءً مُنبّثاً. وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾. أي أنّ هذه الكرة الأرضية التي يبدو ارتجاجها مستحيلاً سترتج ارتجاجاً شديداً لهول أسلحة الدّمار التي ستستعمل في الحرب المشار إليها والتي جعل الله تعالى الغاية من تقدير وقوعها هو إهلاك هذين الثقلين المجرمين المعربدين في الأرض والذين يكذّبون رسالة رسولي الأمين وبيّنات كتابي العزيز. علماً بأنّ كلمة (رُجّت) من رجّ الشيء - يرجّه رجّاً حركّه وهزّه ويأتي هذا الفعل لازماً ومتعدّياً، (محيط المحيط) فهذه هي دلالة ﴿**إذا رُجّت الأرض رجّاً**﴾. يقول تعالى، لن يحدث هذا وحسب، بل ﴿**وبُسّتِ الجبال بسّاً فكانت هباءً منبّثاً**﴾. أي أن وقع أسلحة الدّمار الفتّاكة التي ستعمل في الحرب الضروس المُنبأ عنها، إذا ماأصاب الجبال فستتفتّت ترابها وحجارتها، من بسّ أي فتّت. ﴿**فكانت هباءً ومنبّثاً**﴾ أي يتناثر تراب الجبال وحجارتها، فتثور وتهيج وتصبح هباءً أي ذرّات مفتّتة منتشرة في كل مكان (محيط المحيط).

وهو جلّ شأنه وقد سبق وقال ﴿**خافضة رافعة**﴾ فقد جاء يوضّح هذه النتيجة ويقول: ﴿**وكنتم أزواجاً ثلاثة**﴾ أي أنّ الثّقلان المهيمنان على العالم يومئذ. هؤلاء اللّذان كانا قبل وقوع هذه الحرب الضروس يشكّلان مركزي ثقل في العالم من دون بقيّة شعوب الأرض. سيفقدان هذه المزيّة بعد وقوعها ويظهر إلى الوجود مركز ثقل جديد يمثّل الدّين الإسلامي، هذا الذي سيتشكّل على أيدي شاهدٍ منه ومثيلٍ لابن مريم.

وراح تعالى يصنّف هذه الأزواج الثلاثة فيقول: ﴿**فأصحاب الميمنة ـ إشارةً إلى المعسكر الدّيني المذكور ـ ماأصحاب الميمنة**﴾. تفخيماً وتعظيماً لوزن هذا المعسكر الدّيني الإسلامي. وأضاف: ﴿**وأصحاب المشأمة ـ إشارةً إلى**

معسكر الثّقلين المدّمرين فهو تعالى يطلق عليهم اسم أصحاب المشأمة أي أنّهم نقيض أصحاب الميمنة ـ ماأصحاب المشأمة﴾. وهـذا التكـرار فيـه إظهـار غلبـة الشؤوم عليهم. **﴿والسّابقون السابقون. أولئـك المقرّبـون﴾** أي أنّ السّـابقين في الإلتحاق بمثيل ابن مريم والمضحّين بأموالهم وأنفسهم معه في سبيل إحياء الإسلام وإظهاره على الدّين كلّه ـ **﴿أولئك المقرّبون﴾** ولنُلاحظ أنّ الله عزوجلّ لم يبـين الجهة المقرّبون إليها، لتمكين القارئ من تصريف ذلك إلى جهة الخالق وإلى جهـة المخلوق في وقتٍ واحد. بمعنى أن هؤلاء السّابقون في الإيمان وخدمة هـذا الدّيـن الحنيف سيفوزون بمقام القرب والمحبّة عنـد ربّهـم، كمـا سيفوزون بمقـام القـرب والمحبّة عند مثيل ابن مريم وخلفائه، كما سيفوزون بمقام الاحترام والمحبّة من جميع خلق الله تعالى. فأولئك السّـابقون في الإيمـان وخدمـة هـذا الدّيـن سيكونون في **﴿جنات النّعيم﴾** أي في نَعماء جنتيّه من جميع الجهات.

وأضاف جلّ شأنه يخبر عن السّابقين ويقول: **﴿ثُلّـةٌ مـن الأولـين، وقليـلٌ مـن الآخريـن﴾**. أي أنّ عـدد المقرّبـين مـن الآخريـن ـ إشـارةً إلى قولـه تعـالى: **﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾**. يكون بالموازنة مع ثُلّة أي عـدد المقرّبـين مـن الأولين ـ وهم صحابة رسول الله ﷺ ـ يكـون أقـل، وإن جـاز إطـلاق لفـظ ثلّـة عليهم. وتأكيداً لهذا المعنى الذي ذكرتـه فقـد راح جـل شـأنه يقـول بحـقّ هذيـن الفريقين من السّابقين المقرّبين، وذلك في الآية (٣٩): **﴿ثُلّـة مـن الأوّلـين. وثُلّـه من الآخرين﴾**.

ومن ثم عاد جلّ شأنه يخبر عـن كتلـة أصحـاب المشـأمة فجـاء بعلامـات تؤكّد أنّه تعالى يريد بهـذه التّسمية الإشـارة إلى هـؤلاء الذيـن اتخـذوا لله ولـداً، والمُنْذَرين في سورة الكهف وسورة الرّحمن بهـذا المصـير المشـؤوم وقـال في الآيـة (٤٥) يصفهم: **﴿إنّهم كانوا قبل ذلك ـ أي قبل وقوع هذه الحرب الضـروس والدّمار المُروع ـ كانوا مُترفين ـ وكانوا يُصرّون على الحِنث العظيم﴾**.

والحنث العظيم معناه الشرك بالله تعالى. أي أنّهم غرّهم مابلغوه من ترفٍ عمّ جميع نواحي حياتهم، فلم يعودوا يُعيرون أُذُناً صاغيـةً لبيّنـات كتابنـا العزيـز، وأصرّوا على شركهم وعلى اتّخاذهم المسيح ابن مريـم ولـداً لله دون أن يقدّمـوا على شركهم هذا أي دليلٍ أو برهان.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الواقعة مؤكّداً الأمر الآنف ذكره وقال: ﴿**وأمّا إن كان من المكذّبين الضّالين. فنُزُلٌ من حميم. وتصلية جحيم. إنّ هذا لهو حقّ اليقين. فسبّح باسم ربّك العظيم**﴾. فأكّد تعالى على أنّ هذه الحرب الضروس واقعة لامحالة كعذاب يُنزلهُ ربّ العالمين بهؤلاء الضّالين عن الصراط المستقيم، والمكذّبين محمّداً رسول الله والقرآن العظيم . حاثّاً جلّ شأنه كلّ من يُعاصر تلك الواقعة ونتائجها أن يعود إلى توحيد ربّه وتنزيهه. وهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ أي نزّه أيّها الإنسان الذي ستشهد تحقّق هذه الأنباء كلّها نزّه ربّك المليك المقتدر ـ الرّحمن الفعّال لما يريد.

وقد توجّه الله جلّ شأنه بعد سورة الحاقّة يتكلّم عن حال أمّة محمد ﷺ هؤلاء الذي سيصيرون إليه زمن نهضة هذين الثقلين وهيمنتهم على العالم. وقد لخّصنا ذلك فيما مضى، إلى أن عاود جلّ شأنه في سورة المعارج الكلام عن هذين الثّقلين الذين أصروا على الخُبث العظيم بالمليك المقتدر الرّحمن. فاستهلّ هذه السورة بقوله تعالى: ﴿**سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج**﴾. والسؤال هنا بمعنى الاستخبار، لتعدية لفظ العذاب بالباء والمعنى أن الذي قرأ سورة الواقعة سيحاول تقصّي أخبار هذا العذاب الواقع لامحالة في المستقبل. ليهلك الله تعالى به الكافرين بدعوة الإسلام ـ هذا العذاب الذي أنبأ عنه الله ذي المعارج. أي المليك المقتدر. الرّحمن. صاحب السّمو والعظمة الذي إن أرادت الملائكة المثول بين يديه، تعرج إليه ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾و بمقاييس هؤلاء الكافرين أنفسهم.

وأضاف تعالى في الآية الثامنة يضيف إلى مانبأ عنه من حال ماسيحدث يوم وقوع ذلك العذاب بهؤلاء الكافرين في المستقبل وهو الواقعة أي الحرب الضروس المقبلة. أضاف قوله: ﴿**يوم تكون السّماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولايسأل حميمٌ حميماً. يبصّرونهم يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه، وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه، ومَن في الأرض جميعاً، ثُمّ ينجيه، كلاّ إنّها لظى ـ نزّاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولّى. وجمع فأوعى**﴾. وألفاظ هذه الآيات واضحة الدلالات ـ وبإمكان القارئ مراجعتها في (فن الاختزال القرآني).

ومن ثم عمد الله المليك المقتدر. الرّحمن. ذو المعارج إلى الكلام عن مصير هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً وأصرّوا على الخنث العظيم، وبأسلوبٍ ساخر، وذلك في الآيات (٣٦ ـ ٤٤) وقال: ﴿**فمال الذين كفروا مُهطعين** ـ أي مادّين أعناقهم يُديمون النظر خائفين في حالة ذُلٍ وخضوع بعد بلوغهم هذه النّهاية المأساوية ـ **عن اليمين وعن الشّمال عزين** ـ أي جماعات متفرّقةٍ هنا وهناك ـ **أيطمع كلّ امرئ منهم أن يَدْخُلَ جنّة نعيم. كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون. فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون. على أن نُبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم إلى نُصُبٍ يوفضون ـ خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذِلّة، ذلك اليومُ الذي كانوا يوعدون**﴾. أي هذا هو اليوم الرهيب الذي سبق أن أنذَرْتُهم به سورة الكهف وسورتا الرّحمن والواقعة.

وبعد أنْ ذكّر الله تعالى هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً بمصير قوم نوح، وذلك في سورة نوح. وبالوفد الذي قدم إلى مكّة وحقّق في صحّة دعوى هذا الرسول الأمين وآمن ورجع إلى قومه يدعوهم إلى طريق الهدى. وذلك في سورة الجنّ. تنبيهاً لأذهان هؤلاء الضّالين المكذّبين وتذكيراً بالنبوءات الواردة في التّوراة والإنجيل والدّالة على هذا الرسول الكريم. وبعد أن فرغ جل شأنه من توجيه رسوله الأمين ﷺ نحو مهمّته الآنيّة، وذلك في سورتي المزّمل والمدّثر، راح جلّ شأنه فخصّص سورة القيامة، تعبيراً عن هذه النهاية البشعة التي سيؤول هؤلاء الذين أصرّوا على الخنث العظيم.

فأتى في الآية السّابعة بعلامةٍ مُميّزة تحدث زمن بعثة شاهدٍ منه المثيل لابن مريم الذي ستتحقّق هذه الأنباء السالفة بعد بعثته، ويتحقق هذا الانقلاب الرّوحي السابع الكبير على يديه، وقال، جلّ من قائل: ﴿**فإذا بَرِقَ البصر. وخسف القمر. وجُمع الشّمس والقمر، يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ. كلاّ لاوَزَر. إلى ربّك يومئذٍ المستقر. يُنبّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر. بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**﴾. والمعنى إذا برق بصر الناس الذين سيعاصرون أمم هذا المسيح الدّجال مُتحيّرين ودهشين من روعة مايشاهدونه من علوم واختراعات ووسائل رفاهية جذّابة تحقّقت على أيدي هؤلاء، تجذبهم نحوهم.

ويضيف الله المليك المقتدر. الرّحمن. ذي المعارج مُنبئاً عن ظهور علامةٍ سماويةٍ تعاصر زمن بعثة مثيل ابن مريم الذي يكون من مهمته قتل حالة هؤلاء الخنزيرية وكسر صليبهم أي إبطال دينهم بالحجة والبرهان، يضيف تعالى مُنبئاً عن ظهور هذه العلامة السماويّة التي أوردها كتاب حديث الدار قطني بألفاظ: (إنّ لمهدينا آيتين لم تكونا لبشرٍ منذ خلق الله السموات والأرض، ينخسف القمر لأوّل ليلةٍ من رمضان وتنكسف الشمس في النّصف منه). أنبأ تعالى عن هذه العلامة التي حدثت عام (١٣١١هـ الموافق لعام ١٨٩٤م) وذلك شرقي الكرة الأرضية في أوربة وأفريقية. كما تكرّر ظهور هذه العلامة السماوية بعد عام، أي عام ١٨٩٥م غربي الكرة الأرضية في أمريكة ـ وفقاً لِما سجّلته مؤسّسات الرّصد الفلكيّة في عدّة أقطارٍ من العالم. وهذه هي دلالة: ﴿**وخُسف القمر، وجُمع الشمس والقمر**﴾. ﴿**يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ**﴾. أي يضجّ النّاس بعد زمن ظهور هذه العلامة السماويّة الدالّة على بعثة المهدي المنتظر. يضجّون من شرور وغطرسة هذين الثّقلين، ولايجدون لأنفسهم مهرباً ممّا يُعانونه من ظلمهم ومكائدهم، وهنا ينبّه الله المليك المقتدر. الرّحمن. ذو المعارج أذهان النّاس الذين وصفهم بالوصف المذكور. ويقول: ﴿**كلاّ لاوَزَر. إلى ربّك يومئذٍ المستقر. ينبّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر**﴾. وكلاّ أداة زجرٍ وتوبيخٍ يوجّهها جلّ شأنه إلى الذين سيسلّمون بسيادة الذين اتّخذوا لله ولداً على العالم، ويقول ﴿**لاوزر**﴾ أي خسئتم، فلابدّ أن ينزل عذاب الله بهؤلاء، فلا يستطيع أن يحول بينهم وبين مصيرهم المقدّر لهم أيّ حائل، وستؤول أحوال يومئذٍ إلى صالح دين الله المليك المقتدر ووفقاً لمشيئه عزّوجل. وهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿**إلى ربّك يومئذٍ المستقر**﴾. أي سيتحقق نتيجة لجميع التّطورات القادمة يومئذ إظهار الدّين الإسلامي على الدّين كلّه ولو كره المشركون.

وهذا هو مادفع هذا المليك المقتدر الرّحمن ذو المعارج أن يُنهي سورة القيامة هذه بقوله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يُترك سُدىً. ألم يك نُطفةً من مَنّي يُمنى. ثم كان علقةً فخلق فسوّى. فجعل منه الزّوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى**﴾. أي يُحيي موتى النّفوس، هذا الموت الرّوحاني الذي تسبّب به هذان الثّقلان؟.

فكم هي عظيمة أنباء سورة القيامة هذه التي أشعرت القارئ أنّ موضوع هؤلاء الضّالين المكذّبين محسومٌ منذ زمن نزول سورة الكهف. فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وسلّم وبارك إنّك حميد مجيد.

فإلى هنا يكون القارئ قد ألّم من جهة بالانقلابات الكبرى التي تحققت على أيدي الفريق الذي أبلس من رحمة ربّه، وكذّب بما أنزل الله تعالى على آدم والأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، هذا الفريق الذي اصطلح له القرآن الكريم تسمية إبليس والشيطان وذريّة الشيطان، كما يكون هذا القارئ قد ألّم من جهة أخرى بالانقلابات الرّوحية الكبرى التي أحدثها ربّ العالمين، لتطوير عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه لتهذيبه وتحضيره، هذا البشر الذي آمن بآدم وماأنزله ربّه عليه وعلى الأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، والذين اصطلح القرآن لهم تسمية مؤمنين ومسلمين وذريّة آدم أيضاً. كما يكون هذا القارئ ألّم من جهة ثالثة بالانقلاب الرّوحي الكبير الذي يحدثه ربّ العالمين منذ بَعَثَ "شاهداً منه" مثيل ابن مريم، هذا الانقلاب الذي نقف نحن والعالم على أعتابه.

❀❀❀

الفصل السادس
اتّصال الله بالبشر ومنهاجه:

وهذه الإنقلابات جميعها يثبت منها صدق ماستهلّ الله تعالى به دُعاء الفاتحة وهو: ﴿**الحمد لله رب العالمين. الرّحمن الرّحيم مالك يوم الدين**﴾. ذلك أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها على وجه الأصالة إلاّ هذه الذات العظيمة التي تحمل هذه الأسماء الحسنى، والمربّية لجميع ماأوجدته من عوالم ومخلوقات، هذه الذّات التي كانت تكلّم البشر وستظلّ تكلّمه بطرق ثلاث وحياً، ومن وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء، هذا وإنّ كل إنسان يتنكّر لهذه الحقيقة، حقيقة استمرار نزول كلام الله بهذه الطّرق الثلاث، يكون كالذي يُنكر وجودَ الشمس وهي ساطعةً بأشعّتها الذّهبية في رابعة النهار، ولابدّ لمن يطالع المبحث الثاني من هذا الكتاب والمسمّى دربُ العِرفان الإلهي، لابدّ له أن يجرّب العمل على ماتضمّنه من تعاليم قرآنية تؤهّله لمعرفة ربّه وخالقه والفوز بمحبّته ورضاه وقربه والاتّصال به وتلقّي بشارات كلامه المبارك الذي يثبّت فؤاده على الإيمان، ويدفعه قدُماً على درب العِرفان، ويأوي إلى حصن ربّه الحصين.

أي أننا أثبتنا حتى الآن أنّ كلام الله تعالى رافق وجود البشر على كوكبنا الأرضي، ولولا ذلك لظلّ البشر مخلوقاً يشبه بقيّة العجماوات، فالله عزوجلّ ميّز هذا المخلوق البشر عن غيره بنعمة العقل، فتوّج تعالى بالعقل النّفس البشرية التي أوجدها الخالق من نطفةٍ أمشاج، ليهب خالقنا هذا الإنسان إمكانية وعيه لما يدور من حوله، ووعيه لما يتلقّاه من كلام ربّه، ووعيه لحقيقة حياته الدّنيا فماهي إلاّ الطّور الأوّل على طريق تطوّر طويل لانهاية له. يؤهّله في النهاية ليشكّل شريحةً من شرائح المملكة السماوية التي تملكها هذه الذات الإلهية الخلاّقة، ويكسب بذلك حياة الخلود.

ألا وإني سبق لي أن تكلّمت عن الكيفيّة التي يُكلّم الله البشر بواسطتها من وراء حجاب وأثبت ذلك بأدلّة من كتاب الله العزيز. فوضّحت في حينه أن هذا النّوع من المكالمة الإلهية يتمّ وفق منهجٍ مُعيّن، أجلّت الكلام عليه إلى حين.

وها أنّها قد حانت ساعة الكلام عن المنهج المذكور. لكنّـي أرى من الضروريّ قبل ذلك تلخيص ماأتيت على بيانه وبأسلوبٍ علميّ مدلّل عليه فيما يتعلق بكيان هذا البشر الذي يكلّمه الله تعالى من وراء حجـاب، مُساعدةً منّي لهذا القارئ على إدراك حقيقة مايراه الإنسان في منامه، ومايتلقاه من كلام ربّه من وراء حجاب.

١ـ ممّ يتألف كيان الإنسان ؟

فلقد أثبت حتى الآن أنّ الإنسان قد رُكّب من نفسٍ وجسدٍ وعقل. فالنّفس، وبوسيلة هذا العقل. تتبادل التأثير مع هذا الجسد المجهّز بالحواس الخمس، ووفق قوانين مسنونة. لتحظى بالوعي والإدراك لِما حولها. وتستفيد من جرّاء ذلك من تلقّي هذا البثّ الخارج عنها، فتتعامل معه وفق مابلغته من وعي وإدراك وبمعزلٍ عن دوافع غرائزها وميولها وشهواتها.

وبما أنّ هذا الجسد المادّي ومايملكه من حواسّ كان محدود الإستطاعة. فقد سنّ الله خالقه من أجل تحديد نشاطه نظام اللّيل والنهار، فجعل نهار هذا الإنسان معاشاً وليله سُباتاً. والذي يحدث خلال فترة السُّبات هذه أن تتحرّر النفس البشرية إلى حدٍ ما من إسار جسدها، فتنطلق في عالم برزخي تحصد فيه يومياً ثمار مابلغته من وعي وإدراك، وثمار آثار ماتركه سعيها الدّائب اليومي ومأقدمت عليه من أعمال وما انتهت عنه من نواهي، وما التزمت به من تعاليم، أي أنّ هذه النفس البشرية تعود تواجه بثّاً من نوع جديد غير البثّ الخارجي الذي كانت تتلقّاه في حالة يقظة جسدها ونشاطه وحيويّته. وهذا البثّ الذي تتلقاه النفس في حالة خمول جسدها وراحته، يتمثّل في هذه المشاهد التي يراها النائم والتي تأتي على شاكلة مايراه الإنسان في يقظته إنما مع اختلافٍ في القوانين النّاظمة لكلا الحالتين.

ويتوقّف الباحث هنا لحظات يتساءل: وكيف ترى هذه النّفس بحواسٍ في اليقظة وبغير حواس في حالة النّوم؟

أقول في الإجابة على هذا السؤال: أنّه سؤال قد حيّر الباحثين، وعلماء النّفس منهم خاصّة، فذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، نحن بغنىً عن سردها في هذا المقام، فليس المقام مقام الكلام عن عالم المنام، هذا العالم الذي أورد القرآن

الكريم بحقّه قول ربّنا عزوجلّ: ﴿**هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها، والتي لم تمتُ في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمّى**﴾. فلعلّ الله عزوجلّ يوفّقني يوماً ما لأكتب كتاباً عن حقيقة عالم المنام.

وأضيف على هذا الذي ذكرته هو ماتوصّل إليه علمي في مضمار الإجابة على السؤال المطروح، أنّ سرّ ذلك يعود إلى ملكة العقل نفسه، فهذا هو ماأثبته العلم في القرن العشرين. وهو الأمر الذي يتفّق مع الطّرح القرآني. فما لم يتوصّل إليه العلماء من حقائق طرحها القرآن الكريم حول هذا الموضوع، فلقصر المادّة وقوانينها ووسائلها عن بحث تلك الحقائق القرآنية التي طرحها تعالى، قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ذلك أنّ كتاب الله العزيز قسّم مايراه النائم إلى قسمين متميّزين: أضغاث أحلام، وكلام الله من وراء حجاب، وأضغاث الأحلام مصدرها مايبثّه مااختزنه العقل من معلومات إلى جانب ماتبثّه أعضاء الجسم من إحساسات، وإلى جانب مايرنّ في أذن النائم من أصوات. أمّا القسم الثاني، وهو كلام الله من وراء حجاب، فيشكّل في حدّ ذاته محطّة بثٍّ خارجيّةٍ تتجلّى من خلالها أسماء الله الحسنى على هذا النائم بتمثّلاتٍ ووفق المنهج الذي سنتكلّم عنه إنشاء الله العزيز. وأنّى للأبحاث العلميّة أن تطال هذه التّجلّيات الإلهية وتمثّلاتها، إلاّ عن طريق آثارها التي تظهر على أيدي المؤمنين السالكين درب العرفان الإلهي؟

٣ـ حقيقة العقل ومحطة بثّ أضغاث الأحلام:

فيتساءل القارئ: وكيف يكون العقل مصدر مايراه النّائم من أضغاث أحلام؟ وكي يحيط هذا السائل علماً بالإجابة الصّحيحة العلميّة ـ الخّص من أجله ماتوصل إليه العلم بشأن حقيقة العقل.

ففي حين ذهب علماء القرن التاسع عشر إلى أنّ الدّماغ يفنى بعد الموت ويفنى معه بالتالي عقل الإنسان، فقد خلصت أبحاث العالم شرنغتون مؤسس علم فسيولوجيا الأعصاب الحديثة في القرن العشرين إلى أنّ العقل يستعصي على الكيمياء والفيزياء في مجال أنشطته وآليات علمه، ووافقه على ذلك السيرجون إكلس العالم المتخصّص في مبحث الأعصاب. فهذان العالمان وأمثالهما ذهبا إلى

أنّ البصر يُعطينا ولاشكّ وفي كلّ لحظةٍ صورةً ثلاثيّة الأبعاد لعالم خارجيّ، ويأتي دور العقل فيُعطي لهذه الصّور التي يتلقّاها بطريق البصر سمات ألوانها ولمعانها وبطريقةٍ مجهولة عن المعلومات المنقولة بالرّموز التي ترسلها شبكيّة العين إلى الدّماغ. وأنّ عمليّة الترجمة المزدوجة التي يقوم بها الإدراك الحسيّ تشكّل أعجوبةً تبعث على الذّهول، ولقد راح هؤلاء العلماء يضربون أمثلةً عمليّةً من واقع الإنسان نضرب عنه صفحاً في هذا المقام، أي أنّهم حاولوا إثبات أنّ المادّة وحدها لاتستطيع تفسير الإدراك الحسيّ الذي يقوم به عقل الإنسان. فجميع العمليّات التي يقوم بها العقل للإبصار والشمّ والذّوق والسّمع واللّمس لاتملك التّجارب الماديّة تفسيراً لها وإجاباتٍ صحيحةٍ لها، وبألفاظ أخرى فقد سلّم علماء القرن العشرين بوجود جوهر العقل واستقلاليّته.

كذلك توصّلوا إلى أنّ إدراك الإنسان للأشياء لايتحقّق بواحدةٍ من الحواس الخمس بل بتضافر أكثر من حاسّةٍ واحدة وفي وقت واحد، إلى جانب هذا الإحساس الداخليّ الذي يوفّره العقل الذي يخزّن المعلومات ويملك قدرات تذكّر وهذه المعلومات وتخيّل أشيائها أيضاً، وتساعده على ذلك ماتحمله النّفس البشريّة من قوى متضادّة كالحبّ والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن، وعلى اعتبار أنّ هذه القوى النّفسية لاتندرج تحت عمليّات الإدراك السمعي والشمّي والذّوقي والإبصاري واللّمسي؛ وبكلمة مختصرة فالقوة العقلية تُمكّن الإنسان من إدراك ماهيّة الأشياء، وفهم عللها وحكمها. هذه الأمور التي تعجز عن أدائها الحواس الخمس، كذلك تمكّنه من الربط مابين المكان والزّمان الرُّباعي الأبعاد وفقاً لنظريّة آينشتاين النّسبيّة. كذلك يخلق العقل إرادة شخص صاحبه والتي قد تغلب أحياناً على عاطفته. ومن هنا ندرك سبب إطلاق العالم ويلدر بنفليد المتخصّص بجراحة الأعصاب عُنوان (لُغز العقل) على مؤلّفه المشهور الصادر عام ١٩٧٥م، والذي أثبت فيه أن العقل لايعمل عملاً آلياً ماديّاً. بل يُراقب بعُزلةٍ تامّةٍ عن ذلك كلّه. فالإدراك لايتوقّف على النّشاط العصبي.

٤ـ العقل يقع خارج الدماغ وليس داخله :

كذلك لامقرّ ولامركز للعقل والإرادة في دماغ الإنسان، أي أنّ العقل البشري وإرادة الإنسان لايملكان أعضاء مادية ضمن جسم الإنسان صاحب هذا

العقل وهذه الإرادة، لذلك فبإمكان العقل والإرادة التحكّم بالأفعال التي يقوم بها جسد الإنسان، وبإمكانه توجيه أنشطة الدّماغ، فالعقل، لا الدّماغ، هو الذي يراقب ويوجّه ذلك كلّه وفي آن معاً. فالعقل إذن جوهرٌ متميّزٌ ومختلفٌ عن الجسم، وقد أعلن أخيراً العالم الفيزيائي بنفايد «أنّ ملكتي العقل والإرادة خالدتان ولاتفنيان بعد فناء جسد الإنسان الترابي».

ألا إنّ هذه النتائج والحقائق التي توصّل إليها علماء القرن العشرين، تتوافق مع ماطرحه القرآن الكريم من طروحات متعلّقة بعقل الإنسان وإرادته، لذلك قلت آنفاً أنّ فهم موضوع العقل يساعد على فهم حقائق مايراه الإنسان في منامه من أضغاث أحلام. فمن سَلِمَتْ محاكمات عقله، ومُختزنات علومه، وسلوكه اليومي، يسلم من رؤية أضغاث الأحلام، ويعود مستعدّاً وعلى حسب صلاحيّته، لتلقّي بثّ تجليّات أسماء الله الحسنى وتمثّلاتها خالصةً في السّاعات التي يخلد فيها إلى النوم والراحة بعد أن يبلُغَ حسُّ جسده مبلغه من الجهد والإعياء.

وهناك سؤال يفرض على الباحث نَفْسَهُ: وهو هل يُخطئ العقل في عمليّات وعيه وإدراكه؟ وماأثر ذلك على تصرّفاته في يقظته وفي منامه؟

والجواب يلخّص بكلمة نعم، وفي إمكانية خطئه، إمكانية التأثير على تصرّفاته في يقظته وفي منامه.

٥ـ العقل يخطئ في اليقظة وفي حالة النوم:

فالنّفس البشرية تتحرك إقداماً وإحجاماً، برفقة جسدها في حالة اليقظة بتوجيهٍ من عقلها وإرادتها وأحياناً بدافعٍ من ميولها وغرائزها وشهواتها. وإنّ هذه النّفس البشرية ماإن يطرأ على جسدها هذا الموت الظاهري، وتستقلّ نوعاً ما، تظلّ تتحرك بتوجيه من عقلها وإرادتها وبدوافع ميولها وغرائزها وشهواتها، بسبب عدم انفصالها انفصالاً كليّاً عن جسدها.

ومادام عقلها مُعرّضاً للخطأ في حالة يقظتها، ويترك ذلك أثره على تصرّفاتها، فالأولى أن تزداد الأخطاء التي يقع فيها هذا العقل في حالة نوم صاحبه لاختلال مصادر البثّ الخارج عنه في تلك اللّحظات. فالحواس خاملة، والنّائم تكون مصادر البثّ لديه من داخله ومن خارجه، ووفق مااختزنه عقله من معلوماتٍ وذكريات لذلك تتحرّك هذه النّفس النّائمة وفق معطيات هذا البثّ

الجديد النّاقص المعطيات فيتراءى لهذا النائم مايراه من أضغاث أحلام وفق اصلاح القرآن الكريم.

وأضرب للقارئ أمثلةً تفسّر مايقع فيه العقل من أخطاء في حالتي اليقظة والنوم. فلو أدخل هذا القارئ في حالة يقظته التامّة عصا مستقيمة في بُركة ماء. ينكسر منظر هذه العصا داخل الماء ولاتعود تُرى مُستقيمة في عينيه. فهذا خطأ يقع إدراك الإنسان فيه في حاله يقظته، ويصحّح العقل ماأخطأ في وعيه عن طريق التجربة والملاحظة والاستنتاج العلميّين. فهذا مثال يمثّل خطأ إدراك عقل الإنسان في حالة يقظة صاحبه.

أمّا إذا كان صاحب هذا العقل نائماً، وحدث أن طنّ في أذنه صوت حشرة أو قرع باب أو أيّ صوتٍ من نوع آخر، فلا يملك هذا العقل لتفسير ذلك إلاّ مُعطيات ما ادّخره من معلومات في ذاكرته، ومايملكه من قدراتٍ تساعده على محاكمة ماسمعه من أصوات، ووفق عالمٍ برزخيّ ينعدم فيه الزّمان والمكان وتنعدم فيه الحاجة إلى العوامل المساعدة التي تساعد الحواس على أداء وظائفها في حالة يقظتها. إلى جانب مابلغته إرادة هذا الإنسان من استقلاليةٍ وقدرةٍ على تصريف أموره. فهذه العوامل جميعها تلعب أدواراً رئيسة في موضوع الأخطاء التي يقع فيها عقل هذا الإنسان النّائم وإرادته، ويُلقي هذا كله بالتالي بآثاره على ماتراه هذه النفس البشرية أثناء الفترات التي يستلقي فيه جسدها إلى الخمول والنوم بسباتٍ عميق. وهذا هو سرّ تسمية القرآن الكريم لما تراه النّفس البشرية بدوافع هذا النّوع من البثّ الذي ذكرناه تسميتها أضغاث أحلام، فأضغاث جمع ضغث، من ضغث الحديث: خلطه (محيط المحيط).

٦ـ تأويل الرؤى يحتاج صاحبه إلى لياقات :

فالذي يهمّنا من جميع ماذكرناه هو أن نعلم بأنّ قوى النّفس البشرية يلازمها جهاز العقل في حالتي يقظتها ومنامها، ويشكّل معها كياناً واحداً لاينفصم بحال من الأحوال، ولاتستطيع العين المادّية إدراك هذا الكيان، إلاّ بآثاره. كالمغناطيس لايُدرى بوجوده إلاّ من خلال جَذْبه لبرادة الحديد. ويشبه حال هذا الكيان النّفسي حال الشاشة التلفزيونيّة مع الفارق بينهما فيستقبل هذا الكيان النّفسي البثّ الخارج عنه، والذي يأتيه من طرف ميوله وغرائزه وشهواته

أيضاً. ويقوم جهاز العقل بتحليل مايرد إليه ويحاول إدراكه، وتتدخّل الإرادة للإستفادة من كلّ ذلك وللعمل عليه على قدر استطاعتها. فهذا هو تشخيصي لحال هذه النفس البشريّة والتي يأتيها أحياناً بثّ من نوع مغاير لجميع أنواع البثّ التي ذكرناها. ألا وهو ماتبثّه تجلّيات أسماء الله الحسنى، التي يراها النائم على شكل تمثّلات مغايرة للقوانين العقليّة والإراديّة وماتشكّله من أضغاث أحلام يراها هذا النائم في منامه. أقول يُرى تمثّلات هذا البثّ الرحماني أحياناً صافيةً، وأحياناً ممزوجةً بأضغاث الأحلام، وبشكلٍ يتناسب طرداً مع الشّفافية الرّوحية لهذه النفس البشرية وصفائها مما يشوبها من أدران معصيتها لمشيئة خالقها عزوجلّ. ويحدث ذلك كلّه وفق نهجٍ معلوم اختصّه الباريء جلّ شأنه حين يشاء مكالمة عبدٍ من عباده من وراء حجاب، وهكذا يكون القارئ قد أصبحت رؤيته الموضوعية لموضوع الأحلام التي تعرض له في نومه، رؤية علميّةً الجوانب، ومن صميم دلالات آيات كتاب الله العزيز، لكنّ ذلك لايكفي هذا القارئ ولايساعده على تأويل وتفسير مايراه في منامه. بل لابدّ له من أن يُحيط علماً بالمنهج الإلهي وتوابعه هذا الذي ترتبط به هذه التمثّلات أي هذه النظائر والتشابيه التي تشكّل كلام الله مع من يراها من وراء حجاب. ذلك أنّ كلمة التمثّلات والمثلُ جمع مثل ومعناه الشبه والنظير، ويجمع على أمثال أيضاً (محيط المحيط). فمن جرّاء إحاطة المؤمن علماً بهذا المنهج الإلهي وتوابعه الذي ترتبط به تمثّلات مايكلّمه الله ربّه به في منامه، يحيط هذا المؤمن علماً بدلالات مايراه من نظائر وتشابيه. ومن هذا يتضّح لقارئ الواجب المُلقى على عاتق كلّ مؤمن، وهو أن يسعى جاهداً لفهم هذا المنهج الإلهي ومايتبعه من أمور، فالموضوع يتطلّب من كل مؤمنٍ يصبح عالماً بتأويل ما يتمثّل له في منامه، يتطلّب منه التحلّي بلياقات روحيّةٍ وعلومٍ واستعدادات مُحاكميّة ومهارات.

وهذه اللّياقات لاتتوفّر لكل إنسان مؤمن لذلك قال تعالى: ﴿**واسأل من كان به خبيراً**﴾. خصوصاً وأنّ الرؤيا الصّالحة لاتأتي دوماً بنبأٍ مُستقبلي. بل قد تمثّل حالةً مضت تفيد رضي الله تعالى عن فاعلها، أو قد تمثّل حالة ستحدث في المستقبل، أو تمثّل حالة يهمُّ صاحبها على أن يُقدم عليها، ويحثّه الله ربّه ويبشره بنجاحه إن هو أقدم عليها.

فإن تحلّى هذا المؤمن بتلك اللّياقات الرّوحية وتلك العلوم والاستعدادات من المحاكمات والمهارات، يعود بإمكانه التّفريق بين مايبثّه عقله وإرادته من أضغاث أحلام في نومه، ومابين ماتثبّه تجليّات أسماء ربّ العالمين، حيث أنّ الفارق بين هذا وذاك يكون كبيراً من حيث ماهيّته ومن حيث القوانين الناظمة لكلّ نوع من هذين النّوعين المذكورين من الأحلام.

فأضغاث الأحلام التي يبثّها عقل الإنسان وإرادته لاشعورياً تظلّ تنظمها القوانين التي تنظم المشاهد المادّية المترائية في حالات اليقظة. أمّا تجليّات وتمثلات أسماء الله الحسنى، فلا تتبع تلك القوانين. بل لها قوانينها الناظمة لها، والتي تخالف تلك القوانين المادّية.

وقد يعجب القارئ ممّا ذكرته له آنفاً، ويرجو توضيح ذلك بمثال علميّ. لذلك أعمد هنا لتقديم هذا المثال، فأقول: إنّ من المتعارف عليه في بيئتنا أن تختصّ المرأة وحدها بوضع عقد زينةٍ حول رقبتها، تُحلّي به ماظهر من جيدها. فإن شاهد امرؤ نفسه أنّه يضع عقد لؤلؤ على سبيل المثال حول رقبته. وهو الأمر الذي لايحدث في أضغاث الأحلام.

بل في الرؤى التي هي من قبيل كلام الله مع عباده من وراء حجاب. توجّب على الإنسان الذي يتصدّى لتأويل ذلك أن يستفسر من هذا الرّجل عن حاله، ذلك أنّ الله عزوجلّ يكلّم كل عبدٍ من عباده على قدر عقله وحاله. فإن تبيّن أنّ الذي رآى هذه الرؤيا هو طالب علمٍ ديني وبصدد حفظ آيات كتاب الله جميعها عن ظهر قلب. فإنّ تأويل هذا التّمثّل النّظير يحمل بشارةً لهذا الطّالب أنّ ربّه يبشّره أنّه سيوفقه إلى حفظ كتابه العزيز، فيجعله عقد زينةٍ يُحلّي به جيده على شاكله ماتُحلّي المرأة به جيدها من عقد.

أو تبيّن لهذا العالم صاحب اللياقات المذكورة أنّ صاحب هذه الرؤيا يسعى ليكون فقيهاً في الدّين. فإنّ مارآه يحمل له بشارةً من ربّه يبشّره فيها أنّه سيجعله في نهاية المطاف فقيهاً في دينه. ويجعل علم فقه دينه هذا عقداً يحلّي به جيده على شاكله ماتُحلّي به المرأة جيدها من عقد.

أو كان بين صاحب هذه الرؤيا وبين قومه أو فريق من الناس عهد وعقد يجد أنّ من العسير عليه الوفاء به ويدعو ربه أن يوفّقه لوفائه، فإنّ هذه الرؤيا تحمل لرائيها المذكور جواب دعائه، وهو أنّ ربّه سيوفّقه في نهاية المطاف للوفاء

بعهده المذكور، معتزاً بذاك الوفاء على شاكلة ماتعتز المرأة بعقدها الذي تُحلّي به جيدها، هذا وعلى هذه الشاكلة تُدرك دلالات البشارات السّماوية التي تحمل تجلّيات وتمثّلات أسماء الله الحسنى من وراء حجاب، فشتّان مابين رؤى أضغاث الأحلام التي لاتختلف القوانين النّاظمة لها عن القوانين المادية المعروفة في شيء يُذكر، ومابين الرؤى الصّادقة التي تُنظمها قوانين تختلف عن تلك القوانين كُلّ الاختلاف.

والآن وبعد أن وضّحت جميع ماسبق توضيحه أتوجّه بالكلام عن النّهج الإلهي وتوابعه، هذا النّهج الذي اختطّه البارئ تعالى نهجاً متميّزاً، يمتاز به كلام الله تعالى من وراء حجاب عن جميع مايراه النائم في منامه من أضغاث أحلام بثّها عقل الرّائي وإرادته وبصورةٍ لا شعورية، عمّا يراه متشابهاً مع مايراه هذا الرّائي في يقظته.

٧ـ منهج الكلام الربّاني من وراء حجاب:

فإن أمعن هذا القارئ فيما قدّمته له من مثال آنفٍ ذكره، يتحسّس لامحالة بوجود منهجيّةٍ وراء هذا المثال تنظم قوانين تمثّلاته. وأنّ هذه المنهجية هي التي تساعد العالم المفسّر على إمكانية تأويل ماتضمّنه المثال من أحوال. فلولا وجود هذه المنهجيّة لعاد مايقوم به هذا العالم لايعدو كونه هذراً أو خبط عشواء.

والحقّ الذي لامراء فيه هو أنّ كلام الله تعالى من وراء حجابٍ، يستند إلى نهجٍ محدّدةٍ عناصره، وإلى أسلوبٍ منطقيٍّ سليم، وهل يمثل أحدنا مثالاً لإنسانٍ يقف في مقابله من خارج علمه وكلامه؟ وهذه المنطقيّة في عمليّة تقديم النّظير والشّبه من جانب تجلّيات أسماء الله الحسنى يتسم بها هذا النّهج الرباني. ولولا ذلك لتاه العالم والجاهل في وقتٍ واحدٍ في خضّم مايراه النّاس في حالات نومهم، من كلام ربّاني مُوجّه إليهم خاصة.

ولنعلم أنّ كتاب الله العزيز يشكّل مرجعنا الأول والأخير لفهم عناصر هذه المنهجية لذلك يُطالب كلّ عالم يسعى إلى تأويل تمثّلات تجلّيات أسماء الله الحسنى، أن يرجع إلى هذا الكتاب العزيز، وأن يكون في الوقت نفسه محيطاً علماً بعلوم هذا القرآن الكريم وبدلالات آياته، وبما تضمّنه من حِكَمٍ وأمثال تناثرت بين سطور آيات هذا الكتاب هنا وهناك. كذلك يشترط على هذا العالم أن يتبين

أوّلاً حال صاحب الرؤيا المطلوب منه تأويلها والتي جاء صاحبها يستفتيه في أمرها.

هذا على اعتبار أنّ الله ربّنا يكلّم كلّ عبدٍ من عباده على قدر مؤهّلاته العقلية، وهذا هو سرّ مضمون الحديث الشريف القائل: (أُمرت أن أكلّم الناس على قدر عقولهم). ومن باب الإتّصاف بهذه الصّفة الربّانية التي ذكرتها آنفاً.

وكيلا يلتبس أمر فهم هذه اللياقة التي تتطلبها هذه المنهجيّة، أعمد إلى توضيح ذلك بأمثلةٍ تزيل كلّ لُبسٍ يكتنفه.

فليفترض هذا القارئ أنّ إنساناً ماتمثّل له هذا القرآن في منامه فلينظر هذا العالم وليتبيّن أوّلاً حالة ماتمثّل، وحال الذي تمثّل له، فإن تبيّن له أنّ بين صاحب الرؤيا، وبين خصمٍ له دعوى دائرة حول خلافٍ بينهما، على سبيل المثال فلابدّ وأن يكون هذا الإنسان قد شاهد نفسه يقرأ القرآن عن ظهر قلبٍ ومن دون وساطة مصحفٍ بين يديه. وبذلك يبدو هذا التمثّل الذي شاهده في منامه حينئذٍ مرتبطاً ارتباطاً موضوعيّاً بحال صاحب هذه الرؤيا. ويكون هذا التمثّل يحمل لصاحب هذه الرؤيا بشارة من ربّه يزفّها إليه، وهو أنّه على حقٍ في ادّعائه وأنّ خصمه على باطل، وأنّ هذا المُبشّر سيفوز في دعواه.

أمّا إذا لاحظ القارئ أنّ صاحب الرؤيا شاهد نفسه يتلو آيات قرآنيّة مخصوصةٍ بعينها وأنّه حفظ تلك الآيات بعد يقظته . فلينظر القارئ وليتدبّر مضمونها، فإن لاحظ أنّها تحمل دلالاتٍ مبشّرة، فإنّها تحمل لصاحبها بشارةً يصيبها في أمرٍ من شؤون دنياه، وإن لاحظ أنّها تحمل وعيداً بعذابٍ وانذاراً، فإنّها تحمل لصاحبها وعيداً وإنذاراً بعذاب ينزله الله تعالى به من جرّاء معصيةٍ ارتكبها أو إثمٍ صدر عنه ـ وقس على ذلك بقيّة الحالات ـ وهذا يعني أنّ تمثّل هذا القرآن الكريم للإنسان في أيّة حالةٍ كانت، لابدّ وأن تكون لها دلالتها وتفسيرها ومنهجيّتها.

فعقل الإنسان وإرادته لادخل لهما في العالم البرزخي المذكور،لذلك فإنّ الذي يكون عدوّاً لله وللإسلام قد يرى أنّه يكتب آياتٍ قرآنيةٍ على الأرض، ويكون تأويل رؤياه هذه أنّه في نظر ربّه زنديق. أو قد يرى نفسه أنّه يكتب الآيات القرآنية على خزفٍ أو صدف أو كساء. فدلالة ذلك أنّ ربّه يُفهم هذا

العدّو أنّه يجهل دلالات هذه الآيات البيّنات. فلا يفهم منها إلاّ ماتُوسوس به نفسه.

فلو سعى القارئ إلى إحصاء مايراه الناس على صعيد تمثّلات تجلّيات الأسماء الحسنى في حالات النّوم، لتوصّل من خلالها إلى تصديق ماذكرته له. لكن الأمر المؤسف هو أنّ الناس لايقومون حتى اليوم بمثل هذه الإحصاءات. لذلك لانلاحظهم ينطلقون ممّا انطلقت منه.

ثُمّ إنّ كلّ من طالع كتب الحديث الشريف لابدّ أن لاحظ قول رسول الله ﷺ أنّ الشيطان لايقدر أن يتمثّل في شخصيّة رسول الله ﷺ، فمن رآى رسول الله ﷺ في منامه فقد رآه حقّاً، ولو كان ذلك وفق حالة الرّائي فلماذا نبّه رسول الله ﷺ أذهاننا إلى هذه الحقيقة؟ نبّهها بسبب ما لشخصه من قداسةٍ عند ربّه، فلا يقدر عقل الإنسان وإرادته تمثّل ذلك من جانبهما.

هذا، ولقد ألقى الله عزوجلّ في روعي وأنا قائمٌ أصلّي بين يديه أنّ لكتابه العزيز نفس القداسة عنده جل شأنه، وإلى هذا الأمر وردت الإشارة في قوله تعالى من سورة الحجر: ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكّر وإنا له لحافظون**﴾. لذلك يعجز عقل الإنسان وإرادته أيضاً على أن يتمثّل هذا القرآن في منامه على حسب هواه. فإن تمثّل هذا القرآن لعدو في منامه، فلابدّ أن تكون لتلك الرؤيا دلالتها التي يفقهها العالمون بتأويل الأحاديث، فليأخذ القارئ عنّي هذه المعلومة التي كشفها الله تعالى عليّ، وليتقصّاها على بساط الواقع.

وليس هذا وحسب، بل إنّ الله جل شأنه، إعزازاً جانبه هذا القرآن الكريم، لاتتمثّل تجلّيات أسمائه الحسنى إلا بما يوافق دلالات هذا الكتاب العظيم أيضاً. فلنفرض أنّ إنساناً رأى نفسه ممسكاً بإنسان، وينزل به ضرباً مُبرحاً ويقضي عليه، فليعد إلى قول الله عزوجلّ في كتابه العزيز القائل: ﴿**وإذ قتلت نفساً فنجّيناك من الهمّ**﴾. فبدلالة هذه الآية يُؤوّل مارآه. أي أنّه مهموم لسببٍ من الأسباب، وربّه يبشّره أنه سينجيه من همّه المذكور.

وعليه فإنّ في هذه الظاهرة، ظاهرة منهجيّة متعلّقةٍ بمكالمة الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، علماً بأنّ الله عزوجلّ يخاطب كل إنسان على حسب مايحمله هذا الإنسان من عقلٍ وعلمٍ وقدرات، فالرؤيا الواحدة يراها اثنان أو ثلاثة، وتكون لتمثّلاتها دلالات تختلف باختلاف الواحد منهم عن الآخر،

ولايدرك هذه الفروق إلاّ عالمٌ علّمه الله تعالى تأويل تمثّلات ماتتجلّى به أسماؤه الحسنى به من تجليّات، وقد تكون إرادة ربّنا عزوجلّ حينئذٍ أن يُفهّم صاحب الرؤيا ماقصده ربّه مما أراه في منامه، فيلقي في روعه تأويل ماأراه إيّاه في منامه أيضاً.

والظاهرة الثانية لهذه المنهجيّة المتعلّقة بموضوع مكالمة الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، هو تمثّل تجليات أسمائه الحسنى أحياناً بما يوافق دلالات أحاديث رسوله الكريم ﷺ تكريماً منه لرسوله الكريم، فعلى سبيل المثال ورد عن رسول الله ﷺ قوله بحقّ المرأة (إنّ النّساء خُلقن من ضلع). فقد يحدث بين رجل وإمرأته خلاف يشتدّ إلى درجة كبيرة، ويتوجّه هذا الزّوج بالدعاء ليصلح له زوجته، فيجيبه ربّه لطلبه، وتتمثّل هذه الإجابة التي تتجلّى بها أسماء الله الحسنى، تتمثّل لهذا الرجل فيرى نفسه وقد أمسك بضلعٍ من أضلاع زوجته بيديه وراح يقوّمه، فإذا استيقظ هذا الرّجل يدهش ممّا رآه في منامه ــ لكنه إذا عاد إلى هذا الحديث الشريف الذي ذكرناه، وإلى دلالته، يستنبط منه أنّ ربّه يقول له إنّ سعيك شبيه بعمليّة تقويم ضلعٍ معوج فهل يستقيم هذا الضّلع إن أنت حاولت تقويمه أو أنّ هذه العملية ستنتهي بكسر هذا الضّلع المعوّج؟ وكأنّ الله عزوجلّ يقول له بألفاظٍ أخرى إمّاإمساكٌ بمعروف أوتسريحٌ بإحسان، وعليه فإنّ هذا النّوع من الرؤى الصّادقة تبدو في ظاهرها مخالفة للقوانين الطبيعية من جهة وتابعة لقوانين أخرى تختصّ بها من جهةٍ أخرى، وتأتي تمثّلاتها نابعةً من دلالات أحاديث رسول الله ﷺ المتداولة على ألسنة المؤمنين، ويشكّل هذا النّوع من الرؤى العنصر الثاني لهذا النهج الرّباني المتعلّق بمكالمة الله عباده من وراء حجاب.

والأصل الثالث لهذا النّهج، هو أن تأتي تمثّلات تجليّات أسماء الله الحسنى بما يُوافق مااشتهر بين النّاس من أقوال الأنبياء السابقين وحِكمهم وأمثالهم، إعزازاً منه جلّ شأنه لهؤلاء الأنبياء الذين كان قد بعثهم لإصلاح عباده الضّالين. فعالم تأويل الأحاديث إذا عُرضت عليه رؤيا لها صلتها بأقوال هؤلاء الأنبياء السابقين وحكمهم وأمثالهم، وكان مُلمّاً بها، يساعده ذلك على تأويل ماطلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الرابع لهذا النّهج الرباني المتعلق بمكالمة الله تعالى عباده من وراء حجاب، هو أن تأتي تمثّلات تجليّات أسماء الله الحسنى بما يُوافق ما اشتهر بين

الناس من أشعار الأدباء، وبما تحمله هذه الأشعار من حِكم وأمثال. من مُنطلق أنّه جل شأنه هو ربّ العالمين، وأنّه يخاطب عباده على قَدر عقولهم وعلمهم وقدراتهم، فعالم تأويل الأحاديث يكون له أيضاً إلمامه بتلك الأشعار وأمثالها وحكمها. ويساعده ذلك على تأويل ماطُلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الخامس لهذه المنهجيّة ينبع من دلالات الأسماء والألفاظ اللغوية، لما يراه النّائم في منامه فالرؤيا التي رآها النائم تفسّر حينئذ وفق دلالة اسم الشخص أو المكان أو الشيء الذي تمثّل له في منامه، ويكون اسم هذا الشخص أو المكان مستودعاً لِما تحمله الرؤيا من دلالات. وعالم تأويل الأحاديث يؤتى القدرة على التّمييز المذكور، فيؤوّل التمثلات بدلالات تلك الأسماء والأمكنة هذا إذا كانت الرؤيا صادقة، وعلامة صدقها أن تخالف قوانينها القوانين الطبيعيّة وأتت جواباً على دعاء الدّاعي بين يدي الله عزوجلّ.

والأصل السادس لهذه المنهجية المتعلّقة بكلام الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، ينبع من توافق خواص مايراه النّائم مع خواص الأشياء من فواكه وخضار وحبوب، فالذي تتمثّل له تجليات أسماء الله الحسنى بما يماثل فاكهةً أو خضاراً أو حبوباً،من حيث الشكل فلينظر عالم تأويل الأحاديث فيما تحمله هذه الأشياء من خواصّ وفوائد ومضار، وليراعي حال الذي رآى شيئاً من هذه الأشياء أيضاً، وليتأكّد من مخالفة القوانين الناظمة لهذه الرؤيا مع القوانين الطبيعية التي تنظم أضغاث الأحلام، فإن أخذ بعين اعتباره هذه الاحتياطات جميعها، ساعده ذلك على تأويل ماطُلب منه تأويله.

هذه هي أبرز عناصر هذا النّهج الرّباني الذي انتهجه ربّنا عزوجلّ عند مخاطبته عبداً من عباده من وراء حجاب. وهناك عناصر أخرى غضضت الطّرف عن ذكرها خشية الإطناب. كذلك أعرضت عن ضرب الأمثلة لهذا السبب نفسه. خصوصاً وأنّ مكتبات أمّتنا تضمّ بين الألوف المؤلفة ممّا احتوته من كتب، أقول تضمّ مؤلّفات كتبها أشهر الأئمة المطّهرون، ممّا فتحه الله عزوجلّ عليهم من علوم تأويل ماتتمثّل به تجلّيات أسمائه الحسنى وفق المنهج الذي أتينا على أبرز أصوله. فمن هذه المؤلفات كتاب تعطير الأنام في تعبير المنام لمؤلّفه الإمام الرّباني عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى، وكتاب مُنتخب الكلام في تفسير الأحلام لمؤلّفه الإمام الرّباني محمد بن سيرين رحمه الله تعالى، فمؤلّفات هذين الإمامين

تمثّل خزائنَ معرفةٍ لم تأت عن اجتهادٍ شخصي بل عن فتوحاتٍ علميّة فتحها الله تعالى عليهما. ولاأقول أنّ مؤلفات هؤلاء الأبرار تُعدُّ مرجعاً نهائياً، بل هي مراجع أوليّة، على اعتبار أنّ لكلّ زمانٍ مُعطياتـه، وأنّ الله عزوجل هو في كلّ يوم في شأن.

وأنصح بهذه المناسبة صاحب الرؤيا ألاّ يتعجّل في تأويل مارآه، وألاّ يتعجّل أيضاً في أمر الاكتفاء برجوعه إلى المؤلفات التي ذكرناها، بل ليدعو ربّه أن يُلهمه تأويل ماأراه إيّاه في منامه، وليقصّ رؤياه على صاحب خبرةٍ في تأويل هذه الأحاديث. أو ليكتب مارآه في منامه ولينتظر ماذا تأتي به الأيّام تصديقاً وتفسيراً للذي رآه.

ألا إنّ مكالمة الله للبشر من وراء حجاب يشكّل عالَماً مستقلاً له منهجيّته ومقوّماته، وهو عالَمٌ له من السّعة مايجعله يستعصي فهمه أحياناً على كبار الأئمّة المختصّين بتأويل هذا الكلام الرّباني التي تتجلّى به أسماء الله الحسنى وتتمثّل تجلياته في حالات نوم النائمين، والسّبيل حينئذٍ أن ينتظر صاحب الرؤيا إلى أن يرى تأويل مارآه على بساط الواقع بمشيئة الله عزوجلّ.

ولاينبغي للقارئ أن يظنّ أنني انفردت بالادعاء بوجود هذه المنهجيّة وأصولها التي ذكرتها آنفاً، فما جئت أنا بأمرٍ جديدٍ في هذا الحقل، بل إنّ جميع الأئمّة الرّبّانيين الذين ألّفوا كتباً في تأويل الأحلام، أحاطوا علماً بوجود هذا النهج الرّباني، وذهبوا في ذلك مذهبي، والذي يضالع مؤلّفاتهم يتحقق لامحالة من صدق مازعمت، أمّا الأمر الجديد من جانبي فهو طرح ذلك بأسلوبٍ علمي وموضوعي، وهذا فضلٌ من ربيّ اختصّني به لأمرٍ هو يعلمه، وإلاّ فلست ممّن يزعم أنّي أفوق أولئك الأبرار علماً ومعرفة بتأويل الأحاديث.

٨ـ من الخطأ الفاحش الزّعم بانقطاع نزول الوحي الالهيّ:

على هذه الشاكلة، لابدّ أن يكون القارئ قد أحاط علماً ممّا ذكرناه، وممّا تضمّنته مؤلّفات هؤلاء الأئمة الربّانيين الذين أتيت على ذكر أسمائهم، أنه لايجوز للمؤمن المسلم بما أتى به محمد الأمين ﷺ أن يذهب مذهب من قال بانقطاع نزول الوحي الإلهي بعد نزول القرآن المجيد. ذلك أنّ الله عزوجلّ صرّح في كتابه

العزيز وقال : ﴿**وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليٌّ حكيم**﴾. سورة الشورى(٥١)

فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجل قد أنهى هذه الآية الكريمة بجملة ﴿**إنّه عليّ حكيم**﴾. فالذي وضّحته مراراً وتكراراً هو أنّ هذه النهايات التي يختم الله تعالى بها آيات كتابه العزيز والتي يمتاز بها هذا الكتاب عن غيره من الكتب إنما هي أسلوبٌ بلاغيٌّ لتوجيه أنظار القُرّاء إلى الأصول التي صيغت على أساس منها مضامين وعلوم القرآن الكريم. وهو جلّ شأنه نبّه ذهن القارئ في قوله (إنّه عليّ حكيم) إلى الأصل الذي يميّز كلام الله تعالى مع البشر المخلوق، وهو أنه جل شأنه يكلّم البشر من مُنطلق وعلى أساس أنه تعالى ﴿**عليٌّ حكيم**﴾. فما هي دلالة ﴿**إنّه عليٌّ حكيم**﴾؟

حرف إنّ جيء به هنا للتأكيد، وعليٌّ معناه الرّفيع والشريف وشديد القوى، والأعلى صيغة تفضيل من كلمة عليّ، أما حكيمٌ فمعناه صاحب الحكمة المُتقن للأمور، الجامع بين القول والعمل وصاحب الحجّة القطعيّة (محيط المحيط). والمعنى أن كيف لايكلّم الله تعالى البشر وله مثل هذه الرّفعة والقوى واتقان الأمور وجمعه بين العلم والعمل، وامتلاكه للحجّة القاطعة. فالذات التي تتصّف بهذه الصّفات، يستحيل عليها أن تخلق البشر الأقرب إلى التوحّش، فتدعهم يهيمون على وجوههم، وتتقطّع بهم السّبل. إنّ اتصاف ذات الله تعالى بكونه عليٌّ حكيم يستلزم منه جلّ شأنه أن يكلّم هؤلاء البشر ويهديهم الصراط المستقيم وبالطّرق الثلاث المذكورة التي تتلاءم مع عقل كلّ فردٍ منهم وعلمه وقدراته، واستناداً إلى هذا الأصل والأساس يستحيل على الله العليّ الحكيم أن ينقطع عن التكلم مع البشر وبهذه الطرق الثلاث: وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.

والملاحظ أنّ الله عزوجلّ راح فدعّم هذا الأصل وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه وأضاف يقول: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نّشاء من عبادنا، وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم. صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور**﴾. والملاحظ أيضاً أنّه جلّ شأنه راح فأنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿**ألا إلى الله تصير الأمور**﴾. فحرف (ألا) للتنبيه.

أي انتبه أيّها القارئ، ولاتتسرّع في حكمك ورأيك، ولاتقل بإنقطاع الوحي وتوقّف الله عن التكلّم مع عباده بالطرق الثلاث المذكورة أعلاه، فإن وقعت في هذا الخطأ وذهبت هذا المذهب، تعود كالذي يُنكر صيرورة جميع الأمور إلى الله عزوجل. فبداية كلّ شيء ونهايته ففي قبضة هذا الخالق العليّ الحكيم، وليس في قبضة أحدٍ سواه، فالله العليّ الحكيم هو ربّ العالمين وإليه يعود الحمد كلّه بالأصالة وهو الحيّ القيّوم.

هذا وإنّ مؤلّفات هؤلاء الأئمة الربّانيين الذين ذكرناهم هي شواهد ايجابيّة تؤكد صحّة الاعتقاد بعدم انقطاع الله جلّ شأنه عن التكلّم مع عباده من بعد إنزاله هذا الكتاب الموعود بحفظه إلى يوم الدّين، فأصحاب هذه المؤلّفات ألقوا الضوء على النّهج الرّباني وأسلوبه المتعلّق بمكالمته البشر من وراء حجاب، مُعرضين عن الكلام حول الطريقين الآخرين وهو طريق مكالمة الله البشر وحياً وطريق مكالمته عن طريق إرسال رسول أي ملكٍ من ملائكته عزوجلّ.

ذلك لأنّ الكلام عن طريقي الكلام الالهي المذكورين مُحتاجٌ في حدّ ذاته إلى كتاب يُغاير المضامين، التي بحثتهامؤلّفات هؤلاء الأئمة والمتعلّقة بمكالمة الله البشر من وراء حجاب.

وألخّص الآن للقارئ جميع ماذكرته بما يتعلّق بموضوع تكلّم الله تعالى مع البشر من وراء حجاب، فأقول: إذا شاء الله تعالى أن يكلّم أيّ فرد من البشر، تتجلّى حينئذٍ أسماؤه الحسنى المختصّة بموضوع الكلام المذكور، فتتمثّل تلك الكلمات المُتجلّى بها، بتمثّلات وفق منهجيّة متعدّدة العناصر. وتشكّل هذه التمثّلات بشارات الرؤى الصّادقة التي يراها المُتقون، أو إنذارات الرؤى المُنذرة التي يراها المذنبون العُصاة.

فالرؤى الصّادقة تختلف في ماهيّتها وفي القوانين النّاظمة لها عن ماهيّة وقوانين رؤى أضغاث الأحلام ــ ولايعني قولي هذا، أنّ جميع رؤى أضغاث الأحلام لاتحمل في طيّاتها أنباءً مستقبليّة، بل تخالطها في بعض الأحيان نبوءةٌ لأسبابٍ منها أن بإمكان عقل الإنسان وإرادته التنبؤ بأمرٍ مُقبلٍ على شاكلة مايقوم به الرّاصدون الجوّيون. ومؤهّلات العقل هذه هي التي أطلق علماء النّفس عليها اصطلاح الحاسّة السّادسة، لكن تبقى هذه المؤهلات عاجزة أن تأتي بما تأتي به الرؤى الصّادقة من نبوءاتٍ وبشاراتٍ وإنذارات.

٩ـ الفروق الجوهريّة مابين الرّؤى الصادقة ومابين أضغاث الأحلام:

إن قولي هذا يستدعي مني تبيان الفروق الجوهرية مابين هذين القسمين من الرؤى، وتبيان هذه الفروق بأسلوبٍ علميّ أيضاً أستند فيه إلى الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

والحقيقة هو أننا ومن خلال إحصائياتنا استخلصنا وجود ثلاثة فروق جوهريّة تمتاز بها الرؤى الصّادقة عن رؤى أضغاث أحلام. فبغضّ النّظر عمّن قام بهذه الاحصائيات والنتائج المستخلصة منها دفعاً للإطالة، فقد تبيّن أن الفرق الأوّل بين هذين القسمين من الرؤى، هو أنّ ماتأتي به أضغاث الأحلام، تكون له جذورٌ ماديّة من واقع الإنسان الذي يراها. على حين أنّ ماتأتي به الرّؤى الصادقة لايكون لها مثل هذه الجذور المادّية. بل تأتي بما يعجز العقل والدّوافع المادّية عن صياغته والتدخّل فيه. وأما الفرق الثاني بينهما فهو أن رؤى أضغاث الأحلام يغلب عليها أنّها لاتحمل أكثر من عنصرٍ مستقبليّ. كأن تحمل خبر قدوم إنسان بعينه على سبيل المثال. على حين أنّ الرؤى الصّادقة كثيراً ماتحمل أكثر من نبوءةٍ مستقبليّة فهي تمون متعدّدة العناصر وبشكلٍ مُلفتٍ للأنظار. كأن تخبر عن قدوم شخصٍ يلبس كذا ويحمل كذا وبرفقته فلانٌ وفلان.

والفرق الثالث الكائن مابين هذين القسمين من الرؤى، هو أنّ الصّادقة قد يرى مضمونها أكثر من شخصٍ واحد. على حين لايحدث هذا في رؤى أضغاث الأحلام.

فهذه هي خلاصة مايتعلق بموضوع مكالمة الله تعالى مع عباده، بأسلوب تمثّلات تجلّيات أسمائه الحسنى فيما يراه النائم من وراء حجاب. وأرى من الضروري الكلام عن أمرٍ سبق لي أن بحثته في مبحث درب العرفان الإلهي. وهو أنّ من سار على درب عرفان ربّه بإخلاص واندفاعٍ ذاتي، ووفقاً لتعاليم هذا القرآن العظيم، يجعل الله عزوجلّ له حواساً روحيّة في مُقابل كلّ حاسّة من حواسّه الخمس، ويعود هذا السّالك مؤهّلاً لتلقّي تمثّلات تجلّيات أسماء ربّه الحسنى في حالة يقظته أيضاً وهو مااصطلح له الربّانيون اسم «الكشف الروحاني». وهذا موضوع يجهله من لم يسر على التعاليم القرآنية الموصلة بصاحبها إلى مرحلة عرفان ربّه عزوجلّ.

ويأتي الكشف الرّوحي مشابهاً لما يراه النّائم في منامه، ووفقاً للنهج الربّاني وأصوله التي تنظم ذلك. فيرى هذا الإنسان المكاشف من المناظر الكشفيّة والتّمثلات مالا يقدر أن يراه أحد من الجالسين حوله. وتحمل تلك المناظر والتمثّلات لهذا المكاشف بشاراتٍ أو تحذيرات، تشكّل في مضمونها كلام ربّه المُوجّه إليه من وراء حجاب.

ولايظنّن ظانٌّ أنّ ماذكرته هو مجرد إدّعاء. بل إنّي قد استقيت هذه الحقيقة من طريقين: من تجربتي الشخصيّة، ومن دلالات ماتضمنته آيات القرآن الكريم. ذلك أن هذا القرآن قد قصّ علينا عدّة مكاشفات روحيّه رآها بعض أنبياء الله ورسله الكرام، وحملت تلك المكاشفات بشاراتٍ وتحذيراتٍ أيضاً، على شاكلة ماتحمله الرؤى الصّادقة من بشاراتٍ وتحذيرات.

أفلم يستهلّ ربنا عزوجلّ سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا، إنّه هو السّميع البصير**﴾؟ ففعل أسرى معناه: سار به ليلاً وليس نهاراً، وقد أتى جل شأنه بكلمة ليلاً بعده بدلالته الرّوحية تنبيهاً من الله عزوجلّ لأذهاننا إلى أنّ هذا الإسراء شبيه بما يحدث للنائم في منامه، أي أنّ الإسراء هو عبارة عن كشفٍ روحيّ، وليس هو بأمرٍ حادثٍ ماديّاً بهذا الجسم العنصري، وشبيه بهذا الكشف، إسراء موسى في حالة الكشف، وهو ماتطرّقت إلى ذكره سورة الكهف المتداول تفسيرها الآن. وبإمكان كلّ قارئ مراجعة ماورد فيها بهذا الخصوص.

وقد يسألني المؤمن الذي لم يبلغ بعد مرتبة المكاشفة الرّوحية أن كيف يحدث هذا الكشف الرّوحي الذي تتحدّثون عنه؟ وأجيب هذا السائل من خلال تجربتي الشخصيّة وأقول: أفلم تُلاحظ أنّ المُستسلم للنوم تتعطّل حواسّه الخمس عن عملها إلى حدٍ بعيد، ولاترى تمثّلات تجليّات أسماء الله الحُسنى إلا بعد حدوث ذلك كلّه؟ فالمؤمن الذي أوتي حواساً روحيّةً في مقابل حواسّه الجسمانية يشعر في حالة يقظته أحياناً أنّ قوّةً خفيّةً هيمنت على جسده وعطّلت قِواه، وهو في كامل وعيه وإدراكه، وتتراءى له تمثّلات شبيهةٌ بتمثّلات منامه يراها بحواسّه الرّوحية بما لايتجاوز ثواني معدودات. وتحمل له هذه التمثّلات تجليّات أسماء ربّه الحسنى بما يشاء ربّه أن يطلعه عليه من أمورٍ مستقبليّة وبشارات، ثم تزول عنه هذه الحالة الطارئة وهو في أحسن حالٍ حيويةٍ ونشاطاً.

هذا وإنّ هذه المكاشفات تترك أثرها البالغ في نفس المؤمن المكاشف، فتدفعه إلى الزّهد في طلب الدّنيا، وإلى التّفاني في طلب محبّة ربّه وقربه، وإلى التفاني في خدمة دينه ليلاً ونهاراً، وبصورةٍ لايعود يكلّ ولايسأم من هذه المواظبة والدّأب على خدمه الإسلام من طاعةٍ لله وخضوعٍ وتذلّلٍ بين يديه، والتزامٍ لشرائع دينه. وتوحيد ربّه توحيداً لايشوبه شائبة شركٍ، أي أنّ تعدّد المكاشفات الرّوحية يُرسّخ في فؤاد هذا المكاشف وفي سلوكه العبودية الحقيقيّة لله عزوجلّ. فيا سعد من يحظى بهذه المرتبة، فهذا هو المؤمن الذي يتأهّل لتمثيل تعاليم القرآن المجيد بصورةٍ عمليّة، وهذا هو الذي يحظى بأبوة محمّدٍ خاتم النبيين الروحيّة، وهذا هو المؤمن الذي يعود يشرب من المعين السّرمدي.

والخلاصة هو أنّ الرؤى الصّادقة المبشرّة، والكشوف الرّوحية تدخل في باب تكلّم الله تعالى مع عباده وفق منطوق الآية (٥١)من سورة الشورى. وهذه الرؤى المبشّرة والكشوف الرّوحية تُصنّف تحت صنف كلام الله مع عباده من وراء حجاب. وتُعتبر في الوقت نفسه دليلاً حسيّاً يثبت منه عدم انقطاع نزول وحي الله وكلامه، من بعد زمن انزال الله تعالى آيات هذا القرآن العظيم .

وكيف بإمكان المؤمن العاقل أن يتصور ولو للحظةٍ واحدةٍ انقطاع الوحي بعد انتهاء إنزال القرآن الكريم، وهو يتلو الآية (٦٠) من سورة غافر التي يأمره ربّه فيها قائلاً ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾؟ فكلمة ادعوني جاءت من دعا الله إذا رغب إليه وابتهل إليه بالسّؤال، ورغب فيما عنده من الخير، أمّا كلمة (استجب) فقد جاءت من استجاب وليس من أجاب، والاستجابة أخصّ من الإجابة على حسب رأي النحاة. فمعنى استجاب الله لفلان: قبل دعاءه من جهة، وردّ له الجواب من جهة ثانية، وقضى حاجته من جهةٍ ثالثة. (محيط المحيط)

والمهمّ في الأمر هو أن المؤمن العاقل لايتصوّر ولو للحظةٍ واحدةٍ الزّعم بانقطاع نزول وحي الله وكلامه بعد نزول القرآن الكريم بعد أن يتلو قول ربّه تعالى ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾. فهذه الألفاظ تؤكّد سماع الله تعالى كلّ دعاء وابتهال يبتهل به بين يدي ربّه عزوجلّ، كما يؤكّد وعد ربّه بقبول هذا الابتهال، وإجابة سؤال السائل وقضاء حاجته، أي أنّ هذه الألفاظ تعني أنّه ونتيجة هذا الدّعاء يحدث تناغم بين العبد الدّاعي وبين ربّه عزّ وجلّ، وهذا الأمر يدحض زعم من يقول بانقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد، فهذا

التناغم يتضمّن سؤالاً من طرف المؤمن، واستجابةً من طرف الله عزوجلّ، ينتهي بإجابة سؤال الدّاعي وقضاء حاجته.

وهل بإمكان المؤمن العاقل أن يتصوّر حدوث توقّف الله تعالى عن التكلّم مع البشر بعد نزول القرآن الكريم، في وقتٍ يجد نفسه فيه يتلو ضمن آيات القرآن الكريم نماذج عمّا حدث في الماضي من تضرّعات من جانب عباد الله الصالحين، واستجابة الله تعالى لتلك التضرّعات، وقضاء ماطلبوه من حاجات؟

وعليه فإنّ هذه الألفاظ من الآية المذكورة من سورة غافر تؤكّد لقارئ القرآن الكريم عدم انقطاع مكالمة الله البشر بالطرق الثلاث المنصوص عليها في سورة الشّورى. خصوصاً وأنّ ألفاظ (**ادعوني استجب لكم**) قد وردت بصيغة فعل الأمر «ادعوني». هذا الأمر الذي يضع موضوع الدّعاء في مرتبة فرض العبادة، كبقيّة فروض العبادات المنصوص عليها في الدّين الإسلامي. وبدليل من الآية نفسها، ذلك أنّ كامل نصّ ألفاظ الآية المذكورة هو: ﴿**وقال ربّكم ادعوني استجب لكم، إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾. فالأمر بالابتهال إلى الله تعالى ورد كواجب عبادةٍ بدليل مابعده وهو قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾. أي صاغرين. فجملة ﴿**يستكبرون عن عبادتي**﴾ فسّرت الأمر بالدّعاء، أي أنّ الدعاء واجب على العبد وجوب عبادة، فالذي يستكبر عن القيام بالدّعاء والابتهال بين يدي ربّه عز وجلّ ، وليقضي له حاجته، يُعتبر مستكبراً ومستعلياً في نظر الله عزوجل، فيعد من جملة الذين يفكّرون تفكيراً مادّياً بعيداً عن نهج التّفكير الرّوحاني. وبهذا الاستكبار يحرم هذا الإنسان نفسه من ثمار إيمانه بالله تعالى ، وبالتّالي يدخل جهنّم صاغراً مُهاناً، لاعتقاده بصورةٍ عمليّةٍ انقطاع نزول الوحي، وانقطاع الله عن التكلّم مع عباده، مُتجاهلاً أنّ مصير كلّ شيءٍ صائر إلى الله عزوجلّ.

ومادامت ضرورة الدّعاء المأمورين بها في هذه الآية الكريمة وردت من باب العبادة، فلا يعني هذا بالضرورة استجابة الله جل شأنه كلّ دُعاء يدعو به العبد المؤمن. ذلك لأنّ هذا الأمر غير منصوص عليه في هذه الآية الكريمة، فلم يقل تعالى: «ادعوني أجيب جميع دعواتكم» بل قال ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾ وهذا كلامٌ عامٌ غير مُخصّص. فواجب الاستعانة بالله تعالى في أمورنا اليوميّة،

هو عمليّة فرض عبادة. أمّا إجابة كلّ مطلبٍ نطلبه فهذا أمر يعود إلى مشيئة الله عزوجلّ.

ولاينبغي للقارئ أن يستغرب ماأقوله، فها أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، وإليه الآية (١٥٦) من سورة البقرة التي يقول الله عزوجلّ فيها: **﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾**. فها أنّ الله تعالى قد وصف ضمن هذه الآيات الكريمة المؤمنين المُمتحَنين بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات، وصفهم أنّهم يتقبّلون هذه الابتلاءات بالرضى والتّسليم بقضاء ربّهم، ولم ينههم عن فعل ذلك، ولاحثّهم على الدّعاء بين يديه ليرفع عنهم هذه الابتلاءات، هذا يحدث لاعتقاد هؤلاء أنّ ربّهم هو الذي وعد أن يدافع عنهم وأن يرزقهم ويهبهم الأولاد والذريّة ويبارك مزروعاتهم. فإن ابتلاهم ربّهم بشيء ممّا نصّت عليه هذه الآية الكريمة يتقبّلون حدوث ذلك من باب امتحان الله إيمانهم وليس من باب إيذائهم، لذلك يقولون إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلا يَدْعُونّ ربّهم ليرفع الغمّة عنهم ولايلحّون في ذلك، بل يتأدّبون أمام ربّهم بأدب العارف بالله عزوجلّ.

فمن هذا لابدّ أن يتعّظ المؤمن بمضمون هذه الآية الكريمة مدركاً أن دلالة «ادعوني استجب لكم» لاتتجاوز كونها أمراً واجب التقيّد به ومن باب (مايعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ..).

وإلى القارئ مثالاً آخر يدعّم وجهة نظري التي ذكرتها آنفاً، وفي هذا المثال ينهى الله تعالى فيه عبده عن الدّعاء، فقد أوردت الآيات (٤٦) من سورة هود قول ربّنا عزوجلّ: **﴿ونادى نوحٌ ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين. قال: يانوح إنّه ليس من أهلك، إنّه عملٌ غير صالح، فلا تسألن مالیس لك به علم، إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾**. فها أنّ نوحاً عمل على فريضة العبادة ودعا ربّه لينقذ له ابنه، وقد زجره ربّه ونهاه عن مثل هذا الدّعاء، لنستنبط من ذلك أنّ هناك من الأمور مالا يجوز فيها الدّعاء، فالأمور التي تتجاوز حدود علمنا وفهمنا، لايحقّ لنا المطالبة بها بالدّعاء بين يديّ ربّنا عزوجلّ. بل إنّ من واجبنا حينئذٍ أن نتوجّه بدعاءٍ مأثورٍ

عن محمد رسول الله ﷺ فندعو: (اللّهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبته أمري، فأقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنّ ها الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عنّي واقدر لي الخير حيث كان ثمّ أرضني به). فما أبْلَغَهُ وأكمله من دعاء .

وأنصح المؤمن في هذه الأمور أن يستفتي قلبه قبل أن يقدم على أيّ دُعاء من أيّ نوع كان، فهذه نصيحة إمام الزّمان، ومعتقداً أنّ الله عزّوجلّ يصحّح لهُ ماأخطأ به على شاكلة ماصحّح لنوح عليه السّلام اجتهاده.

إنّ وجود المثالين الآنفي الذّكر ينبّه عقولنا إلى أن الدّعاء كفرض عبادة، لاينبغي لنا الأخذ به عند كل أمر من أمور حياتنا ـ فالذي منّ الله تعالى عليه بواسطة نقل خاصة،على سبيل المثال لايدعو طالباً واسطة نقل ، بل يمتطي ناقلته وهو يذكر ربّه ويقول: ﴿**الحمد لله الذي سخّر لنا هذا وماكُنّا له مُقرنين**﴾. وعليه فإنّ من واجب المؤمن أن يتبصّر في الأمر قبل اتّخاذ القرار بالدعاء، ذلك لأن الله تعالى لم يَعِدْ عبده بالاستجابة لجميع أدعيته من جهة، بل ونهاه من جهةٍ أخرى عن الدّعاء للأمور التي لايصل إليها فهمه وإدراكه.

هذا والذي يتدبّر الآية (٤٠) من سورة الأنعام يتضّح له جليّاً أنّ الله عزوجلّ ربط موضوع استجابته تعالى لدعاء عبده، بمشيئة ذاته جل شأنه وليس بمشيئة عبده، ذلك أنّ الله تعالى يقول في هذه الآية من سورة الأنعام: ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إيّاه تدعون، فيكشف ماتدعون إليه إن شاء، وتنسون ماتشركون**﴾. وهو جلّ شأنه ربط استجابة الدّاعي هنا بمشيئته عزوجلّ وليس بشيءٍ آخر. فهو تعالى لم يَعِد عبده بالاستجابة لطلبه في هذه الحالة بالضّرورة. بل وعد بالاستجابة وفق مشيئة ربّه عزوجلّ تنبيهاً للأذهان إلى أنّ القرار في كل شيء في هذا الكون يعود إلى مشيئة الله تعالى وإرادته ووفق تقديره، فالله تعالى قادر على تسيير الأمور بحيث تصير جميع الأمور وعواقبها وفق ماقدّره وقضاه، هذا وإن بدت هذه الأمور في ظاهرها لها استقلاليّتها ولها أن تقرّر مصائرها.

والذي يهمُّنا هنا من جميع ماذكرناه هو أنّ الدّعاء كعبادة يشكّل دليلاً حسيّاً حيّاً يؤكّد عدم انقطاع الله تعالى عن مكالمة عباده من بعد زمن إنزاله

تعالى لهذا الكتاب العزيز ، وهذه المكالمة تتمّ أيضاً بالطّرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة شورى.

وهذه الأدلّة التي قدّمتها لأثبت من خلالها عدم انقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد هي أدلّةٌ نظريّةٌ لاتكتمل مُعطياتها إلاّ إذا ثبت ذلك على صعيد الواقع العمليّ. فإن عاد القارئ إلى تاريخ هذه الأمة الإسلامية تصادفه عشرات بل مئات الكتب المخطوطة الموروثة تحدّثه عن صلّة أصحابها بالله عزوجلّ ومكالمته تعالى إيّاهم بهذه الطرق الثلاث، ممّا لاحاجة بي هنا لتعداد أسماء هذه المؤلّفات وأسماء أصحابها، بل يكفيني الاستدلال بوجود هؤلاء الأبرار الصالحين للتّدليل بصورةٍ عمليّةٍ وتطبيقيّةٍ على مصداقيّة الطرح النظريّ.

وليُحاكم القارئ عقله انطلاقاً من أنّ الأمر السّلبي لاقيمة له في مواجهة الأمر الإيجابي، فوجود فئة «الزّاعمين تكلّم الله تعالى معهم هو أمرٌ ايجابيّ، على حين أنّ القول بانقطاع الله تعالى عن التكلّم مع عباده بعد نزول القرآن الكريم هو أمرٌ سلبيّ، ولايتساوى هذا الأمر وذاك في ميزان عقل العاقل، بل إنّ الظاهرة الايجابيّة مُقدّمة على الظاهرة السّلبيّة منطقيّاً، وهي تُعيد النكرة إلى الطرف السّالب مطالبةً بالدّليل، وليس العكس من ذلك، فإن كنت أرى فلا يحقّ لأعمى البصيرة تكذيب مارأى، وقد طرح القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظّلمات والنّور**﴾.

ألا إنّني ألمحت فيما مضى إلى وجود قانونين مسنونين لتسيير دفّة هذا الكون، الأوّل قانونٌ طبيعيّ والثاني قانونٌ روحّي أو شرعيّ. فقوانين القضاء والقدر التي وضّحتها في مؤلّف «القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة» هي التي يكون لها القرار في مصائر الأمور.

١٠ـ الدّعاء وحقيقته :

ولقد أودع الله جلّ شأنه خواصاً روحيّةً في الأمور الرّوحيّة العباديّة، كذلك أودع جلّ شأنه خواصاً ماديّة في الأشياء الماديّة المتداولة كالماء والنار وغير المتداولة. ومالتعبّد بالدّعاء إلاّ من هذا القبيل. فالدّعاء أودع الله تعالى فيه خواصاً ذات تأثير تفوق خواص جميع العبادات الأخرى. فللدّعاء خواصه المؤثّرة، على شاكلة ما للأدوية وغيرها من خواص. وهل يستسيغ عقلنا أن يأمرنا الله

تعالى باللّجوء إلى التعبّد بالدّعاء في وقتٍ لايكون فيه هذا الدعاء من خواصّ مؤثرة على شاكلة مايكون للأدوية من خواص مؤثّره؟ فللدّعاء خواصّه وللدّواء خواصه. لكن خواص الأشياء حدودا تقف عندها. وأزمنة تنقضي وتبطل فعاليتها بعد مرورها، لذلك تلزم الحكومات في مختلف الدّول مصانع الأدوية بتسجيل تاريخ الصنع وتاريخ إنتهاء مفعول الدواء فيكتبون هذا الدّواء ينفع من تاريخ كذا إلى تاريخ كذا. وهذا الأمر نفسه يحدث بالنسبة إلى الأدعية ومواقيت التعبّد بها أو عدمه.

فلماذا يقرّر أصحاب المصانع تحديد مدّة فعالية الدّواء؟ يحدّدونها من منطلق قانون تقدير ذلك. كذلك فإنّ الأدعية تتبع قوانين التقدير أي قوانين القضاء والقدر. هذه القوانين التي تعمل بمشيئة الله عزوجل مالك الملك وصاحب القرار الأخير والأعلى. فالمؤمن الذي لايدرك هذه الحقيقة، يعسر عليه فهم حقيقة الدّعاء. فما هي حقيقة الدّعاء؟ نتساءل عن حقيقة الدّعاء لتمكّننا معرفتنا لحقيقته من فهم موضوع استجابة الدّعاء.

الدّعاء في حقيقته هو عبارة عن مناجاةٍ تقوم مابين المؤمن الدّاعي ومابين خالقه. فالعبد المؤمن ينطلق بدافع من إيمانه ويقينه بوجود الله خالقه الرّحمن الذي لاتقف دون عطاءاته ورحمته حدود. فهذا الاعتقاد وهذا اليقين برحمانيّة الله يجذب هذا العبد المؤمن ليسأل هذا الرحمن عطاءه وقضاء حاجته، ويشعر العبد وهو يدعو بحالة القرب من خالقه الرّحمن. فإن الدفع هذا الدّاعي يدعو بحرارةٍ وحرقةٍ وتضرّع، يبلغ مرتبة قربٍ روحيةٍ من خالقه تتولّد عنها خواصّ عجيبة. أي أنّ حالة الدّاعي المنطلقة من كامل اليقين بعطاء الرّحمن وكامل الأمل بعطائه، وكامل الرجاء والهمّة. إن مثل هذه الحالة ترفع عن عينيّ هذا الدّاعي ستائر الغفلة، وتُكسبه صحوةً كاملةً يتفانى معها بين يدي ربّه عزوجلّ؛ ويعود بالتالي يشعر أنه على أعتاب هذا الإله الأحد الذي لاشريك له، فتسجد نفس هذا الداعي حينئذٍ على أعتاب قدس الأقداس. وهذه الحالة تجذب تلطّف الله وعنايته نحو هذا المؤمن الساجد الذي يدعو لقضاء حاجة. فتتوجّه ذات الله الأعلى لقضاء حاجته، وبالتّالي يتولّد عن هذا التوجّه الرّحماني خلق أسبابٍ ضرورية تستلزمها قضاء الحاجة المذكورة، وكثيراً ماتتجلّى أسماء الله الحسنى وتتمثّل لهذا الداعي مُنبئةً إيّاه ومُبشّرةً بقرار ربّه جلّ شأنه من وراء حجاب في المنام أو كشفاً إن قطع

أشواط معرفة ربّه الضرورية، أو تأتيه هذه البشارة وحياً أي بطريق الإشارة السّريعة التي لايعلم سرّها إلاّ المجرّبون.

فلنفرض أنّ مؤمناً دعا بدعاء الاستسقاء طلباً للغيث. فإن حصلت له هذه الحالة التي ذكرتها، تتولّد من جانب عالم الغيب والشهادة الله الرحمن المقتدر أسبابٌ طبيعيّةٌ لتتسببّ بنزول هذا الغيث المطلوب، ويشاهد الناس عملياً مالدعاء الاستسقاء من خواصّ تتجلّى على الصّعيد العمليّ، وهذا هو السّبب في أنّ أرباب الكشف الرّوحي قد ثبت لديهم من خلال تجاربهم الشخصية، وجود هذه العناصر المتوفرة في أدعيتهم، وجود خواص خلقٍ وتكوينٍ في هذا العالم السّفليّ بإذن الله الواحد الأحد جلّ جلاله، والذي يراجع مؤلفات هؤلاء المكاشفين يجدها طافحة بعشرات الأمثلة التي تتكلّم عن استجابة الدّعوات.

وأنصح القارئ ألاّ يذهب بعيداً في هذا الموضوع، بل إنّ من واجبه أن يتذكّر ماجرى من انقلاب مُعجز في شبه جزيرة العرب على أيدي محمّد النّبي الأميّ ﷺ، فإنّ للّيالي الطّويلة التي كان يتعبّد فيها هذا الرسول الكريم ساعاتٍ طوال يدعو فيها لأمّته، قد أحدثت خواصٌ تلك الأدعية تلك المعجزة التي وحّدت أبناءَ شِبْهِ جزيرة العرب بما يضاهي معجزة القرآن العظيم.

هذا وإنّ تجربتي الشخصيّة وضّحت لي ماذكرته آنفاً من حقائق مايحتوي عليه الدعاء من خواصّ عجيبة تفوق خواصّ أي شيء من الأشياء المادّية من حولنا، ولايعني هذا أنّ جميع الأدعية تحقّق أهدافها، بل منها مالا يُثمر الثمر المرجو منها، على شاكلة الأدوية منها النّافع المؤثر، ومنها مالا يحقّق أهدافه، وهل سدّت الأدوية باب الموت في زمن من الأزمان؟

فالمهمّ أن يُدرك القارئ أنّ التقدير الإلهي يحيط بكلّ أمر من الأمور. لكنّ هذا التقدير لايستحلّ حُرمة العلوم، ولايبطل قانون الأخذ بالأسباب، بل إنّ كل مايحدث هو حالة تيسير أو حالة تعسير. فما كان مقدّراً تتيسّر أسبابه، وماكان غير مقدر تتعسّر أسبابه بشكلٍ ملحوظ. فإن بدت حالة التيسير، يُلاحظ المرء أنّ الدّواء يترك أثره الشّافي السّريع على المريض، ونفس هذه الحالة تبدو في حالات الأدعية أيضاً، حيث يُلاحظ الدّاعي تجمّع أسباب قبوليّة الدّعاء، يحدث هذا في حالة موافقة هذا الدّعاء لمشيئة الله الأحد الفعّال لما يريد. أي أنّ سلسلة الأسباب المادّية والرّوحية مرتبطة بمشيئة الله عزوجل، لذلك كان من الواجب الحذر وعدم انكار وجود هذين القانونين المادّي والرّوحي.

وسبق لي أن نبّهت سابقاً إلى أنّ تكلّم الله مع البشر من وراء حجاب هو الطّريق الأقدم والأمثل لملاءمته لمستوى عقل هذا الإنسان، وقد ساعد ذلك البشر في بداية زمان وجودهم على تلقّي كلام ربّهم من وراء حجاب، كما ساعدهم ذلك على تلقّي نور الهداية التي كانت تقتضيها مراحل تطوّرهم عبر الزّمان إلى أن بعث الله تعالى آدم عليه السّلام، فنقل البشر من حياة الكهوف إلى حياة السّهول وعلّمهم بدايات الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسيّاسيّة.

وقد جعل الله عزوجلّ لكلامه من وراء حجاب علاماتٍ يتميّز بها عن أضغاث الأحلام التي يأتي بثّها من جهاتٍ عديدة، ويتمثّلها عقل الإنسان وإراداته في حالة النّوم أيضاً، أي أنّ للرّؤى الصّادقة من التأثير الواضح على صاحب الرؤيا، مالا يكون لرؤى أضغاث الأحلام، وهذه هي حكمة ماقصّه القرآن الكريم علينا ممّا رآه ملك مصر في منامه، فالملك تأثّر برؤياه إلى درجة دفعته ليسأل تأويلها من جميع أركان دولته. ففي سورة يوسف: ﴿**وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سِمانٍ يأكُلهنّ سبعٌ عجاف، وسبعَ سنبلاتٍ خُضرٍ وأُخر يابسات، ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تَعْبُرون. قالوا أضغاث أحلام، ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾. فلولا شدّة تأثير هذه الرؤيا الصّادقة على ملك مصر والتي تمثّل كلام الله تعالى إليه من وراء حجاب، فما كان ليندفع هذا الإندفاع ويطلب من أركان حكومته الطّلب المذكور، وإلى جانب ذلك فقد عجز جميع أركان هذا الملك عن تأويل هذا التمثّل الذي تمثّلته تجلّيات أسماء الله الحسنى من وراء حجاب.

ولم يؤت تأويل كلام الله يومئذٍ إلاّ يوسف عليه السّلام، الذي أوّله وقال: ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سُنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون، ثم يأتي بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكُلن ماقدّمتم لهُنّ إلاّ قليلاً ممّا تُحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصرون**﴾. وقد تطوّرت الأمور وفق ماأوّله يوسف عليه السّلام.

فكلام الله تعالى من وراء حجاب غير مرتبط بالنّبوّة ومقامها، وإلاّ فكيف حدث لملك مصر أن رأى مثل هذه الرؤيا الصادقة العظيمة؟ فكلام الله يرد من طرف تجلّيات أسمائه الحسنى إلى البشر بصورة عامة، على اعتبار أنّه جلّ شأنه هو ربّ الناس قاطبة، وليس ربّ المؤمنين وحدهم، فلو كان الذين يزعمون انقطاع

نزول وحي الله تعالى من بعد إنزال هذا القرآن، لو كانوا مُحقين عند الحقيقة التي ذكرتها، لردعتهم هذه الحقيقة عن زعمهم المذكور الذي قطعوا به أنفسهم عن حقائقهم، فماتوا روحياً، وختمت بالقسر عقولهم، وتلبدت بعمى البصيرة، وساءوا سمعة هذا الدين الذي ينبض بالحياة.

فالله عزوجلّ لم يقل في الآية (٥١) من سورة الشورى «وما كان نبيّ» بل قال «وما كان لبشر أن يكلمه الله». وتبعاً لذلك فالله تعالى يكلم البشر قبل إنزال القرآن الكريم، وبعد إنزاله هذا الكتاب العزيز، هذا مانقتضيه صفة الربوبيّة تعامّة وخاصة. فالله ربّ العالمين، بمعنى أنّ ربوبيّته تشمل جميع العوالم والجنّ والإنس، والله ربّ العالمين بمعنى أنّ ربوبيته تشمل كل إنسان بشر في هذا الوجود، سواء أكان هذا الإنسان مسلماً أو كان غير مسلم. فجميع عباد الله عزوجلّ، وتتجلى هذه الربوبيّة على المؤمن بالبشارات على حين تتجلى لتنذر غير المؤمنين.

وأنا إذ أقول بعدم انقطاع الله تعالى عن التكلّم مع عباده بعد نزول هذا القرآن العظيم، أقدّم تجاربي الشخصية وتجارب أصدقائي الروحانيين دليلاً عملياً وحسّياً كدليل إثباتي يثبت مدّعاي، أمّا الذين يزعمون انقطاع الوحي فلا يمكن مانملك من تجارب حسّية ومشاهدات، فهل يستوي الأعمى والبصير؟ كلاّ لايستويان فنحن نمثل طرفاً موجباً، وهؤلاء يمثلون طرفاً سالباً في هذا الأمر الطبيعي.

ألا إنّ حياة الإسلام مرتبطةٌ موضوعياً بهذه الحياة الروحية. على شاكلة الأرض فإن حياتها مرتبطةٌ بماء السماء. فهذا مدّ روحانيٌ سماويٌ وذاك مدّ مادّيٌ سماويٌ. وهو مرتبطٌ أولاً وأخيراً، بأعمال المؤمنين، وإصلاح الأرض وتهيئتها لتلقّي ماء الحياة.



أسماء الله الحسنى

الملك ﷻ	العَدْل ﷻ	المتين ﷻ	العفوّ ﷻ
القُدّوس ﷻ	صادق الوعد ﷻ	الوليّ ﷻ	الرّؤوف ﷻ
السلام ﷻ	اللّطيف ﷻ	الحميد ﷻ	مالك الملك ﷻ
المؤمن ﷻ	الخبير ﷻ	المُحصي ﷻ	ذي الجلال والإكرام ﷻ
المُهيمن ﷻ	الحليم ﷻ	المُبدئ ﷻ	المُقسط ﷻ
العزيز ﷻ	العظيم ﷻ	المُعيد ﷻ	الجامع ﷻ
الجبّار ﷻ	الغفور ﷻ	المُحيي ﷻ	الغنيّ ﷻ
المُتكبّر ﷻ	الشكور ﷻ	المُميت ﷻ	المُغني ﷻ
الخالق ﷻ	العليّ ﷻ	الحيّ ﷻ	المانع ﷻ
البارئ ﷻ	الكبير ﷻ	القيّوم ﷻ	الضّار ﷻ
المُصوّر ﷻ	الحفيظ ﷻ	الواجد ﷻ	النافع ﷻ
الغفّار ﷻ	المُقيت ﷻ	الماجد ﷻ	النور ﷻ
القهّار ﷻ	الحسيب ﷻ	القادر ﷻ	الهادي ﷻ
الوهّاب ﷻ	الجليل ﷻ	المُقتدر ﷻ	البديع ﷻ
الرزّاق ﷻ	الكريم ﷻ	المُقدّم ﷻ	الباقي ﷻ
الفتّاح ﷻ	الرقيب ﷻ	المُؤخر ﷻ	الوارث ﷻ
العليم ﷻ	المُجيب ﷻ	الأول ﷻ	الرّشيد ﷻ
القابض ﷻ	الواسع ﷻ	الآخر ﷻ	الصّبور ﷻ
الباسط ﷻ	الحكيم ﷻ	الظّاهر ﷻ	ذو العرش ﷻ
الخافض ﷻ	الودود ﷻ	الباطن ﷻ	ذو الوقار ﷻ
الرّافع ﷻ	المجيد ﷻ	الوالي ﷻ	المتكلّم ﷻ
المُعز ﷻ	الباعث ﷻ	المُتعالي ﷻ	الشّافي ﷻ
المُذلّ ﷻ	الشهيد ﷻ	البرّ ﷻ	الكافي ﷻ
السميع ﷻ	الحقّ ﷻ	التّواب ﷻ	الفاطر ﷻ
البصير ﷻ	الوكيل ﷻ	المُنعم ﷻ	الأحد ﷻ
الحَكَمْ ﷻ	القويّ ﷻ	المُنتقم ﷻ	الصّمد ﷻ

الصفات الرئيسية الجامعة في سورة الفاتحة
وهي خلاصة أسماء الله الحسنى المختصة بالمخلوقات

ربّ العالمين ﷻ : معناه الخالق ويُنشئ المخلوق ويُطوّره ويُرقّيه من أدنى حالة إلى أعلاها .

الرّحمن ﷻ : معناه أنّه تعالى مصدر كلّ عطاء ، فهو الذي خلق كلّ شيء من لدنه ، وهو الذي أعان كل شيء على التطوّر من لدنه ، ورزقهم ورحمهم من لدنه.

الرحيم ﷻ: معناه أنّه تعالى قد كتب على نفسه أن يهب حياة الخلود كلّ مالكٍ للعقل والإرادة ينتهج التقوى مسلكاً بعيداً عن الرّذيلة والشّر بإرادة وتصميم .

مالك يوم الدّين ﷻ : معناه أنّه تعالى ينتهي إليه كلّ شيء ، ويعود الحكم الأخير له ، ويشفع بين يديه مَن أذن له الرّحمن.

الفهـرس

مقدمة الكتاب

المبحث الأول

الباب الأول • مصداقيّة وجود الله تعالى ٧

تمهيد ضروري ٨

الفصل الأول ١ً- منزلة العقل والفكر ١١

٢ً- اسم الذّات الإلهيّة الأعظم ١٥

الفصل الثاني ١ً- قِدم الوحي والتّوحيد ١٦

٢ً- مناقشة النّظريّة المادّية تاريخياً ومنطقيّاً ١٨

٣ً- مناقشة النّظريّة عقلانياً ٢١

الفصل الثالث ١ً- الطّرح القرآني ٢٤

٢ً- مثالٌ من واقعنا المعاصر ٢٩

٣ً- التّوراة والإنجيل المعاصران مُحرّفان ٣١

الباب الثاني • مصداقيّة القرآن العظيم ومرجعيّته ٣٦

الفصل الأول ١ً- القرآن الكريم ومزاياه كمرجعٍ موثوق ٣٧

٢ً- مزيّة القرآن الكريم الثانية ٣٩

الفصل الثاني ١ً- دليلٌ ضمنيٌّ على مصداقيّة القرآن العظيم ٤٢

٢ً- دليلٌ من خارج القرآن الكريم على مصداقيّته ٤٣

الفصل الثالث ١ً- جمع وتدوين القرآن العظيم ٤٦

	٢ً- نُسخُ رِقاع القرآن زمن عثمان (ﷺ)	٤٨
الفصل الرابع	١ً- هل اختلق محمد (ﷺ) القرآن الكريم	٥٣
	٢ً- اعتبار المفكرين محمداً (ﷺ) عبقرياً ومحاكمة ذلك	٥٧
	٣ً- ما معنى كلمة عبقريّ وأثر العبقريّة	٦١
	٤ً- أدلة مصداقيّة القرآن العظيم العشرة	٦٣
	٥ً- مابين تعاليم القرآن وما بين تعاليم التوراة والانجيل من فروق	٨٦
	٦ً- خلاصة أدلّة المصداقيّة	١٢٣
الباب الثالث	**• وجود الله تعالى وأدلة وجوده**	١٢٨
الفصل الأول	١ً- المنهاج القرآني للتّدليل على وجود الله تعالى	١٢٩
	٢ً- الإلحاد مُدانٌ بأقلام رموزه	١٣١
الفصل الثاني	أدلة مُتنوعة على وجود الله تعالى	١٣٣
	أولاً - الأدلّة التّرجيحية الذهنيّة	١٣٤
	١ً- دليل الإجماع العام	١٣٥
	٢ً- دليل التعدّد اللونّي	١٣٦
	٣ً- دليل الوحدانيّة في الذات والصفات	١٤٤
	٤ً- دليل العلّة والمعلول أو السبب والمسبّب	١٥٣
	٥ً- دليل الغائيّة والتّكامل	١٥٥
	٦ً- دليل النّظام والمُنظّم	١٦١
	٧ً- دليل القُدرة	١٦٥
الفصل الثالث	أسماء الله تعالى أدلّة وجوده	١٦٩
	ثانياً - أدلة مُستمدة من أسماء الله الحسنى	١٦٩

١ً- ثبوت أنّ الله هو الحّي ١٦٩
٢ً- ثُبوت أنّ الله هو العزيز ١٧٧
٣ً- ثُبوت أن الله هو المتكلّم ١٨٥
٤ً- ثُبوت أنّ الله هو الحفيظ ١٩٢

الفصل الرابع
ثالثاً - أدلّة سلوكيّة مطمئنة ٢٠٠
١ً- دليل الإنتظار والتّرقُب ٢٠٢
٢ً- دليل الإستعانة بالدعاء ٢٠٧
٣ً- دليل حقّ اليقين ٢١٠

الفصل الخامس المقصد من خلق الإنسان ٢١٧
١ً- مُحصلة الأدلّة السلوكيّة ٢١٧
٢ً- المقصد من خلق الإنسان وأدلّته الثلاث ٢٢٤

الباب الرابع • الشرك والتّوحيد ٢٣٢
الفصل الأول الشرك والتّوحيد وحدودهما ٢٣٤
الفصل الثاني ١ً- الشرك الخفّي ٢٣٨
٢ً- العقل وتدليله على أن الله مُسبب الأسباب ٢٤٦
٣ً- عقل الإنسان وأسُس صيانة محاكمته ٢٥٣

المبحث الثاني

الباب الأول • العرفان الإلهي ٢٥٦
الفصل الأول ١ً- أهمية الموضوع ٢٥٧
٢ً- مفهوم العرفان لغويّاً ٢٥٩

	٣ً- ألفاظ معبرة عن العرفان :	٢٦١
	الشوق	٢٦١
	العشق	٢٦٢
	الرّغبة	٢٦٣
	الأنس	٢٦٤
	الودّ	٢٦٦
	المحبّة	٢٦٩
الفصل الثاني	١ً- قانون المحبة الطبيعي	٢٧١
	٢ً- المحبة وتعاليم القرآن العظيم	٢٧٣
	٣ً- مقام الخلة لغةً وقرآناً	٢٧٦
الباب الثاني		
الفصل الأول	١ً- الولادة الرّوحيّة	٢٧٩
	٢ً- آثار بعثة آدم عليه السلام	٢٧٩
الفصل الثاني	المحبة الإلهية وأصولها	٢٨٢
	١ً- القانون أو الأصل الأول	٢٨٢
	٢ً- القانون أو الأصل الثاني	٢٨٤
الفصل الثالث	مراحل العرفان الإلهي	٢٨٧
	أولاً- مقام الرّغبة وأدلّته الثلاث	٢٨٧
	١ً- الدّليل الأول	٢٨٧
	٢ً- الدّليل الثاني	٢٨٨
	٣ً- الدّليل الثالث	٢٨٩
	٤ً- حقيقة الصّلاة الإسلاميّة	٢٩٠
	٥ً- الخشوع وأحواله	٢٩٣

٦ً- النّفاق وأثره الرّوحي القتّال ٢٩٥
ثانياً - مقام الأنس والود ٣٠٢
ثالثاً - مقام المحبة ٣٠٣

الباب الثالث

الفصل الأول

أولاً - الذكر الإلهي وتعريفه ٣٠٨
ثانياً - فلسفة الذكر الإلهي ٣١٠
ثالثاً- أشكال الذكر الإلهي ٣١٢
١ً- الصّلاة ٣١٣
٢ً- تلاوة القرآن الكريم ٣١٣
٣ً- التّوسل بأسماء الله الحسنى ٣١٤
٤ً- الدّعوة إلى سبيل الله تعالى ٣١٥
رابعاً- كيف نذكر الله تعالى ؟ ٣١٥

الفصل الثاني

١ً- بركات الذكر الإلهي الروحيّة ٣٢٥
٢ً- علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء ٣٢٧

الباب الرابع

الفصل الأول

من هم المذمومين في كتاب الله العزيز ؟ ٣٣٠
١ً- الله لايحبّ كُلَّ مختالٍ فخور ٣٣١
٢ً- الله لايحبّ المعتدين ٣٣٣
٣ً- الله لايحبّ الخوّان ٣٣٥
٤ً- الله لايحبّ كلّ كفّارٍ أثيم ٣٣٧
٥ً- الله لايحبّ الفرحين ٣٤٣
٦ً- الله لايحبّ المُفسدين ٣٤٦

٧ً، ٨ً- الله لايحبّ الخوّان والكفور ٣٥٢
٩ً- الله لايحبّ المسرفين ٣٥٤
١٠ً- الله لايحبّ الظّالمين ٣٦١

الفصل الثاني كيف تفوز بمحبّة الله جلّ شأنه ؟ ٣٦٥
١ً- تمتين القاعدة ٣٦٥
٢ً- اعتياد التفكّر بنهج روحيّ ٣٦٧
٣ً- الإحسان إلى الناس دون تمييز بينهم ٣٧٤
٤ً- وعي مفهوم الفطرة والكيان الرّوحي والمسار التّوحيدي ٣٨٤
٥ً- فهم البسملة كأحد أصول التّفسير ٤٠١
٦ً- التّعبد بالدّعاء . ٤١٣
٧ - التّوبة والاستغفار : مفهومها وفلسفتها . ٤٢٩
٨ - التّوكّل على الله تعالى ومنهاجه ٤٣٦
٩ - محاولة التّحلي بتقوى الله تعالى . ٤٤٦
١٠ - محاولة التخلّق بالخلق المحمديّ العظيم ٤٥٤
١١ - الإلتزام بصفتي العدل والإنصاف خاصّة ٤٦٤

الفصل الثالث

أولاً ـ المحبّة ومضمونها ٤٧٢
ثانياً ـ معالم حُسن الله وإحسانه ٤٨١
١ً- وجه الإحسان الإلهيّ ٤٨١
٢ً- وجه الجمال الإلهيّ ٤٨٦

المبحث الثالث

طريقة الاتصال بالله عزّ وجلّ ٤٩٢

الباب الأول

الفصل الأول ١ً - تمهيد ٤٩٣

٢ً - المحدود لا يَرى غير المحدود والعكس صحيح ٤٩٤

٣ً - إمكانيّة الاتّصال بالله عزّ وجلّ . ٤٩٦

الفصل الثاني تجليّات أسماء الله تعالى ٥٠٠

١ً - المفهوم اللّغويّ للتجلّي والتمثّل . ٥٠٠

٢ً - مضمون تجليّات الأسماء الحسنى . ٥٠١

٣ً - مضمون تمثّلات هذه التجليّات الإلهيّة . ٥٠٤

٤ً - فروق الرؤية ما بين اليقظة والمنام . ٥٠٨

الفصل الثالث الله لا ينقطع يوماً عن مكالمة عباده ٥١١

١ً - الفرق ما بين كلمتي إنسٍ وبشرٍ لغويّاً ٥١١

٢ً - البشر القديم وتسميتُهُ في القرآن الكريم . ٥١٢

٣ً - الدّليل على تكلّم الخالق مع البشر قبل آدم وبعده . ٥١٤

٤ً - تكلّم الخالق مع البشر قبل آدم ٥١٨

الباب الثاني آدم أوّلُ نبيّ ٥٢٣

الفصل الأول أخطاء المفسّرين وإشكالاتهم ٥٢٤

١ً - ظنّهم أن آدم كان أوّل مخلوق ٥٢٤

٢ً - ظنّهم أن جنّة آدم كانت سماويّة ٥٢٥

٣ً - تأثّرهم بقصّة آدم التّوراتية ٥٢٨

الفصل الثاني قصة آدم مزيجٌ ما بين الحقيقة والمجاز ولسان الحال ٥٣٠

١ً- قصة الإيمان الأول والكفر الأول ٥٣١

٢ً - المقاصد الموضوعية من قصّة آدم ٥٣٢

٣ ً – قصّة آدم من الوجهة الموضوعيّة ٥٣٤
٤ ً – أقوال إبليس بلسان حاله ٥٣٤
٥ ً – مفهوما التّهذيب والحضارة وما بينهما من فروق ٥٣٩
٦ ً – المقصد الثاني الكبير لقصّة آدم ٥٤٣
٧ ً – المقصد الثالث لقصّة آدم ٥٤٥
٨ ً – المقصد الرابع لقصّة آدم ٥٦٦
٩ ً – المقصد الخامس لقصّة آدم ٥٧٢
١٠ ً – قصّة آدم بلسان الحال ٥٨٠

الباب الثالث ٥٨٢

الفصل الأول صلة الله بالبشر من بعد آدم ٥٨٣
١ ً – رسالة آدم رفعت شعار الحوار لا العنف ٥٨٣
٢ ً – حركاتٌ انقلابيّةٌ ماديّةٌ بعد آدم ٥٨٣
٣ ً – الحركة الآريّة وطروحاتها ٥٨٤
٤ ً – الحركة الرومانيّة وطروحاتها ٥٨٣
٥ ً – الحركة الفارسية وطروحاتها ٥٨٣
٦ ً – الحركة البابليّة وطروحاتها ٥٨٥
٧ ً – الحضارة الغربيّة المعاصرة وطروحاتها ٥٨٥
٨ ً – سرّ نجاح هذه الانقلابات الكبرى ٥٨٦

الفصل الثاني – بعثة آدم والانقلاب العظيم الذي أحدثته ٥٨٨
١ ً – الفطرة البشرية واحدةٌ لم تتغير ٥٨٨
٢ ً – النقلة النوعيّة التي أحدثتها بعثة آدم عليه السلام ٥٩٠
٣ً – أوّلُ مُشاعةٍ تعاونيّة ٥٩٩

الفصل الثالث ما تولد عن المُشاعة من نتائج ٦٠٠
١ً- مُنافسةٌ بين الذّريّين ٦٠٠
٢ً- ظهور التّماثيل كظاهرة شركٍ جليّ ٦٠٠
٣ً- أدلّة قرآنيةٌ مؤيّدة ٦٠١
٤ً- دليلٌ مُستمدٌ من قول مؤرخ ٦٠٧
٥ً- بوادر ظهور الشّرك الخفّي ٦٠٨
٦ً- تلخيص معلومات ظهور الشّرك وتطوّره ٦١٢
الفصل الرابع أدرك الإنسان مكانته على أيدي إبراهيم عليه السّلام ٦١٤
الإنقلاب العظيم الذي أحدثته بعثه موسى عليه السّلام ٦٢٢
١ً- تعاليم موسى كانت قوميّةً شاملة ٦٢٤
٢ً- فصّلت بعثة موسى ماكان مُجملاً من تعاليم ٦٢٨
٣ً- ما استجدّ في مضمار الاتصال بالله تعالى ٦٣١
الإنقلاب الخامس الرّوحي الكبير الذي أحدثته بعثة المسيح الناصري ٦٣٤
١ً- زوال روح الطهارة ودماران حلاّ باليهود ٦٣٥
٢ً- دلالة وأيدّناه بروح القدس ٦٣٨
٣ً- دلالة " تخلق من الطّين كهيءة الطير" ٦٤١
٤ً- دلالة "تبرئ الأكمه والأبرص بإذني" ٦٤٢
٥ً- دلالة " تخرج الموتى بإذني" ٦٤٣
٦ً- دلالة " كففت بني اسرائيل عنك " ٦٤٣
٧ً- ضرورةٌ زمنيّة استدعت إحياء شريعة موسى ٦٤٤
الإنقلاب السادس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثة محمد (ص) ٦٤٩
١ً- القرآن العظيم كلام الله تعالى ٦٤٩
٢ً- التّشريع الكامل ٦٥١

	٣ً- العبادات هادفة	٦٥٥
	٤ً- معالم الشموليّة والعلميّة	٦٦٠
	٥ً- انقلابٌ عمليّ	٦٦٢
	٦ً- تلخيصٌ واستنتاجات	٦٦٣
الفصل الخامس	يُحدث الخالق في عصرنا انقلاباً روحياً سابعاً كبيراً	٦٦٧
	أولاً - الإجابة القرآنية موزّعه على حلقات	٦٦٨
	١ً- حلقة سورة هود	٦٦٨
	٢ً- حلقة سورة الكهف	٦٧٤
	٣ً- حلقة سورة الزخرف	٦٧٦
	٤ً- حلقة سورة الصّف	٦٧٩
	٥ً- حلقة سورة الجمعة	٦٩٠
	٦ً- حلقة سورة المنافقون والتّغابن والطّلاق	٦٩٨
	٧ً- حلقات أخرى أنبات وقرّرت مصير أعداء الإسلام	٧٠٠
	٨ً- حلقة سورة الواقعة خاصّة	٧٠٦
الفصل السادس	اتّصال الله بمخلوقه البشر ومنهاجه	٧١٣
	١ً- ممّ يتألف كيان الإنسان ؟	٧١٤
	٣ً- العقل: حقيقته كمحطة بثّ أضغاث أحلام	٧١٥
	٤ً- العقل يقع خارج دماغ الإنسان وليس داخله	٧١٦
	٥ً- العقل يخطئ في حالة يقظة الإنسان وفي حالة نومه	٧١٧
	٦ً- تأويل الرؤى يحتاج صاحبه إلى لياقات	٧١٨
	٧ً- منهج الكلام الرّبانيّ من وراء حجاب	٧٢١
	٨ً- من الخطأ الفاحش الزّعم بانقطاع الوحي الإلهي	٧٢٦
	٩ً- الفروق الجوهريّة مابين الرؤى الصّادقة ومابين	